

سلسلة الرسائل الجامعية - ١٠

١٤٥

الصلات الحضارية بين تونس والحجاز

دراسة في النواحي الثقافية والاقتصادية والاجتماعية

(١٢٥٦-١٣٢٦هـ/ ١٨٤٠-١٩٠٨م)



د. فوزة بنت مجحب بن عيد الحامد



دراسة في النواحي الثقافية والاقتصادية والاجتماعية
(١٢٥٦-١٣٢٦هـ/١٨٤٠-١٩٠٨م)

د. فوزة بنت محجب بن سعيد الحامد

١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م



فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الحامد، نورة معجب سعيد
الصلات الحضارية بين تونس والحجاز : دراسة في النواحي الثقافية والاقتصادية والاجتماعية: ١٢٥٦ - ١٣٢٦ هـ / ١٨٤٠ - ١٩٠٨م. / نورة معجب سعيد الحامد. - الرياض، ١٤٢٤ هـ
٤٤١ ص ؛ سم ١٧ × ٢٤ (سلسلة الرسائل الجامعية - ١٠)
ردمك : ٣-٥٨-٨٨٠-٩٩٦٠

١- السعودية - العلاقات الخارجية - تونس أ. العنوان
ديوي ٩٥٣٠٦١١ ، ٣٢٠   ٥٠ / ١٤٢٥

رقم الإيداع : ٥٠ / ١٤٢٥
ردمك : ٣-٥٨-٨٨٠-٩٩٦٠


الصلات الحضارية
بين تونس والحجاز

تقديم

الحمدلله رب العالمين والصلاة والسلام على خير المرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد :

فانطلاقاً من عناية دارة الملك عبدالعزيز واهتمامها بتاريخ الجزيرة العربية والعالم الإسلامي يأتي نشر هذا الكتاب الذي يتناول الصلات الحضارية بين تونس والحجاز في النواحي الثقافية والاقتصادية والاجتماعية في المدة الواقعة ما بين عامي ١٢٥٦-١٣٢٦هـ/ ١٨٤٠-١٩٠٨م .

وتأتي أهمية هذا الكتاب من تقصيه للصلات الحضارية في ميدان الثقافة والاقتصاد والنواحي الاجتماعية فيما بين تونس والحجاز خلال تلك المدة التي اقتصرت معظم الدراسات المتعلقة بها على الجوانب السياسية فقط دون التفات إلى المناحي الأخرى التي لا تقل أهمية عن الروابط السياسية.

ويعد الحج واحداً من أهم الصلات التي تربط بين الحجاز وأقطار العالم الإسلامي، وذلك يعود إلى أسباب كثيرة، أبرزها كونه رحلة روحانية دافعها العبادة والرغبة في أداء الركن الخامس من أركان الإسلام، وهذا ما تتوق إليه نفوس كثير من المسلمين في مشرق الأرض ومغربها، وتتمنى حصوله وتسعى من أجل تحقيقه . فإذا تحقق كان رحلة العمر التي لا تنسى، والملاذ الخصب المعطر للذاكرة الجياشة، وعطاء النفس من أجل إرضاء خالقها.

ولكون الحج مؤتمراً إسلامياً واسعاً فإن العلماء الذين يقصدون الحج يحرصون خلاله على الالتقاء بأقرانهم ومن يجدون في مجالستهم زاداً من علم أو تقوى أو خلق كريم، رغبة منهم في تتويج هذا البذل السخي بالمال والنفس بتجارب عميقة، ومعلومات ثمينة. وكانت هذه الظاهرة

العلمية والثقافية عامة غير محصورة في فئة معينة، بل كانت تعم معظم بلدان العالم الإسلامي، ومن ضمنهم الحجاج القادمون من تونس.

لقد أثبت هذا الكتاب وجود الروابط بين تونس والحجاز في مجالات الاقتصاد والثقافة والحياة الاجتماعية، والسبب في هذا يعود إلى انتمائهما إلى حضارة واحدة ودين واحد ولغة واحدة.

وإن دارة الملك عبد العزيز - وهي تطرح هذا الكتاب - لتأمل أن يضيف جديداً في بابه وموضوعه، والله نسأل أن ينفع به.

دارة الملك عبدالعزيز

المقدمة *

الحمدُ لله والصلاة والسلام على رسول الله محمد وعلى آله وصحبه، وبعد :

فقد كانت الولايات العربية في القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي تعيش في ظل دولة إسلامية هي دولة الخلافة العثمانية، وقد مرت تونس والحجاز الولايتان العربيتان بظروف سياسية متقلبة انعكست على أوضاعهما الثقافية والاقتصادية والاجتماعية. وقد تكون أهم معالم تلك الظروف حالة الضعف التي خيَّمت على الدولة العُثمانية في تلك الفترة، والتي جعلت من ولاياتها العربية على وجه الخصوص مَطمعاً لتغلْغُل الدول الأوربية . ولم تنجُ ولايتا تونس والحجاز من هذا التَّغلغلِ وَإن اختلفت درجته؛ فحين انتهت تطلعات فرنسا إلى تونس بالاحتلال لم يؤدِ تطَلع بريطانيا إلى موقع الحجاز الإستراتيجي وأهميته الاقتصادية النتيجة ذاتها، فقد حمت الحجازَ مكانتُه الدينيّة من الوقوع تحت النفوذ الأجنبي.

وقد أخذت البلاد التونسية في القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي تتعرض إلى محاولات ذاتية من جانب الدول الأوربية لتحجيم نشاطها الاقتصادي، وسهَّل من هذه المحاولات وصول عدد من الولاة الضعاف الذين عملوا على تحقيق مطالب الدول الأوربية إلى سُدّة الحكم، إلا أن نجاح السياسة الأوربية في كسر الاقتصاد التونسي المزدهر عند منتصف القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي كان له من جهة أخرى تأثيرٌ سلبي واضح في تماسك البلاد السياسي، ومكانتها السياسية على الصعيدين الداخلي والخارجي التي ظلت تشغلها حتى السنوات الأخيرة من القرن .

---

* أصل هذا الكتاب رسالة جامعية قدمت لنيل درجة الدكتوراه إلى قسم التاريخ كلية الآداب – جامعة الملك سعود .

وفي قلب الجزيرة العربية انطلقت دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب السلفية الإصلاحية منذ أواخر القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي في قلب الجزيرة العربية داعية إلى العودة إلى الإسلام الصحيح على أساس من الكتاب والسنة، واتباع هدي السلف الصالح، ونبذ البدع والخرافات . واستجابت لهذه الدعوة أنحاء الجزيرة كافة بما فيها الحجاز، وتردد صدى هذه الدعوة في جنبات العالم الإسلامي. وأثار مخاوف الدولة العثمانية خروج منطقة الحرمين الشريفين عن نفوذها، وهي المنطقة التي حرص القائمون على حكم الدولة العثمانية منذ أن وطئت أقدامهم الولايات العربية على الاحتفاظ بها كي تُكسبَهم شرعية الحكم في العالم الإسلامي .

ولا شك أن هذا هو الذي دفع الدولة العثمانية إلى الوقوف من الدعوة موقف المعارضة، وتمكنت عن طريق والي مصر محمد علي باشا (١٢٢٠ - ١٢٥٦هـ / ١٨٠٥- ١٨٤٠م) من القضاء على الدولة السعودية الأولى، وإعادة الأراضي الحجازية إلى السيطرة العثمانية، على الرغم من أنه أبقاها تحت حكمه المباشر . وظل الحجاز كذلك حتى تمكنت الدولة العثمانية بمناصرة الدول الأوربية وعلى رأسها بريطانيا من إخراج محمد علي سلميًّا من الحجاز، وعودته لنفوذ الدولة العثمانية المباشر عام ١٢٥٦هـ/ ١٨٤٠م .

وقد تأثر القائمون على الحكم في تونس بموقف الدولة العثمانية وعملوا على الوقوف أمام انتشار الدعوة السلفيّة الإصلاحية في البلاد، وهم على الرغم من تمتعهم باستقلالية واضحة إلا أنه كان يهمهم أن تبقى تونس اسميًّا تحت كنف الدولة العثمانية أي في ظل دولة الخلافة الإسلامية، ليكتسبوا بذلك هيبة الدول الأوربية. ولم يكن هذا الموقف يعبر عن رأي أهالي تونس الذين ناصر بعضهم الدعوة، وتأثروا بها.

ويعود اختياري عام ١٢٥٦هـ/ ١٨٤٠م ليكون بداية لهذه الدراسة لكون تونس والحجاز قد شهدتا تغيرات لها دلالتها : ففي تونس ازدهرت حركة

الإصلاح التي بدأها المشير أحمد باشا باي منذ توليه حكم تونس (١٢٥٣-١٢٧١هـ/ ١٨٣٧- ١٨٥٥م) بهدف مسايرة النظم الغربية، ومواجهة ضغوط الدول الأوربية . وفي الحجاز كان ذلك العام بداية لتشديد قبضة الحكم العثماني عليه خوفاً من تكرار ما سبق حدوثه . وأثرت تلك التغيرات التي حدثت في تونس والحجاز في أوضاع البلدين الداخلية، وكان لها من ثم تأثيرات في الصِّلات الحضارية بينهما .

أما اختياري عام ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م ليكون نهاية لفترة هذه الدراسة فمرجعه أهمية التغيّر الذي لحق بنظام الحكم في الدولة العثمانية في ذلك العام . فقد ازداد ضعف الدولة على الرغم من سعي الحكام الجدد لإنقاذها، وزادت من ثم فرص الدول الأوربية لاقتطاع المزيد من ممتلكات الدولة العثمانية ومنها الأراضي العربية، وكان لهذا التطور أثره السلبي في البلاد التونسية، فقد تراجع تطلع أهلها إلى الدولة العثمانية بحثًا عن مساندتها تُجاه الوجود الفرنسي .

وفي الحجاز سعى النظام الجديد في الدولة العثمانية إلى تثبيت سيطرته عليه أسوة بما كان يفعله في كل الولايات العربية التي ظلت في قبضة الدولة العثمانية، تزامن هذا مع محاولة استبدال الطابع العربي بالطابع التركي، ودفع هذا أهل الحجاز مثل بقية العرب إلى المطالبة بمزيد من الحقوق، والاعتراف بمكانتهم في إطار الدولة العثمانية.

ولا تهدف هذه الدراسة إلى تتبع صلات تونس بالحجاز من الناحية السياسية، ذلك أن ارتباط الولايتين على الأقل من الناحية الرسمية بمركز الحكم العثماني في إستانبول في المراسلات وتبادل الوفود والزيارات قد ضيّق سبل الاتصالات السياسية المباشرة بينهما وحدّد مداها . ولم تتجاوز الصلات السياسية بعض المراسلات التي تُبعث في المناسبات الرسمية كالأعياد، أو اعتلاء الحكم، وتعبر عن مشاعر الود، ولم تكن لترقى إلى

مستوى الصّلات السياسية التي تعبر عن توجهات معينة .

إن سعي هذه الدراسة الأساسي هو تقصي الصلات ما بين تونس والحجاز في الجوانب الحضارية، والثقافية، والاقتصادية، والاجتماعية خلال الفترة الممتدة من أواسط القرن الثالث عشر الهجري، حتى مطلع القرن الرابع عشر الهجري، أي بين أواسط القرن التاسع عشر الميلادي، ومطلع القرن العشرين الميلادي. وهي فترة لها سمات سياسية معينة في كل من تونس والحجاز، وكان لها تأثيرها في الجوانب الحضارية لكل منهما، وتركت هذه الجوانب بصماتها الواضحة على صعيد الصلات التي ربطت تونس بالحجاز، والتي هي محور اهتمام هذه الدراسة .

وكان الدافع الرئيس للبحث في هذا الموضوع هو رغبة ذاتية في استكمال ما بدأته في مرحلة «الماجستير» للتعرف على جوانب من تاريخ تونس الحديث، وذلك بتتبع صلة هذا القطر العربي المغربي بالمشرق العربي عامة، وبالأراضي الحجازية على وجه الخصوص، فمنطقة الحرمين الشريفين هي منطقة جذب للمسلمين عامة تهوي إليها أفئدتهم للحج، والعمرة، وزيارة المسجد النبوي والصلاة فيه، وأبناء تونس المسلمون كبقية أبناء العالم العربي الإسلامي يُكنّون في نفوسهم تقديراً عظيماً وسامياً للحرمين الشريفين، ويحرصون على تنمية هذا الشعور من وجوه عدّة. وكان تعقب تلك الوجوه هو السبيل للتعرف على توجه أبناء تونس، وتطلعهم إلى الأراضي المقدسة، وتغذية صلاتهم معها، وهي صلات لم تنفصم بوقوع تونس في شَرَكِ التسلط الاستعماري .

ويجدر التنويه إلى أن الباحثين الذين عكفوا على دراسة التاريخ الحديث لكلا البلدين قد استغرقتهم النواحي السياسية إلى حد كبير، وجاءت الإشارات إلى النواحي الحضارية متناثرة في الوثائق والمخطوطات وكتب الرحلات والتراجم، إضافة إلى بعض الكتب التاريخية، والرسائل العلمية،

والصحف وغيرها؛ ولذا كانت الصعوبة في تحري هذه المعلومات المبعثرة وجمعها في سياق علمي منسجم يلقي الضوء على موضوع فيه القدر الكبير من الجدّة .

ونظرًا لأن محور الدراسة يتركز على الصِّلات الحضارية التي كانت تربط تونس بالحجاز الذي يشكل نقطة الجذب للعالم الإسلامي كله ، كان لا بد من تقصي أماكن توافر المعلومات المتعلقة بتونس خلال الفترة التي هي موضوع الدراسة، وقد وجدت معظم الوثائق في دار الأرشيف الوطني التونسي، وهذه الدار هي خزينة الوثائق التونسية التي عمل الوزير خير الدين باشا (١٢٩١-١٢٩٦هـ/ ١٨٧٣-١٨٧٩م) على إنشائها في إطار الإصلاحات التي اختطها في البلاد التونسية، ولكن العمل في تلك الوثائق لم يكن هينًا، فهي تفتقر في ترتيبها إلى التنسيق والاطراد، فبعضها مرتب حسب الموضوعات، وبعضها الآخر مرتب وفقاً لعهود بايات تونس، أو وفقاً لأسماء رجال أو قضايا معينة، كما أن بعض الوثائق في هذه الدار لم تفهرس تمامًا، ولذلك حجبت عن القراء من رواد الدار إلى حين الانتهاء من فهرستها (١) .

وقد وُفقت - بحمد الله - بعد عمل طويل في هذه الوثائق إلى الحصول على قدر لا بأس به من المعلومات الأولية الأصلية المهمة، وهي بلغات مختلفة: العربية، والتركية، والفرنسية.

وكانت اللغة العربية هي لغة الشؤون الداخلية للبلاد التونسية، أما اللغة التركية فكانت لغة المراسلات مع الدولة العثمانية . بينما أصبحت اللغة الفرنسية في عهد الحماية ضرورية لكتابة التقارير ولترجمة الخطابات التي تصل إلى الإدارات الحكومية باللغة العربية. وكان العمل في الوثائق العربية

(١) وقد تمكنت من الاستفادة من بعضها ، وقد كان للدكتور المنصف الفخفاخ مدير دار الأرشيف الفضل في إرشادي إلى ما يهم موضوع البحث من الوثائق غير المفهرسة، والاستفادة منها .

شاقاً لأنها مكتوبة بخط مغربي من الصعب قراءته (خاصة لمن أَلِفَ الخط المشرقي) بسبب تلاصق كلماته، وتغير مواضع التنقيط فيه .

وقد احتوت دار الأرشيف الوطني التونسي إضافة إلى الوثائق وفي موضع قريب من الدار على «الدفاتر الجبائية»، وهي دفاتر كتبت بخط مغربي، تشمل كلَّ ما له صلة بالنواحي المالية في البلاد، وقد حصلت من هذه الدفاتر على معلومات إضافية تتعلق بالأوقاف والصرة .

ويمكن عَدُّ وثائق دار الأرشيف الوطني التونسي أهمَّ مصادر هذه الدراسة خاصة في الفصلين الثالث والرابع، فقد كشفت عن قيام تونس بإرسال صُرَّة تونسية إلى الحرمين الشريفين في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي، وبينت مقدارها، وطريقة توزيعها، كما أظهرت وجود أملاك تونسية موقوفة على الحرمين الشريفين، هذا إضافة إلى ما احتوته من مراسلات متعلقة بالأوقاف والصرة، وتقارير مهمة عن سفر الحجاج وعودتهم، هذا إضافة إلى معلومات انفردت تلك الوثائق بذكرها .

ويتوافر في تونس إلى جانب دار الأرشيف الوطني مستودع آخر للوثائق التونسية كان له صلة كبيرة بموضوع الدراسة، وهو خزينة أملاك الدولة، وهي تابعة لوزارة أملاك الدولة والشؤون العقارية في تونس[1]، وهي تضم عدداً كبيراً من الوثائق، معظمها رسوم عقارية وضعت في ملفات كثيرة تفتقر إلى الترتيب الزمني، والفهرسة، وإلى الشروط المناسبة للاطلاع عليها؛ نظراً لعدم إعدادها أصلاً للبحث.

وقد أمكنني بعد جهد الحصول على بعض المعلومات الخاصة بأوقاف الحرمين الشريفين في تونس .

---

(١) تطلب الاطلاع على محتوياتها الحصول على أمر وزاري ، وقد تمكنت من ذلك بمساعدة المسؤولين في السفارة السعودية في تونس .

أما بالنسبة للوثائق الفرنسية المتعلقة بتونس في فترة الحماية فقد أنشأ المسؤولون التونسيون في المعهد الأعلى قسمًا لتاريخ الحركة الوطنية لحفظ صور عن تلك الوثائقَ على أشرطة «ميكروفيلم» مستنسخة من أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية في باريس . وتشتمل هذه الوثائق على مراسلات سياسية، وتقارير عدة مكتوبة باللغة الفرنسية، وأفدت منها في كثير من جوانب الدراسة .

ويتوافر في معهد التوثيق القومي في تونس مجموعة من الصحف العربية، تتعلق بالفترة التي هي موضوع الدراسة، وهي مصورة على أشرطة «ميكروفيلم». وهيأ لي القائمون على هذا المعهد فرصة الاستفادة من بعض أعداد الصحف التي صدرت في فترة الدراسة وأهمها : «الرائد التونسي»، و«الحاضرة»، و«الزهرة» .

ولا بد من الإقرار بالصعوبة التي واجهتني من أجل الحصول على الوثائق المتعلقة بالحجاز خلال تلك الفترة، فقد تعذر الاطلاع على وثائق الوقف الخاصة بفترة الدراسة في «وزارة الحج والأوقاف»، كما أن الوثائق التي تختص بمنطقة المغرب العربي والموجودة في «مكتبة الملك فهد الوطنية» بالرياض لم تُفهرس بعد، ولا يمكن للباحثين الاطلاع عليها[١]. ولم أتمكن من الحصول من بعض نظار الأوقاف التونسية في مكة والمدينة على أية معلومات، أو وثائق تفيد موضوع البحث .

كما أن جامعة «أم القرى» لم تضع بَعْدُ عددًا من الوثائق العثمانية المختصة بفترة الدراسة المتوافرة لديها في خدمة الباحثين بسبب حاجتها إلى الفهرسة، إلا أنني تمكنت بفضل جهود القائمين على "دارة الملك عبدالعزيز بالرياض" من الحصول على بعض الوثائق المتعلقة بصلات تونس بالدولة العثمانية، كما

---

(١) حاولت الاستعانة بالدكتور يحيى الساعاتي مدير مكتبة الملك فهد الوطنية سابقًا، وقد بذل جهدًا مشكورًا في مساعدتي. وقد تبين له أن الوثائق المتعلقة بالمغرب العربي لا تفيد موضوع البحث .

أسـهم الدكتـور «عبـداللطيف الحـميـد» مشكوراً بـتزويدي ببـعض الوثائق الإنجليزية المتعلقة بالحجاز من مكتبـة الوثائق العامة «بلندن» . وقد استفدت منها فيما يتعلق بأوضاع الحجاز الاقتصادية والأمنية في نهاية فترة الدراسة .

وكان من جملة مصادر الدراسـة عددٌ من المخطوطات التي اطلعت عليها في المكتـبة الوطنـية في تونس، كـمـا اطلعت على محـتـويات مكتبـة «آل النيفر»[١] في تونس.

أما في المملكة العربية السعودية فـقد يسر لي المسؤولون عن مكتبة «الحرم المكي الشريف» الاطلاع على بعض المخطوطات منها مخطوطة بعنوان «إفادة الأنام بأخـبـار بـلد الله الحـرام » لمؤلفـهـا «عـبـدالله غـازي» (ت ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٥م)، وهو هندي الأصل مكي المولـد، ومن أفاضل العلمـاء في مكة، وله عنايه بالتـراجم والتـاريخ، وتقع المخطوطة في أربعة أجـزاء، واحتوت عـلى معلومات مهـمة لموضوع الدراسة خـصوصاً أن مؤلفـها كان معاصراً للأحداث.

و اطلعت في مكتبـة الحرم المكي أيضـًا على بعض مـؤلفات «عبدالسـتار الدهلوي» (ت ١٣٥٥هـ / ١٩٣٦م) الـذي عُـرف بغـزارة العلـم، وسـعـة الاطلاع، ومن أبرز مـؤلفاته المخـطوطة التي استـفـدت منها «فـيض الملك المتعالي بأنباء أوائل القرن الثـالث عشر والتوالي»، وهو في ثلاثة أجزاء أورد فيها المؤلف تراجم عدد من الشخـصيات. وحوى مؤلف الدهلوي المخطوط الثاني وعنوانه: «نثر المآثر فيمن أدركت من الأكابر» تراجم عدد من العلماء الذين التقاهم المؤلف، وحصل منهم على إجازات علمية.

---

(١) أقيـمت هذه المكتبة بدافع خـيري من عائلة " آل النيـفر" بإشراف ورعـاية الشيخ "محـمد الشاذلي النيـفر" عميد الكليـة الزيتونية سابقـًا ، وكـان قد توارث محتوياتـها أبـًا عن جد . وتفتح أبوابها للباحثين في أوقات محددة إسهامـًا منها في خدمة العلم وطلابه . وتوجد هذه المكتبة ملاصقة لدار الشيخ محمد الشاذلي النيفر في تونس العاصمة .

أما مؤلفه المخطوط الثالث « نزهة الأنظار والفكَر فيما مضى من الحوادث والعبر» ففيه معلومات مرتبة في جداول وفقاً للتسلسل الزمني. وتضمن هذا المؤلَّف المخطوط بعض المعلومات المهمة التي أفادت موضوع الدراسة. ولا بد هنا من الإشارة إلى أن قراءة مؤلفات «عبدالستار الدهلوي» المخطوطة صعبة، نظراً لأن بعض جملها مطموس، ولأنها تحتوي على هوامش جانبية غير واضحة .

وقد تمكنت من الحصول على مخطوطتين عثمانيتين من مكتبة جامعة «إستانبول»: الأولى عنوانها « حجازك أحوال عمومية صحية وإصلاحات أساسية حاضرة سيله برابر بعض مشاهدات وملاحظات بندكانيء حاوي برلائه طبي»، أي: «تقرير عن الأوضاع الصحية العامة في الحجاز ووسائل إصلاحها مع بعض مشاهدات عبدكم وملحوظاته»، وقد وضع هذه المخطوطة الدكتور «شاكر» في عام ١٣٠٨هـ/ ١٨٩٠م، وهو طبيب عسكري كان يعمل في مستشفى حيدر باشا في «إستانبول»، وسجل في مخطوطته مشاهداته عن بعض المدن الحجازية وبخاصة جدة، وعن الأوضاع الصحية في الحجاز في الفترة التي عاشها، كما أورد انطباعاته عن الحجاج المغاربة، وعنوان المخطوطة الثانية « جزيرة العربية دائر معلومات »، أي: «معلومات عن الجزيرة العربية»، وقد ألفها محمد كامل بن نعمان المعروف بـ «ابن الدوامي » في عام ١٣١٢هـ/ ١٨٩٤م وقدمها للسلطان العثماني «عبدالحميد الثاني» . وتضمنت المخطوطة معلومات عن جغرافية الجزيرة العربية، والطرق الرئيسة فيها، إضافة إلى عرض الأحوال التجارية في الحجاز . وأفادتني هذه المخطوطة في معرفة بعض العملات التي كانت متداولة في الحجاز في فترة موضوع الدراسة[1].

---

(١) يؤخذ على المخطوطَين عدم وضوح الخط بحيث تعذر التعرف على بعض كلماتهما وقد تفضل علاّمة الجزيرة العربية حمد الجاسر- رحمه الله - بتزويدي مشكوراً بنسخة من ذلك المخطوط .

وقدمت بعض كتب الرحلات مادة غنية لموضوع الدراسة، وبعض هذه الكتب مخطوط وبعضها الآخر مطبوع. ومن كتب الرحلات المخطوطة رحلة للشيخ «محمد الجودي القيرواني» كتبها بخط يده بالخط المغربي وليس لها عنوان، ويبدو أنها كانت مسودة كتبها لنفسه، لا ليطلع عليها غيره، ولذا تضمنت عدداً من الإضافات الهامشية مع صعوبة في قراءة كثير من كلماتها. وقد أفدت مما ورد في المخطوطة من معلومات على الرغم من أنها دونت في عام ١٣٣١هـ/ ١٩١٣م نظراً لقرب هذا التاريخ من نهاية فترة الدراسة، وتكمن أهمية المعلومات التي وردت في هذه المخطوطة في أنها توضح بصفة عامة الحالة الفكرية التي كانت سائدة في العالم الإسلامي في فترة مؤلف الرحلة، وهي حالة اتسمت بالجمود الفكري، وانتشار بعض المعتقدات التي ليست من الدين في شيء، هذا بالإضافة إلى أن مؤلف هذه الرحلة أورد أسماء عدد من العلماء التونسيين الذين زاروا الحجاز، أو جاوروا فيه . وقد سجل المؤلف انطباعاته الشخصية عن رحلته إلى الحجاز.

وكان من كتب الرحلات المطبوعة رحلة الشيخ «محمد بيرم الخامس» إلى الحجاز التي أوردها ضمن كتابه «صفوة الاعتبار بمستودع الأقطار والأمصار » المطبوع عام ١٣٠٣هـ/ ١٨٨٥م. ويقع الكتاب في خمسة أجزاء تضمنت معلومات قيمة عن مناطق كثيرة من العام الإسلامي قام «محمد بيرم» الخامس بزيارتها . وخص الحجاز بقسم من الجزء الرابع من كتابه، كما أن الجزء الخامس ضم قسماً آخر عن الحجاز، أورد المؤلف فيه نبذة عن تاريخ الحجاز قديماً وحديثاً حتى عصره، وسجل محمد بيرم انطباعاته عن الرحلة خلال تأديته فريضة الحج في عام ١٢٩٦هـ/ ١٨٧٩م، وكثيراً ما كان يقارن بين أحوال الحجاز وأحوال بلدان إسلامية أخرى .

وتعد الرحلة الحجازية للشيخ «محمد بن عثمان السنوسي» من كتب الرحلات المطبوعة، وكان الشيخ قد قام عام ١٣٩٩هـ/ ١٨٨٢م برحلة إلى عدد من البلدان الإسلامية كان منها الحجاز، ودوّن في الجزء الثاني من كتابه انطباعاته عن رحلته إلى الحجاز . وحوى الجزء الثالث تراجم لبعض العلماء الذين التقاهم المؤلف خلال رحلته . وكانت التفاصيل التي وردت عن الحجاز في الجزأين الثاني والثالث من الرحلة ذات فائدة كبرى للدراسة؛ لأنها أبرزت صلات تونس بالحجاز خصوصاً من الناحية العلمية، كما أنها أوردت انطباعات المؤلف الشخصية ومشاهداته في الحجاز خلال رحلته.

وقد قَدّمت كل من رحلة «محمد لبيب البتنوني » الرحلة الحجازية التي قام بها عام ١٣٢٩هـ/ ١٩١١م ورحلة أمير الحج «إبراهيم رفعت» مرآة الحرمين التي نشرها عام ١٣٢٥هـ/ ١٩٠٧م إضافات غنية عن أوضاع الحجاز خلال فترة تسجيل المؤلفين لرحلتيهما .

وقد استعنت ببعض المصادر المطبوعة الخاصة بتاريخ البلدين للحصول على معلومات أفادت الدراسة، وكان من أبرز المصادر التي تناولت تاريخ تونس كتاب «إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان » في ثمانية أجزاء لأحمد بن أبي الضياف (ت ١٢٩١هـ/ ١٨٧٤م)، والمؤلف من الرجال البارزين في عصره، وتولى الكثير من المناصب المهمة في الدولة، ومعظم معلوماته مستقاة من أقوال بعض المسؤولين الذين عاصروا الأحداث، والتي يمكن عدّها معلومات وثائقية.

وقد سجل المؤلف تاريخ تونس وفقًا لتسلسل الأحداث الزمني بدءًا من الفتح الإسلامي حتى الثلث الأخير من القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي مع تركيز كبير على العهد الحسيني خاصة الفترة التي عاش فيها المؤلف، واحتوى الجزءان الأخيران من الكتاب على تراجم مشاهير الرجال التونسيين . ولم يكن ابن أبي الضياف في كتابه مسجلاً للأحداث

فقط، بل كان ناقدًا مبدعًا فقد انتقد مثلاً سياسة المشير محمد الصادق باي مع أنه كان معاصرًا له، ولم ير الكتاب النور إلا عام١٣٧١هـ/ ١٩٥١م.

كما رجعت إلى كتاب أحمد زيني دحلان (ت ١٣٠٤هـ/ ١٨٨٦م)، وعنوانه «خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام ».

وأفادتني إلى حد كبير كتب التراجم والطبقات، ومن أبرزها « شجرة النور الزكية في طبقات المالكية » (القاهرة، ن : ١٩٢٩م) لمؤلفه أحمد بن مخلوف (ت ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٥م)، ويشتمل الكتاب على تراجم رجال الطبقات الذين عاشوا في البلاد التونسية منذ الفتح الإسلامي حتى عهد المؤلف، وأمدني الكتاب بالمعلومات المتعلقة بتراجم بعض علماء تونس من المالكية.

وقد حوى كتاب « دروس من ماضي التعليم وحاضره » (القاهرة، ن : ١٣٧٩هـ) لمؤلفه «عمر عبدالجبار» تراجم عدد من العلماء في الحجاز الذين تتلمذ على أيديهم الكثير من طلبة العلم في الحجاز منذ نهاية القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي، حتى منتصف القرن الرابع عشر الهجري / العشرين الميلادي .

وقد أثرى هذه الدراسة عددٌ من المصادر الأجنبية كان لها أهميتها من حيث التعرفُ على وجهة نظر الآخرين، خصوصاً إذا كانت قد صدرت من مؤرخين أو رحالة أجانب تعرفوا على المنطقة عن قرب، وعاشوا خلال فترة موضوع الدراسة.

وقد قدم المؤلف كريستيان سنوك هورخرونيه (ت ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م) (Snouck-Hurgronje.C) في كتابه (Mekka) المكون من جزأين، الذي عُرّب تحت عنوان «صفحات من تاريخ مكة المكرمة في القرن الثالث عشر الهجري » عن النسخة الإنجليزية المترجمة من الأصل الألماني (ن :

١٤١١هـ/ ١٩٩١م) قدّم معلومات مهمة عن الحياة العلمية في مكة المكرمة خلال دراسته عن تاريخ مكة التي قام برحلة إليها عام (١٣٠٣هـ/ ١٨٨٥م)، وأضافت رحلة جون كين « John Keane » التي سجلها في كتابه (Six Months in the Hijaz)، أي: ستة أشهر في الحجاز (لندن، ن: ١٣٠٥هـ/ ١٨٨٧م) معلومات قيمة عن التجارة في الحجاز.

وأمكن لي الاطلاع على عدد من الرسائل العلمية التي لها علاقة بموضوع البحث، واستفدت من نتائج الجهد العلمي الذي بذله أصحابها. وكان من تلك الرسائل رسالة أندرياس تونجار زانتي Tunger Zanetti Andreas بعنوان Le Communication en le Tunis et Lstanbul 1860-1913,Province et Metropole. الاتصال بين تونس وإستانبول، الإقليم والمركز، وهي أطروحة قدمت باللغة الفرنسية إلى جامعة السوربون في باريس للحصول على درجة الدكتوراه، طبعت في باريس في أواخر عام ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م. وقد أفدت من الرسالة في المعلومات المتعلقة بأحوال بعض العلماء في ظل الحماية الفرنسية على تونس.

وقد تناول الدكتور صالح بن محمد العمرو في رسالته "للدكتوراه" المقدمة إلى جامعة ليدز في بريطانيا بعنوان: The Higaz Under Ottoma n Rule 1869-1914). أي « الحجاز تحت الحكم العثماني ١٨٦٩ - ١٩١٤م » (المنشورة في الرياض ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م)، تاريخ الحجاز خلال فترة قريبة من فترة هذه الدراسة، وقد أمدتني هذه الدراسة بمعلومات عن الحجاز في تلك الفترة من النواحي السياسية والاقتصادية، والاجتماعية.

وأضيف إلى ما تقدم ذكره أن الدراسة اعتمدت على عدد لا بأس به من المراجع العامة والخاصة باللغات العربية والأجنبية، أثرت معلوماتها مادة الدراسة العلمية.

لقد كان هدف هذه الدراسة بما توافر لها من معلومات تقديم صورة

متكاملة للجوانب الحضارية في الصلات التي كانت تربط تونس بالحجاز خلال فترة بدأت منذ أواسط القرن الماضي، وامتدت إلى مطلع هذا القرن، ولا شك أن في هذه الدراسة الأولية ثغرات عدة لم يتيسر ملؤها لعدم توافر الوثائق، أو لتعذر الاطلاع عليها بسبب عدم إتاحتها للباحثين بعد، وربما جرى إغفال قدر من المعلومات في الوثائق التي أمكن الاطلاع عليها . وقد يتاح لباحثين آخرين في المستقبل الفرصة لاستدراك ما لم تتمكن هذه الدراسة من تأديته ولكي تفتح بابًا لدراسة أعمق وأشمل.

وقد عمدت إلى تقسيم هذه الدراسة إلى مقدمة تتناول لمحة تاريخية عن تونس والحجاز، وأربعة فصول .

استعرض الفصل الأول الأوضاع العامة في تونس والحجاز منذ دخولهما تحت تبعية الدولة العثمانية حتى تغير نظام الحكم عام ١٣٢٦هـ/ ١٨٤٠م، وذلك بهدف توضيح صلات تونس بالحجاز من جميع الجوانب .

وتناول الفصل الثاني صلات تونس بالحجاز من الناحية الثقافية، ويبدأ الفصل بلمحة عن الأجواء الثقافية في كلا البلدين، ثم ينتقل إلى مسألة التبادل الثقافي بينهما، ويتعرض بعد ذلك إلى الصورة التي انطبعت في ذاكرة بعض العلماء التونسيين الذين زاروا الحجاز في الفترة التي هي موضوع الدراسة . وينتهي الفصل بذكر دور الحج في تدعيم الروابط الثقافية بين تونس والحجاز .

ويختص الفصل الثالث بموضوع الصِّلات الاقتصادية بين تونس والحجاز، ويرد في هذا الفصل لمحة عامة عن الأوضاع الاقتصادية في تونس والحجاز، بغرض إيضاح عملية التبادل الاقتصادي بينهما، ويتطرق الفصل بعد ذلك إلى معرفة دور الحج وطرقه في عملية التبادل التجاري، وما يصاحبها من تبادل العملات المتداولة في البلدين، ثم يتعرض الفصل بالتفصيل إلى موضوع الأوقاف التونسية في الحجاز نظرًا لما لها من دور في

تعـزيز صلات تونس الاقـتصاديـة بالحجاز، إضـافة إلى دلالتـها الدينـية، ويتناول الفصل بعـد ذلك الصرة التي كانت ترسل من تونس إلى الحـجاز، وأدت دوراً مهماً في دعم الصلات الاقتصادية بين البلدين .

ويحمل الفصل الرابع عنوان «الجوانب الاجتماعية في الصلات بين تونس والحجاز»، ويرد فيـه ذكر السمات الاجتماعـية في كل من تونس والحجاز، كما يتحـدث الفصل عن جماعة الحرمين الشـريفين في تونس، وينتقل بعد ذلك لدراسة أحوال المجاورين التونسيين في الحجاز، كما يعرض للمصاعب التي كان يواجهها الحجاج التونسيون في الحجاز .

وينتهي الكتاب بخـاتمة فيها أهم النتائج التي أمكن رصـدها، في محاولة لعرض تقييم يتسم بأكبر قدر من الموضوعية العلمية .

ويسـرني هنا أن أتقـدم بخـالص شكري، وعظيم امـتناني لمن كـان لهم الفضل الأكبر بعد الله في إنجاز هذا الكتاب.

وفي الختام أرجو أن أكون قـد وُفقت في دراستي هذه، ويحدوني الأمل في أن تسد هذه الدراسة فراغـًا في المكتبة العربية، وتكون لبنة في بناءٍ أكبر يدعم مجال البحث العلمي .

والله الموفق ، ،

د. نورة بنت معجب الحامد

الرموز المستخدمة في الكتاب

أ- باللغة العربية:

ت = تُوُفِّي   س = السنـة   ط = طبع   ع = العـدد   ق = ورقـة

م = ملف   ك = كرتون

أ. و. ت = الأرشيف الوطني التونسي .

خ. أ. د = خزينة أملاك الدولة.

د. ت. ن = بدون تاريخ النشر.

د. م. ن = بدون رقم الطبعة .

(كذا) = بمعنى هكذا وردت في اللفظة في الأصل ، وبقـيت بدون تعديل لما تدل عليه من معان بصورتها تلك .

س . ت = السلسلة التاريخية .

ب - باللغات الأجنبية :

P = صفحة   F = ورقة   Dos = ملف   Car = كرتون

A.Q.D = وثائق أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية

A.N.T = الأرشيف الوطني التونسي

P.R.O = خزينة الوثائق البريطانية (مكتب الوثائق العامة)

التمهيد

- لمحة جغرافية، وخلفية تاريخية عن تونس والحجاز

أولاً : تونس

ثانياً : الحجاز



أولاً - تونس :

يرجع اسم تونس في الأغلب إلى مدينة تينس «Tynes» [1] التي شُيِّدت في عهد الفينيقيين[2] بالقرب من عاصمتهم «قرطاج» [3].

وتقع ولاية تونس على وسط الشاطئ الشمالي لأفريقيا، المطل على البحر الأبيض المتوسط، ويحدها البحر المتوسط من جهة الشمال والشمال الشرقي . أما من جهة الشرق والجنوب الشرقي فتحدها طرابلس الغرب، وفي الجنوب تحدها الصحراء الكبرى، ومن الغرب الجزائر[4]. وهي بهذا

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية، نقلها إلى العربية محمد ثابت أفندي، وآخرون، (مطبوعات جيهان، طهران بدون تاريخ النشر) ٦/ ٣٢ .

على أنه قد ورد تعريفها في الموسوعة العربية العالمية (مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م ، ٧/ ٣٢٤). " عرفت تونس قديمًا باسم ترشيش فلما أحدث فيها المسلمون البنيان والبساتين سميت تونس من تؤنس؛ وذلك لأنها تجلب الأنس والمؤانسة " .

يوردها شارل أندري جوليان ، "تاريخ أفريقيا الشمالية" ، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة، (الدار التونسية للنشر، تونس، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م) ، ص ٣٣، باسم توناس «Tunes».

(٢) هم شعب سامي الأصل واللغة، خرج من الجزيرة العربية عند ساحل البحر الأحمر، واستقر على سواحل بلاد الشام . كان الفينيقيون يطلقون على أنفسهم اسم « الكنعانيين »، وسماهم اليونان باسم «الفينقيين » نسبة إلى بلادهم فينيقية المأخوذة من لفظة فونيك التي تعني الأرجوان الأحمر، وهي على سواحل بلاد الشام، وكان من أشهر مدنهم صيدا، وصور، وبيروت .

حسن حسني عبد الوهاب، «خلاصة تاريخ تونس»، (الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٦٢م) : ١٦ . وأيضًا: الموسوعة العربية العالمية، مرجع سابق ، ١٧ / ٧٠٤.

(٣) ومعناها القرية الجديدة وتقع في الجزء الشمالي الشرقي من مدينة تونس (العاصمة) .

عمر الركباني، « خلاصة التاريخ التونسي في مدة ٢٧ قرنًا»، (مطبعة الكيلي، تونس، ١٣٣٧هـ/ ١٩١٩م) .

انظر خريطة موقع تونس في الملحق رقم: ١ .

(٤) محمد بيرم، «صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار»، (المطبعة الإعلامية، القاهرة، ١٣٠٢هـ/ ١٨٨٥م) ، ١/ ١٠٩ .

الموقع تربط أقطار المغرب العربي بالمشرق العربي، كما تعد معبراً مهماً بين أوربا والشرق.

وتتميز البلاد التونسية باتساع سواحلها، وخصب جبالها وسهولها [١]. وتقسم الأراضي الخصبة فيها ثلاثة أقسام : فالجهة الشمالية وهي أكثر جبالاً تُعدُّ الأكثر خصباً، تليها الجهة الوسطى، ثم الجهة الشرقية القريبة من البحر. أما الجهة الجنوبية المسماة بـ «الجريد» التي تضم أراضي رملية شاسعة فهي أقل الأراضي خصوبة [٢] .

ويجري في الأراضي التونسية نهر واحد يسمى نهر «مجردة»، وروافده، وينبع من مدينة «قسنطينة» التابعة للجزائر، وينحدر من هناك شرقاً ليخترق الأراضي التونسية في الجهة الشمالية منها، وتزداد مياهه بما يرفده من جداول[٣]، إلى أن يصب في خليج تونس في الجهة الشمالية الشرقية من البلاد[٤] .

ويمتاز مناخ غالبية الجهات التونسية بالاعتدال مع برودة في فصل الشتاء، في حين تغلب على الجنوب الحرارة في فصل الصيف، ويتفاوت سقوط الأمطار على البلاد باختلاف المناطق والسنوات [٥] .

وأهم مدن البلاد التونسية : تونس «العاصمة»، وسوسة، وصفاقس، والقيروان. ومن أبرز موانئها: ميناء تونس، وميناء «خلف الوادي»، وميناء «بنزرت» . ويتبع البلاد التونسية جزر عدة أهمها «جربة، وقرقنة».

---

(١) الحبيب ثامر، «هذه تونس »، مراجعة وتحقيق حمادي الساحلي، (دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م): ٣٠ .

(٢) بيرم، مصدر سابق: ١/ ١١٤-١١٥ .

(٣) المصدر نفسه، الجزء نفسه : ١١٠ .

(٤) ثامر، مرجع سابق : ٣٩ .

(٥) بيرم، مصدر سابق : ١/ ١١٤ .

وتقدر مساحة البلاد بـ «مليون ومئتين وواحد وخمسين ألفًا وثمانين كيلو متراً مربعاً» [١]. وقدر عدد سكانها في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي بنحو مليون ونصف نسمة.

ولا شك أن موقع تونس الحيوي، وخصب أراضيها كان لهما تأثير واضح في تاريخها[٢].

كان يسكن تونس قديمًا « البربر»[٣]. وهم قبائل منتشرة في البلاد، قد يعدُّ أفرادها السكان الأصليين فيها[٤]. وكانت البلاد التونسية مقصدًا لهجرات متتالية؛ ففي القرن الثاني عشر قبل الميلاد أخذت تنتشر على سواحل تونس مراكز تجارية أسسها الفينيقيون الذين قدموا إليها من سواحل بلاد الشام . وقد أنشؤوا في أواخر القرن التاسع ق. م مدينة قرطاج التي أسست دولة بحرية عظيمة مدت نفوذها حتى المغرب الأقصى، وأقامت مراكز تجارية على سواحله [٥] [٦]، وانبعث من مدينة قرطاج حضارة شرقية زاهرة كان لها أثرها في البربر فنقلوا عن الفينيقيين أصول الزراعة والصناعة، والتجارة، وتأثروا بعاداتهم الاجتماعية، واعتنقوا دياناتهم [٧].

وخلقت تلك المكانة البحرية المهمة للفينيقيين تنافسًا بحريًا بينهم وبين

(١) ثامر، مرجع سابق : ٢٧ .
(٢) بيرم، مصدر سابق : جـ١/ ٦٦ .
(٣) أطلق الرومان عليهم هذا الاسم (ومعناه الهمج)، ونقله العرب عنهم . أما الأهالي فكانوا يسمون أنفسهم بـ «الأمازيغ» ومعناها الرجال الأحرار .
جوليان، مرجع سابق : ١٢ .
(٤) عبد الرحمن بن خلدون، تاريخ ابن خلدون المسمى بكتاب « العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر »، (مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت ، بدون رقم الطبعة، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م) ٦/ ٨٩ .
(٥) مثل طنجة، وسلا .
(٦) عبد الوهاب، مرجع سابق : ١٦ .
(٧) جوليان، مرجع سابق : ١٢٥ .

الرومان الذين كانت لهم حضارتهم في مدنهم المطلة على البحر المتوسط من الجهة المقابلة، وقد أدى ذلك التنافس إلى نشوب ما يسمى بالحروب البونيقية بين الفريقين عام ٢٦٠ق. م التي دامت أكثر من قرن، وانتهت بتدمير قرطاجة (قرطاج) الفينيقية عام ١٤٦ ق. م على يد الرومان [١].

وقسم الرومان قرطاجة الفينيقية قسمين كبيرين الأول «أفريكا» (Africa)، ويشمل الجهة الشمالية والشمالية الشرقية من البلاد التونسية حاليًا، والقسم الآخر " نوميديا «Nomedia» ويشمل الجهة الوسطى والجنوبية والغربية من البلاد التونسية الآن . وقد خضع القسم الأول للسلطة الرومانية المباشرة ووزّع القسم الثاني بين زعماء البربر تحت الحماية الرومانية [٢].

وفي مطلع القرن الخامس الميلادي بلغت إحدى الموجات الجرمانية الوندال، أو (الفاندال)[٣] تونس وغيرها من المناطق المجاورة، وحكمت تونس وما جاورها منذ عام ٤٣٩م حتى عام ٥٣٤م حينما تمكن البيزنطيون من القضاء على الوندال، والاستيلاء على تونس[٤]. وبقيت البلاد تحت الحكم البيزنطي حتى الفتح الإسلامي لتونس عام ٥٠هـ / ٦٧٠م . ويعد هذا العام بداية عهد جديد في تاريخ تونس في ظل العرب المسلمين.

وأخذت البلاد التونسية تعرف في العهود الإسلامية باسم «إفريقية» [٥]، وكان عقبة ابن نافع قد تولى في عهد الدولة الأموية (٤١- ١٣٢هـ/ ٦٦١-

---

(١) عبد الوهاب، مرجع سابق: ٢٧ .

(٢) جوليان، مرجع سابق : ١٤٦ .

(٣) من الشعوب الجرمانية التي زحفت في القرن الرابع بعد الميلاد على أسبانيا واستقرت فيها، ثم وجهت أنظارها نحو منطقة الشمال الأفريقي، واستولت على المغرب الأقصى. المرجع نفسه: ٣٦، ٤٣ .

(٤) ابن خلدون، مرجع سابق : ٤ / ١٨٥ - ١٨٦ .

(٥) يعرِّف ياقوت الحموي، « معجم البلدان » (دار صادر، بيروت، د.ت.ن) : ٢/ ٢٨ إفريقية بقوله : إِفريقية بكسر الهمزة اسم لبلاد واسعة ومملكة كبيرة قبالة جزيرة صقلية، وقد=

٧٤٨م) استكمال فتح أفريقية فبدأ في بناء مدينة القيروان في عام ٥٠هـ/ ٦٧٠م، وانطلق المسلمون منها لفتح بقية مناطق الشمال الأفريقي[1]، وأصبحت المنطقة تابعة للدولة العباسية (١٣٢ - ٦٥٦هـ / ٧٤٩ - ١٢٥٨م)، وقد تمكن الأغالبة[2] (١٨٤ -٢٩٦/ ٨٠٠ - ٩٠٩م) من إنشاء دولتهم في تونس، والاستقلال بحكمها مع ولائهم للدولة العباسية[3]، واستمرت دولة الأغالبة تحكم تونس حتى عام ٢٩٦هـ/ ٩٠٩م، حيث استطاع الفاطميون (٢٩٧ - ٥٦٧هـ / ٩١٠ - ١١٧١م) إسقاطها، وتأسيس دولتهم على أنقاضها[4] .

وبعد أن استولت الدولة الفاطمية على مصر، وانتزعتها من الإخشيديين[5] عام ٣٥٨هـ / ٩٦٩م نقلت عاصمتها إلى مصر، وعهدت

= سميت بذلك نسبة إلى إفريقيس بن صيفي من بني قحطان وهو أول من اختطها. ولما بنيت القيروان على يد عقبة بن نافع خُرِّبت إفريقية، وبقي اسمها على تلك الجهات " . أما دائرة المعارف التونسية، بإشراف المنجي بو سنينة، (بيت الحكمة، تونس (قرطاج)، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م) : ٢ / ٩٠، ٩٣، ٩٦ فقد أوردت أن لفظة أفريقية مقتبسة من الكلمة اللاتينية أفريكا (Africa) بمعنى الساخنة، وأن الاستعمال الغالب اليوم لكلمة أفريقيا هو أن يطلق هذا الاسم على القارة بأكملها .

(١) ثامر، مرجع سابق : ٤١ .

(٢) استطاع القائد إبراهيم بن الأغلب أن يخضع إفريقية (تونس) لحكم الدولة العباسية، ثم طلب من الخليفة العباسي هارون الرشيد (١٤٩ - ١٩٣هـ / ٧٦٦-٨٠٩م) أن يُعَينه واليًا عليها، فوافقه الرشيد على ذلك، فتولى حكمها وأصبحت منطقة (تونس) تابعة تبعية غير مباشرة للدولة العباسية مع بقاء حكمها وراثيًا في أسرة إبراهيم بن الأغلب، وقد تمكن الفاطميون من القضاء عليها عام ٢٩٦هـ / ٩٠٩م . أحمد شلبي، «موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية» (مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط ٢ ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م) : ٤/ ٢٨٠ .

(٣) الركباني، مرجع سابق : ٣٢ .

(٤) أحمد بن أبي الضياف، «إتحاف أهل الزمان بأخبار تونس وعهد الأمان»، (الدار التونسية للنشر، تونس، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م) : ١/ ١٢٩ .

(٥) ينتسبون إلى أبي بكر محمد بن طغج بن جف (٣٣٢-٣٣٤هـ / ٩٣٥ - ٩٤٦م) وهو من=

للصنهاجيين [١] أمراء الجزائر (٣٦٢ - ٥٤٣هـ / ٩٧٣ - ١١٤٨م) بحكم تونس نيابة عنها في عام ٣٦٢هـ/ ٩٧٣م [٢]. واستمرت تونس بيد الصنهاجيين الموالين للدولة الفاطمية، وفي عام ٤٠٥هـ انفصل هنا «حماد بن بلكين بن زيري» عن ابن أخيه، وأسس له إمارة مستقلة قاعدتها قلعة بني حماد بالمغرب الأوسط (الجزائر)، وبهذا انقسمت الدولة الصنهاجية إلى إمارتين: إحداهما شرقية، وقاعدتها القيروان، والأخرى غربية (لبني حماد بن بلكين ابن زيري الصنهاجي)، وقاعدتها (قلعة بني حماد) في الجزائر . وضعف شأن آل زيري في القيروان بسبب خلافاتهم مع الفاطميين، وتحريض الأخيرين لقبائل بني هلال وبني سليم[٣] لاجتياح الشمال الأفريقي. وقد وصل هؤلاء إلى تونس عام

= أحفاد الأتراك الذين استقدمهم المعتصم، وخدموا الدولة العباسية، وتقلدوا مناصب عدة في بلاد الشام ومصر، واشتركوا في حروب الدولة العباسية ضد الفاطميين. وقد أسسوا لهم دولة في مصر هي الدولة الإخشيدية التي استمرت حتى عام ٣٥٨هـ / ٩٦٩م .
حسن إبراهيم حسن «تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي» (مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، طـ ٧، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م) : ٣/ ١٣٥ - ١٤٢ .

(١) أقام الصنهاجيون أول دولة بربرية تحكم في شمال أفريقيا بعد الفتح الإسلامي، وتنتسب إلى بلكين ابن زيري الصنهاجي، وكانت مرتبطة ارتباطًا غير مباشر بالدولة الفاطمية، وقد استطاع ملوكها أن يحققوا لها الرقي والازدهار، وحكمت المغربين الأدنى والأوسط حتى انتهت مملكتهم في تونس على يد غزوات بني هلال وبني سليم، وفي الجزائر زالت إمارتهم على يد المرابطين عام ٥٤٨هـ / ١١٥٣م

(٢) ثامر، مرجع سابق : ٤٦ - ٤٨ .
عبد الوهاب، مرجع سابق : ١٠٤ .

(٣) من مضر كانت لهم أحياؤهم حول المدينة المنورة . كانوا موالين للفاطميين؛ ولهذا توجهوا إلى مصر وعاشوا بصعيد مصر . استخدمهم الفاطميون لضرب بني زيري حينما خرجوا عليهم، وخطبوا للعباسيين عام (٤٣٩هـ/ ١٠٤٧م) فأغراهم الخليفة الفاطمي المستنصر (٤٢٧ - ٤٨٧هـ/ ١٠٣٥ - ١٠٩٤م) بالأموال، والمناصب، ووجههم إلى منطقة المغرب العربي، فاجتاحوها عام ٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م، واستقروا هناك وكان عددهم يقرب من أربع مئة ألف .
أحمد عمر الزيلعي، «مكة وعلاقاتها الخارجية»، ٣٠١-٤٨٧هـ، عمادة شؤون المكتبات بجامعة الرياض (الملك سعود) ، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م : ٣٧ .
الركباني، مرجع سابق: ٤٧ .

٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م واجتاحوها وقضوا على إمارة آل زيري في القيروان[١]. وتبع ذلك زحف النورماندين[٢] على شمال أفريقيا بعد استيلائهم على صقلية عام ٤٨٤هـ/ ١٠٩١م، وكانت تحت تبعية الدولة الصنهاجية، بينما تمكن المرابطون (٤٤٨هـ - ٥٤١هـ/ ١٠٥٦-١١٤٧م) في المغرب الأقصى والأندلس من القضاء على دولة بني حمّاد في الجزائر عام ٥٤٨هـ / ١١٥٣م [٣].

غير أن الموحدين تمكنوا في عام ٥٤١هـ / ١١٤٧م من القضاء على دولة المرابطين والزحف نحو تونس وتخليصها من النورمنديين، وطردهم منها عام ٥٥٥هـ/ ١١٦١م[٤]، وحكم الموحدون المنطقة حتى عام ٦٠٣هـ / ١٢٠٧م حينما عهدوا بها إلى الحفصيين[٥] الذين حكموا تونس تحت تبعية الدولة الموحدية، إلى أن حل الضعف بالدولة الموحدية، فأعلن الحفصيون استقلالهم بحكم تونس عام ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م، وبقيت الدولة الحفصية تحكم البلاد إلى أن بدأ ظهور العثمانيين في منطقة الشمال الأفريقي عند منتصف

---

(١) شوقي عطا الله الجمل «المغرب العربي العربي الكبير في العصر الحديث»، ليبيا، تونس، الجزائر، المغرب، مكتبة الإنجلو المصرية، القاهرة، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م : ١٧ - ١٨ .

(٢) قوم موطنهم الأصلي البلاد الإسكندنافية (الدنمرك والنرويج)، نزلوا في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي أوربا الوسطى، واستولوا بالتدريج على قسم من فرنسا، عرف باسمهم (نورمنديا)،ثم توجهوا إلى صقلية في القرن الخامس الهجري /الحادي عشرالميلادي.
شلبي، مرجع سابق : ٤ ٥٠، وأيضاً :
عبد الوهاب، مرجع سابق: ١١٤ .

(٣) ثامر، مرجع سابق : ٤٨ .

(٤) محمود مقديشي « نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار»، تحقيق علي الزواري ومحمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ، ١ / ٤٨٨- ٤٩٩ .

(٥) أسرة من البربر حكمت تونس في الفترة (٦٠٣ - ٩٨١هـ / ١٢٠٧-١٥٧٣م)، وتنسب إلى أبي حفص عمر ابن يحيى الهنتاني الذي كان أحد قادة الجيش الموحدي، تولى إدارات عدة في حكومة الموحدين حتى توفي عام ٥٧١ هـ / ١١٧٥م .
الجمل، مرجع سابق: ٢٦ - ٢٧ .

القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي [١] .

وبناءً على رغبة الأهالي في تونس الذين كانوا يعانون من ضعف الدولة الحفصية، ومن تعاونها مع الإسبان ضد الوجود العثماني في منطقة الشمال الأفريقي[٢]، تكررت محاولات العثمانيين للاستيلاء على تونس، وطرد القوات الإسبانية المتمركزة في ثغورها. وقد تمكن القائد العثماني سنان باشا في جمادى الأولى عام ٩٨١هـ/ سبتمبر ١٥٧٣م من طرد الإسبان نهائيًا من تونس، والقضاء على الدولة الحفصية، وهكذا أصبحت تونس تحت حكم الدولة العثمانية منذ منتصف عام ٩٨١هـ/ ١٥٧٣م[٣].

---

(١) عبد الوهاب، مرجع سابق : ١٢٦ - ١٢٧ .

(٢) استطاع الإسبان في ٨٩٨هـ/ ١٤٩٢م إسقاط غرناطة آخر معاقل المسلمين في الأندلس، وتعقبوا المسلمين الفارين منها إلى شواطئ شمال أفريقيا، وعقد البرتغال والإسبان معاهدة برعاية البابا إسكندر السادس هي معاهدة توردسيلاس (٩٠٠هـ/ ١٤٩٤م) لحل المشاكلات بين الدولتين وتنسيق العمل النصراني ضد المسلمين فيما عرف بحرب الاسترداد، فخصص المغرب الأدنى والأوسط مجالاً للعمل الإسباني ضد المسلمين، بينما المغرب الأقصى كان مجالاً للبرتغال، ونجح كل منهما في تأسيس ثغور في المنطقة وقامت حروب طاحنة بينهم وبين المسلمين الذين ساندهم في ذلك رجال البحر، وهم بحَّارة قدم بعضهم من مناطق تابعة للدولة العثمانية، كما قدم بعضهم الآخر من الأندلس بعد سقوطها، وبرز البحاران (التركيان) عروج وخير الدين بربروسا، وقادا قوة ضد الإسبان ونجحا في تخليص بعض الثغور، واستعصى عليهم بعضها الآخر، فاستنجد خير الدين بالدولة العثمانية لتخليص المنطقة من الوجود الإسباني بينما أخذت الدولة السعدية الناشئة في المغرب الأقصى مهمة تخليص سواحلها من البرتغال . أسهم في ذلك اكتشاف البرتغال والإسبان للأمريكتين، وانصرافهم عن الاهتمام بتلك الثغور، كما أسهم في ذلك أيضاً بعد تلك الثغور عن القواعد البرتغالية والإسبانية إلى جانب قوة الدولة العثمانية، بحيث تم تخليص المنطقة من الوجود البرتغالي والإسباني في نهاية القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي . عزيز سامح التر «الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية»، ترجمه عن التركية محمود علي عامر، (دار النهضة العربية، بيروت، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م) : ١١٢ .

(٣) المصدر نفسه، الصفحة نفسها .

ثانيًا- الحجاز :

معنى الحجاز: هو الحاجز والمانع، وفي اللغة: حجزه يحجزه حجزًا : إذا منعه وصده من قصده[١] قال «الخليل بن أحمد» : وسمي الحجاز حجازًا لأنه فصل بين الغور وبين الشام، وبين تهامة ونجد. والحجاز جبل ممتد حال بين الغور غور تهامة ونجد، فكأنه منع كلَّ واحد منهما أن يختلط بالآخر، فهو حاجز بينهما[٢].

والحجاز إقليم مستطيل ممتد على شاطئ البحر الأحمر في الجهة الغربية من شبه الجزيرة العربية، يحده شمالاً بادية الشام، وشرقًا صحراء نجد، وجنوبًا عسير، وغربًا البحر الأحمر[٣].

وسطحه عبارة عن سلسلة جبال ممتدة من الشمال إلى الجنوب هي سلسلة جبال السروات ينحدر منها سهل ساحلي إلى البحر يسمى تهامة . وأرض الحجاز رملية وبعضها صالح للزراعة [٤]، ويوجد في الحجاز بعض الوديان مثل وادي فاطمة في مكة، كما توجد فيها عيون عذبة مثل العين الزرقاء التي تسقي أهالي المدينة [٥]، وعين زبيدة التي تسقي أهالي مكة [٦].

ومناخ الحجاز حار معظم أوقات السنة عدا بعض المناطق الجبلية التي تتميز باعتدال مناخها، ومنها: الطائف، وأهم المدن الرئيسة في الحجاز مكة

---

(١) جمال الدين محمد بن منظور، «لسان العرب»، (دار صادر، بيروت، ط ٣، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، ٥ / ٣٣١ .

(٢) ياقوت، مصدر سابق : ٢/ ٢١٨ .

(٣) سالنامة الحجاز بالعربية، (المطبعة الأميرية، مكة المكرمة، ١٣٠٣هـ / ١٨٨٦م): ١٨٩ .

(٤) محمد لبيب البتنوني، الرحلة الحجازية، (مطبعة الجمالية، مصر، ط ٢، ١٣٣٢هـ/ ١٩١١م) : ٣٨.

(٥) إبراهيم فوزان الفوزان، إقليم الحجاز وعوامل نهضته الحديثة (مطابع الفرزدق، الرياض، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م) ٣١، ٤٧ .

(٦) الحجاز ولايتي سالنامه سي، (مكة المكرمة، ١٣٠٦هـ / ١٨٨٩م) ٢١٢ .

المكرمة (وهي عاصمة الحجاز)، والمدينة المنورة، وجدة، والطائف [١].
وتقدر مساحته بمليون وثلاثة وتسعين ألفًا وخمس مئة وسبعة عشر كيلو متراً مربعاً.

أما عدد سكانه في الفترة التي هي موضوع الدراسة فهو أمر مختلف فيه بين المصادر[٢]، ويبدو أن العدد لم يكن يتجاوزعلى الأغلب المليون نسمة[٣].

وكان الحجاز قبل الإسلام يتبع غالبًا حكومة مكة ولا سيما بعد ظهور قريش [٤] فيها. وأصبح الحجاز في العهد الإسلامي مركزًا للخلافة الإسلامية، وبعد انتقال مركز الخلافة إلى دمشق، ثم بغداد أصبح الحجاز تابعًا للدولة الأموية، ومن ثم الدولة العباسية.

وفي عهد الدولة العباسية استطاع محمد بن سليمان الحسني[٥] انتزاع

---

(١) حافظ وهبة «جزيرة العرب في القرن العشرين» (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط ٥، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م): ٥، ١٦، ٢٧، ٣٠.

(٢) سالنامة الحجاز بالعربية، ١٣٠٣هـ / ١٨٨٦م : ١٨٩.

(٣) يقدر البتنوني عدد سكان الحجاز في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشرالميلادي بمليونين ونصف مليون نسمة، وهو تقدير مبالغ فيه إذا علمنا أنه قد خمن عدد أهالي المدن الرئيسة فيه بما مجموعه (٢٦٠) ألف نسمة فقط.
البتنوني، مصدر سابق، التمهيد : ٣٩، الصفحات : ٩، ٥٢٩ . أما (سالنامة الحجاز بالعربية، (١٣٠٣هـ / ١٨٨٦م، ص ١٨٩)؛ فقد قدرت العدد بنحو «سبع مئة ألف نسمة »، وقد علق العمرو على هذا الرقم بقوله: إن هذا التقدير أقل من الحقيقة.

(4) Saleh Mohammed AL Amr The Hijaz under Ottomann Rule , 1869-1914 Riyaadh, University Publications, Riyadh, 1398/1978.p17

(٥) سكن مكة بعض القبائل العربية كان أولها العماليق ثم جرهم ثم قريش التي تضم خمسة وعشرين بطنًا منهم بنو هاشم وبنو أمية.
أبو الوليد محمد بن عبد الله الأزرقي « أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار» تحقيق رشدي الصالح ملحس، (مطابع دار الثقافة، مكة المكرمة، ط ٣، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م)، ١ / ٥٧، وأيضًا :
عبد الله عبد العزيز بن إدريس «مجتمع المدينة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم» (مطابع جامعة الملك سعود، الرياض، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م) ١٨ - ٨٢.

إمارة مكة المكرمة من الدولة العباسية عام ٣٠١هـ / ٩١٤م، واستقل بها[١]، ولهذا يعد محمد بن سليمان[٢] مؤسس حكم الأشراف [٣] الحسنيين في مكة، وبقي حكم مكة بيدهم حتى دخول القرامطة [٤] إليها عام ٣١٧هـ / ٩٣٠م[٥]، غير أن العباسيين تمكنوا بعد سنوات قليلة من استعادة نفوذهم في الحجاز، وأسندوا ولايته لأتباعهم الإخشيديين الذين كان مركزهم في مصر[٦] .

(١) ابن خلدون، مصدر سابق : ٤ / ٩٩ .
عبد الملك بن حسين العصامي، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، (المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م) : ٤ / ١٩٢ .

(٢) هو محمد بن سليمان بن داود بن حسن المثنى بن الحسن السبط، ولكونه ينتسب إلى الحسن بن علي رضي الله عنهما فقد عُرف بالحسني .

(٣) هو اصطلاح أُطلق على من كان منحدراً من نسل الحسن أو الحسين ابني علي بن أبي طالب رضي الله عنهم؛ وقد استخدم هذا اللقب للمرة الأولى في تلك الفترة (أي مطلع القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي) .
أحمد بن زيني دحلان، تاريخ أشراف الحجاز ١٨٤٠-١٨٨٢م ، خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام تحقيق وتحليل محمد أمين توفيق، (دار الساقي، بيروت، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م): تحليل: ١٣ .
ويرى فؤاد حمزة، قلب جزيرة العرب، (مكتبة النصر الحديثة، الرياض، ط ٢، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م): ٣١٣ أن الاصطلاح السائد في الحجاز هو أن يطلق لقب « الشريف » على من كان منحدراً من سلالة الحسن بن علي، ولقب " السيد " على من كان منحدراً من سلالة الحسين رضي الله عنهم .

(٤) تسمية أطلقت على طائفة ترى انتسابها إلى الشيعة الباطنية الذين يقولون بأن لكل ظاهر باطناً ولكل تنزيل تأويلاً وينتسبون إلى حمدان بن الأشعث الملقب بـ «قرمط » (ت ٢٩٣هـ/ ٩٠٦م) لقصر قامته، عُرف في سواد الكوفة سنة ٢٥٨هـ / ٨٧١ م وكثر أتباعه، وانتشرت دعوته في العراق، والشام، واليمن، واتخذوا لهم دولة في البحرين، وقد أقلقوا الدولة العباسية بالفتن، ومن أبرزهم ميمون وابنه عبدالله، وأبو سعيد الجنابي وابنه أبو طاهر الذي قاد الحملة على مكة عام ٣١٧هـ/ ٩٣٠م كانت علاقتهم بالدولة الفاطمية علاقة جيدة.
الزيلعي، مرجع سابق : ٢٦ - ٢٧ .

(٥) ابن خلدون، مصدر سابق: ٤ / ٨٩ .

(٦) ريتشارد مورتيل، الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة في العصر المملوكي، (عمادة شؤون المكتبات بجامعة الملك سعود، الرياض، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م): ١٤ .
عبدالله صالح العثيمين، تاريخ المملكة العربية السعودية، (بدون مكان النشر، ١٤٠٤م/ ١٩٩٤م): ١٧

وبعد ضعف الإخشيديين وقضاء الفاطميين على حكمهم في مصر عام (٣٥٨هـ/ ٩٦٩م) تطلع الأخيرون لفرض سيطرتهم على الحجاز، ولكن الزعيم الحسني جعفر بن محمد[١] انتهز فرصة تغير الوضع فأعاد حكم الأشراف في مكة، وتم له الاستيلاء على مقاليد الأمور فيها، وخطب فيها باسم الخليفة الفاطمي، وتكونت بذلك طبقة الأشراف الموسويين [٢] في مكة[٣] .

أما بالنسبة للمدينة فقد تمكن أفراد من بني الحسين (بني مهنا) في عام ٣٦٠هـ /٩٧١م من الاستقلال بها، وقد خطبوا فيها للخليفة الفاطمي، وهكذا أصبح الحجاز بمجموعه تابعًا في ولائه للدولة الفاطمية[٤] .

وبعد أن تولى أبو الفتوح الحسن بن جعفر الحكم في مكة عام ٣٨٤هـ/ ٩٩٤م تمكن من مد نفوذه إلى المدينة المنورة وانتزاعها من أبناء عمه الحسينيين[٥]، ثم تطلع إلى الاستقلال بالحجاز وأعلن نفسه خليفة مستقلاً، وحاول مد نفوذه خارج نطاق الحجاز، فتطلع إلى الشام عام ٤٠٠هـ/ ١٠١٠م، ولكن محاولته باءت بالفشل، رجع إلى مكة عام ٤٠٣هـ / ١٠١٣م، واعتذر للخليفة الفاطمي، وأقام الخطبة باسمه، وعاد

(١) هو أحد الأشراف الحسنيين. كان يقيم بالمدينة المنورة في عهد كافور الإخشيدي (٢٩٢-٣٧٥هـ / ٩٠٥-٩٦٨م)، وفي عام ٣٥٨هـ /٩٦٩م قدم جعفر بن محمد إلى مكة واستولى عليها وأقام بها إمارة حسنية مستقلة.

(٢) نسبة إلى الزعيم الحسني جعفر بن محمد بن الحسن بن موسى بن عبدالله بن موسى الجون من نسل الحسن بن علي رضي الله عنهما .
أبو محمد علي بن أحمد بن حزم، جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبدالسلام هارون، (دار المعارف، القاهرة، ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م) : ٤٧ .
وقد رجح مورتيل (مرجع سابق : ١٦) تسميتهم بالجعافرة نسبة إلى أول من تولى إمارة مكة منهم وهو جعفر.

(٣) العثيمين، مرجع سابق، ص ١٧ - ١٨ .

(٤) المرجع نفسه : ١٨ .

(٥) الزيلعي، مرجع سابق : ٤٩ .

إلى وضع التبعية للدولة الفاطمية كما كان الحال عليه في عهد والده [١].

وقد حدث تغيّر في أوضاع الحجاز في عام ٤٥٣هـ / ١٠٦١م حينما تمكن الأشراف السليمانيون[٢] من انتزاع حكم مكة من الأشراف الموسويين . إلا أن حكمهم للمنطقة لم يدم أكثر من سنتين ؛ ذلك أن تأييدهم للدولة العباسية قد دفع حاكم اليمن المتحالف مع الفاطميين إلى الإطاحة بهم، وتسليم حكم البلاد إلى طبقة ثالثة من الأشراف هم الهواشم [٣]، وذلك عام ٤٥٤/ ١٠٦٢م[٤] .

وشهد حكم الهواشم تنافساً شديداً بين العباسيين والفاطميين من أجل كسب ولاء أمراء الحجاز، ودَفْعهم للدعاء لهم في الخطبة، ويرجع ذلك إلى النظرية الشائعة في العهود الإسلامية التي تنص على أن ضم الحرمين هو أحد شروط الخلافة، وأن الخلافة لا تكتمل إلا بالخطبة لأمير المؤمنين في الحرمين الشريفين [٥]، والملحوظ أن ولاء بعض أمراء الحجاز في هذه الفترة لم يكن ثابتاً، بل كان يتقلب وفق الظروف، مع أن النصيب الأوفر في الولاء كان للفاطميين بشكل عام[٦] .

---

(١) محمد جمال الدين سرور، تاريخ الدولة الفاطمية، (دار الفكر، بيروت، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م): ١٧-١٩

(٢) يطلق عليهم هذا الاسم نسبة إلى سليمان بن عبد الله بن موسى الجون، وأحياناً يطلق عليهم اسم «الطيبون» نسبة إلى أول من تولى إمارة مكة منهم وهو: أبو الطيب، داود بن عبدالرحمن.
الزيلعي، مرجع سابق : ١٣ .

(٣) هم بطن من بني الحسن السبط ينسبون إلى أبي هاشم محمد بن الحسن بن محمد بن موسى بن عبدالله بن موسى الجون . وأول من تولى الإمارة في مكة منهم محمد بن جعفر بن محمد المعروف بأبي هاشم.

(٤) ابن خلدون، مصدر سابق: جـ٤ ١٠٢، وأيضاً :

(٥) سرور، مرجع سابق : ١٤٤

(٦) العثيمين مرجع سابق : ١٩

وظل الوضع هكذا في الحجاز إلى أن تمكن الأيوبيون [(١)] ٥٦٧-٦٤٨هـ/ ١١٧١-١٢٥٠م) من القضاء على الدولة الفاطمية في مصر عام ٥٦٧هـ / ١١٧١م، ومن ثم تطلعوا إلى مد نفوذهم على الحجاز ذات الأهمية الدينية من جهة، والأهمية التجارية من جهة أخرى نظرًا لوقوعه على البحر الأحمر، وتمكن صلاح الدين الأيوبي من فرض نفوذه على الحجاز عام ٥٨١هـ/ ١١٨٥م، وأضيف اسمه إلى اسم الخليفة العباسي في الخطبة نظرًا لأن صلاح الدين كان يعترف بالخلافة العباسية في بغداد [(٢)].

ونشب صراع داخلي بين الهواشم في عام ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠م، انتهى بانتزاع فرع من الهواشم وهم بنو قتادة [(٣)] الحكم في مكة[(٤)]. إلا أن هؤلاء تنازعوا فيما بينهم على الحكم، وهذا ما أدى إلى تدخل بني رسول[(٥)] (٦٢٦-٨٥٨هـ / ١٢٢٩-١٤٥٤م) حكام

(١) تنحدر الأسرة الأيوبية من أصل كردي، وتنسب إلى نجم الدين أيوب الذي تعاون في عام ٥٣٢هـ/ ١١٣٦م مع عماد الدين زنكي حاكم الموصل لتوسيع نفوذه، وصد الصليبيين عن المنطقة، اشتهر ابنه صلاح الدين في قتاله ضد الصليبيين، وتخليص بيت المقدس من أيديهم. تولى صلاح الدين حكم مصر وقضى على الدولة الفاطمية في عام ٥٦٧هـ/ ١١٧١م. وقد سقطت الدولة الأيوبية على يد المماليك عام ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م شلبي، مرجع سابق : ٥ / ١٦٥ - ١٨٦ .

(٢) عائشة عبدالله باقاسي، بلاد الحجاز في العصر الأيوبي، (٥٦٧ - ٦٤٨هـ/ ١١٧١-١٢٥٠م)، (دار مكة للطباعة والنشر، مكة المكرمة، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م): ٣٧ .
المرجع نفسه : ٤٤ .

(٣) ينتسبون إلى قتادة بن إدريس المكُنى بأبي عزيز، ويلتقي نسبه بنسب الموسويين من بني الحسن بن علي رضي الله عنهما كما يلتقون مع الهواشم في جدهم المشترك محمد الثائر بن موسى الثاني، وكانوا يقيمون في منطقة نهر العلقمية من وادي ينبع بالحجاز في أواخر عهد الهواشم بمكة (النصف الثاني من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي) .
ابن خلدون، مصدر سابق : ٤ / ١٠٥ .

(٤) مورتيل، مرجع سابق : ٣٦ .

(٥) ينتهي نسبهم إلى محمد بن هارون الغساني الذي كان أثيرًا عند الخليفة العباسي المستضيء (٥٦٦-٥٧٦هـ/ ١١٧٠-١١٧٩م) الذي أرسله مرات عدة إلى سلاطين الأيوبيين في مصر؛=

اليمن في شؤون مكة، ودخل بنو رسول في منافسة مع حكام مصر الأيوبيين، ثم المماليك [١] (٦٤٨ - ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠-١٥١٧م) من أجل السيطرة على الحجاز[٢] .

وكسب المماليك الجولة في عام ٧١٩هـ / ١٣٢٠م [٣]، وأصبح لهم نفوذ كبير في الحجاز ظل حتى سقوط الدولة المملوكية عام ٩٢٣هـ / ١٥١٧م على يد الدولة العثمانية.

وكان العثمانيون بعد سيطرتهم على الشام ومصر قد تطلعوا للسيطرة على الحجاز في عهد أمراء مكة الأشراف من بني قتادة بزعامة الشريف بركات الثاني[٤]، وكان الشريف قد رأى أن من الحكمة قبولَ السيادة العثمانية طوعًا، فأرسل ابنه محمداً «أبا نمي» [٥] في جمادى

= فأُطلق عليه لقب «رسول»، وقد بدأ بنو رسول حكمهم في اليمن نوابًا عن الأيوبيين وكان أول سلاطينهم عمر بن علي غير أنه في عام ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م أعلن استقلاله بحكم اليمن، واستصدر بذلك أمرًا من الخليفة العباسي (الظاهر بن الناصر).
شلبي، مرجع سابق : ٧/ ٣٥١ .

(١) جمع مملوك وهو الشخص الذي اشتري بالمال، وهؤلاء المماليك حكموا مصر وسوريا بعد الدولة الأيوبية. فقد استكثر منهم الملك الأيوبي الصالح نجم الدين أيوب، ومعظمهم من الأتراك وهؤلاء يعرفون بالمماليك البحرية. وقد حكموا في الفترة (٦٤٨ - ٧٨٤هـ/ ١٢٥٠-١٣٨٢م)، وهناك المماليك البرجية وهم شراكسة اشتراهم السلطان المملوكي قلاوون، وأكثر منهم حتى حكموا مصر في الفترة (٧١٤ -٩٢٣هـ/ ١٣٨٢-١٥١٧م).
شلبي، مرجع سابق : ٥ / ١٩٧ - ٢٠٠ .

(٢) العثيمين، مرجع سابق : ٢٠ .

(٣) مورتيل، مرجع سابق : ٨٠ .

(٤) هو بركات بن محمد بن بركات، تولى ولاية مكة في عام ٩٠٣هـ/ ١٤٩٧م كان على خبرة ودراية بتصريف شؤون الحكم، استطاع التغلب على منافسيه . توفي عام ٩٣٢هـ / ١٥٢٥م.
أحمد السباعي، تاريخ مكة، (نادي مكة الثقافي، مكة المكرمة، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م) : ٢/ ٣٤٤ .

(٥) هو أكبر أبناء الشريف بركات . تولى الحكم بعد وفاة والده، عُرف بأبي نمي الثاني، وحصر=

الأولى ٩٢٣هـ/ مايو ١٥١٧م [١] إلى مصر للقاء السلطان سليم الذي كان يعمل على تنظيمها بعد الاستيلاء عليها في العام نفسه، حاملاً معه مفاتيح الكعبة دليلاً على اعتراف أمراء الحجاز بدخول المنطقة في ظل الدولة العثمانية [٢].

= إمارة مكة في نسله . وقد امتاز بالحزم في الإدارة، والصرامة في الحكم، وهو الذي أصدر القانون الذي عرف بقانون أبي نمي . تفرع من نسله أمراء من آل زيد، والعبادلة (ومنهم آل عون)، وآل بركات، تنازل عن الحكم لابنه الحسن عام ٩٧٤هـ / ١٥٦٦م، وتوفي في عام ٩٩٢هـ/ ١٥٨٤م .

المرجع نفسه : الجزء نفسه : ٣٤٦ - ٣٤٨ .

(١) أبو البركات محمد بن إياس « بدائع الزهور في وقائع الدهور » تحقيق محمد مصطفى وبال كالة، (مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م): ٥/ ١٩٠ .

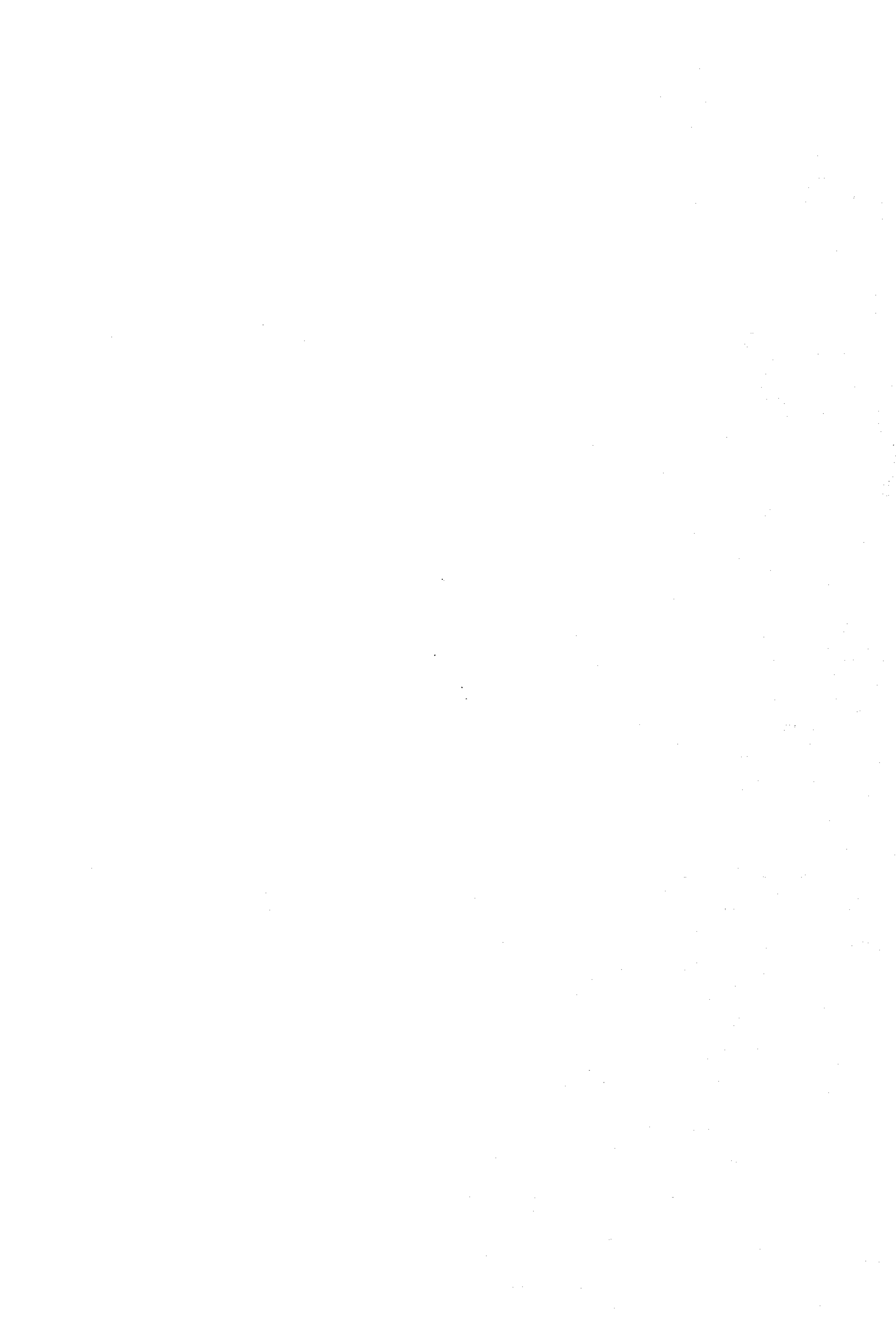
(٢) محمد أنيس، الدولة العثمانية والشرق العربي (١٥١٤ - ١٩١٤م)، (مكتبة الإنجلو المصرية، القاهرة، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م) : ١٢٩ .

الفصل الأول

لمحة عن الأوضاع السياسية في تونس والحجاز

أولاً : أوضاع تونس السياسية.

ثانياً: أوضاع الحجاز السياسية.



أولاً- أوضاع تونس السياسية:

(أ) إلحاق تونس بالدولة العثمانية وتنظيمها:

حينما تمكن القائد العثماني «سنان باشا» نهاية عام ٩٨١هـ/ ١٥٧٣م من الاستيلاء على تونس ألحقها بولاية الجزائر بصفة مؤقتة، وبعدها قامت الدولة العثمانية بتحويلها إلى ولاية (١)، وعينت عليها واليًا بلقب «باشا» (٢) (٣)ويساعده في إدارة شؤون الولاية جند مكون من أربعة آلاف مقاتل من عساكر الإنكشارية (٤)،على كل مئة منهم

(١) ليلى صباغ، تاريخ العرب الحديث والمعاصر، (دار الكتاب، دمشق، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م)، دمشق : ١٦٢عُدت تونس ولاية، ولكن في عهد الحماية الفرنسية على البلاد عام ١٢٩٨هـ/ ١٨٨١م أصبح يطلق عليها الحكومة التونسية، أو المملكة التونسية . انظر وثائق الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة ج ٢ كرتون ٣٢، ملف ١/ ٥، رقم الوثيقة : بدون، (سيرمز لتلك الوثائق فيما بعد بـ (أ، و، ت، س :، ك :، م، ق خطاب من الوزير الأكبر إلى وكيل أوقاف الحرمين الشريفين في ١٤/ ١١/ ١٣١١هـ الموافق٢١/ ٥/ ١٨٩٤م، (استخدم في هذا الخطاب مسمى الحكومة التونسية)، وأيضًا :
أ، و، ت، س أ (A) ، ك ٢٧٦ مكرر، م ١، ق : بدون، خطاب من قايد (نائب أو عامل) القيروان علي المرابط إلى الوزير الأكبر محمد العزيز بوعتور في ٢٣/ ١١/ ١٣٢١هـ الموافق ٨/ ٢/ ١٩٠٤م، (استخدم في هذا الخطاب مسمى المملكة التونسية) .

(٢) هو لقب عثماني أطلق على رتب متعددة عسكرية ومدنية، وقد أطلق منذ القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي على الذين يُرقّون إلى رتبة وزير، كما استخدم للعسكريين الحائزين على رتب: أمير اللواء، والفريق، والمشير . سهيل صابان، سالنامة ولاية الحجاز ١٣٠١-١٣٠٩هـ، (مجلة مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، مج١،ع ١، محرم - جمادى الآخرة ١٤١٦هـ/ يونيو - ديسمبر ١٩٩٥م): ٢٠٢، هامش ٨ .

(٣) زاهر رياض، شمال أفريقيا في العصر الحديث، ليبيا - تونس - الجزائر - المغرب، (مكتبة الإنجلو المصرية، القاهرة، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م) : ٨٥ .

(٤) ومعناها الجند الجديد، كانوا في الأصل يجلبون وهم صغار من النصارى وغيرهم، يعتنقون الدين الإسلامي ثم يربون ويدربون تدريبًا عسكريًا خاصًا، وهم من أوائل الجنود العثمانيين، وقد تكوّن منهم جيش قوي أطلق عليه هذا الاسم وهو باللغة العثمانية (يني جري " يكي جري ") ومنها لفظ الإنكشارية.
رشاد الإمام، سياسة حمودة باشا في تونس (١٧٨٢ - ١٨١٤م)، (منشورات الجامعة التونسية، تونس، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م): ٤٧ .

رئيس[١] بلقب "داي"[٢]، كما خصصت الدولة العثمانية لجباية الضرائب ملتزمًا يلقب بـ «الباي»[٣]، وعهدت بالشؤون البحرية للولاية لرئيس يلقب بـ «قبودان رائس»[٤]. كما أنشأت في الولاية مجلسًا برئاسة الباشا للنظر في شؤونها كان يجتمع فيه كل من الدايات والباي وقبودان رائس وبعض أعيان الولاية التونسية[٥]، ويعد هذا النظام المطبق في تونس شبيهًا بالنظم التي طبقت في الولايتين العثمانيتين (الجزائر، وطرابلس الغرب)[٦].

واكتفت الدولة العثمانية بهذه التبعية غير المباشرة لولاية تونس أسوة بالولايات البعيدة عن مركزها إستانبول (البصرة، واليمن بالإضافة إلى الجزائر، وطرابلس الغرب)[٧]. وأصبحت خطبة الجمعة تلقى في ولاية تونس باسم السلطان العثماني، وتسك العملة فيها باسمه[٨]، وترسل الولاية هدية سنوية إلى السلطان العثماني (وليس مبلغا معينًا يدفع إلى الخزينة كما في ولايات المشرق)، كما تسارع لإعانة الدولة حربيًا إذا طلب منها ذلك[٩].

واستمر العمل بهذا التنظيم في الولاية حتى عام ٩٩٩هـ/ ١٥٩٠م حينما

---

(١) بيرم، مصدر سابق: ١ / ٣١ .

(٢) لفظة عثمانية تعني الخال، وهي من قبيل التكريم لأمير الجند .
الجمل، مرجع سابق: ١٠٤ .

(٣) لقب تركي يعني الرجل الغني .
الإمام، مرجع سابق: ٤٨ .

(٤) تعني قائد الأسطول (قبطان) وقبودان كلمة أصلها إيطالي، و "رائس" بمعنى رئيس .
المرجع نفسه، الصفحة نفسها .

(٥) ابن أبي الضياف، مصدر سابق: ٢ / ٣١ .

(٦) رياض، مرجع سابق: ٨٥ .

(٧) صباغ، مرجع سابق: ١٢٥ .

(٨) الإمام، مرجع سابق: ٤٨ .

(٩) ابن أبي الضياف، مصدر سابق: ٢/ ٣١ .

ثار صغار الجند على الدايات في واقعة تسمى «البكباشية » [1]، وكان من نتيجة هذه الثورة أن عقد مجلس ضم الباشا والأربعين دايًا والباي، وتقرر في هذا المجلس اختيارُ أحد الدايات للنظر في أحوال العسكر وحفظ البلاد[2].

وأصبح منصب الداي بعد هذه الحادثة مجالاً للنزاع والتنافس، فقد حاول الدايات تدعيم نفوذهم، وتوسيع سلطتهم على حساب الباشا، وتطور الأمر إلى أن أخذ الدايات يمارسون السيادة الفعلية في البلاد، بحيث لم يعد للباشا غير المظاهر الرسمية للسلطة [3].

وقد اعتمد الدايات في تدعيم نفوذهم على قوة قائد البحرية، كما اعتمدوا على مركز الباي في الولاية ونفوذه، وأسهم هذا الأمر في زيادة نفوذ البايات على حساب الدايات، وفي القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي تعاظمت سلطة البايات من ناحية، وتقهقرت مكانة الدايات من ناحية أخرى[4] إلى الحد الذي دفع أحد البايات وهو مراد باي (١٠٢١-١٠٤١هـ / ١٦١٢-١٦٣١م) إلى طلب الحصول على منصب الباشوية من السلطان العثماني مراد الرابع (١٠٣٣-١٠٥٠هـ ١٦٢٣/ - ١٦٤٠م) وأجاب السلطانُ مطلبه، وطالب مراد باي بالإضافة إلى ذلك بالسماح بحق توريث السلطة لأبنائه من بعده فوافقه السلطان على ذلك، وهكذا أصبحت الباشوية سلطة وراثية في أسرة مراد باي، وكان ذلك في ١٠٤١هـ/ ١٦٣١م[5] .

---

(١) كلمة يقصد بها ضباط ديوان العسكر، وفي هذه الحادثة ثار صغار الجند على رؤسائهم ضباط الديوان، وفتكوا بالكثير منهم بسبب جورهم.
المصدر نفسه، الجزء نفسه، الصفحة نفسها .

(٢) المصدر نفسه، الجزء نفسه، الصفحة نفسها .

(٣) الإمام، مرجع سابق: ٤٩ .

(٤) المرجع نفسه : ٥٢ .

(٥) ابن أبي الضياف، مصدر سابق: ٢ / ٤١ .

وبوصول البايات إلى حكم تونس اقتصرت مهمة الدايات على الشؤون العسكرية وعلى أمن العاصمة[١]، وظلت الأسرة المرادية في سدة الحكم إلى أن حلّ الضعف بها في نهاية القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي بسبب تزايد الخلافات فيما بين البايات. هذا إلى جانب تزايد الخلافات بين ولايتي تونس والجزائر التي أدت إلى نشوب حروب بينهما خاصة مع تولي حكم تونس بعض البايات الضعاف [٢].

إزاء هذا الوضع الذي آلت إليه تونس في تلك الفترة رأت الدولة العثمانية ضرورة تغيير الأوضاع في البلاد، فعهدت في عام ١١١٤هـ/ ١٧٠٢م إلى أحد الدايات التونسيين، وهو إبراهيم الشريف (١١١٤-١١١٧هـ/ ١٧٠٢-١٧٠٥م) بمهمة القضاء على مراد باي وأخذ مكانه، وقد تمكن إبراهيم الشريف من تدبير مؤامرة أنهت حكم الأسرة المرادية، وتولى بذلك منصب الباشا عام ١١١٤هـ/ ١٧٠٢م. وقد بقي إبراهيم الشريف يحمل لقب الباي على الرغم من أنه ليس من البايات[٣]، وأخذ يكتب في مراسلاته «الباشا إبراهيم باي داي» [٤].

ولم يستمر إبراهيم الشريف في حكم البلاد طويلاً لأن سياسته اتسمت بالظلم والاستبداد، وكثرت الحروب مع الولايات المجاورة. وقد أُسر في عام ١١١٧هـ/ ١٧٠٥م إثر هزيمته في حرب خاضها ضد الجزائر.

(١) الإمام، مرجع سابق: ٥٣ .

(٢) ابن أبي الضياف، مصدر سابق: ٢ / ٩٢ - ١٠٧ .

(٣) الجدير بالذكر أن الولاة بعد ذلك اتخذوا لقب الباي وإن لم يكونوا كذلك قبل توليهم الولاية ومثل حسين بن علي الذي كان آغا صباحية الترك (كما سيرد بعد قليل) .

(٤) المصدر نفسه، الجزء نفسه : ٩٣ - ٩٥ .

وقد اجتمع كبار رجال ولاية تونس وقرروا مبايعة «آغا صباحية الترك» (١) وهو حسين بن علي (٢) حاكمًا على البلاد لما عرف عنه من الحزم والخصال الحميدة(٣). وهكذا بدأ حكم الأسرة الحسينيـة نسبة إلى الآغا حسين بن علي أول باياته الذي بويع بالحكم في ٢٠/ ٤/ ١١١٧هـ الموافق١٢/ ٧/ ١٧٠٥م(٤).

وبذل بايات الأسرة الحسينية جهودهم من أجل الاهتمام بالبلاد والقضاء على المنازعـات الداخلية (٥). وكان من أشـهر هؤلاء البـايات حمـودة باشا (١١٩٧-١٢٣٠هـ/ ١٧٨٢-١٨١٤م) الذي ترك بصـمـة واضحـة في تطور البلاد وازدهارها . وقد حرص على اختيـار نخبة من رجال عصره كانوا له الساعـد الأيمن في إدارة شؤون الـبلاد(٦)، ومن بينهم مصطفى خـوجة (٧)، ويوسف صاحب الطابع(٨).

---

(١) الآغا كلمة تعني في اللغة التركية الأخ الكبيـر، وتعني القائد في الرتب العسكرية، وصباحية الترك اسم يطلق على مجموعة من الجنود مهمتهم مرافقة الباي في تنقلاته.
المصدر نفسه، الجزء نفسه : ٣٤ هامش: ١، وأيضًا :
الإمام، مرجع سابق: ٥، هامش ٢ .

(٢) اختلف المؤرخون في أصله ويُرجح أنه يوناني الأصل، تطوّع في الخدمة العسكرية، وثُبّت في ديوان الجند. انظر: ابن أبي الضياف، مصدر سابق: ٢ / ١٠٥ . وأيضًا :
الإمام، مرجع سابق : ٢٧، هامش : ١ .

(٣) ابن أبي الضياف، مصدر سابق: ٢ / ١٠٣ .

(٤) المصدر نفسه الجزء نفسه.

(٥) ثامر، مرجع سابق: ٥٤ .

(٦) الركباني، مرجع سابق: ٦٧ .

(٧) جاء من إستانبـول مملوكًا لأحد البايات التونسيين، واصطفاه البـاي علي، وقربه إليه . وقد اعتنى مـصطفى خوجة بتـربية ابن الباي وهو «حـمودة » وحينمـا اعتلى حمـودة الحكم كان مصطفى من أهم وزرائه، وتوفي في عام ١٢١٥هـ/ ١٨٠٠م .
ابن أبي الضياف، مصدر سابق: ٧ / ٣٨ - ٣٩ .

(٨) أصله من البغدان (في رومانيا)، جُلب إلى تونس وهو صغير، وعمل طابعًا لمكتوبات الدولة في عهـد الباي علي، وتولى الوزارة الأولى في عـهد الباي حـمودة بن علي، دُبرت مـؤامرة للتخلص منه انتـهت بقتله والعبث بأشـلائه في عام ١٢٣١هـ/ ١٨١٦م. المرجع نفســه، الجزء نفسه : ٨٩ - ١٠٠ .

(ب) صلات تونس بالدولة العثمانية في عهد الأسرة الحسينية :

ظلت الولاية التونسية في هذا العهد جزءًا من الدولة العثمانية، وعلى الرغم من تمتعها باستقلال داخلي تدعّم في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين/ الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين[١] إلا أن علاقاتها مع إستانبول ظلت متينة، إذ من المعروف أن السياسة العثمانية حرصت على تقوية مشاعر المسلمين في أنحاء الدولة العثمانية كافة، وربطهم بعاصمة الخلافة الإسلامية إستانبول، وبالسلطان العثماني بوصفه خليفة المسلمين. وحدث الأمر نفسه في الولاية التونسية فقد حرصت الدولة على تقوية مركزها في الولاية بهدف تعزيز صمودها في وجه الأخطار الداخلية والخارجية المحيطة بها شأنها في ذلك شأن سائر ولايات الدولة العثمانية[٢].

ولاقت مساعي الدولة العثمانية رغبة صادقة في نفوس البايات التونسيين الذين كانوا يدينون بالولاء للدولة العثمانية، وكان من مظاهر ذلك صدور قرار (فرمان) من السلطان العثماني يثبت تولي البايات الحكم في الولاية، وإضفاء صفة الشرعية على ولاياتهم، وأورد ابن أبي الضياف[٣] بعض أوجه تبعية ولاية تونس لسلاطين الدولة العثمانية "الطاعة، والدعاء على المنابر، ونقش أسمائهم على الدنانير والدراهم، ولملوكها الإذن في تصرفهم بالمصلحة شأن ولاية التفويض[٤] الشرعية من الدولة العلية العثمانية، . . . ودخلُها (أي تونس) لمصالحها، يرفعون منه شيئًا للدولة بحسب الاستطاعة إظهارًا لطاعتهم

---

(1) Bechir Tlili, les Rapport Culturels Et Ideologiques Enter L,Orient Et L.Occident, En Tunisie, Au xix em Siecle (1830-1880)(publications De L,Universite De Tunis, 1974) , P.55

(2) Ibid, P.P 57-58.

(٣) مصدر سابق: ١ / ٤٠ .

(٤) هي نظام يتيح للوالي التصرف في بعض الشؤون الداخلية للولاية بترخيص من السلطة المركزية .

يسمونه «الهدية» تفاديًا من التلفظ بالأداء لما تستشعر عامتها في ذلك من معنى «الجزية» .

وأفاض بيرم [١] في نواحي هذه التبعية والمتقرر في هذا القطر التونسي من الحقوق التي رسمتها الدولة العثمانية فيه عند فتحه، هو إعانته بالسفن الحربية وما يلزمها في الحروب، وهدايا ترسل من الوالي إلى دار الخلافة عند ولايته، أو عند ولاية سلطان، أو عندما توجد مناسبة للإهداء. والأغلب في الهدايا سابقًا أن تكون منتجات البلاد كالخيل، والحيوانات الغريبة من الصحراء، والمنسوجات الحريرية والصوفية، وكذلك رُتّب على القطر من الأشياء التي هي علامة على التبعية الخطبة باسم السلطان، والراية من نوع راية الدولة، ورسم اسم السلطان على السكة.

ومن الأدلة على تعلق بايات الأسرة الحسينية بالدولة العثمانية احتفاظهم بالطابع التركي سواء في المظاهر الرسمية، أم في إبقاء الجند التركي بين الجيش[٢]، أو في الاستمرار باتخاذ المذهب الحنفي مذهبًا رسميًا للولاية على الرغم من أن المذهب السائد في شمال أفريقيا هو المذهب المالكي وعلى الرغم أيضاً من سعي بعض البايات إلى الحد من تبعيتهم السياسية للدولة العثمانية (وخاصة حمودة باشا)، إلا أن حُكَّام تونس على وجه العموم حافظوا على مظاهر التبعية [٣].

وبعد وفاة حمودة باشا الذي حدّ من إظهار الولاء للدولة العثمانية قوي

---

(١) المصدر نفسه : ٦ / ١٤، هامش: ٢ .
مصدر سابق: ١ / ١٣٣ - ١٣٤ .
(٢) صلاح العقاد، المغرب العربي في التاريخ الحديث المعاصر (الجزائر، تونس، المغرب الأقصى، مكتبة الإنجلو المصرية، القاهرة، ط ٦، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م) : ٣٢ .
(٣) الإمام، مرجع سابق: ٣٥٥ - ٣٥٦ .

نفـوذ الدولة العثمـانية في تـونس، فقـد كان البـاي مـحمـود (١٢٢٩-١٢٣٩هـ/ ١٨١٤-١٨٢٤م) بحـاجة إلى دعم السلطان العـثمـاني لمواجـهة بعض الثورات التي نشبت في عـهده، واستمر تزايد نفوذ الدولة العـثمانية على بايات تـونس، حـتى إنه منذ عـام ١٢٣٦هــ/ ١٨٢١م أصـبح يُدعى للسلطان العثماني على المنابر بعد كل صلاة [١]، ويقول ابن أبي الضياف: «واستـمرت هذه العـادة من يومئـذ إلى يومنا هذا» [٢]. ويمكن القول: إن العلاقة بين الدولة العثمانية وولاية تونس كانت غالبًا ما تتبع قوة البايات أو ضعفهم.

وقد توترت العلاقة بين الدولة العثمـانية وولاية تونس إثر احتلال فرنسا للجزائر عام ١٢٤٦هـ / ١٨٣٠م، ذلك أن الدولة العثمانيـة بسبب خشيتها على بقيـة دُول شمال أفـريقيا عـمدت إلى ضم طرابلس الغرب لحكمـها المبـاشر في ١٢٥١هـ/ ١٨٣٥م، وخـشي البايـات التونسـيون من مـصير مماثل [٣].

ويلحظ أنه في عـهد الباي أحـمد (١٢٥٣-١٢٧١هـ/ ١٨٣٧-١٨٥٥م) طالبت الدولة العثمانية تونس في عام ١٢٥٤هـ/ ١٨٣٨م بتقديم مبلغ معين من المال [٤]، وأتبـعت ذلك بـالطلب من باي تونس تطبـيق خط شـريف كلخانه [٥] (١٢٥٥هـ/ ١٨٣٩م) على ولايتـه، وامتثـل الباي أحمـد لذلك

---

(١) ابن أبي الضياف، مصدر سابق: ٣ / ١٧٥ .

(٢) المصدر نفسه، الجزء نفسه، الصفحة نفسها .
والجدير بالذكر أن ابن أبي الضياف قد توفي عام ١٢٩١هـ / ١٨٧٤م .

(٣) المصدر نفسه، جـ ٦، ص ١٦ .

(٤) المصدر نفسه، الجزء نفسه، ١٧ .

(٥) صدر في عـهد السلطان عبـدالمجيد (١٢٥٥ - ١٢٧٨هــ / ١٨٣٩-١٨٦١م)، وتضمن بنوداً عدة تتناول إصـلاحات في الإدارة والقضاء وجـباية الأموال والنظم العـسكرية، والمساواة بين المسلمين وغيرهم . وهو المرحلة الأولى من فترة الإصلاحـات في الدولة العثمانية والمعروفة=

الطلب، ولكنه طلب إعطاءه فرصة للعمل به وفق النظام المعمول به في تونس وبشكل يتلاءم مع عادات السكان [(١)]، وبدا هذا الرد محاولة للتهرب، لذا انتهزت الدولة العثمانية فرصة طلب الباي أحمد منحه لقب «مشير» [(٢)] عام ١٢٥٦هـ/ ١٨٤٠م كي تفرض مطالب عدة إضافة إلى دفع مبلغ معين من المال سنويًا، وهي "أن يكون صنجق[(٣)] تونس مثل صنجق الدولة العلية في لونه وشكله، وأن تكون خُلْطة (علاقة) تونس مع الدول بإذن خاص من الدولة العلية، وأن تكون ولاة المناصب بالأمر السلطاني، واختيارهم بيد الباشا، وأن يُرفَع إلى الدولة العلية في كل عام حساب المملكة التونسية وخرجها [(٤)].

وعلى الرغم من أن الدولة العثمانية قد منحت أحمد باي لقب «مشير»، إلا أنه تخوف من مطالب الدولة العثمانية، وعمل على إطلاع قنصل فرنسا عليها، وسانده الأخير، وأوحى له بأنه حاكم مستقل عن الدولة العثمانية، وأن دولة فرنسا سوف تحميه وتقف إلى جانبه إذا أرادت الدولة العثمانية أن

= باسم التنظيمات الخيرية وهي مجموعة من القوانين حاولت بها الدولة العثمانية وبضغط من الدول الأوربية إصلاح الأوضاع في الدولة العثمانية .
محمد فريد، تاريخ الدولة العلية العثمانية، (دار الجيل، بيروت، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م)، ٢٥٤-٢٥٦ . وأيضًا : دائرة المعارف الإسلامية، مرجع سابق، جـ ٤ ، ٦٨٩ .

(١) بيرم، مصدر سابق، جـ ١، ١٣٦ .

(٢) هو أفخم الألقاب في أنظمة الجيش العثماني . ومن الملحوظ أن هذا اللقب قد ألغي في عهد الحماية الفرنسية على تونس (١٢٩٨هـ/ ١٨٨١م) حيث لم يكن من النعوت الملكية الوراثية .
محمد ابن الخوجة، صفحات من تاريخ تونس، (١٢٩٨هـ/ ١٨٨١م) تقديم وتحقيق حمادي الساحلي والجيلاني ابن الحاج يحيى، (دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م) ٦٤ - ٦٥ .

(٣) لفظة من أصل تركي وتعني العلم أو الراية .
ابن أبي الضياف، مصدر سابق، جـ ٥ ، ٦٦، هامش ٥ .

(٤) المصدر نفسه : ٦ / ١٧ .

تلحق به الأذى [١]. ولم يكتف أحمد باي بذلك بل التقى في باريس عام ١٢٦١/ ١٨٤٥م ملك فرنسا لويس فيليب [٢](Philippe Louis)، وقال له الملك [٣]: إن كنت تروم الاستقلال فلا سبيل إليه، والذي تعتمده مني أن فرنسا تحمي بسياستها حالتك التي أنت فيها الآن [٤].

وخشي السلطان العثماني عبد المجيد من مغبة ذلك فعمد في عام ١٢٦٥هـ/ ١٨٤٩م إلى الاستعانة بوالي مصر عباس باشا [٥]١٢٦٤-١٢٧٠هـ/ ١٨٤٨-١٨٥٤م) لنصح المشير بالركون إلى الدولة العثمانية [٦] كما عمد السلطان العثماني إلى إحداث شعور بالأمان لدى الباي في تونس مما يمكن توقعه من الدولة [٧].

وكان المشير أحمد يتعامل بطريقة لبقة مع بعض مطالب السلطان

---

(١) المصدر نفسه : الجزء نفسه : ١٩ .

(٢) حكم في الفترة (١٢٤٦-١٢٦٥هـ / ١٨٣٠-١٨٤٨م) وهو من أسرة أورليان الفرنسية، مؤسس ما يسمى عند المؤرخين بـ «ملكية جويليه» إثر ثورة ١٨٣٠م في فرنسا وهي ملكية تعتمد أساسًا على الطبقة الغنية، حافظ على السِّلم مع الدول الكبرى وأتاح لبلاده قسطًا من التقدم الاقتصادي، والرخاء المتزايد. قامت ضده ثورة انتهت بنفيه عام ١٢٦٥هـ/ ١٨٤٨م .
هربرت فشر، تاريخ أوربا في العصر الحديث، ترجمه عن الإنجليزية أحمد بخيت هاشم ووديع الضبع، (دار المعارف، مصر، ط ٢، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م)، ١٤١، ١٤٤، ١٦٥.

(٣) ابن أبي الضياف، مصدر سابق : جـ ٦، ٢٠ .

(٤) المصدر نفسه ، الصفحة نفسها.

(٥) هو ابن طوسون بن محمد علي باشا، خلف عمه إبراهيم على الحكم في مصر، حكم في المدة (١٢٦٤-١٢٧٠هـ/ ١٨٤٨-١٨٥٤م)، رفض التودد للدول الأوربية، وطرد المستشارين الأوربيين، ووطد علاقته بالدولة العثمانية، وقد شارك جيشه مع قوات الدولة العثمانية في حرب القرم .
عمر عبدالعزيز عمر، تاريخ المشرق العربي ١٥١٦هـ/ ١٩٢٢م، (دار النهضة العربية، بيروت، ١٤١٤هـ/ ١٩٨٤م) .

(٦) إسماعيل سرهنك، حقائق الأخبار عن دول البحار، (المطبعة الأميرية، بولاق مصر ٣٢٥-٣٢٦، ١٣١٢هـ/ ١٨٩٥م : ٢٤٢ .

(٧) ابن أبي الضياف، مصدر سابق: ٦ / ١٩ .

العثماني، فمثلاً عندما طلب من السلطان العثماني إعفاءه من الالتزام المالي السنوي نظرًا لعدم مقدرة تونس على توفيره، وافق السلطان العثماني على ذلك واكتفى بالهدية السنوية المرسلة[١] من تونس[٢]، وحرص المشير أحمد على إشعار الدولة بخضوع تونس وانتمائها للدولة العثمانية، وعبّر عن ذلك في مراسلاته[٣]، وفي تلبيته دعوة الدولة العثمانية له لدعمها في حروبها مع الدول الأوربية ومنها حرب القرم[٤] (١٢٧٠-١٢٧٣هـ / ١٨٥٣-١٨٥٦م) وهو أمر سار عليه البايات الذين تولوا الحكم بعده، ولكن هذا لم يمنع المشير أحمد باشا باي من إبداء روح استقلالية تجلت في مراسلته الدولة العثمانية باللغة العربية غالبًا، كما أشار إلى ذلك ابن أبي الضياف "وهو أول من كاتب الدولة العثمانية باللسان العربي متعللاً بأنه لا يضع ختمه إلا على ما يفهم خصائص تراكيبه[٥].

وقد حذا خليفته المشير محمد باشا باي (١٢٧١-١٢٧٦هـ/ ١٨٥٤-١٨٥٩م) حذوه في اتباع سياسة لبقة مع الدولة العثمانية [٦]، واضطر إزاء

---

(١) من تلك الهدايا التي أرسلت في عهد المشير أحمد باشا باي هدية أرسلها المشير في عام ١٢٥٧هـ/ ١٨٤١م مع أحد رجاله وهي عبارة عن ستة وعشرين رأسًا من الخيول العربية منها عشرة خيول للسلطان العثماني والبقية موزعة على الشخصيات المهمة في الدولة .
وثائق دارة الملك عبدالعزيز، الرياض رقم ١/ ٢ -١٤٤، الوثيقتان رقم ٣٤٣، ٣٤٤ باللغة التركية، هدية أحمد باشا مشير إيالة تونس إلى السلطان العثماني عبدالمجيد في عام ١٢٥٧هـ/ ١٨٤١م .

(٢) بيرم، مصدر سابق: ١ / ١٣٩، ١٤١ .

(٣) المصدر نفسه، الجزء نفسه : ١٤٣ .

(٤) نشبت الحرب بسبب تدخل روسيا في سياسة الدولة العثمانية في البلقان، وكانت بين روسيا من جهة وبين الدولة العثمانية وحليفاتها (بريطانيا وفرنسا وسردينيا) من جهة أخرى، وقد انتهت بهزيمة روسيا وتوقيع معاهدة باريس عام ١٢٧٣هـ/ ١٨٥٦م .
فريد، مصدر سابق: ٢٦١ - ٢٧٦ .

(٥) مصدر سابق: ، ٤ / ٢١.

(٦) بيرم، مصدر سابق: ١ / ١٤٣ - ١٤٥ .

رغبة الدولة العثمانية، ونتيجة لضغط بعض الدول الأوربية(بريطانيا وفرنسا)[١] إلى إصدار ما عرف بـ عهد الأمان[٢] وذلك في عام ١٢٧٤هـ / ١٨٥٧م بالاسترشاد بما جاء في التنظيمات العثمانية[٣]، وكان تنظيم خط شريف همايون[٤] قد صدر عام ١٢٧٢هـ/ ١٨٥٦م ويمكن القول: إنه على الرغم من توتر العلاقات بين الدولة العثمانية وولاية تونس التي نشأت بمجملها من جراء تخوف الدولة العثمانية من سقوط تونس بأيدي الدول الأجنبية من جهة، ومن تخوف البايات من تبعية تونس المباشرة للدولة العثمانية من جهة أخرى، ظلت هذه العلاقات تدور في إطار سلمي من أجل تحقيق مطالب الطرفين.

ويبدو أن فرنسا منذ أن أصبحت مجاورة للولاية التونسية بعد احتلالها للجزائر عام ١٢٤٦هـ / ١٨٣٠م أخذت تعترض على أي تغيير يجري في الولاية التونسية لصالح الدولة العثمانية، ولجأت إلى سياسة هدفها محو السيادة العثمانية، واستبدالها تدريجياً بالحماية الفرنسية، وبدأت بمعاملة

---

(1) P.M. Holt, the cambridge History of islam, (cambridge universty press, (1970) P.294.

(٢) هو قانون سياسي تضمن إحدى عشرة قاعدة تم فيها التأكيد على الأمان لجميع سكان الولاية، والمساواة فيما بينهم دون النظر إلى دياناتهم، وقد كسب الأجانب بمقتضاه مزايا كثيرة من حيث مساواتهم بأفراد الشعب في حقوق الملكية، وحق العمل، والتقاضي وما شابه ذلك . ولم يتم تطبيقه رسمياً إلا في شوال من عام ١٢٧٧هـ / إبريل من عام ١٨٦١م .
ابن أبي الضياف، مصدر سابق: ٤ / ٢٦٩ - ٢٧١، ٥ / ٦٦ .
ويعد أول دستور من نوعه في العالم العربي الإسلامي .
ALbert Hourani, A History of the Arab Peoples, (Harvard University Cambrdge, U.S.A. 1991) P.74 .

(٣) الجمل، مرجع سابق: ١١٧ .

(٤) ومعناه القانون السلطاني، وهو المرحلة الثانية من التنظيمات الخيرية العثمانية، وقد أقر فيه السلطان العثماني عبدالمجيد المبادئ التي كان قد أعلنها سابقاً في خط شريف كلخانه، وقد ركز فيه على حقوق الطوائف والأقليات غير الإسلامية ومصالحها في الدولة العثمانية .
سيار الجميل، تكوين العرب الحديث (دار الشروق، عمان ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م) : ٣٩٢-, ٣٩٥

بايات تونس معاملة الحكام المستقلين، إلا أن البايات على الرغم من ترحيبهم بتلك السياسة تجاههم إلا أنهم حافظوا على العلاقات التقليدية بين ولايتهم والدولة العثمانية لخشيتهم من التوسع الاستعماري[١].

(ج) تونس وخطوات الحماية الفرنسية :

تمتعت تونس منذ القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي بمكانة واضحة في حوض البحر المتوسط نظرًا لقوة أسطولها، ونشاطه ضد السفن الأوربية التي كانت تجوب البحر المتوسط . وكانت تونس أسوة بالولايات المجاورة لها مثل ليبيا والجزائر تفرض الإتاوات على السفن المسيحية المارة، ومنذ مطلع القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي عملت الدول الأوربية البحرية وعلى رأسها بريطانيا جاهدة من أجل السيطرة على حوض البحر المتوسط، والقضاء على تلك القوى التي تزاحمها هناك، وكانت حجتها القضاء على ما أسمته «القرصنة» [٢]، وتجارة الرقيق. وحاولت بريطانيا وفرنسا على وجه الخصوص القيام بحملات عسكرية [٣] استهدفت الولايات العربية الإسلامية على ساحل أفريقيا الشمالي ومن بينها تونس، كما اتخذت من أجل ذلك قرارات دولية عدة كان منها ما اتخذ في مؤتمر «إكس لاشابل».

---

(1) Tillili Op. Cit, P 60 .

(٢) كانت ولايات المغرب العربي تعد البحر المتوسط بحرًا إسلاميًا ومن ثم كانت ترى أنه ليس من حق الدول المسيحية أن تمارس الملاحة فيه إلا بترخيص من الولايات المطلة عليه، وأن من حقها الدفاع عن شواطئها لو هددت. العقاد، المرجع السابق، ص ٣٥ .

(٣) سعت فرنسا بعد هزيمة نابليون وعودة آل البوربون عام ١٢٢٩هـ/ ١٨١٤م إلى استعادة مكانتها الدولية والتوجه إلى سياسة خارجية نشطة ولكن خارج أوربا من أجل التوسع الاستعماري .
فشر، مصدر سابق: ١٠٩، ١٤٠ .

وكانت بداية القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي في تونس قد شهدت بعد وفاة الباي حمودة عام ١٢٢٩هـ/ ١٨١٤م تولي ولاة ضعاف تخاذلوا تجاه مطالب الدول الأوربية بشأن التوقف عن ممارسة نشاطهم في البحر المتوسط ضد السفن الأوربية، والتوقف عن تجارة الرقيق.

فقد فرضت فرنسا على سبيل المثال على الباي حسين (١٢٣٨-١٢٥١هـ/ ١٨٢٣-١٨٣٥م) توقيع معاهدة تعهد فيها بمنع القرصنة، وإلغاء الإتاوات، ومنح الدول الأوربية الحق بإنشاء القنصليات في أي موقع في تونس، والسماح بحرية التجارة بين الأجانب والتونسيين، ومنح فرنسا حق الدولة الأكثر رعاية[١].

ويمكن الإشارة إلى أن استجابة الباي حسين للمطالب الأوربية كانت من أبرز العوامل التي أثرت سلباً في الاقتصاد التونسي، وتسببت في إضعافه، هذا في حين أنها أسهمت في زيادة الحركة التجارية للسفن الأوربية في حوض البحر المتوسط.

وتفاقم الأمر باحتلال أساطيل الدول الأوربية بعض المراكز التجارية (وهي مواقع استعمارية متقدمة) على طول سواحل أفريقيا الغربية، ونتج عن ذلك استغناء الدول الأوربية عن دور تونس وغيرها من الولايات الأفريقية الشمالية في إمداد الدول الأوربية بالمنتجات الأفريقية، وكانت تلك المنتجات تصل إلى شواطئ تلك الولايات عبر طرق القوافل التجارية الداخلية .

وقد أضعف هذا الأمر بالتأكيد نشاط الولاية التونسية التجاري[٢]، وزادت حدة المزاحمة الفرنسية لهذا النشاط في حوض البحر المتوسط الغربي

(١) العقاد، مرجع سابق: ٢٧٨ .
(٢) يحيى، مرجع سابق: / ٢٥٨ .

إثر احتلال فرنسا للجزائر عام ١٢٤٦هـ/ ١٨٣٠م، فقد تعرقل نشاط القوافل التجارية القادمة إلى تونس من قلب أفريقيا عبر الصحراء الكبرى[١][٢] .

والملحوظ أن مكانة فرنسا في تونس قد ازدادت في عهد المشير أحمد باشا باي (١٢٥٣-١٢٧١هـ/ ١٨٣٧-١٨٥٥) الذي اتبع سياسة التعاون مع فرنسا وعَدَّ ذلك مظهراً من مظاهر استقلاله عن الدولة العثمانية [٣]، واستغل الفرنسيون رغبة الباي هذه فعملوا على تنميتها، وكان من مظاهر تقرب المشير أحمد من فرنسا عمله على إدخال بعض الإصلاحات في الولاية على النمط الغربي معتمداً في ذلك على فرنسا . وتركزت إصلاحاته على الجوانب العسكرية، إلا أن هذا الجهد الإصلاحي حمل في أعقابه تجديدات في الاقتصاد والإدارة وغيرهما من النواحي الأخرى [٤] .

وجاءت فترة المشير محمد الصادق باي (١٢٧٦-١٢٩٩هـ/ ١٨٥٩-١٨٨٢م) لتزيد من الضغوط السياسية والمالية على ولاية تونس، فقد أقر في أوائل حكمه العمل بما جاء في عهد الأمان، وزاد من ثمَّ نفوذ الجاليات الأجنبية في البلاد، كما اتبع المشير في حكمه سياسة التبذير، واعتمد على شخصيات ثبت أنها ليست أهلاً للثقة [٥] فتدهورت ميزانية البلاد، ولمعالجة ذلك لجأ المشير إلى أخذ قروض من الدول الأوروبية خاصة فرنسا، كما عمل

(١) منطقة تمتد من المحيط الأطلسي حتى البحر الأحمر على امتداد الشمال الأفريقي كله وتعد أكبر صحاري العالم، وتشمل سلاسل من الجبال والهضاب ومساحات شاسعة من الأراضي السهلية. الموسوعة العربية العالمية : ١٥ / ٥٩ .

(٢) صباغ، مرجع سابق: ٢٧٩ .

(٣) المرجع نفسه، الصفحة نفسها .

(4) Carl Brown, the Tunisia of Ahmad Bey 1837-1855, (Princeton, New jersey, 1974 P 207.

(٥) منهم وزيراه مصطفى خزنة دار، ومصطفى بن إسماعيل .
الشيباني بن بلغيث، الجيش التونسي في عهد محمد الصادق باي (١٨٥٩-١٨٨٢م)، (مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، زغوان - (تونس)، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م) : ٦٨-٧٢ .

على مضاعفة الضرائب على السكان، لذا قامت ضده ثورة شعبية [(١)] تطلبت منه المزيد من الأموال لإخمادها، كما أسهمت في تدخل الدول الأوربية في شؤون تونس بحجة حماية رعاياها، وهكذا تضخمت القروض وتجاوزت إمكانات الولاية بتسديدها [(٢)]، وحين عجزت تونس عن الوفاء بالتزاماتها المالية للدول الأوربية (بريطانيا - فرنسا - إيطاليا) وبلغت ديونها حوالي مئة وستين مليون فرنك واثنين وثلاثين دولاراً أعلنت إفلاسها عام ١٢٨٦هـ/ ١٨٦٩م [(٣)]. وعندها قررت تلك الدول في عام ١٢٨٧هـ/ ١٨٧٠م تشكيل لجنة دولية للإشراف على الموازنة التونسية، وتألفت اللجنة من أعضاء يمثلون الدول الدائنة وحصرت مهمتها في استلام نصف إيرادات الخزينة لدفع فوائد القروض المستحقة كل عام [(٤)] .

وتطلب عمل اللجنة زيادة التدخل في شؤون الولاية التونسية الإدارية، وهذا ما أثار حفيظة الشعب التونسي، ولكن من حسن حظ البلاد أن اختِيْر للوزارة الكبرى[(٥)] فيها عام ١٢٩٠هـ/ ١٨٧٣م المصلح خير الدين

(١) هي ثورة علي بن غذاهم التي حدثت عام ١٢٨١هـ/ ١٨٦٤م، وقد هددت سلطة الباي، وانتهت الثورة بالقضاء عليها وقتل زعيمها عام ١٢٨٣هـ/ ١٨٦٦م.
الهادي جلاب وعبدالمجيد كريم، وثائق معرض الحركة الإصلاحية بالبلاد التونسية بين ١٨١٥- ١٩٢٠م، (منشورات المعهدالأعلى لتاريخ الحركة الوطنية، تونس، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م): ٧٠ - ٨٠ .

(٢) سرهنك، مرجع سابق: ٤٣٥ .

(3) Carl Brown and Cyril Black Modernization in the middle East : the Ottoman Empire and its Afro-Asian Successors , the Darwin, Press, Princeton, U.S.A, 1992) P 92.

(٤) العقاد، مرجع سابق: ١٨٢ .

(٥) أُنشئ منصب «الوزير الأكبر» في عام ١٢٧٧هـ/ ١٨٦٠م وذلك بعد صدور عهد الأمان، وكان من مهام المنصب تسيير جميع شؤون البلاد بمساعدة بعض أعضاء الولاية مثل المستشارين، وكانت جميع الوزارات الكبرى كالمالية والخارجية والحربية وغيرها تتبع مباشرة للوزارة الكبرى . وقد قُلصت صلاحياتها بعد فرض الحماية الفرنسية على تونس .
أحمد القصاب، تاريخ تونس المعاصر، ١٨٨١هـ/ ١٩٥٦م، نقله من الفرنسية إلى العربية حمادي الساحلي، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م ٣٧١ .

التونسي[١]، وعمل الوزير الأكبر على تنظيم الإدارة المالية في الولاية، وإصلاح التعليم، والعمل على إيجاد توازن بين امتيازات الدول الأوربية ومصالح البلاد التونسية، وغير ذلك من الأعمال الإصلاحية [٢]. ولكنه لم يستمر في الوزارة أكثر من أربع سنوات، حيث اضطر لتقديم استقالته عام ١٢٩٤هـ/ ١٨٧٧م إثر خلاف حدث بينه وبين الباي بعدما أحاطت به الدسائس من كل جانب [٣].

على الرغم من اشتداد التنافس بين الدول الأوربية على ولاية تونس فقد استطاعت فرنسا منذ مؤتمر برلين عام ١٢٩٥هـ/ ١٨٧٨م [٤] كسب الجولة

---

(١) من أصل شركسي، خُطف وهو صغير، وبيع في إستانبول، واشتراه أحد الباشوات ثم باعه إلى أحد وكلاء باي تونس فتربى في قصر المشير أحمد باشا باي، توسع في دراسة العلوم الشرعية، واهتم بتعلم اللغة الفرنسية فأتقنها، تولى عدة مناصب مهمة في الولاية، عُدّ من المصلحين البارزين في الولاية . ألف كتاب «أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك » في مجلدين أوضح فيهما آراءه الإصلاحية، وتحدث فيهما عن بعض الدول الأوربية . توفي عام ١٣٠٧هـ/ ١٨٩٠م .
أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، (مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م): ١٦٨ - ١٧١ .

(٢) ج . س . فان كريكن، خير الدين والبلاد التونسية ١٨٥٠ -١٨٨١، ترجمه عن الفرنسية البشير بن سلامة، (دار سحنون للنشر، تونس، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م) : ١٧٩ - ٢٤٠ .

(٣) المصدر نفسه : ٢٨٤ -٢٨٥ .

(٤) عقد هذا المؤتمر برئاسة المستشار الألماني بسمارك وذلك لبحث المسألة الشرقية فيما بين الدول الأوربية بعد أن اضطرت الدولة العثمانية إلى عقد معاهدة سان ستيفانو المذلة مع روسيا عام ١٢٩٥هـ/ ١٨٧٨م، وقد منحت الدولة العثمانية - سرًا - جزيرة قبرص لإنجلترا مقابل ضمان مصالح الدولة العثمانية تجاه الأطماع الروسية غير أن هذه المعاهدة السرية قد أُفشيت في هذا المؤتمر، واحتجت فرنسا. ولإرضاء فرنسا لوحت بريطانيا لفرنسا بإمكانية احتلال فرنسا لتونس وشجعتها ألمانيا على ذلك لأن السياسة الألمانية في ذلك الوقت كانت تسعى لصرف أنظار فرنسا عن استعادة الألزاس واللورين وهما المقاطعتان اللتان اقتطعتهما ألمانيا من فرنسا في الحرب السبعينية عام ١٢٨٧هـ/ ١٨٧٠م .
فريد، مصدر سابق: ٣٩٦-٣٨٧، وأيضًا :
العقاد، مرجع سابق: ١٧٦-١٧٧ .

لصالحها ضد الأطماع الإيطالية في تونس، وعززت موقعها حين حصلت على تلميحات من بريطانيا بعدم الاعتراض على مد نفوذها على تونس، كما حصلت من ألمانيا على تأييد مشابه [١].

وبعد أن مهدت فرنسا دوليًا لمسألة فرض الحماية على تونس أخذت بإقناع المعارضة الدولية بحجة أنها لن تقضي على كيان البلاد المحمية أي أن تونس سوف تصبح خاضعة لنظام الحماية، ولن تضم بشكل مباشر لفرنسا كما حدث في الجزائر، وكذلك سعت لكسب المعارضة داخل فرنسا من أجل تأييد حملة فرض الحماية على تونس بدعوى أن نفقات الحملة سوف تقع على عاتق البلاد المحمية [٢] .

وبعد هذه الخطوات التمهيدية لفرض الحماية الفرنسية على تونس تذرعت فرنسا بحدوث مشكلات بين القبائل التونسية والجزائرية على حدود الجزائر كي تتدخل في شؤون البلاد التونسية، وقد أعدت حملة برية في ٢٩/ ٤/ ١٢٩٨هـ الموافق ٣٠/ ٣/ ١٨٨١م زحفت بها على الحدود التونسية بحجة تأديب القبائل التونسية المعتدية(بنوخمير)، كما قادت بعدها حملة بحرية تجاه الشواطئ التونسية تمكنت من احتلال الموانئ الرئيسة في البلاد، ومحاصرة العاصمة التونسية . واضطر المشير محمد الصادق باشا باي إلى عقد معاهدة باردو في ١٣/٦/١٢٩٨هـ الموافق١٢/ ٥/ ١٨٨١م اعترف فيها لفرنسا باحتلال قواتها العسكرية المراكز التي تراها ضرورية لاستتباب الأمن بشرط أن ينقضي هذا الاحتلال حينما تقرر السلطتان الفرنسية والتونسية قدرة الإدارة المحلية على الحفاظ على الأمن [٣] .

---

(1) Holt, Op.Cit, P296-297 .

(٢) العقاد، مرجع سابق: ١٩٠ .

(٣) بيرم، مصدر سابق: ٣ / ١٣٤ - ١٣٦ .

واتسم موقف الدولة العثمانية من فرض الحماية الفرنسية على تونس بالضعف، ولم تتمكن الدولة من نجدة تونس ضد القوات الفرنسية، واكتفى السلطان العثماني عبد الحميد الثاني (١٢٩٣ - ١٣٢٧هـ / ١٨٧٦-١٩٠٩م) في بداية الأمر بتقديم احتجاج إلى فرنسا لما قامت به في تونس، ثم عزم على إرسال سفنه الحربية ليؤكد تبعية تونس للدولة العثمانية، غير أن فرنسا أعلنت أن اتخاذ أمر خطير كهذا سوف يؤدي إلى النزاع معها، واكتفت الدولة العثمانية حفظًا لماء الوجه تجاه العالم الإسلامي بإرسال سفينتين حربيتين، وقبل أن تصلا كان توقيع معاهدة الحماية الفرنسية على الولاية التونسية قد نُفِّذ[١]، ولم يكن هذا يعني تغيير السلطان العثماني لنمط علاقته مع فرنسا، واضطرت الدولة العثمانية إلى الاعتراف ضمنًا بالحماية الفرنسية على تونس حينما قبلت في عام ١٣٠٥هـ ١٨٨٨/م أن تبحث مع فرنسا مسألة تخطيط الحدود بين تونس وطرابلس الغرب [٢].

وعملت فرنسا من خلال نظام الحماية على إبقاء منصب الباي، وحولت منصب القنصل الفرنسي إلى مقيم عام عُدَّ مستشارًا للباي ظاهريًا، في حين كانت السلطة الفعلية في يده، وكان يساعد المقيم العام مجلس مكون من مديري المصالح الفرنسية الملحقين بالوزارة التونسية، فكان لكل وزير تونسي مستشار فرنسي بيده تصريف الشؤون الوزارية، وليس للوزير سوى التوقيع[٣]، وكانت قرارات المجلس تعرض على الباي الذي يلزم بالتوقيع

(١) عبدالرحمن تشابجي، المسألة التونسية والسياسة العثمانية ١٨٨١-١٩١٣م نقله عن الفرنسية وعلّق عليه عبدالجليل التميمي، (دار الكتب الشرقية، تونس، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م): ١١٨ - ١٢٤.

(٢) المرجع نفسه : ٢٦٩ - ٢٧٠ . ولم يتم الاعتراف رسمياً بالحماية الفرنسية على تونس إلا في معاهدة سيفر (١٣٣٩هـ/ ١٩٢٠م) بعد هزيمة الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى (١٣٣٢-١٣٣٦هـ/ ١٩١٤-١٩١٨م).
العقاد، مرجع سابق: ٢٠٢ .

(٣) القصاب، مرجع سابق: ٣٧١ - ٣٧٢ .

عليها وفق مشيئة المقيم العام، ولو رفض الباي كان يعزل وينصِّب محله بايًا آخر أكثر طواعية لسلطات الحماية [(١)] .

وعمد الشعب التونسي إلى مقاومة الحماية الفرنسية باستخدام الأسلوب العسكري، ولكن بعد أن ثبت فشل هذا الأسلوب تجاه التفوق العسكري الذي تتمتع به الدولة الفرنسية مقارنة بالولاية التونسية، تحولت المقاومة الوطنية إلى العمل السياسي لمناهضة المستعمر .

وفي بداية القرن الرابع عشر الهجري / العشرين الميلادي ظهرت الأحزاب السياسية التي تدعو للارتباط بالدولة العثمانية والعمل من أجل الحصول على حق التونسيين في إدارة شؤون بلادهم جنبًا إلى جنب مع السلطات الفرنسية [(٢)] .

ثانيًا - أوضاع الحجاز السياسية :

(أ) تنظيم ولاية الحجاز في ظل الحكم العثماني :

لقد وجد الشريف بركات أن من الحكمة إلحاق الحجاز بحكم الدولة العثمانية بطريقة سلمية نظرًا لحاجته إلى مساندة دولة إسلامية كبرى لمواجهة الخطر البرتغالي الذي كان يهدد السواحل. ولم يكن خضوع الحجاز للسيادة العثمانية يعني تغيير نظام الشرافة [(٣)] المتبع في ذلك الإقليم، بل كان يضمن استمرار استفادة الحجاز مما كان يحصل عليه من مصر في العهود السابقة،

---

(١) ثامر، مرجع سابق: ٧٢ - ٧٣ .

(٢) البشير بن عثمان الشريف، أضواء على تاريخ تونس الحديث (١٨٨١-١٩٢٤م)، (دار بو سلامة للطباعة والنشر، تونس، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م) : ٣١، ١١٩، ١٣٩ .

(٣) كان هذا النظام معمولاً به من قبل، وبمقتضاه كان يتولى الحكم أحد الأشراف، وكان مقره مكة ويلقب باسم «شريف مكةوأميرها».

فائق الصواف، العلاقات بين الدولة العثمانية وإقليم الحجاز في الفترة ما بين ١٢٩٣-١٣٣٤هـ/ ١٨٧٦- ١٩١٦م، (مطابع سجل العرب، القاهرة، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م): ٤٨ .

خاصة في العهد المملوكي[١]، ومن ذلك ريع الأوقاف المرصودة في مصر على الحرمين الشريفين وعلى فقراء مكة، والمخصصات العينية التي كانت ترسل إلى مكة، هذا بالإضافة إلى إرسال كسوة الكعبة . وكان انضمام الشريف بركات إلى الدولة العثمانية يعني تدعيم مركزه في شرافة مكة تجاه منافسيه وخصومه من أسرة الأشراف[٢] . ولقد أدت هذه الأسباب مجتمعة إلى ترحيب الشريف بركات بانضمام الحجاز للحكم العثماني .

ومن جهة أخرى وجد السلطان سليم أن انضمام الحجاز لحكمه سوف يمكنه من مواجهة الخطر البرتغالي في البحر الأحمر، فيحمي بذلك مصر، كما يحمي المقدسات الإسلامية. ونظرًا لما للحرمين الشريفين من أهمية دينية لدى المسلمين فإن تبعيتهما للدولة العثمانية ستضفي صفةً شرعيةً على الخلافة العثمانية. ولا شك أن السيطرة على الحجاز لن تكلف الدولة العثمانية أعباءً إضافية بل إنها ستزيد من اتساع رقعة الدولة العثمانية وتمكنها من الوصول جنوبًا إلى عدن ذات الموقع الإستراتيجي المهم .

---

(١) يرجع تاريخ إرسال الصدقات المملوكية إلى عهد شجرة الدر عام ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م، وكانت تُرسَل مع المحمل المصري تصحبه كسوة الكعبة وما يلزم الحرمين، إضافة إلى الصدقات التي كانت توزع على فقراء الحرمين.
عبدالله بن غازي، «إفادة الأنام بأخبار بلد الله الحرام»، (مخطوط بمكتبة الحرم المكي الشريف، مكة المكرمة، برقم ٢٧٤٣ (ميكروفيلم)، جـ ٢، ص ٣٦ .
و يرى محمد البتنوني (مصدر سابق: ١٤٠) أن «المحمل قديم جدًا، وربما كان من قبل الإسلام، وكان يطلق على الجمل الذي يحمل الهدايا إلى الكعبة المكرمة، وقد سير رسول الله ﷺ محملاً إلى مكة بهداياه إلى البيت المعظم، ويضيف : وعليه فجمل شجرة الدر إنما كان يسير أمامها حاملاً الهدايا التي أخذتها معها للبيت المكرم في هودج مزين بأبهى زينه، وغاية ما هناك أنها عنيت به ورتبت له كثيرًا من الخدم والحشم، ومن ثم صار عادة يقوم بها ملوك مصر كل سنة». وعليه ففي حين أن عبدالله غازي يعد المحمل هو الهودج (وهو الرأي الأرجح) يرى البتنوني أن الجمل هو المحمل .
(٢) السباعي، مرجع سابق: ٣١٠-٣١٧ .

وتم إلحاق الحجاز رسمياً بالدولة العثمانية في جمادى الأولى عام ٩٢٣هـ/ مايو ١٥١٧م، ولم يطلب السلطان سليم من الشريف بركات سوى الاعتراف الاسمي بالسيادة العثمانية، وأخذ موافقة السلطان العثماني على ولاية الشريف الجديد، ووجود ممثلٍ لشريف مكة في المدينة المنورة، ومشاركة الشريف في واردات جدة الجمركية[١]، وذكر اسم السلطان العثماني في الخطبة[٢]. ومع أن الحجاز ظل محتفظاً بنظام الشرافة الذي كان سائداً في عهد المماليك، فقد أنشأت الدولة العثمانية «صنجقية» في جدة يرأسها باشا بمرتبة وزير يُعدّ ممثلاً للدولة العثمانية في الحجاز، ويلقب رسمياً بوالي إيالة الحبش ومتصرف صنجق جدة.

وعُين في المدينة المنورة محافظ هو كبير العساكر، كما عُين إلى جانبه "شيخ الحرم "وقاضٍ ومُفتٍ وإمام وخطباء وأمين الخزانة، هذا بالإضافة إلى عدد آخر من أصحاب الوظائف الأخرى. وكانوا جميعاً يتبعون والي إيالة الحبش المقيم في جدة وكانوا يتمتعون ببعض الامتيازات، منها مخاطبة الدولة مباشرة[٣].

وكان لصنجقية جدة مجلس ينظر في الأمور المتعلقة بشؤون الحجاز. ويتألف المجلس من قاضي مكة ومفتي الأحناف والدفتر دار والمكتوبجي ومدير الحرم[٤].

واتبعت الدولة العثمانية منذ أن خضع الحجاز لسلطتها عادة إرسال قدر

(١) إسماعيل، مرجع سابق: ٣-٥ .

(2) AL Amr, po . Cit , p.7.

(٣) إسماعيل، مرجع سابق: ٧

(٤) سالنامة الحجاز بالعربية، ١٣٠٣هـ : ٥٤ . ومديرالحرم منصب من مناصب الدولة العثمانية يختص صاحبه بالإشراف على شؤون التعميرات بالحرم، كما يشرف على إدارة الأعمال فيه، قد يتولى والي جدة مشيخة الحرم المكي إلى جانب منصبه الأساسي، ومن أبرز الذين تولوا=

من الدخل العثماني عرف بالصرة [١] المجموع في مصر من الأوقاف غالبًا إلى الحجاز بصفته معونة دينية للحرمين الشريفين[٢] وذلك مع محمل الحج المصري، إضافة إلى مبلغ كبير من المال كان يرسل سنويًا من الباب العالي مع محمل الحج الشامي[٣]. وكان جزء من الأموال المرسلة يخصص للأشراف ويخصص جزء آخر لإعانة سكان المدينتين المقدستين من فقراء ومجاورين[٤]. وكانت الدولة ترسل من مصر إلى الحجاز مع محمل الحج المصري إضافة إلى المال دفعات عينية كالأرز والقمح كانت ترفق مع كسوة الكعبة المشرفة وكسوة الحجرة النبوية والشمع الذي كان يضاء به داخل الكعبة وخارجها، وطيب الكعبة وبخورها مثل عطر الورد والعنبر[٥].

= هذا المنصب عثمان نوري باشا . أما مشيخة الحرم المدني فكانت تسند إلى مسؤول عثماني آخر دحلان، مصدر سابق: تحليل : ١٠٤، وأيضاً.
سالنامه الحجاز بالعربية، ١٣٠٣هـ : ٥٢ .

(١) انظر تعريف الصرة في الفصل الثالث .

(2) Abdulaziz AL shebel , the Kingdom of the Hejaz (1916- 1925) Unpublished Doctorate the sis University of California, Los Angeles, p 16 ,

(٣) لم يُعرف بالتحديد أول خروج للمحمل الشامي، وإنما كان موجودًا في عهد المماليك . وكانت قافلة الحج الشامي تُجهّز بقيادة أمير الحج وهو والي دمشق غالباً، وينضم إليها الحجاج القادمون من إستانبول ومن وسط آسيا، وفي الخامس من شهر شوال يقام احتفال كبير تسلم فيه الصرة الهمايونية الموجهة من إستانبول ومعها ما يحتاج إليه الحَرَمان من شموع وزيت وقناديل وفرش وخلافه إلى أمير الحج، وتجهز تلك القافلة بجيش صغير ومعه الموسيقا تصدح أثناء الموكب والمدافع تطلق حين خروجه تجاه المدينة المنورة.
غازي، مصدر سابق: ٣٤ - ٣٥ . وأيضًا :
عزيز العظمة، مرآة الشام، تحقيق نجدة فتحي صفوة، (رياض الريس للكتب والنشر، لندن، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م) : ١١٠-١١٧ .

(4)Al Amr . op Cit , pp 22-23.

(٥) نبيل عبدالحي رضوان، الدولة العثمانية وغربي الجزيرة العربية بعد افتتاح قناة السويس (١٢٨٦-١٣٢٦هـ/ ١٨٦٩-١٩٠٨م)، (مكتبة تهامة، جدة، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م): ٣٢ - ٣٣.

وقد استفاد زعمــاء القبائل الرحّل التي كانت تعيش على طول طرق الحج الأربع من الدعم العثماني المالي والعيــني الذي كان يوزع عليهم لضمان أمن الطرق وسلامتها خلال موسم الحج(١).

وقد أعفت الدولة العثمانية ولاية الحجاز من دفع ضريبة للدولة، كما تمتع سكانها بالإعفاء الضريبي من جميع الضرائب الشخصية والعقارية باستثناء ما كــان الأشراف يفــرضونــه من ضرائب على الأغنام والمــاشيــة، إضافــة إلى الضرائب التي كان الأشــراف قد قرروها على الحجــاج وقوافلهم . وكذلك أُعفي سكان الحجاز من التجنيد والخدمة العسكرية.

ولقد حــرصت الدولة العثمانــية على استمــرار الأوضاع في الحجاز كــما كانت عليه في عهد الدولــة المملوكية مع تنظيم أحوال الولاية بالشكل الذي يتلاءم مع متطلباتها، وتمتع الحجاز فــي ظل الحكم العثماني باستقلال داخلي مع الاعتراف بالسيادة الــعثمانية عليه، وعمدت الدولة العــثمانية إلى تحسين صلاتها بأمراء مكة الأشراف .

(ب) أمراء مكة في الحجاز وعلاقتهم بالدولة العثمانية :

حــينما خــضعت الحــجــاز لحكم الدولة العثــمانــية كــان يحكم مكة من الأشراف «آل بركات» وهــم فرع من بني قتادة، واستمر حكم هذا الفرع على إمارة مكة طوال القــرنين العاشر والحادي عــشر الهجريين / الســادس عشر والسابع عشــر الميلاديين، والنصف الأول من القرن الثاني عشــر الهجري / الثامن عشر الميلادي(٢)، ومنذ منتصف القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي تنافس على منصب الشــرافة فرعان قويان من أبناء أبي نمي بن

(1) AL shebel .op. Cit, p17.

(٢) الصواف، مرجع سابق: ٣٦ .

بركات (أبو نمي الثاني) (١)، وهما «آل زيد وآل عون»، حتى أوائل القرن الرابع عشر الهجري / العشرين الميلادي حين نجح بنو عون في السيطرة على منصب الشرافة معظم الوقت (٢).

وقد تركزت مهام أشراف مكة على تأمين طرق قوافل الحج الأربع (٣) وهي تحمل المحامل (٤) التي تحوي المبالغ المخصصة لأشراف مكة، وأهلها، ومجاوريها من ريع أوقاف الحرمين بتلك المناطق، ومن الأعطيات المخصصة لهم من قِبل الأمراء والسلاطين، ولم يكن شريف مكة يعتمد في ذلك على قوات عسكرية نظامية، وإنما على مكانته وعصبيته، ونفوذه لدى القبائل النازلة على طول طريق القوافل، هذا بالإضافة إلى اعتماده محطات الحراسة التي أنشأتها الدولة العثمانية بجوار الآبار على طول طريق قافلتي الحج الشامي والمصري (٥).

وكان العرف السائد لدى شغور منصب أمير مكة بسبب الوفاة أو العزل أو الاستقالة أن ينتخب الأشراف أميراً آخر يقوم السلطان بتعيينه في منصب

---

(١) انظر شجرة النسب في الملحقات، جدول : ٤ .

(2) ALshebel , op. Cit, p 22 .

(٣) وهي قافلة الحج الشامي وتضم حجاج بلاد الشام وإستانبول ودول البلقان، وقافلة الحج المصري وتضم حجاج مصر وشمال أفريقيا . وقافلة الحج العراقي وتضم حجاج العراق وفارس، وقافلة الحج اليمني وتضم حجاج اليمن والهند، وإندونيسيا وغيرهم من تلك المناط أحمد فهد الشوابكة، حركة الجامعة الإسلامية، (مكتبة المنار، الأردن، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م) : ١٨٠.

(٤) جمع محمل وهو عبارة عن أعواد من الخشب مربعة الشكل ذات سقف مرتفع من الجوانب إلى الوسط الذي فيه قائم ينتهي بهلال، وفي العادة يسدل على ذلك الهيكل الخشبي كسوة قد تكون من الحرير وقد تكون من غيره ويوضع أثناء السفر على ظهر جمل، والجدير بالذكر أن المحمل العراقي توقف قبل ضم الحجاز للحكم العثماني أما المحمل اليمني فقد توقف منذ عام ١٠٤٩هـ / ١٦٣٩م .
غازي في مصدر سابق: ٢ / ٢٧ - ٢٨، ٣١ .

(٥) الصواف، مرجع سابق: ٤٩ .

إمارة مكة بناءً على تقارير تصل السلطان من قاضي مكة، وولاة مصر، والشام، وجدة . ولو لم يحصل اتفاق بين الأشراف على انتخاب أمير فإن الحكومة العثمانية تنظر في التقارير التي تصلها وترشح واحداً من اثنين من المنتخبين على أساس أكثرهما ولاءً لخدمة الدولة واستعداداً للوقوف إلى جانبها؛ لذا كان الأشراف يتنافسون على إظهار الولاء للسلطان العثماني، وفي غالب الأحيان كانت الدولة العثمانية تعطي أهمية كبرى لانتخاب الأمير من قبل الأشراف أنفسهم حتى لا يؤدي الأمر إلى مصادمات فيما بينهم في مكة، ومع ذلك كان النزاع على منصب الشرافة يتجدد دائماً خاصة في الفترة التي تكون فيها الدولة العثمانية منشغلة بالحروب [١].

وكان تعيين أمراء مكة يتم بإصدار مرسوم سلطاني يعرف بـ «منشور الإمارة» يُحدد مهام أمراء مكة. ومنها الخروج لاستقبال الحجاج في مدائن صالح [٢]، أو في المدينة المنورة، وتوديعهم إلى هذه الأماكن نفسها . ويرد في ختام المنشور توصية إلى أمراء مكة بالمواظبة على الأدعية الخيرية لـ «دوام عمر الدولة وقوة السلطان»[٣]. وكانت جميع المنشورات تصاغ بأسلوب واحد مع تغيير في بعض الكلمات، ويرسل مع المنشور خلعة[٤] لأميرمكة وكان

---

(١) أوزن جارشلي، وإسماعيل حقي، أمراء مكة المكرمة في العهد العثماني، ترجمه عن التركية خليل علي مراد، (منشورات دراسات مركز الخليج، البصرة، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م) : ٣٣ .

(٢) بلدة في شمال الحجاز ذات صبغة أثرية، فقد كانت موطن ثمود قوم صالح \ الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم، وهي تبعد عن المدينة المنورة بحوالي ٣٤٧ كم.
عاتق البلادي، معجم معالم الحجاز، (دار مكة للنشر، مكة المكرمة، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م) : ٨ / ٥٨ - ٥٩ .

(٣) جارشلي، مرجع سابق: ٣٤ .

(٤) كانت عبارة عن جُبة خضراء زمردية ياقتها مطرزة بخيوط الذهب أو الفضة، ومزخرفة من الأمام باللؤلؤ. والجبة رداء يلبس فوق الثوب عادة، ويكون فضفاضاً وأكمامه واسعة .
المرجع نفسه : ٣٥ - ٣٦ . وأيضاً :
محمد علي مغربي، ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة (مكتبة تهامة للنشر، جدة ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م) : ٨٧ .

منشور التعيين يُقرأ في الحرم المكي الشريف على الأشراف والعلماء وغيرهم، وتتم البيعة للأمير (الشريف) الجديد الذي يجلس أسفل المنبر، وبعدها تعلن توليته بواسطة المنادين في المدن بإطلاق تسع عشرة قذيفة مدفع[١] .

وقد حظي أمراء مكة منذ بداية العهد العثماني بمكانة رفيعة لدى سلاطين الدولة العثمانية، كان من دلائلها أن السلطان العثماني كان يخصص سنويًا لأمير مكة مبلغًا معينًا يسمى «عطية السلطان»[٢]،وكان اسم أمير مكة يذكر في الخطبة بعد اسم السلطان العثماني مباشرة، كما أن السلطان العثماني كان يقف احترامًا عند حضور الأمير (الشريف) الجديد لكونه ينتسب إلى أسرة الرسول ﷺ [٣]،كذلك كان لأمير مكة حق الاتصال مباشرة بالصدر الأعظم في إستانبول[٤].ومن الأمثلة على مكانة أمراء مكة لدى الدولة العثمانية السلطة الكاملة على الشرافة التي تمتع بها أميرمكة الشريف أبو نمي الثاني (٩٣٢-٩٧٤هـ/ ١٥٢٤-١٥٦٥م) مدة تزيد على الأربعين عامًا بسبب دعم السلطان سليمان القانوني (٩٢٦-٩٧٤هـ/ ١٥١٩-١٥٦٦م) له،وهذا ما دفع الشريف إلى إصدار قانون عرف لدى الأهالي بـ «قانون أبي نمي» [٥] [٦] الذي أعاد

(١) جارشلي، مرجع سابق: ٣٤ - ٣٦ .
(٢) المرجع نفسه : ٣٧ .
(٣) المرجع نفسه، الصفحة نفسها .
(٤) الصواف، مرجع سابق: ٤٩ .
(٥) كان من بين بنود «قانون أبي نمي» أنه لو قُتل أحد الأشراف فيجب أخذ القصاص من أربعة أشخاص من عائلة القتيل، كما أن أي فرد يجرؤ على صفع الشريف يجب أن تقطع يده. من ناحية أخرى فإن الشريف لو قتل أحدًا (خطأ) فلا يمكن أن يُقتل. وما شابه ذلك من القوانين التي سنّها أبو نمي الثاني، وعُدّت سارية المفعول. ومن الأدلة على مكانة أبي نمي الثاني استمرار إقامة الاحتفالات السنوية في مكة لإحياء ذكراه حتى نهاية حكم الأشراف في مكة عام ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م وكانت تلك الذكرى تصادف ٢٢ ربيع الأول من كل عام. صحيفة القبلة، العدد ٢٤٨، س ٣، ١٤/ ٤/ ١٣٧٧هـ الموافق ١٦/ ١/ ١٩٥٧ م،وكذلك العدد ٧٣٣، السنة الثامنة في ٢٢/ ٣/ ١٣٤٢هـ الموافق ١/ ١١/ ١٩٢٣م .

ALshebel , op. Cit, p 20.

(٦) حمزة، مرجع سابق: ٣١٨

تحديد العلاقة بين الأشراف وبقية أفراد المجتمع، وميز بين الطبقتين فمنح الطبقة الأولى امتيازات كثيرة . وقد ساعد على تطبيق هذه الامتيازات جو القداسة الذي خلقه الأشراف لأنفسهم مع فقر وجهل السكان الذين يعيشون تحت رحمتهم [١].

وكذلك تمتع الأشراف منذ بداية العهد العثماني باستقلاليتهم، واحتفظت لهم الدولة بكيانهم الخاص، ووفرت لهم المزايا المادية والقانونية، وأقرت منصب نقيب الأشراف[٢] في العاصمة، وكذلك في ولايات الدولة المختلفة وكان هذا المنصب من المناصب الرفيعة في الدولة العثمانية، والدليل على ذلك أن نقيب الأشراف في إستانبول هو الذي كان يقلد السلطان السيف، ويقوم بمراسم تتويجه، وكان هو الذي يقوم بالدعاء للسلطان في المناسبات[٣]. أما في الولايات فقد كان نقباء الأشراف يمثلون امتداداً لأسرة عربية عريقة اشتهرت بانتمائها لأسرة الرسول ﷺ بزعامتها وعلمها، كما كانوا يقومون بدور الوسيط بين السلطة والفئات الاجتماعية لأنه كانت لهم مكانتهم المحترمة لدى الطرفين [٤] .

ومع أن الدولة العثمانية منذ بداية سيطرتها على الحجاز حتى منتصف

(1) ALshebel , op. Cit, p 22.

(٢) منصب عرفته الحضارة الإسلامية منذ عهد الدولة العباسية، ولكنه حظي بمكانة أكبر في عهد الدولة العثمانية. وهو منصب يتولاه شخص من الأشراف يكون - في الغالب - أكثرهم فضلاً وأجزلهم رأياً، ويشترط أن يكون عالمًا، يقظًا، عارفًا بالأنساب ومميزًا لها، ومن مهامه تولي أمور المتنسبين إلى آل بيت الرسول ﷺ والتثبت من نسبهم، وهو بمثابة الوصي على المتنسبين لآل بيت الرسول ﷺ .
ابن الخوجة، مرجع سابق: ١٤٦ - ١٥٦ .

(٣) الصفصافي أحمد المرسي، الدولة العثمانية والولايات العربية، (مجلة الدارة، الرياض، ع ٤، س ٢، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م): ٩١ .

(٤) الجميل، مرجع سابق: ٦٧ .

القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي كانت في مركز لم يكن يسمح لها بالتدخل المباشر في شؤون شرافة مكة ؛ خاصة حين انشغالها بحروبها الخارجية (كصراعها المستمر مع روسيا، والنمسا، والقضاء على حركات التمرد الداخلية كحركة ظاهر العمر[1] في فلسطين، وعلي بك الكبير[2] في مصر في أواخر القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي، إلا أنها كانت تقوم بين الحين والآخر بعزل من ترى عزله من الأمراء مستعينة بالوالي العثماني في بلاد الشام. وكان هذا غالبًا ما يذهب إلى الحجاز على رأس قافلة الحج الشامي، وتحت حراسة قوة عسكرية كبيرة فيقوم في أثناء وجوده في مكة بعزل الشريف المطلوب عزله وتولية غيره من الأسرة نفسها بموجب فرمان سلطاني[3] [4].

---

(١) من أشراف بني زيد بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، تولى حكم صفد وطبرية بعد وفاة والده عام ١١١٠هـ/ ١٦٩٨م، واستغل انشغال الدولة العثمانية في حروبها الداخلية والخارجية ليوسع نفوذه، وقد تمكن من تدعيم مركزه في المنطقة على حساب ولايتي صيدا ودمشق . عُدّت حركته من الحركات الاستقلالية التي ظهرت في القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي، تحالف مع الروس كما تحالف مع علي بك الكبير، الأمر الذي عجل بنهايته على يد الدولة العثمانية عام ١١٨٩هـ/ ١٧٧٥م

(٢) يوناني الأصل، كان يعمل ضابطًا في الحامية المصرية، تولى منصب شيخ البلد، واستطاع بعد ذلك أن ينفرد بحكم مصر منذ عام ١١٧٤هـ/ ١٧٦٠م . تطلع إلى حكم بلاد الشام، وانتزاعها من الدولة العثمانية، وأرسل حملة كبرى لهذا الغرض بقيادة ساعده الأيمن محمد أبا الذهب، وتمكن من الاستيلاء على جزء من بلاد الشام بمعونة ظاهر العمر والي عكا، ولكن محمد أبا الذهب عاد أدراجه دون أن يكمل مهمته ليقود صراعًا على السلطة ضد علي بك الكبير، وأجبره على الفرار إلى عكا، وبعدها تمكن محمد أبو الذهب من الإطاحة بعلي بك الكبير في معركة دارت بينهما في مصر عام ١١٨٧هـ/ ١٧٧٣م، وسقط علي بك جريحا وتوفي بعدها بأيام . الجميل، مرجع سابق: ٢٧٩ - ٢٨٠ .

(٣) من أمثلة ذلك عزل الشريف سعيد بن بركات عام (١٠٩٥هـ/ ١٦٨٣م) وتولية الشريف أحمد بن زيد .
السباعي، مرجع سابق: ٢ / ٣٨٨ .

(٤) الصواف، مرجع سابق: ٥٢ .

وكان أشدَّ ما تخشاه الدولة العثمانية أن يقوم أمراء مكة بالاتصال بقوى خارجية[١] ولو اشتبهت بحدوث ذلك كانت تعمد إلى عزل الأمير، واستبداله بآخر أكثر طواعية. وقد تعين الأمير الجديد من الفرع الآخر الذي ينافس الفرع الموجود في السلطة [٢][٣].

وكانت الدولة في أغلب الأحيان تلجأ إلى استدعاء الأمير المعزول إلى العاصمة خشية قيامه بتأليب سكان الحجاز ضد الدولة العثمانية، فتبقيه تحت نظرها وتشرف عليه، وتجري له راتبًا [٤] .

وقد أدى التنافس على منصب الشرافة في بعض الأحيان إلى قتال دموي

(١) كان يوجد في جدة في الفترة التي هي موضوع البحث أكثر من قنصل يمثل أكثر من دولة أجنبية، لكن يبدو أنهم لم يؤدوا الدور نفسه الذي أداه قناصل بريطانيا في المنطقة من ناحية اهتمامهم بها، والتدخل في شؤونها الداخلية متى ما أتيحت لهم الفرصة لذلك . ويعود ذلك الاهتمام إلى أهمية الحجاز بالنسبة لبريطانيا من ناحية موقعها الإستراتيجي الموصل إلى الهند ومن ناحية أهميتها التجارية . ولذلك حرص القناصل البريطانيون على إخبار حكومتهم عن كل ما يصل إليهم من معلومات، وما يجري في المنطقة من أحداث سواء كان لهذه المعلومات علاقة مباشرة بالمصالح البريطانية، أو كان غير ذلك . انظر مثلاً :
Rublic Record Office ,F.O.371/8354-C104927.P117-120.
= وخطاب من السفير البريطاني في إستانبول أوكونور Oconor إلى وزير الخارجية البريطانية لانسدون Lansdwne بتاريخ ٦/ ٥/ ١٣٢٢هـ الموافق ١٨/ ٧/ ١٩٠٤م يتضمن تقريرًا بعثه القائم بأعمال القنصلية البريطانية في جدة عن الوضع الاقتصادي والإداري في الحجاز في تلك الفترة. وسيشار إليها بعد ذلك بالرموز (O.R.P): صالح العمرو، تقارير القناصل البريطانيين في جدة كمصدر لتاريخ غرب الجزيرة العربية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وأوائل العشرين، بحث في كتاب دراسات تاريخ الجزيرة - مصادر تاريخ الجزيرة العربية - الجزء الثاني-(كلية الآداب، جامعة الرياض (الملك سعود)، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م)٢٢١ .

(٢) من ذلك عزل الشريف عبدالمطلب بن غالب من آل زيد للمرة الثانية في ١٢٩٩هـ/ ١٨٨٤م وتعيين الشريف عون الرفيق من آل عون مكانه . جارشلي، مرجع سابق: ١٧٤ - ١٧٦ .

(٣) المرجع نفسه : ١٧٤ .

(٤) منهم الشريف عبدالمطلب بن غالب حين عُزل للمرة الأولى عام ١٢٧١هـ/ ١٨٥٤م . السباعي، مرجع سابق: ٢ / ٥٣٤ .

تدخلت فيه قوى خارجية بشكل مستتر كولاة الشام، ومصر، واليمن، وذلك بهدف الحصول على نفوذ ديني، وسياسي، واقتصادي في المنطقة خاصة وأنها تضم الأراضي المقدسة، وتطل على البحر الأحمر . ومن الأمثلة على التدخل ما حدث في عام ١١٨٤هـ/ ١٧٧٠م حينما وقع صراع بين أحفاد أبي نمي الثاني من آل بركات وآل زيد، وكان يحكم شرافة مكة في ذلك الحين مساعد بن سعيد من آل زيد، وتطلع عبدالله بن الحسين من آل بركات لانتزاعها منه، وتوجه إلى حاكم مصر علي بك الكبير لمساعدته، فجهز الأخير حملة عسكرية بقيادة محمد أبي الذهب (١) الذي تمكن من إخضاع الحجاز لحكم علي بك الكبير في مصر، وطرد والي جدة العثماني، وتعيين حسين أغا قائد الحامية المصرية، وإسناد شرافة مكة للشريف عبد الله بن الحسين. غير أنه بعد انتهاء مهمة الحملة وعودة الجيش المصري نازع الشريفَ عبدالله آلُ زيد على الحكم ففر إلى مصر ومنها إلى إستانبول حيث توفي هناك. واستعاد آل زيد الحكم في مكة بتولي الشريف أحمد بن سعيد إمارتها وقام بطرد الحامية المصرية وقائدها، وعادت المنطقة تحت نفوذ الدولة العثمانية من جديد في العام نفسه ١١٨٤هـ/ ١٧٧٠م (٢).

ولم يقتصر الصراع في الحجاز على الأشراف فيما بينهم وتكرر النزاع بين أمراء مكة وولاة جدة بسبب خلاف الفريقين على نصيبهما من واردات الرسوم الجمركية. هذا على الرغم من تحديد الدولة العثمانية لنصيب كل منهما بالقسمة فيما بينهما بالتساوي. وغالبًا ما تغلّب أمراء مكة في هذا النزاع ولاسيَّما حينما كان النفوذ العثماني يتضاءل في اليمن، وتقل فرص

(١) أحد مماليك علي بك، ومن أكبر قواده، قاد جيشًا إلى الحجاز، وآخر إلى الشام، انتزع الحكم من علي بك الكبير، وحكم مصر لمدة ثلاث سنوات ـ توفي عام ١١٨٩هـ/ ١٧٧٥م . صباغ، مرجع سابق: ١٥٤ .

(٢) السباعي، مرجع سابق: ٢ / ٤٣٦ - ٤٣٩ .

الاستعانة بالحاميات العثمانية الموجودة هناك[١] .

وقد تطلع أمراء مكة إلى مد نفوذهم نحو المناطق المجاورة فسعوا مثلاً إلى الامتداد نحو نجد التي كانت تتمتع في القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي بالاستقلال عن أي نفوذ خارجي، وقامت فيها في تلك الفترة بعض زعامات تنتمي إلى قبائل عربية مختلفة كونت لها إمارات عدة. منها إمارة العيينة [٢]، وشن أشراف مكة خلال ذلك القرن حتى منتصف القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي هجمات متعددة على المدن والقرى النجدية [٣] بهدف سلبها، والسيطرة عليها سياسيًّا، وإجبارها على دفع مبالغ معينة لإمارة مكة [٤] .

وقد أدى ظهور دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب [٥]، وقيام الدولة السعودية الأولى ١١٥٧ - ١٢٣٣هـ/ ١٧٤٤-١٨١٨م إلى إضعاف تدخل الأشراف في وسط الجزيرة العربية[٦]. وتكررت المواجهات بين قوات

(١) صباغ، مرجع سابق: ١٤٣ .

(٢) العثيمين، مرجع سابق: ٤٤ - ٤٥ .

(٣) عثمان بن بشر، عنوان المجد في تاريخ نجد، تحقيق نخبة من الأساتذة بأمر من وزارة المعارف السعودية، (دار صادر، بيروت، د. ت . ن) : ٢، : ٣٩٩، ٤٠٢، ٤١٢ .

(٤) العثيمين، مرجع سابق: ١ / ٣٥ .

(٥) ولد في بلدة العيينة عام ١١١٥هـ/ ١٧٠٣م في أسرة علمية وتعلم العلوم الدينية، ورحل في طلب العلم فزار الحجاز والشام والبصرة، نشأ على المذهب الحنبلي، ودعا إلى العودة بالإسلام إلى أصوله الصحيحة، ونبذ البدع والخرافات . اتفق عام ١١٥٧هـ / ١٧٤٤م مع أمير الدرعية محمد بن سعود على نشر الدعوة الإصلاحية، وكان ذلك بداية لقيام الدولة السعودية الأولى، وقد ناهضت الدولة العثمانية دعوته الإصلاحية، وتأثر بدعوته كثير من المصلحين. له مؤلفات عدة منها: «كتاب التوحيد»، و« كتاب كشف الشبهات» . توفي عام ١٢٠٦هـ/ ١٧٩٢م .

عبدالله صالح العثيمين، الشيخ محمد بن عبدالوهاب، حياته وفكره، (دار العلوم، الرياض، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م): ٢٥، ٢٩ - ٣٩، ٥٥، ٧٤، ٧٧، ١٠٧ .

(٦) صباغ، مرجع سابق: ١٤٣ .

الدولة السعودية والقوات الحجازية، ومنها ما حدث عام ١٢١٨هـ/ ١٨٠٣م حينما توجهت القوات السعودية في عهد الإمام عبدالعزيز بن محمد ١١٧٩-١٢١٨هـ/ ١٧٦٥-١٨٠٣م بقيادة ابنه سعود إلى مكة فانسحب منها الشريف غالب بن مساعد (١٢٠٢-١٢٢٨هـ/ ١٧٨٧-١٨١٣م) إلى جدة تاركًا أخاه عبدالمعين أميرًا على مكة، وقد اضطر الشريف عبدالمعين إلى إعلان ولائه للدولة السعودية الأولى على أن يبقى أميرًا على مكة، ودخلت مكة بذلك تحت حكم الدولة السعودية في عام ١٢١٨هـ/ ١٨٠٣م، ولكن بعد مغادرة القوات السعودية قام الشريف غالب في جدة بالتوجه إلى مكة، وأجبر حاميتها العسكرية السعودية على الانسحاب منها، واستعاد الحكم فيها لصالحه[١]، وعادت قوات الدولة السعودية الأولى في عام ١٢٢٠هـ/ ١٨٠٥م إلى الحجاز، وتمكنت من محاصرة الشريف غالب في مكة، واضطر إلى طلب الصلح من إمام الدولة السعودية سعود بن عبد العزيز الذي تولى الحكم بعد وفاة والده عام ١٢١٨هـ /١٨٠٣م ووافق الإمام سعود في بداية عام ١٢٢١هـ/ ١٨٠٦م على طلب الشريف غالب، وتم الاتفاق على أن يحكم مكة باسم الدولة السعودية الأولى، وكانت المدينة المنورة قد أعلنت ولاءها للدولة السعودية الأولى منذ عام ١٢٢٠هـ/ ١٨٠٥م[٢]، وبذلك أصبح الحجاز كله تابعًا للدولة السعودية الأولى.

وأثارت هذه التطورات حفيظة الدولة العثمانية التي كان يهمها بقاء المقدسات الإسلامية تحت نفوذها لتكسبها شرعية في الخلافة الإسلامية ولا سيما أن الإمام سعود كان قد كتب إلى السلطان العثماني سليم الثالث

---

(١) عبدالله بن محمد البسام، تحفة المشتاق في أخبار نجد والحجاز والعراق، (مخطوط نقله عن الأصل نور الدين شربيه، تاريخ النسخ ١٣٧٥هـ): ١٠٢ .

(٢) ابن بشر، مصدر سابق: ١ / ١٣١، ١٣٣ .

(١٢٠٤ -١٢٢٢هـ/ ١٧٨٩-١٨٠٧م) في عام ١٢١٨هـ/ ١٨٠٣م يخبره بما حدث، ويطلب منه منع إرسال محملي مصر والشام بصحبة الطبول والمزامير[١]، وقد منع الإمام سعود باشا دمشق «عبدالله العظم» من الوصول إلى مكة المكرمة في عام ١٢٢١هـ / ١٨٠٦م خوفًا من أن يتآمر مع الشريف غالب ضد الحكم السعودي في الحجاز [٢]، وازعج الدولة العثمانية موقف عبدالله باشا العظم المتخاذل الذي عاد بمن معه من الحجاج دون أداء الحج [٣]، وقاموا بعزله عن ولاية الشام، وتعيين يوسف كنج (١٢٢٢ - ١٢٢٥هـ/ ١٨٠٧-١٨١٠م) بدلاً منه، وطلبت من الوالي الجديد مواجهة القوات السعودية في الحجاز. ولما لم يقم بعمل عسكري واضح ضد الدولة السعودية الأولى[٤] كلفت الدولة العثمانية محمد علي[٥] باشا والي مصر بالقضاء على الدولة السعودية الأولى في نجد، وعدم الاكتفاء باسترداد الحجاز .

وقد نجح محمد علي في المهمة التي أوكلت إليه فاستولى على الحجاز عام ١٢٢٧هـ/ ١٨١٢م، ثم قضى على الدولة السعودية الأولى عام ١٢٣٣هـ/ ١٨١٨م [٦]، ولم يُعِد محمد علي الحجاز إلى الدولة العثمانية،

---

(١) العثيمين، تاريخ المملكة: ١٣٢ .
(٢) ابن بشر، مصدر سابق: ١ / ١٣٣ .
(٣) أحمد مرسي، شريف مكة بين قوتين، مجلة الدارة، الرياض ،ع ١، س ٢، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م: ١٧١ .
(٤) العثيمين، تاريخ المملكة : ١٦٣ .
(٥) ضابط ألباني جاء إلى مصر مع الحملة العثمانية التي قدمت إليها عام ١٢١٦هـ/ ١٨٠١م لإخراج الفرنسيين منها، تمكن من القضاء على منافسيه على السلطة، وتم ترشيحه لولاية مصر بمساعدة أعيان البلاد فتولى حكم مصر بقرار صدر من الدولة العثمانية عام ١٢٢٠هـ/ ١٨٠٥هـ ، تمكن من أن يجعل مصر وراثية في أسرته من بعده . توفي في عام ١٢٦٦هـ/ ١٨٤٩م . عمر، مرجع سابق: ٣٠١- ٣٠٢ .
(٦) العثيمين، تاريخ المملكة : ١٨١، ١٨٤، ١٩٦ .

بل جعله تابعًا لحكمه في مصر، وأقام قائد جيشه محافظًا بمكة، ومنذ ذلك التاريخ أصبح الحكم في مكة ثنائيًا بين الأمير والمحافظ [١] . وقد عين محمد علي ابنه إبراهيم باشا واليًا على جدة بعد موافقة الدولة العثمانية التي اضطرت لإصدار قرار بهذا الشأن [٢]. ولكن بعد معاهدة لندن[٣] عام ١٢٥٦هـ/ ١٨٤٠م انسحبت قوات محمد علي من الحجاز [٤]، وعادت البلاد إلى الدولة العثمانية من جديد [٥].

وبعد عودة الحجاز لحكم الدولة العثمانية شددت قبضتها عليه، وطالبت بتطبيق الإصلاحات العثمانية، أو ما عرف بالتنظيمات الخيرية التي بدأت في عهد السلطان عبدالمجيد أسوة ببقية ولايات الدولة العثمانية[٦]، كما عَملت الدولة على تقليص نفوذ الأشراف في الحجاز وذلك بإضافة واردات الحجاز إلى الخزينة العامة للدولة العثمانية في إستانبول مع تخصيص رواتب لأمراء

---

(١) محمد عمر رفيع، مكة في القرن الرابع عشر الهجري، (منشورات نادي مكة، مكة المكرمة، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م) : ٢٣١ .

(٢) دياب، مرجع سابق: ٢٠٧ .

(٣) وقعت هذه المعاهدة إثر الأزمة الشرقية التي تفجرت بعد احتلال قوات محمد علي بلاد الشام عام ١٢٤٩هـ/ ١٨٣٣م، ووقفت فيها الدول الأوربية (بريطانيا وفرنسا وروسيا) مع الدولة العثمانية، وأجبرت محمد علي على الانسحاب من بلاد الشام والحجاز ونجد واليمن، واقتصار حكمه على مصر بصفة وراثية، أنيس، مرجع سابق: ٢٠٤ .

(٤) بقيت بعض الحاميات الصغيرة تابعة لمحمد علي في بعض الموانئ المواجهة لمصر على البحر الأحمر، مثل «الوجه» و«المويلح» و«العقبة» لكونها تقع في طريق الحج المصري، وبعد افتتاح قناة السويس (١٢٨٦هـ/ ١٨٦٩م) أصبح لهذه الموانئ أهميتها وحصل نزاع حول تبعيتها للدولة العثمانية، أو الحكومة المصرية، وتدخلت الحكومة البريطانية في هذا النزاع، وانتهى باستعادة الدولة العثمانية لتلك الموانئ .

لمزيد من التفاصيل حول الموضوع انظر : محمد صالح العمرو، النزاع التركي - المصري على شمال الحجاز وسيناء وتدخل الحكومة البريطانية (١٨٨٤-١٩٠٦م)، (مجلة الدارة، الرياض، ع ١، س ٥، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م) : ٧-٢٧ .

(٥) حمزة، مرجع سابق: ٣٢٢ .

(٦) دحلان، مصدر سابق، تحليل : ٧١ .

البلاد وموظفيها يتقاضونها من الدولة بموجب النظام العام في الدولة العثمانية[١] .

وتشددت الدولة العثمانية في عهد السلطان عبدالعزيز (١٢٧٨-١٢٩٣هـ/ ١٨٦١-١٨٧٦م) في فرض سلطتها على ولاية الحجاز فنقلت في عام ١٢٨٧هـ/ ١٨٧٠م مركز الباشا من جدة إلى مكة ليكون قريبًا من الشريف، واستبدلت لقب «الوالي» بلقب «الباشا» إشارة إلى ولايته على الحجاز بأكمله، وعملت على تقليص نفوذ الشريف بالتوسع في اختصاصات الوالي، فأصبح مشرفًا على «الجندرمة»[٢]، وعلى الحاميات العسكرية المرابطة بين مكة، وجدة، والطائف[٣]، كما أضافت إلى اختصاصات الوالي الإشراف على القضاء، وقيادة القوات، وتعيين نائب من الأشراف لأمير مكة [٤]، وأدى هذا إلى زيادة حدة النزاع بين الأشراف فيما بينهم وكذلك بين أمراء مكة وولاة الحجاز[٥].

ومن أجل دعم نفوذ الوالي وتقليص نفوذ أمراء مكة وللحفاظ على تبعية الحجاز للدولة العثمانية قامت الدولة العثمانية بتكثيف الحاميات العسكرية الموجودة في الحجاز، وأخذ وجود تلك الحاميات في المدن الرئيسة مثل مكة، والمدينة، وجدة، والطائف شكلاً دائمًا [٦]. فقد كان العثمانيون

(١) السباعي، مرجع سابق: ٢ / ٥٦٣ .
(٢) هي إحدى الفرق العسكرية المختصة بأمن الطرق .
السباعي، مرجع سابق: ٢/ ٥٦٣ .
(٣) المرجع نفسه .

(4) AL shebel , op. Cit, p 22.

(٥) دحلان، خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام، (دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٠٤هـ/ ١٨٨٧م): ص ٣٥٥ - ٣٥٦ .
(٦) هنادي يوسف غوانمة، المملكة الهاشمية الحجازية ١٩١٠-١٩٢٥م، (دار الفكر للنشر والتوزيع، عمّان، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م): ٢٥ .

يشعرون بصعوبة إخضاع المنطقة نظرًا لبعدها عن عاصمة الدولة العثمانية، ولاعتداد الأشراف بأنفسهم ولتعدد القبائل وانتشارها واعتمادها على عصبيتها القبلية، وهي أمور كانت تعوق الحاميات العسكرية من أداء مهامها[١]. وقد أحدثت الدولة العثمانية كذلك مجالس إدارية واستشارية في مدن الحجاز الرئيسة، وهي مكة، والمدينة المنورة، وجدة، والطائف[٢]، واستمرت تعمل على تكثيف وجودها في الحجاز. ومن أجل زيادة قبضتها استخدمت أسلوب بث روح التنافس بين أمراء مكة أنفسهم بهدف إضعافهم، وتعيين من هو أكثر موالاة لها . وكانت أحيانًا تستدعي من يلي أمير مكة في السن من عائلته ليبقى تحت نظرها في العاصمة، وتقلده رتبة الوزارة، وتجعله عضواً في مجلس الشورى[٣] فيتخلق بأخلاق الدولة، ويتعرف سياستها الداخلية والخارجية[٤] حتى إذا ما أتيحت له الفرصة لتولي الإمارة أصبح بإمكانه أن يحكم وفق سياستها. ومن ناحية أخرى كانت تعمل على إثارة الخلاف بين الأمراء وولاة جدة، وكان الباب العالي يخاطب كلاً من الأمير والوالي مستقلاً أحدهما عن الآخر فانعدم التنسيق بينهما، وخصوصاً في الأمور العسكرية [٥]، وهذا ما كانت تريده الدولة العثمانية .

وبرزت تلك الأساليب بصورة أكثر وضوحًا في عهد السلطان عبدالحميد الثاني (١٢٩٣-١٣٢٧هـ/١٨٧٦-١٩٠٩م)، فقد عمل على إشعال حدة التنافس على مركز الشرافة في مكة، وعلى ضرب كل فرع بالآخر؛ وذلك

(١) السباعي، مرجع سابق: ٢ / ٥٦٤ .

(٢) دحلان، أشراف، تحليل : ٧١ .

(٣) دحلان، خلاصة : ٣٦٦ .

(٤) بيرم، مصدر سابق : ٥ ١٤ .

(٥) دحلان، أشراف، تحليل : ٧١ - ٧٣ .

بعزل أمير وتنصيب آخر من الفرع المنافس له [١]، وبذلك خسر الحجاز في نهاية القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي الكثير من استقلاله الداخلي الذي كان يتمتع به من قبل، وفقدت شرافة مكة الكثير من نفوذها التقليدي وأصبحت الأمور في الحجاز تسير وفقاً لأوامر السلطان العثماني من جهة، وإرادة الوالي العثماني في الحجاز من جهة أخرى. هذا في حين استمرت المنافسة على السلطة بين الأشراف [٢].

ولا بد من الإشارة إلى أن أحد العوامل التي ساعدت الدولة العثمانية على ازدياد تدخلها في شؤون الحجاز فتح قناة السويس؛ ذلك أن إيجاد طريق مائي مباشر بين إستانبول وجدة زاد من قدرة الدولة العثمانية على بسط نفوذها، وتأكيد سيطرتها على الأجزاء الغربية من شبه الجزيرة العربية، فالطريق البحري قد سهل على القوات العسكرية الوصول إلى أهدافها بسهولة دون الاقتصار على استخدام الطريق البري المليء بالمصاعب [٣].

وأسهم إنشاء خط سكة حديد الحجاز الذي بدأ في عام ١٣١٨هـ/ ١٩٠٠م [٤] في تقليص دور أمراء مكة في الحجاز، وزيادة سيطرة

---

(١) دحلان، خلاصة: ٣٦٥ . وأيضاً : الصواف، مرجع سابق: ٨٣ - ٨٧ .
(٢) المرجع نفسه: ٩٤ .
(٣) المرجع نفسه: ٩٤ - ٩٥ .
(٤) اقترح إنشاء خط سكة حديد الحجاز لأول مرة في عام ١٢٨١هـ/ ١٨٦٤م غير أنه لم يتم اتخاذ أي خطوة تنفيذية بشأن ذلك الاقتراح حتى عام ١٣١٨هـ/ ١٩٠٠م، فقد أعلن السلطان العثماني عبدالحميد عن ضرورة إنشاء هذا الخط لتسهيل أداء الحج . وطرح هذا الموضوع للاكتتاب العام لتسهم فيه البلاد الإسلامية، ومن بينها تونس، كما فرضت إعانة لهذا المشروع يدفعها الحاج إلى شريف مكة مقدارها ريال واحد على كل حاج . ويبلغ طول هذا الخط ألفاً وثمان مئة كيلو متر ينطلق من دمشق، وينحدر جنوباً نحو عمّان، ثم يتوغل نحو تبوك، فمدائن صالح، ثم المدينة المنورة . ومما يجدر ذكره أن هذا الخط يسهل نقل الحجاج بالإضافة إلى نقل المؤن مما يقلل من تكاليفها ومن ثم تقل أسعارها . غير أن الأهم من هذا كله=

الحكم العثماني على الحرمين الشريفين [١] .

ويبدو مما سبق ذكره أن سلطة الأشراف (أمراء مكة) أخذت في التقلص منذ النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي حتى نهاية المدة التي هي موضوع البحث؛ فاقتصر نفوذهم على حكم مكة باسم العثمانيين، وكُفّت أيديهم عن توقيع العقوبات الشديدة التي كانوا يفرضونها على الشعب دون رقيب، وأصبح على أمراء مكة أن يستأذنوا الخليفة قبل أن يوقعوا العقوبات الشديدة كالنفي، أو القتل أو ما شابه ذلك[٢] .

وسيكون للحدث الذي تفجر داخل الدولة العثمانية عام ١٢٢٦هـ/ ١٩٠٨م انعكاساته على العلاقات القائمة بين أمراء مكة والدولة العثمانية، التي أدت إلى الافتراق النهائي بقيام الثورة العربية الكبرى عام ١٣٣٤هـ/ ١٩١٦م .

=بالنسبة للسلطان العثماني أن هذا الخط يسهل سيطرة الحكم العثماني على الحجاز .
Les Archives Nationales Tunisiennes, Serie A, Carton 275 bis dossier 5 Foliol,
وسيشار إليها بعد ذلك بالرموز (A.N.T,S : car, Dos, F) وهو نصّ خطاب ترجم إلى الفرنسية من أمير مكة الشريف عون الرفيق إلى والي تونس الباي علي بن حسين باشا في ١١/ ٥/ ١٣١٨هـ الموافق٥/ ٩/ ١٩٠٠م . وأيضًا : A.N.T,S : A, car, 265 bis , Dos 5 وهو مقال نشر في صحيفة (Coloniale La) الصادرة بفرنسا في ١/ ١١/ ١٢٣٧هـ الموافق١٣/ ١١/ ١٩٠٩م.

(١) أحمد عبدالقادر المهندس، سكة حديد الحجاز - رحلة في الزمان والمكان ، (مجلة الدارة، الرياض، ع٢، س ١٣، ١٤٠٨هـ الموافق ١٩٨٨م) : ٩١ .

(٢) السباعي، مرجع سابق: ٢، ٥٦٥ .



الفصل الثاني

الصِّلات الثقافية

أولاً : الأجواء الثقافية في تونس والحجاز.

ثانياً: التبادل الثقافي بين تونس والحجاز.

ثالثاً: صورة الحجاز في مؤلفات بعض العلماء التونسيين .

رابعاً: الحج ودوره في تدعيم الروابط الثقافية بين البلدين .



أولاً – الأجواء الثقافية في تونس والحجاز :

(أ) في تونس :

اتسمت الثقافة في تونس في بداية القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي بخصائص الثقافة في معظم الولايات العربية نفسها، أي المحافظة، والتقليد، وخلو الدراسات العلمية من العمق والشمول [1] .

ولكن نهاية القرن الثاني عشر شهدت اهتماماً واضحاً بالناحية العلمية في تونس وذلك على يد الباي علي بن حسين (١١٧٢ - ١١٩٧هـ / ١٧٥٩- ١٧٨٢م) الذي اهتم ببناء المدارس، وخصص للمدرسين رواتب معينة، ومنح الطلبة إعانات كثيرة [2]، وقد بلغ اهتمامه بالتعليم وعلمائه إلى حد إعفائه الطلبة من الخدمة العسكرية، وإكرامه للعلماء ومجالستهم[3].

وحذا ابنه حمودة باشا (١١٩٦- ١٢٢٩هـ / ١٧٨٢-١٨١٤م) حذو أبيه في عنايته بالناحية العلمية، فأولى التعليم اهتمامه، واستحدثت في عهده مواد تعليمية جديدة لتدريسها مثل علوم الفلك، والطبيعة، والمساحة، والهندسة . كما قرّب إليه العلماء، وكان يعاملهم باحترام، ويقضي حاجاتهم، ويشارك في مناقشاتهم[4].

وعلى الرغم من هذا الاهتمام الذي أبداه ولاة تونس في القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي فقد ظلت ظاهرة انتشار الأمية والجهل تطغى بين سكان الأرياف خاصة، وعاشت البلاد في أجواء اتسمت بسيطرة

---

(١) أحمد عبد السلام، المؤرخون التونسيون في القرون ١٧، ١٨، ١٩، ترجمه عن الفرنسية أحمد عبدالسلام، وعبدالرزاق الخليوي، (بيت الحكمة، تونس، ١٣١٣هـ/١٩٩٣م): ٥٥، ٩٢.

(٢) ابن أبي الضياف، مصدر سابق : ٢ / ٢٠٨ .

(٣) الإمام، مرجع سابق : ٣٣٩ .

(٤) المرجع نفسه : ٣٣١ - ٣٣٦ .

المفاهيم القديمة على التعليم، وبقيت الكتاتيب منتشرة في البلاد، وقد بلغ عددها في القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي ما يقرب من ثلاث مئة كتّاب[١]، وكانت تركز على تعليم الصبيان القراءة والكتابة، كما استمر التدريس في الجوامع، وهو من الأمور المتعارف عليها، وأول هذه الجوامع كان جامع الزيتونة [٢] في مدينة تونس، واتسمت طريقة التعليم فيه بحشو الأدمغة بالمعارف التعليمية التي يتوجب حفظها دون بحث أو تمحيص، مع أن قائمة العلوم المقررة على الطلاب كانت ضخمة، وكان هؤلاء الطلاب يفتقرون إلى الوقوف عند المسائل ومناقشتها [٣] .

وأهم العلوم التي كانت تُدرَّس في الزيتونة العلوم الدينية كالقرآن، والتفسير، والحديث، وأصول الفقه وغيرها، هذا بالإضافة إلى تدريس النحو، والصرف، والأدب، والتاريخ، والحساب[٤] . ويقوم بالتدريس في هذا الجامع العلماء، وهم الذين تعلموا العلوم الدينية ومارسوا دراستهم عمليًّا [٥].

ولهذا لا يمكن عدّ معلمي الصبيان (أي الكتاتيب) من طبقة العلماء، كذلك فإن تلاميذ الكتاتيب لا يمكن أن يكونوا مؤهلين لأن يُسمَّوا علماء إلا إذا أنهوا تعليمهم في جامع الزيتونة أو ما يوازيه،

---

(١) وهو موضع تعليم الصبيان مبادئ القراءة والكتابة والحساب .
ابن منظور، مصدر سابق : ١ / ٦٩٩ .

(٢) تأسس في أواسط القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي، خصص فيه مكان للتدريس، ويعد أقدم جامعة علمية بالبلاد .

(٣) فتحي القاسمي، الشيخ محمد بيرم الخامس، حياته وفكره الإصلاحي، (تونس، بيت الحكمة، ١٤٠٠هـ/ ١٩٩٠م) : ٣٤ .

(٤) صحيفة الترقي، تونس، في ١٣/ ١٠/ ١٣٢٣هـ الموافق ١/ ١٢/ ١٩٠٥م .

(5) Arnold, H.Green, The Tunisian Ulama 1873 - 1915, (Hungary, 1987), P.31.
القاسمي، مرجع سابق : ٣٤، ٧٤ .

يضاف إلى ذلك ضرورة حصولهم على التدريب الدقيق، ذلك أن الخلفية التعليمية للعالم مهمة جدًا، والملحوظ أن علماء الشريعة في تونس كانت لهم مجالس علمية خاصة، وتمتعوا بمكانة عالية في المجتمع، وكان معظم المتفقهين في الدين هم من أهل المدن [١] .

ولم يهتم العلماء في تونس بدراسة تاريخ المذاهب الإسلامية، كما أنهم لم يعتمدوا في دراساتهم على أمهات كتب الدراسات الإسلامية مثل كتب ابن تيمية [٢]، بل اقتصروا في دراساتهم على التصانيف المتأخرة، وكانت في غالبيتها شروحاً، وحواشي مثل شرح السعد للعقائد النسفية[٣]، وشرح القسطلاني لصحيح البخاري وغيرها[٤].

وكان المذهب الحنفي وهو المذهب الرسمي للدولة العثمانية[٥] على رأس المذاهب المنتشرة في تونس[٦]. هذا بالإضافة إلى المذهب المالكي الذي كان

---

(١) القاسمي، مرجع سابق : ٣٤ - ٣٦ .

(٢) هو أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبدالحليم بن تيمية، ولد في حران (شمال سوريا) عام ٦٦١هـ/ ١٢٦٣م، وتوجه به والده إلى دمشق، فنبغ واشتهر. كان كثير البحث في فنون الحكمة، داعيًا إلى الدين، عالمًا في التفسير والأصول، له تصانيف كثيرة، سجن مرات عدة بسبب دعوته للإصلاح. توفي معتقلاً بدمشق عام ٧٢٨هـ / ١٣٢٨م .
خير الدين الزركلي، الأعلام، (دار العلم للملايين، بيروت)، ط ١٢، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م : ١ / ١٤٤ .

(٣) المقصود بها عقائد محمد أبي حفص نجم الدين النسفي . ولد عام ٤٦١هـ/ ١٠٦٨م، وهو أحد فقهاء المذهب الحنفي. كان عالمًا من علماء التفسير، والأدب، والتاريخ . قيل: له نحو مئة مصنف منها «العقائد» توفي بسمرقند عام ٥٣٧هـ/ ١١٤٢م .
المرجع نفسه : ٥ / ٦٠ .

(٤) الحبيب الجنحاني، دراسات في الفكر العربي الحديث، (دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٠هـ/ ١٩٩٠م)، ص ٣٤ .

(٥) أيوب صبري، مرآة جزيرة العرب، ترجمة وتعليق أحمد فؤاد متولي والصفصافي أحمد المرسي، (دار الرياض للنشر، الرياض :١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م) : ٢ ٤١ .

(٦) انظر الفصل الأول : ٤٤ .

عليه أكثر أهالي تونس[١]، وقد عمل البايات على تدعيم نفوذ المذهب الحنفي[٢] لتعزيز سيادة الدولة العثمانية في البلاد التونسية، ومن ثم تدعيم سلطتهم، وكان من دلائل اهتمام البايات بشيوخ المذهب الحنفي أنهم كانوا يُجلسون شيخ الإسلام الحنفي في تونس عن يمينهم في منصة خاصة بينما كانوا يُجْلسون شيخ المذهب المالكي في تونس عن يسارهم [٣].

وشهدت تونس في القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي ظاهرة مهمة هي محاولة التوفيق بين السنة والصوفية [٤]، ذلك أن معظم العلماء في تونس قد نظروا بعين الرضا للصوفية، ولم تكن الصوفية مقتصرة على فئة اجتماعية معينة بل كانت للأغنياء وللفقراء على حد سواء انتماءاتُهم

(١) بيرم، مصدر سابق : ١ / ١٢٧ .

(٢) القاسمي، مرجع سابق : ٣٨ .

(٣) التليلي العجيلي، الوهابية والبلاد التونسية زمن حمودة باشا، شهادة الكفاءة في البحث، رسالة غير منشورة برقم T ٢٩٣٥ (الجامعة التونسية، تونس، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م) : ١٠٩ .

(٤) من التصوف، وهو مصدر الفعل الخماسي المصوغ من صوف للدلالة على لبس الصوف دليلاً على الزهد والتجرد من الحياة الدنيوية، والتفرغ للعبادة فقط . وكلمة التصوف محدثة بعد عهد الصحابة رضوان الله عليهم، وقد ظهرت متأثرة بعقائد شركية لا تمت إلى الإسلام بصلة، وإن كان هناك نوع من التصوف لم يكن متأثراً بما هو بعيد عن المعاني الإسلامية، ولهذا فقد عرف عدد من المتصوفة بملازمتهم لتعاليم الشريعة الإسلامية، وإنكارهم على بعض غلاة الصوفية الذين كانوا يعتقدون بالأولياء والصالحين . وكان بعض هؤلاء الغلاة يدّعون تلقيهم العلم عن الله مباشرة وهذا غاية في الضلال؛ ولهذا فقد حاربهم دعاة الإسلام ومنهم المصلح الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله . انظر :
دائرة المعارف الإسلامية : ٥ ٢٦٥، ٢٦٩، وأيضاً:
عبدالله بن صالح العثيمين، الرسائل الشخصية للشيخ محمد بن عبدالوهاب، (أسبوع الشيخ محمد بن عبدالوهاب، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م) : ١ - ١١ وأيضاً:
حمد الجاسر، صفحات من تاريخ مكة في نهاية القرن الثالث عشر، للمستشرق الهولندي، ك. سنوك هورخرونيه، (المجلة العربية، الرياض، ع ٢٢٦، س ٢٠ ذو القعدة ١٤١٦هـ/ إبريل ١٩٩٦م): ١٠٠ - ١٠٢ .

الطرقـيـة [١]، وأهم هذه الطـرق في تونس: الشـاذليـة، والقـادرية، والتيجانية[٢]، والملحوظ أن تلك الطرق الصوفية كان لها مكانتها في المجتمع التونسي، وكان يمكن لهـذه المكانة أن تتحول إلى قوة سياسية تدعم سلطة الباي فـي الولاية؛ لذلك تمتع زعمـاء الطرق الصوفـية بمكانة سـياسـية في المجـتمع التـونسي ولكن ضـمن حـدود؛ لأنه عند الضـرورة كان الأوليـاء وزعمـاء الطرق الصوفـية تمامًا كطبقـة العلماء، يعـاملون بوصفـهم رعايا عليهم أن يدركوا مكمن السيادة السياسية[٣] .

ويمكن القول بوجه عـام: إن الصوفيين وزعمـاءهم أدوا دورًا مهمـًا في توجيه الشـعب التونسي، وفي التوسط بين فئات المجتـمع من ناحية، وبين المجتمع والدولة من ناحـية أخرى من أجل الحفـاظ على التوازن المؤدي إلى الاستقرار، وهي السمة التي كانت تطبع تونس في عهد الحسينيين ؛ غير أن هؤلاء الصـوفيـة لم يبذلوا جـهداً لتـوجيـه المجتـمع لمواجهـة التعـديات الأوربـية[٤] [٥].

وقد أدى عدد من المثقفين من خريجي جـامع الزيتونة دورًا مهمـًا في التأثير في الرأي العام نظرًا لمكانتهم الاجتماعـية البارزة في المجتمع التونسي . ومع أن ثقافتهم بمجـملها كانت ثقافة تقليدية يغلب عليهـا طابع ثقافة الوسط الزيتوني، إلا أنه وجد من بين صفوف هؤلاء الخريجين من تأثر بثقافة العصر، واطلع على

---

(1) Brown, The Tunisia P.174-176.

(2) Ibid,P 58.

(3) Ibid,P 178.

(٤) تمكنت السلطات الفرنسيـة بعد فرض الحماية على تونس من تطويع الصـوفيين، واحتوائهم، وتوظيفهم حتى تستعين بهم عند الضرورة كي لا يصدر عنهم ما يهدد مصالحها .
التليلي العجيلي، الطرق الصوفية والاستعمار الفرنسي بالبلاد التونسية (١٨٨١ - ١٩٣٩م)، (منشورات كلية الآداب بجامعة منوبة، تونس، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م) : ١٠٩ .

(5) Brown, The Tunisia P.183.

الحياة الثقافية من المناطق المجاورة مثل مصر من خلال الكتب التي كانت تصل إلى تونس من تلك المناطق [١] [٢] .

ويمكن أن يعزى إلى المشير أحمد باشا باي (١٢٥٣-١٢٧١هـ/ ١٨٣٧ - ١٨٥٥م)، الفضل في توسيع الأفق الثقافي في تونس، فقد شجع على إقامة الجسور الثقافية بين تونس وجنوب أوربا بزيادة الاحتكاك بين الحضارتين العربية والغربية [٣]، وحاول الاستفادة من التقدم الأوربي فأسس المدرسة الحربية «مدرسة باردو» في عام ١٢٥٦هـ-١٨٤٠م [٤] التي كانت تُعنى بتدريس علوم التاريخ، والجغرافيا، والهندسة، والحساب، واللغات العربية، والإيطالية، والفرنسية، إلى جانب الاهتمام بالعلوم العسكرية[٥] . فكان لتلك المدرسة دور كبير في تنمية الحياة الثقافية في تونس، وقد أسهم وجود الجاليات الأوربية الكثيرة في تونس في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي (وبخاصة الإيطالية والفرنسية) إلى حد كبير في زيادة الاحتكاك بين حضارتي العرب، وأوربا، ونقل المؤثرات الثقافية المختلفة إلى تونس[٦] .

---

(١) من تلك الكتب رحلة الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي ١٢١٦- ١٢٩٠هـ/ ١٨٠١ - ١٨٧٣م المسماة «تخليص الإبريز في تلخيص باريز»، المطبوعة في القاهرة عام ١٢٥٠هـ / ١٨٣٤م . وتعرف أيضًا باسم «الديوان النفيس بإيوان باريس» .
عبد السلام، مرجع سابق : ١٠٤، وأيضًا :
الجنحاني، مرجع سابق : ٣٦ .

(٢) المرجع نفسه : ٣٩ .

(٣) القاسمي، مرجع سابق : ٣٩ .

(4) Brown, and Black, Modrnization, P.132.

(٥) الجنحاني، مرجع سابق : ١٤ .

(٦) القاسمي، مرجع سابق : ٣٩ .
نسبة إلى المشير محمد الصادق باشا باي .
المرجع نفسه ٤٠ .

وتميز عهد المشير محمد الصادق باشا باي (١٢٧٦ - ١٢٩٩هـ ١٨٥٩/ - ١٨٨٢م) باستمرار الاهتمام بالأمور الثقافية وخصوصاً على يد وزيره خير الدين التونسي الذي حرص على دعم النشاط الثقافي في البلاد، وقام خير الدين بتأسيس المدرسة الصادقية في عام ١٢٩٢هـ ـ ١٨٧٥م والتي كانت تدرس العلوم الدينية، واللغة العربية، وبعض اللغات الأجنبية: كالفرنسية، والإيطالية، إلى جانب تدريس المواد العلمية الحديثة كالهندسة، والجبر وغيرهما[١]. كما تولت تلك المدرسة إرسال بعثات طلابية لتلقي العلم في المعاهد العلمية الفرنسية[٣] .

وإدراكاً من الوزير خير الدين بأهمية النهوض بالناحية العلمية أعاد تنظيم الكتاتيب، وركز على إصلاح التعليم في جامع الزيتونة[٣]، وذلك بتغيير نظام الدراسة فيه، وإدخال تحسين على طريقته المعتمدة على الحفظ[٤] .

ونتيجة لهذه الحركة الإصلاحية التي تمت في عهد الباي محمد الصادق ووزيره خير الدين برزت فئة من المثقفين كان لها مكانتها المرموقة المؤثرة في المجتمع، وهذا ما جعل البايات ينظرون إلى أصحابها نظرة خوف وترقب، وكان بعض أفراد هذه الفئة يتولون مناصب مهمة في الولاية مثل أحمد بن أبي الضياف[٥] الذي كان رئيس

---

(١) بيرم، مصدر سابق : ٢ / ٦٦ .

(٢) صحيفة الصواب، تونس ١٣/ ٧/ ١٣٣٨هـ الموافق ١٢/ ٤/ ١٩٢٠م .

(3) Holt, Op.Cit, P. 295.

(٤) القاسمي، مرجع سابق : ٤٠ .

(٥) هو الوزير الكاتب أبو العباس أحمد ابن الحاج ابن أبي الضياف من قبيلة أولاد عون بالبلاد التونسية. ولد عام ١٢١٩هـ / ١٨٠٤م . قرأ الحديث والفقه، اشتهر بالحفظ، وسرعة البديهة. اعتمد عليه المشير أحمد باي في كثير من المهام، وكان يعتمده في سفارته للدولة العثمانية لما عرف عنه من الفصاحة والحكمة، من أهم مناصبه كاتب سر الولاية، وقد تولاه عام ١٢٤٣هـ / ١٨٢٧م، ورتبة قائم مقام عام ١٢٥٩هـ/ ١٨٤٣م ورئيس المجلس الأكبر عام ١٢٩٠هـ / ١٨٧٣م ، له مؤلف في التاريخ وهو «إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان»، وهو في ثمانية أجزاء. توفي عام ١٢٩١ هـ/ ١٨٧٤م . ابن أبي الضياف، مصدر سابق : ١ / ٩ - ١٧ (التعريف بالمؤلف بقلم البشير بن الخوجة) .

المجلس الأكـبر[١] في عام ١٢٩٠هـ/ ١٨٧٣م[٢]، وكذلك بيرم الخامس[٣] الذي كان يشغل منصب رئاسـة الأوقاف عام ١٢٩١هـ / ١٨٧٤م[٤] . وقد تميز هؤلاء بقوة الشخصية، ووقفوا موقف المعارضة للحكم المطلق في بعض القضايا، ونددوا بتصرفات الحسينيين في قضايا أخرى [٥].

ورافق الاهتمـام بالناحية العلـمية اهتـمامٌ بالمكتبـات فتم تأسيس مكتـبة الأحمدية[٦] والمكتبة الصادقية[٧]. كذلك كان هناك اهتمـام بحركة الطباعة

---

(١) هو مجلس وقتي أنشئ إتمامًا لقـانون عهد الأمان، ويهدف إلى النظر فيـما يعرض عليه من القضـايا بين رعايا الولاية التونسيـة والأجانب، كما يهـدف للنظر في الأمور المتعلقـة بحفظ الأمن، وأعضاؤه لا يتجاوزون الستين ثلثـهم من : الوزراء، ورجال الدولة، وثلثان من أعيان الولاية .
المصدر نفسه : ٥ / ٣٨ .

(٢) المصدر نفسه : ١ / ١٤ (التعريف بالمؤلف) .

(٣) انظر إلى ترجمته مفصلة في هذا الفصل : ١٠٠ -١١١ .

(٤) السنوسي، مصدر سابق : ٢ / ١١٣ .

(٥) القاسمي، مرجع سابق : ٤٠ .

(٦) أسست في جامع الزيتونة عام ١٢٥٦هـ/ ١٨٤٠م، وقد ضمت حين تأسـيسها عشرين خزانة تحوي كتبـًا اشتراها المشير أحمد باشا باي من الوزير حسين بن خوجة وكذلك من ورثة الشيخ إبراهيم الرياحي بعد وفاته . كما ضمت كتبًا لأسلاف المشير كانت مجموعة في خزانة بقصره . وقد استـمر المشير أحمد في شـراء المزيد من الكتب، وضمها إلى المكتبـة، وأتيح للجميع الاطلاع عليها، وتولى مسؤولون مهمة الإشراف عليهـا وتنظيمها، ومناولة الطلبة ما يحتاجون إليه منها .
ابن أبي الضياف، مصدر سابق : ٤ / ٥٦ - ٥٧ .
وتوجد مـحتـويات هذه المكتبـة حاليًا داخل مكتـبة جامع الزيتـونة بسوق العطاريـن بتونس (العاصمة).

(٧) وتسمى أيضًا العـبدلية، أسسهـا خير الدين التونسي في عـام ١٢٩٢هـ / ١٨٧٤م بأمر من المشير محمـد الصادق باشا باي، واهتم بتنظيمها، وحظر إخراج الكتب منـها، وأضاف إليها مكتبته الخاصة، كما أمدها بمخطوطات وكـتب ثمينة اشتراها من آل بيرم . وقد عرفت المكتبة الصادقية بحسن التنظيم وسهولة الاطلاع على محتوياتها.
بيرم، مصدر سابق : ٢ / ٦٧، وأيضـًا : عبدالسلام، مرجع سابق : ١٣٦ .

والنشر بحيث غدت هذه الحركة من أبرز معالم النهضة الثقافية التونسية في ذلك العهد[١].

وتعود فكرة إنشاء أول مطبعة تونسية إلى عهد المشير أحمد باشا باي الذي عزم على إنشاء مطبعة تونسية لكنه توفي قبل إنجاز ذلك[٢]، وقام من بعده المشير محمد الصادق باشا باي في عام ١٢٧٧هـ/ ١٨٦٠م بإنشاء المطبعة الرسمية التونسية التي أخذت تنشر الكتب الأدبية والتاريخية[٣]. كما تم في العام نفسه[٤] إصدار صحيفة رسمية للولاية هي صحيفة «الرائد» التونسي في أربع صفحات، وقُسمت قسمين الأول: كانت تنشر فيه الأوامر الرسمية والبيانات، والثاني: كان يحتوي على أخبار داخلية وخارجية، وحكايات أدبية[٥].

وقد قَلَّ الاهتمام بالناحية العلمية في تونس إثر استقالة خير الدين من منصبه عام ١٢٩٤هـ /١٨٧٧م، وخروجه من البلاد نهائيًا [٦].

وبعد فرض الحماية الفرنسية على البلاد عام ١٢٩٨هـ / ١٨٨١م، وفشل أسلوب المقاومة المسلحة لمواجهة تلك الحماية، سعت الفئة المثقفة إلى التركيز على تثقيف الشعب، وتوعيته بغرض الوقوف في وجه المستعمر، فأنشأت مجموعة من الشباب التونسي صحيفتي: «الحاضرة» [٧]، و«الزهرة»[٨]، كما

(١) المرجع نفسه، الصفحة نفسها .

(٢) الجنحاني، مرجع سابق : ٢٩ .

(٣) ابن أبي الضياف، مصدر سابق : ٥ / ٣٦ .

(٤) القاسمي، مرجع سابق : ٤٠ .

(٥) الجنحاني، مرجع سابق : ٢٩ .

(٦) المرجع نفسه : ٤٢ .

(٧) هي أول جريدة غير رسمية، صدرت عام ١٣٠٥هـ/ ١٨٨٨م بإدارة علي بوشوشة، وهي مجلة سياسية أدبية، أسبوعية .
القصاب، مرجع سابق : ٣٢٧ .

(٨) تأسست عام ١٣٠٧هـ/ ١٨٩٠م، وقد تولى إدارتها عبد الرحمن الصنادلي، وأصبحت لسان القوى الوطنية الثائرة ضد المستعمر، وعُطلت مرات عدة .
الجنحاني، مرجع سابق : ٥٥ .

اهتمت مجموعة أخرى بقضايا التعليم[١] فتم تأسيس المدرسة الخلدونية عام ١٣١٤هـ / ١٨٩٦م[٢] بهدف التوسع في تعليم العلوم العصرية، كالكيمياء إلى جانب تدريس التاريخ، والجغرافيا[٣]، وجرى تطوير التعليم بوجه عام لتمكين خريجي جامع الزيتونة من دراسة العلوم الحديثة، والاتصال بالنهضة العلمية المعاصرة، وذلك عن طريق إلقاء المحاضرات العلمية فيها، وتدريس اللغة الفرنسية إلى جانب اللغة العربية[٤].

وأدت هذه الجهود متضافرة إلى ظهور عدد من الشباب التونسي المثقف الذي أخذ على عاتقه العمل بالأسلوب السياسي من أجل مقاومة المستعمر، وكان هذا نواة لظهور الأحزاب السياسية في بداية القرن العشرين، والتي هدفت إلى المطالبة بالحقوق التونسية في ظل الحماية الفرنسية، ومناهضة الأساليب الفرنسية الرامية إلى «فرنسة» البلاد التونسية .

(ب) في الحجاز :

وُجد في الحجاز في نهاية القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي عددٌ كبيرٌ من العلماء أخذ عنهم الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» قبل عودته إلى نجد لنشر دعوته السلفية التي تتضمن العودة بالإسلام إلى أصوله الأولى، ومحاربة البدع والخرافات والطرق الصوفية المناهضة لتعاليم الدين الإسلامي الصحيح [٥] .

---

(١) المرجع نفسه، الصفحة نفسها .

(٢) القصاب، مرجع سابق : ٣٢٩ .

(٣) جلاب، مرجع سابق : ٤٧ .

(٤) الطاهر الحداد، العمال التونسيون وظهور الحركة الثقافية، مطبعة العرب، تونس، ١٣٦٥هـ/١٩٤٦م :١٦ -١٨ .

(٥) العثيمين، الشيخ محمد بن عبدالوهاب : ١٠٧ .

وكان انتقال دعوة «الشيخ محمد بن عبد الوهاب» إلى الحجاز خاصة بعد سيطرة الدولة السعودية عليه عام ١٢١٨هـ/ ١٨٠٣م من العوامل التي أدت إلى ظهور النهضة الفكرية في الحجاز[١]، والقضاء على كثير من المظاهر الشركية فيه [٢]، وزاد عدد الكتاتيب في الحجاز في القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي، فبلغ ما يقرب من مئة كُتّاب في مكة والمدينة، إلى جانب عدد قليل في جدة والطائف [٣].

وانتشرت الحلقات العلمية التي كانت تعقد في الحرمين الشريفين لتدريس العلوم الشرعية، وكانت كل حلقة تضم ما بين عشرة إلى ستين دارساً. واقتضت دراسة الفقه وجوب اختيار الطالب للمدرس الذي ينتمي لمذهبه نظراً لأن الدروس الفقهية في الحرمين كانت تقوم على المذاهب الفقهية الأربعة، إلا أن عدد تلاميذ المذهب المالكي فاقوا تلاميذ المذاهب الأخرى، وقد يعود ذلك إلى عوامل عدة منها: أثر الدعوة السنوسية[٤] التي تتبع المذهب المالكي في الحجاز، إلى جانب قيام عدد من علماء شمال أفريقيا وغربها الذين يتبعون هذا المذهب بزيارة الحجاز، هذا بالإضافة إلى وجود عدد لا بأس به من المجاورين المغاربة والشوام في الحجاز يتبعون في غالبيتهم

(١) الفوزان، مرجع سابق : ٢١٥ .
(٢) سعد بدير الحلواني، العلاقات بين مصر والحجاز ونجد في القرن ١٩، (د. م. ن، مصر، ١٣١١هـ/ ١٩٩٣م): ١٥٩ .
(٣) المرجع نفسه، الصفحة نفسها .
(٤) هي إحدى الطرق الصوفية تنسب إلى الشيخ محمد بن علي السنوسي، وقد نشأت وتأثرت بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية، وكانت تدعو للجهاد ومحاربة البدع والخرافات . اتخذت من برقة في ليبيا مركزاً لها، وأسست فيها زوايا عدة كان أولها الزاوية البيضاء التي تم تأسيسها عام ١٢٥٨هـ / ١٨٤٢م كان زعماؤها على علاقة طيبة بالدولة العثمانية، انتشرت بشكل خاص على نطاق واسع في مناطق عدة من القارة الأفريقية .
محمد كمال جمعة، انتشار دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، (دارة الملك عبد العزيز، الرياض، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م) : ٢١٥ - ٢٢١، وأيضاً :
الجمل، مرجع سابق : ١٤٩ - ١٦٣ .

المذهب المالكي[١] .

ويلي المذهب المالكي في عدد تلاميذه في الحرمين المذهب الحنفي لكونه المذهب الرسمي للدولة العثمانية، ثم المذهب الشافعي، وهو الذي عليه معظم أهالي الحجاز، ثم المذهب الحنبلي وأكثر تلاميذه من وسط شبه الجزيرة العربية[٢].

ولم تُبدِ الدولة العثمانية اهتمامًا واضحًا بقضايا العلم والتعليم في الحجاز، كما أن الأشراف في الحجاز لم يكونوا حريصين على تنمية هذا الجانب، وإلى ذلك يشير محمد بن عثمان السنوسي [٣] : «لقد عجبت كلَّ العجب من أمر العلم في الحجاز مع وجود فحول العلماء هناك. كلهم يقرئ العلوم الدينية احتسابًا لربِّه، وليس لواحد منهم معاش عن ذلك من أموال بيت المسلمين، ولا من إدارة الأوقاف، بحيث إنه لا جراية على التدريس ولا للمدرس أصلاً مع أن صنف العلماء لا محالة مستحق من بيت مال المسلمين، وأن هذا الأمر عجيب بالنظر إلى أمثال هذه الجهات التي هي منبت أصل الدين وذلك من أعظم ما ينبغي للدولة أن تهتم بشأنه. والأموال الصادرة إلى الحرمين هي مرتبات أئمة، ومفتين، وحفظة، وصدقات جزئية ربما دخل فيها بعض العلماء».

ويعد منصبا مفتي مكة وقاضي جدة في مقدمة مناصب كبار العلماء في

(١) ك، سنوك، هور خرونيه، صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري، نقله إلى العربية وعلق عليه محمد بن محمود السرياني، ومعراج نواب مرزا، راجعه محمد إبراهيم أحمد علي، (مطبوعات نادي مكة الأدبي، مكة المكرمة، ١٤٠٠هـ/ ١٩٩٠م) : ٢ ٣١٢ .

(٢) المصدر نفسه، الجزء نفسه : ٣١٢ .

(٣) الرحلة الحجازية، تحقيق علي الشنوفي، (الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م): ٢ ٢٢٣ .

الحجاز، وترجع أهمية المنصبين بالنسبة للدولة العثمانية ولإمارة مكة لكونهما همزة الوصل بين السكان والسلطة الممثلة بأمير مكة أو والي جدة. وكانت الدولة العثمانية بحاجة إلى موافقة المفتي ومن ثم العلماء على ما تود إعلانه للناس من إصلاحات أو تنظيمات[١].

وكانت مهمة المفتي تقوم على إصدار الفتاوي، وتعيين الأساتذة، والمدرسين، والموظفين بالمسجد الحرام. هذا بالإضافة إلى رئاسة التعليم في المسجد الحرام، والإشراف على هيئة كبار العلماء، وكان تعيين المفتي يتم من قبل شيخ الإسلام في إستانبول بتزكية من أمير مكة[٢]، كما كان في المدينة المنورة كذلك مُفتٍ وقاضٍ إلى جانب الأئمة والخطباء [٣]، وهؤلاء أيضًا يتم تعيينهم من قبل شيخ الإسلام في إستانبول[٤].

وكانت الطرق الصوفية منتشرة في الحجاز، على الرغم من سعي الدولة السعودية الأولى إلى إزالتها حين سيطرت على الحجاز في الفترة (١٢١٨ - ١٢٣٣هـ / ١٨٠٣ -١٨١٨م) نظرًا لما يصاحب غالبيتها من مظاهر شركية كتقديس الأولياء من الأموات والأحياء، وتقديم النذور لهم، وطلب الشفاعة منهم والاستعانة بهم لجلب نفع، أو دفع ضُر وما إلى ذلك [٥]، وقد انتشرت الصوفية بين البدو أكثر من غيرهم، ويعود ذلك إلى تفشي الجهل بالأمور الدينية في الغالبية منهم، بحيث أسهم هذا في انتشار المعتقدات والخرافات الدينية الباطلة [٦]. على أن طريقة الشيخ «محمد بن علي

---

(١) دحلان، أشراف، تحليل : ٧٦ .

(٢) المصدر نفسه، الصفحة نفسها .

(٣) بيرم، مصدر سابق : ٥ / ١٥ .

(٤) أحمد سعيد بن سلم، المدينة المنورة في القرن الرابع عشر الهجري، (دار المنار، القاهرة، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م): ٢٩ .

(٥) عمر، مرجع سابق : ٢١٤ .

(٦) العثيمين، الرسائل، ص ١١ .

السنوسي»[١]، والمتأثرة بدعوة الشيخ «محمد بن عبدالوهاب» السلفية، كان لها صدى بين البدو في الحجاز؛ إذ كان الشيخ السنوسي يركز على مجتمع البدو لكونه أكثر ملاءمة لتأسيس الزوايا. هذا إضافة إلى رغبته في البعد عن السلطات الحاكمة وحين أقام في الحجاز في الفترة (١٢٤٦-١٢٥٦هـ/ ١٨٣٠-١٨٤٠م) [٢] أنشأ فيه أول زاوية للسنوسية هي زاوية أبي قبيس، وذلك عام ١٢٥٢هـ/ ١٨٣٦م [٣]، كما أنشأ زوايا أخرى في الطائف، والمدينة المنورة، وبدر[٤].

ووُجد في الحجاز إضافة إلى السنوسية بعض الطرق الصوفية الأخرى، كالنقشبندية، والشاذلية، والقادرية، وكان أتباعها جميعًا يسعون إلى جذب عناصر من الأتراك والجاوي (أو الجاويين) [٥]. وغالبًا ما كانت بعض الحلقات العلمية عن التصوف تعقد في المسجد الحرام أيام الجمعة والثلاثاء من كل أسبوع بسبب تعطل الدروس عامة في المسجد الحرام أيام الجمعة

---

(١) نسْبةً إلى جده السنوسي الخطابي الحسني الإدريسي. ولد في مدينة «مستغانم» بالجزائر، أظهر منذ صغره حبه للعلم. انتقل إلى جامع القرويين في فاس عام ١٢٣٧هـ/ ١٨٢٢م، وبقي هناك يتعلم مدة سبع سنوات بعدها عاد إلى الجزائر، ثم انتقل إلى القاهرة، ثم إلى الحجاز. تأثر بدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب الإصلاحية فدعا إلى تطهير الإسلام من البدع والخرافات، والعودة إلى ما جاء في الكتاب والسنة، أسس زوايا عدة في الحجاز وفي ليبيا، عُدَّ مؤسس الحركة السنوسية، ألّف العديد من الكتب معظمها في الفقه والتصوف. توفي عام ١٢٧٦هـ / ١٨٥٩م.
الجمل، مرجع سابق: ١٥٠ - ١٥٨، وأيضًا:
الحلواني، مرجع سابق: ١٦١.

(٢) جمعة، مرجع سابق: ٢١٥.

(٣) أقيمت هذه الزاوية عند جبل أبي قبيس، وهو جبل عال متصل بالصفا، ومطل على المسجد الحرام، سالنامة الحجاز بالعربية عام ١٣٠٣هـ، رسالة دحلان: ١٥٤.

(٤) الجمل، مرجع سابق: ١٥٢ - ١٥٦.

(٥) يطلق هذا الاسم على كل الشعوب التي تنتمي إلى السلالة الملاوية شاملة البلاد الممتدة من سيام (تايلند) إلى ملقا (في ماليزيا).
هورخرونيه، مصدر سابق: ٣٦٤.

والثلاثاء ولياليهما، فكان المتصوفة ينتهزون الفرصة لنشر مبادئهم [١] إلا أن علماء الحرم كانوا يبدون استياءهم حين التحاق بعض طلبتهم بتلك الحلقات إذ كانوا يفضلون أن يتلقى التلميذ نصيباً وافراً من العلم قبل التفكير بالالتحاق بتلك الطرق نظراً لبعدها عن نهج الإسلام الصحيح[٢] .

وهكذا فَإنَّ سعة انتشار الصوفية في الحجاز لا يوازي ما هي عليه في تونس؛ لأن عدداً كبيراً من العلماء في الحجاز كانوا يرون أن الطرق الصوفية تشكل خطراً على العقيدة الإسلامية الصحيحة، ومع ذلك فقد وجدت هذه الطرق منفَذاً لها بين علماء الحجاز، وبين عدد من السكان العاديين، ودخلت الصوفية بذلك ضمن المعارف الدينية، بل احتلت مكانة جيدة بينها في بعض الأحيان [٣]، وقد عزز ذلك ما عرف عن الدولة العثمانية من مؤازرة للطرق الصوفية [٤] .

وكانت الدولة العثمانية في محاولة منها لتدعيم نفوذها في المنطقة خاصة بعد خروج محمد علي من الحجاز عام ١٢٥٦هـ / ١٨٤٠م، قد سعت إلى ربط المجتمع الحجازي من الناحية العلمية برابطة الانتماء للدولة العثمانية، وذلك بنشر اللغة التركية على نطاق واسع . وقامت بإنشاء مدارس ابتدائية مدتها ثلاثة أعوام تُدرس خلالها العلوم الأولية باللغة التركية، كما أحدثت ما يسمى «المدرسة الرشدية» في كل من مكة المكرمة فيما بين عامي ١٣٠١ - ١٣٠٣هـ / ١٨٨٣ - ١٨٨٥م[٥]، والمدينة المنورة عام ١٣٠٣هـ / ١٨٨٥م،

---

(١) صالح شطا، تجديد لمجالس العلماء والأدباء في مطلع هذا القرن، (مجلة المنهل، مكة المكرمة، الجزء السادس، س ٨، جمادى الآخرة ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٧م) : ٢٢٠ .

(٢) هورخرونيه، مصدر سابق : ٢ / ٣٤٦، ٣٥٣، ٣٥٤ .

(٣) المصدر نفسه، الجزء نفسه : ٣٤٣ .

(٤) صبري، مصدر سابق : ٢ / ١٧ .

(٥) يذكر عثمان حافظ في صور وذكريات عن المدينة المنورة، (نادي المدينة الأدبي، المدينة المنورة ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م) ١٦٦، إن هذا الاسم أطلق عليها نسبة إلى والي الحجاز في تلك الفترة رشدي (بك) غير أن رشدي باشا لم يكن آنذاك والياً على الحجاز. انظر ولاة الحجاز في الملحق جدول ٣ .

وجدة عام ١٣٠٥هـ / ١٨٨٧م[١]. وكانت مدة الدراسة في المدارس الرشدية ثلاثة أعوام، يتم فيها تدريس القرآن الكريم، والعلوم الدينية، وقواعد اللغات العربية، والتركية والفارسية، والفرنسية. هذا بالإضافة إلى تعليم الخط العثماني، والتاريخ، والجغرافيا، والحساب، والهندسة، والجبر، والرياضة البدنية، والرسم[٢]. وقد التحق بالتدريس في هذه المدارس بعض المدرسين من الحجاز الذين كانوا يتقنون اللغة التركية، كما بعثت الدولة العثمانية بعض الأتراك للتعليم فيها. وكانت لغة التعليم في مختلف الفروع في تلك المدارس هي التركية حتى إن قواعد اللغة العربية كانت تدرس باللغة التركية [٣].وقد ظهرت المدارس الإعدادية في الحجاز حوالي عام ١٣١٨هـ/ ١٩٠٠م، وهي في مستوى المدارس الثانوية ومدتها خمسة فصول، ثم أضيف إليها فصل سادس باسم «إحضاري فصلي» بمستوى السنة التوجيهية، وهذا الفصل يُعدّ «سنة أولى سلطاني» [٤]، وكان التعليم في المدارس الإعدادية باللغة التركية أيضًا، وبعد تخرج الطلاب في المدرسة الإعدادية يتم ابتعاث أربعة منهم كل عام إلى المدارس السلطانية في إستانبول، أو دمشق، أو القدس [٥].

ونظرًا لأن المدارس العثمانية في الحجاز كانت تدرس المواد باللغة التركية، فإنه لم يلتحق بها في الغالب إلا أبناء الموظفين الأتراك وبخاصة أن الأهالي كانوا يخشون من أن يكون هدف الدولة العثمانية من إنشائها هو تتريك العرب. كما كانوا يخشون أن تكون تلك المدارس وسيلة لإلحاق أبنائهم

---

(١) الحجاز ولايتي سالنامة سي، مكة المكرمة، ١٣٠١هـ : ٦٤ .
(٢) الحجاز سالنامة بالعربية، ١٣٠٣هـ : ١٨٣ .
(٣) عبد الرحمن صالح عبد الله، تاريخ التعليم في مكة المكرمة، (دار الشروق، جدة، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م) : ٧٨ .
(٤) حافظ، مصدر سابق : ١٦٦ .
(٥) الفوزان، مرجع سابق : ٢٨١ .

بالخدمة العسكرية[1]، ذلك أن المدارس الرشدية حينما أسست في الدولة العثمانية كانت مدارس رشدية عسكرية [2] .

ولم يمنع هذا أن يقوم بعض الأثرياء المقيمين في مكة بالإسهام في رفع شأن التعليم في مدينتهم ذات الأهمية الدينية احتساباً لوجه الله، ورغبة في الثواب، فأنشئ عدد من المدارس الأهلية بمجهودات ذاتية لم يكن للدولة العثمانية إشراف عليها، وإنما كانت تشترط حصول تلك المدارس على موافقة الدولة قبل افتتاحها [3]، وكان من أبرز المدارس الأهلية في مكة «المدرسة الصولتية» التي أنشأها الشيخ محمد رَحْمةَ الله [4] بمساعدة سيدة من ثريات الهند تدعى «صولة النساء» كانت قد اتفقت مع الشيخ على أن تقوم بدفع نفقات عمارة المدرسة، ويقوم هو بالتدريس فيها، والإشراف عليها، وجمع التبرعات للإنفاق على معلميها، وتم افتتاح هذه المدرسة بحارة (الخندريسة) بمكة المكرمة عام ١٢٩٢هـ / ١٨٧٥م [5]، ودُعي من يرغب من الأهالي للتعلم فيها مجاناً [6]. وكانت طريقة التعليم فيها تقوم على تعليم العلوم الإسلامية، واللغة العربية، ومع مرور الوقت تطور منهجها، وقسمت

(١) حافظ، مصدر سابق : ١٦٧ وأيضاً : عبد الله، مرجع سابق : ٧٨ .

(٢) ساطع الحصري، حولية الثقافة العربية، (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، س ١، ١٣٦٩هـ/ ١٩٤٩م) : ٦ .

(٣) فيصل عبد الله مقادمي، التعليم الأهلي للبنين في مكة المكرمة، (مطبوعات نادي مكة الثقافي، مكة المكرمة، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م) : ١٣٩ .

(٤) من أصل هندي، ولد عام ١٢٤٠هـ / ١٨٢٥م، تعلم العلوم الدينية في الهند وتوجه إلى مكة المكرمة، وأخذ يدرس الحديث على يد الشيخ أحمد دحلان، تميز بغزارة العلم، تتلمذ على يديه الكثير من طلاب العلم، وألف كتاب « ظهار الحق » عام ١٢٨٠هـ / ١٨٦٣م.
السنوسي، مصدر سابق : ٣ / ١٠٥ - ١١٥ .

(٥) عمر عبد الجبار، دروس من ماضي التعليم وحاضره بالمسجد الحرام، (دار ممفيس، القاهرة ١٣٧٩هـ/ ١٩٥٩م) : ٩٨ .

(٦) الفوزان، مرجع سابق : ٢٨٦ .

الدراسة فيها منذ عام ١٣٢٥هـ / ١٩٠٧م إلى أربع مراحل : تحضيرية، وابتدائية، وثانوية. ومدة كل مرحلة أربعة أعوام إضافة إلى مرحلة عالية مدتها عامان[١]. وأقبل الطلبة على المدرسة الصولتية إقبالاً كبيرًا، كما حرص بعضهم على حضور محاضرات الشيخ محمد رَحْمَةَ الله التي خصصها للتلاميذ في المسجد الحرام، وأدت تلك المدرسة للتعليم في مكة خدمة كبيرة[٢]، واستفاد منها طلبة العلم.

وقد تأثر أحد طلبة الشيخ محمد رَحْمة الله، وهو الشيخ عبدالحق قاري بهذا المشروع التعليمي فأسس المدرسة الفخرية عام ١٢٩٦هـ / ١٨٧٩م بعد أن لمس كثرة الإقبال على المدرسة الصولتية، وساعده على إنشاء مدرسته أحد أمراء الهند، ويدعى عثمان (حاكم حيدر أباد)[٣]. وتحتوي المدرسة الفخرية على المرحلة التحضيرية (الأولية)، والابتدائية وعلى قسم لتحفيظ القرآن . واهتمت المدرسة بشكل خاص بتعليم القرآن، والتجويد، بالإضافة إلى الاهتمام بالعلوم الأساسية كالحساب، والإملاء، والإنشاء[٤].

وكان في المدينة المنورة عدد لا بأس به من المدارس الأهلية والحكومية في مطلع القرن الرابع عشر الهجري / القرن العشرين ميلادي منها المدرسة الإحسانية ومدرسة أمين أفندي[٥]، بالإضافة إلى المدرسة الرشدية، والمدرسة الإعدادية[٦].

وقد وجد في الحجاز عدد من المكتبات العامة. كان من أهمها مكتبة الحرم المكي في مكة المكرمة التي أنشأها السلطان العثماني عبد المجيد في

(١) الشامخ، مرجع سابق : ٤٠ .
(٢) السباعي، مرجع سابق : ٢ / ٥٨١ .
(٣) مقادمي، مرجع سابق : ١٢٨ - ١٢٩ .
(٤) الشامخ، مرجع سابق : ٥٠ .
(٥) الحجاز ولايتي سالنامه سي، ١٣٠٣هـ : ١٤٨ .
(٦) انظر : ٩٩ - ١٠٠ من هذا الفصل .

عام ١٢٥٩هـ/ ١٨٤٣م[١]، وكذلك مكتبة الشيخ أحمد حكمت عارف[٢] في المدينة المنورة التي أسسها عام ١٢٧٠هـ / ١٨٥٤م بجوار المسجد النبوي الشريف[٣]، ورافق وجود المكتبات في الحجاز اهتمام بحركة النشر، فتأسست أول مطبعة في مكة عام ١٣٠٠هـ / ١٨٨٣م [٤] على يد والي جدة عثمان نوري باشا [٥] في عهد إمارة الشريف عون الرفيق [٦] وكانت المطبعة تُصدر سنويًا باللغة التركية فقط ما يعرف بـ «السالنامة» [٧] وقد صدر أول عدد من السالنامات في مكة عام ١٣٠١هـ / ١٨٨٣م، واستمرت في الصدور على نحو غير منتظم حتى عام ١٣٠٩هـ / ١٨٩١م وقد صدر منها

---

(١) سالنامة الحجاز بالعربية، ١٣٠٣هـ، رسالة أحمد دحلان : ١٢٧ .

(٢) هو شيخ الإسلام بإستانبول . ولد عام ١٢٠١هـ/١٧٩٨م، اشتهر باسم عارف بك . لقب باسم حكمت لفراسته . كان فقيهًا حنفي المذهب، وأديبًا، وعالمًا من العلماء . تولى القضاء بالمدينة المنورة عام ١٢٣٧هـ / ١٨٢٢م، كما تولى منصب شيخ الإسلام في إستانبول في عهد السلطان عبد المجيد . توفي بإستانبول عام ١٢٧٢هـ / ١٨٥٦م .
عبدالستار بن عبدالوهاب الدهلوي، فيض الملك المتعالي بأنباء أوائل القرن الثالث عشر والتوالي، (مكتبة الحرم المكي، مكة المكرمة، مخطوط، ميكروفيلم برقم ١١٠١: ١ / ٢٤).

(٣) الفوزان، مرجع سابق : ٣٦٥ .

(٤) الشامخ، مرجع سابق : ١١٣ .

(٥) وَلي الحجاز لأول مرة عام ١٢٩٩هـ / ١٨٨٢م، كان عاملاً فاضلاً ذكيًا، قام بأعمال جليلة لخدمة ولاية الحجاز، مكث في الولاية لمدة خمس سنوات ثم عُزل منها وأعيد إليها مرة أخرى عام ١٣١٠هـ/ ١٨٩٢م . صحيفة الحاضرة، تونس، العدد ٢١٩، س ٦ في ١١/ ٤/ ١٣١٠هـ الموافق ١/ ١١/ ١٨٩٢م وأيضًا:
محمد طاهر الكردي، التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، (مكتبة النهضة الحديثة، مكة المكرمة، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥ م : ٦ / ٣٣٨ .
رفيع، مرجع سابق : ٣٢٧ .

(٦) فيما عدا العدد الثاني الذي صدر عام ١٣٠٣هـ / ١٨٨٥م فقد صدر باللغتين العربية والتركية في مجلد واحد .

(٧) كلمة فارسية الأصل، تتكون من كلمتين (سال) وتعني السنة، و(نامه) وتعني الرسالة أو الكتاب، وقد دخلت الكلمة في القاموس العثماني، وأصبحت تعني الحولية أو الكتاب السنوي. أما معناها الاصطلاحي فهي كتاب يحمل معلومات تقويمية، وعلمية وتعليمية . ويقصد بـ «السالنامات العثمانية» المرجع نفسه:١٩٢ .

خمسة أعداد[١]. وصدرت صحيفة في مكة سميت بـ «حجاز» في عام ١٣٢٦هـ / ١٩٠٨م [٢]،وكانت تصدر أسبوعيًّا باللغتين العربية والتركية[٣]، كما صدر في المدينة المنورة عام ١٢٢٧هـ / ١٩٠٩م[٤]، صحيفة سميت «المدينة المنورة» وكانت تصدر باللغتين العربية والتركية أيضًا، إلا أن صدورها لم يكن منتظمًا [٥].

وشهد الحجاز ظاهرة تعدد اللغات الأجنبية، ومن أبرزها اللغتان التركية والفارسية إلى جانب اللغة الأردية[٦]. ولا شك أن أهمية الحجاز الدينية وتوافد المسلمين من جميع أنحاء العالم الإسلامي قد ساعدت على تعدد الألسن فيه، واقتضى هذا تعلم اللغات المختلفة. وكان عدد من علماء الحجاز يدرّس بعض الكتب بهذه اللغات[٧].

ويمكن القول: إن الأجواء الثقافية في كل من تونس والحجاز كانت متشابهة إلى حد ما غير أن تونس حظيت باهتمام أكبر من الناحية الثقافية، ولعل ذلك يعود إلى اهتمام البايات، وإلى وجود عدد من زعماء الإصلاح الذين أخذوا على عاتقهم الاهتمام بالناحية العلمية، ومسايرة النهضة الغربية. هذا بالإضافة إلى أن اتصال تونس بحكم موقعها الجغرافي ببعض

(١) المرجع نفسه : ١٩٣ .

(٢) محمد عبد الرحمن الشامخ، نشأة الصحافة في المملكة العربية السعودية، (دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م) : ٣٩ .

(٣) رفيع، مرجع سابق : ٣٢٧ .

(٤) الشامخ، نشأة : ٦٦ .

(٥) إبراهيم رفعت، مرآة الحرمين (أو الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية)، (دار الكتب المصرية القاهرة، ١٣٦٤هـ/ ١٩٤٥م) : ١ / ٢٠٣ .

(٦) البتنوني، مصدر سابق : ٢٥٥ .
هي لغة هندية اشتقت من أصول متعددة .
دائرة المعارف الإسلامية : ١ / ٥٩٤ .

(٧) السنوسي، مصدر سابق : ٢ / ٢٥٧.

دول جنوب أوربا كفرنسا وإيطاليا قد ساعد التونسيين على الاطلاع على منجزات الحضارة الغربية ومن ثمّ نقلها إلى المنطقة العربية، وقد أسهم هذا في تنمية الإحساس لديهم بأهمية الاستفادة من هذا الجانب، وتسخيره لخدمة البلاد التونسية.

وقد سبق أن أشير(١) إلى أن فرض الحماية الفرنسية على تونس كان حافزًا لعدد من الشباب التونسي للعمل على نشر الثقافة من أجل توعية الناس وتبصيرهم بأوضاعهم التي كانوا يعيشونها في ظل الحماية، ودعوتهم للنهوض، وتجاوز ما هم عليه من خمول.

أما في الحجاز ونظرًا لكونه مركزًا دينيًا مهمًا، وملتقى لمختلف الثقافات الإسلامية فقد انصب الاهتمام فيه على دراسة العلوم الدينية والتعمق بها، وساعد على ذلك وجود عدد من العلماء من أهل الحجاز، ومن المجاورين(٢)، وهذا ما أثرى الحياة العلمية في البلاد. ولا يمكن أن نغفل دور الدولة السعودية الأولى في إثراء النشاط العلمي في الحجاز، والعمل على تخليصه من البدع والشركيات.

ولم يحاول أشراف مكة مسايرة النهضة الغربية كما فعل البايات التونسيون، وربما كان بعد المنطقة عن مؤثرات الحضارة الغربية أحد العوامل التي قللت من اهتمام أشراف مكة بهذا الجانب . ولم يول محمد علي باشا الذي عرف عنه اهتمامه بالناحية العلمية والثقافية بوجه عام هذه الناحية في الحجاز نصيبًا من اهتمامه على الرغم من قيامه بعدد من الإصلاحات فيه(٣).

---

(١) انظر : ٩٣ من هذا الفصل .

(٢) انظر الفصل الرابع : ٢٨٤ .

(٣) الفوزان، مرجع سابق : ٢٦٦ .

وقد عمدت الدولة العثمانية بعد انسحاب محمد علي من الحجاز، وإعادة سيطرتها هناك إلى التركيز على إرساء الثقافة التركية على أنها وسيلة لدعم النفوذ، وليس بهدف نشر العلم والتعليم، إلا أن وجود الجاليات المتعددة في الحجاز ذات اللغات المختلفة كان لها دورها في إنعاش الناحية الثقافية في المنطقة. ولا بد من التنويه إلى عامل مهم كان له دوره في إيجاد التشابه بين أحوال تونس والحجاز العلمية ذلك هو سيادة المذهب الحنفي، وهو مذهب الدولة العثمانية الرسمي في كلا البلدين، هذا بالإضافة إلى انتشار المذهب المالكي فيهما، وكذلك انتشار الطرق الصوفية في كلا البلدين وفي تونس على نحو أوسع .

ونخلص من ذلك إلى أن المظاهر المتشابهة في الأجواء الثقافية قد أصبحت مجالاً خصباً لانتقال التأثيرات الثقافية وتبادلها بين الولايتين .

ثانياً - التبادل الثقافي بين تونس والحجاز :

برزت الصِّلات بين تونس والحجاز في الفترة التي هي موضوع الدراسة في جانب مهم من جوانب الحياة وهو الجانب الثقافي . ولو عدنا إلى الوراء فإننا نلحظ أن المذهب المالكي الذي هو مذهب غالبية سكان شمال إفريقيا قد ظهر ابتداءً في المدينة المنورة على يد مؤسسه الإمام مالك بن أنس[1] وذلك في القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي، وكان الغالب على سكان تونس المذهب الحنفي إلى أن ولي سُحنونُ بنُ سعيدٍ

(١) ولد في المدينة المنورة عام ٩٣هـ / ٧١٢م، وفيها نشأ، وفيها تلقى العلم، ورحل إلى التابعين من الفقهاء، وأخذ عنهم، واستمر في طلب العلم، وجمع الحديث حتى صار سيد فقهاء الحجاز. ولما حج الخليفة العباسي المنصور ١٣٦-١٥٨هـ ٧٥٣/ ٧٧٤م اجتمع به وأشار عليه بأن يدون ما ثبت عنده من مسائل العلم فألف كتابه الموطأ في الحديث والفقه، كان أحد الأئمة الأربعة وإليه تنسب المالكية. بنى مذهبه على الأصول الأربعة (الكتاب، والسنة، والإجماع، والقياس). توفي عام ١٧٩هـ / ٧٩٥م بالمدينة المنورة .
الزركلي، مرجع سابق : ٥ / ٢٥٧ .

التنوخي[1] قضاء البلاد عام ٢٣٤هـ / ٨٤٩ م، فنشر المذهبَ المالكيَّ. ولما تولى المعز بن باديس الصنهاجي [2] حكم تونس عام ٤٠٧هـ / ١٠١٦م حمل أهلها على المذهب المالكي، وترْك ما عداه من المذاهب الأخرى، فأصبح مذهب غالبية أهالي المنطقة[3].

وهيأ انتشار المذهب المالكي في تونس كما كان في الحجاز مناخًا علميًّا متشابهًا بين أتباع هذا المذهب في كلا البلدين. ولا شك أن اتخاذ الدولة العثمانية المذهب الحنفي مذهبًا رسميًّا لها قد أسهم في انتشار هذا المذهب كذلك في تلك الولايتين التابعتين للدولة، وهذا ما عزز عملية التبادل الثقافي بين أتباع المذهب الحنفي في تونس والحجاز .

ويمكن الإشارة إلى أن تأسيس الطريقة السنوسية في الحجاز، وانتشار الزوايا السنوسية في منطقة المغرب العربي ومن بينها تونس قد ساعد على إيجاد تقارب بين أتباع الطريقة في البلدان التي انتشرت فيها. كما أن انتشار طرق صوفية أخرى في الحجاز وتونس[4] قد عزز من الصلات بين أتباع تلك الطرق في البلدين.

ولا بد من التذكير بانتشار دعوة الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» السلفية

---

(١) اسمه عبد السلام ويلقب بـ «سحنون»، أصله من حمص ببلاد الشام. ولد بالقيروان عام ١٦٠هـ/ ٧٧٧م، وتعلم فيها، وولي قضاءها، واستمر فيه إلى وفاته عام ٢٤٠هـ/ ٨٥٤م .
المرجع نفسه : ٤ / ٥ .

(٢) من ملوك الدولة الصنهاجية، ولي الحكم بعد وفاة والده عام ٤٠٦هـ/ ١٠١٥م أقره الحاكم الفاطمي على ولايته ولقبه بـ «شرف الدولة» اهتم بالبلاد فساد الأمن في عهده، وقرب العلماء وأكرمهم، توفي ٤٥٤هـ/ ١٠٦٣م .
المرجع نفسه :٧ / ٢٦٩ .

(٣) محمد الشنواني، فقهاء المذاهب المجتهدون عبر الزمان، (صحيفة العالم الإسلامي (الأسبوعية)، مكة المكرمة ٢٥ صفر-٢ ربيع الأول ١٤١٨هـ/ ٣٠ يونيه ٦ يوليه١٩٩٧م):٨ تحقيقات.

(٤) مثل النقشبندية، والشاذلية، والقادرية، وغيرها، انظر : ٨٩ من هذا الفصل .

في البلاد التونسية، وهذا ما أضفى على الروابط الثقافية بين تونس والحجاز طابع النهضة الإصلاحية التي شهدها العالم الإسلامي في نهاية القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي، ويشار هنا إلى رسائل الشيخ محمد بن عبدالوهاب إلى الباي حمودة باشا (١١٩٦-١٢٢٩هـ/ ١٧٨٢-١٨١٤م) التي أظهر الشيخ محمد فيها مبادئ دعوته [١].

وقد تفاوت صدى تلك الدعوة في تونس، فأيدها بعضهم، وعارضها بعضهم الآخر إلا أن تضارب الآراء حولها، وخروج التصريحات الرسمية المؤيدة لموقف الدولة العثمانية ضد هذه الدعوة هو دليل واضح على انتشارها في تونس [٢].

ونتيجة لما سبق ذكره وبسبب تشابه الأجواء الثقافية في تونس والحجاز تهيأت بيئة مواتية للتبادل الثقافي خاصة بين العلماء وطلبة العلم في كلا البلدين. وكانت هناك أسباب عديدة تدعو العلماء التونسيين للتوجه إلى الحجاز إذ يضاف إلى الدافع الرئيس، وهو الرغبة في أداء الركن الخامس من أركان الإسلام وهو الحج، وُجد عدد من علماء تونس من أتباع مذهب الإمام مالك كانوا يتَوقُون للتوجه إلى الحجاز والبقاء في المدينة المنورة التي يرون أن الإمام مالك كان يرى أفضلية المجاورة فيها على مكة رغبة في البقاء في مدينة الرسول ﷺ [٣].

وقد رحل إلى الحجاز كذلك عدد من العلماء الذين نفوا عن تونس لأسباب عديدة ومنهم أحمد بن المهدي [٤] الذي تألب عليه علماء

(١) ابن أبي الضياف، مصدر سابق : ٣/ ٨٢ - ٩٧ .

(٢) العجيلي، الوهابية : ٢٢ .

(٣) محمد بن صالح الجودي، رحلة (بدون عنوان)، (نسخة مخطوط بمكتبة الشيخ حمد الجاسر، الرياض)، ٦ : ١٦ .

(٤) هو أحد تلاميذ الشيخ محمد بن علي السنوسي، ألف رسالة أورد فيها - حسب قوله - طريقة شيخه في الاجتهاد، ولكنه أخطأ في إيضاحها فاتهم بالعمل بالسنة مع ترك الأخذ=

تونس، وحكموا بنفيه فرحل عام ١٢٩٢هـ/ ١٨٧٥م إلى مكة، كذلك محمد بن علي التميمي [١] التونسي الذي حكم الخديوي عباس بنفيه، (وكان مقيمًا بالقاهرة)، فتوجه إلى الحجاز عام ١٢٦٥هـ/ ١٨٤٩م [٢].

كما غادر بعض علماء تونس بلدهم بعد احتلال المستعمر الفرنسي للبلاد التونسية، ومن هؤلاء الشيخ التارزي بن عزوز المبرجي[٣] الذي هاجر مع أبنائه وأحفاده إلى المدينة المنورة بعد فرض الحماية الفرنسية على تونس عام ١٢٩٨هـ / ١٨٨١م [٤].

وهكذا اجتمع في الحجاز عدد من العلماء التونسيين الذين كانوا قد تلقوا العلم في تونس على يد عدد من أئمة جامع الزيتونة وغيرهم، وحصلوا على نصيب وافر من العلم، وأقاموا في الحجاز فترات تراوحت في مدتها، فأفادوا واستفادوا [٥].

=بأقوال الأئمة المجتهدين، وهذا خلاف ما كان يراه شيخه السنوسي، وقد غضب منه علماء تونس، وحكموا بنفيه لهذا السبب .
بيرم، مصدر سابق : ٣ / ٩٥ .

(١) فقيه مالكي، ينحدر من عائلة قيروانية مستقرة بالعاصمة، دَرس في جامعة الزيتونة ثم توجه إلى القاهرة وعُين إمامًا بجامع محمد بن أبي الذهب، وناظرًا على أوقافه إلى جانب عمله مدرسًا بالأزهر. قَربه إبراهيم باشا إليه، وعهد إليه بتعليم أبنائه، وحينما توفي إبراهيم باشا قام الخديوي عباس بنفيه من مصر، فرحل إلى الحجاز، وبقي بها مدة ثم توجه إلى إستانبول، وتوفي فيها عام ١٢٨٦هـ / ١٨٦٩م.
محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، (دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م): ٥ / ٢٠٣

(2) Andreas La Communication Entre Tunis et Istanbul (1860-1913) (province Eet Metropole,Paris,L'Harmattan 1416 H/1996,p.105 .

(٣) لم يرد له ذكر في كتب التراجم المذكورة في مراجع الكتاب.

(٤) الجودي، مصدر سابق : ١٦ .

(5) Zanetti, op.cit, P.131.

ومن أبرز هؤلاء الشيخ مصطفى خليل التونسي[١] الذي أقام في الحجاز منذ عام ١٢٩٠/١٨٧٣م، وعمل فترة إقامته بالتدريس في الحرم المكي، وقد أثنى عليه علماء مكة[٢]. وكان من هؤلاء العلماء أيضًا الشيخ محمد العزيز بن الوزير[٣] الذي كان مدرسًا بالحرم النبوي الشريف، والشيخ الحبيب بن محمد الدريوبي الذي تعلم في تونس على يد الشيخ حسين بن حسني، ثم رحل إلى الحجاز، وأقام في المدينة المنورة يعلم العلوم الدينية فيها منذ عام ١٣١٥هـ / ١٨٩٧م [٤]، وكذلك الشيخ محمد بن خليفة[٥] الذي قرأ بتونس، ثم جاور في المدينة المنورة، وأصبح أحد مدرسي الحرم النبوي الشريف، وقد كان فيها عام ١٢٩٩هـ / ١٨٨٢م [٦] .

وتجلى نشاط كثير من العلماء التونسيين في عقد الحلقات العلمية في

---

(١) قرأ في الأزهر وتوجه إلى مكة المكرمة ودرّس بالحرم المكي، جمع إجازاته في مجلد واحد.
أ، و، ت، س، ت، ك ٦٥، م ٧٨٩، ق : ٨٤، خطاب من فاتح بيت الله الحرام عبد الله الشيبي إلى الوزير الأكبر خير الدين التونسي، في ٩/ ١/ ١٢٩٢هـ الموافق ١٤/ ٢/ ١٨٧٥م. وأيضًا :
عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، فهرس الفهارس والإثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، تعليق إحسان عباس، (دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م) : ١/ ٣٧٦ .

(٢) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٢٧، ق : ٢٠، خطاب من أمير مكة الشريف عبدالله إلى المشير محمد الصادق باشا باي في محرم ١٢٩٣هـ/ يناير ١٨٧٦م .

(٣) هو من أعلام الفقهاء، رحل إلى الحجاز وجاور بالمدنية، ونال فيها مكانة جيدة، وبقي هناك إلى أن توفي في حدود عام ١٣٣٦هـ / ١٩١٨م .
محمد بن محمد بن مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، (المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٥٠هـ / ١٩٣١م) : ٤١٢ .

(٤) الجودي، مصدر سابق : ١٥ .

(٥) أصله من تونس، كان فقيهًا أديبًا واسع الاطلاع، قام برحلات عديدة في البلاد العربية، كانت له عناية بالرواية وجمع الكتب، توفي بمكناس عام ١٣١٣هـ/ ١٨٩٥م .
ابن مخلوف، مرجع سابق : ٤١٥ - ٤١٦ .

(٦) السنوسي، مصدر سابق : ٢ / ٢١٦ .

الحرمين الشريفين، وكانت تلك الحلقات تبدأ من بعد صلاة الفجر إلى صلاة العشاء، وتُدَرَّسُ فيها علوم الحديث، والتفسير، والفقه، والنحو[1]، واتبعت طريقة التدريس في تلك الحلقات الطريقة نفسها التي كانت تُتَّبع في تونس، وذلك بإلقاء المسألة أولاً، ثم تطبيقها على الكتاب[2].

ولم تقتصر فائدة تلك الحلقات على أهالي الحجاز، فقد كان عدد من المجاورين في الحجاز يحضرون الدروس العلمية، ويتتلمذون على يد عدد من العلماء التونسيين. فمثلاً الشيخ أحمد البرزنجي[3] الذي أصبح من العلماء البارزين في الحجاز، كان قد تتلمذ على يد الشيخ محمد العزيز بن الوزير[4].

وقد تلقى العلم بعض التونسيين الذين جاؤوا بصحبة أهلهم للمجاورة في الحجاز على يد عدد من علماء الحجاز، فنبغوا وأصبحت لهم مكانة بارزة في الحجاز . ومن أشهر هؤلاء عمر بن حمدان المحرسي[5] الذي قدم مع والده من تونس إلى المدينة المنورة فأقبل على العلم ودَرَسَ على يد عدد من

(١) المصدر نفسه، الجزء نفسه : ١٧٧ .

(٢) المصدر نفسه، الجزء نفسه : ١٧٨ .

(٣) ولد في برزنجة سنة ١٢٥٩هـ/ ١٨٤٣م، وهي قرية من أعمال شهر زور في العراق، عُيِّن والده إماماً بالمسجد النبوي. درس في الأزهر ثم عاد إلى الحجاز، ودرّس في المسجد النبوي. تولى بعد ذلك الإفتاء بالمدينة المنورة على المذهب الشافعي. ألف العديد من الكتب الدينية. توفي عام ١٣٣٥هـ / ١٩١٧م .
أنس يعقوب كتبي، أعلام من أرض النبوة، (دار البلاد للطباعة والنشر، جدة، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م): ١ / ١٠٩ - ١١٠ .

(٤) الجودي، مصدر سابق : ٥٥ .

(٥) ولد بمحرس (في تونس) عام ١٢٩٢هـ، لقب بمحدث الحرمين الشريفين لعنايته بتدريس الحديث .توفي بالمدينة المنورة عام ١٣٦٨/١٩٤٨م .
محمد ياسين الفاداني، تشنيف الأسماع بشيوخ الإجازة والسماع أو إمتاع أولي النظر ببعض أعيان القرن الرابع عشر، جمع محمود سعيد ممدوح، (دار الشباب للطباعة، القاهرة، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م): ٤٢٦-٤٣٢ .

علمـاء الحرم النـبوي الشـريف حـتى حصل على جـانب وافـر من العلم، وأصبح يُدَرِّس بالحرم النبوي الشريف [١] .

ولم يقتصر دور العلماء التونسيين التعليمي على عقد الحلقات العلمية في الحرمين الشريفين، فقد كان بعضهـم يفتح داره للتعليم، ويستقبل طلبة العلم فيه. ويشار في ذلك إلى عمر بن حمدان الذي كان يقيم في الشتاء في مكة، ويقيم بقية الفصول في المدينة المـنورة، واعتاد أن يستقبل في داره في كل من مكة والمدينة المنورة طلبة العلم، هذا إلى جـانب إلقائه الدروس في الحرمين الشريفين[٢] .

وكـان العلمـاء في الحـجـاز بوجـه العموم يعـقـدون لقاءات علمـية يتم فيـها تبـادل الآراء ومناقشـة العديد من المسـائل العلمـية[٣]، وكانت هذه اللقـاءات تضم إلى جـانب علمـاء الحجـاز علمـاء من مـخـتلف المناطق الإسلامـية بما فيـها تونس[٤] وكان من أبرز تلك المجالـس مجلس الشيخ عبدالله دحلان [٥] في مكة المكرمة [٦]، ومجلس الشيخ عبدالجليل برادة[٧]

---

(١) الجودي، مصدر سابق : ١٢ .
(٢) الفاداني، مرجع سابق : ٤٢٧ .
(٣) شطا، مرجع سابق : ٢٢٠ .
(٤) الجودي، مصدر سابق : ١٢، ١٧ .
(٥) ولد بمكة المكرمة عام ١٢٩١هـ / ١٨٧٤م، ونشأ فيهـا. حفظ القرآن، واشتغل بالعلم، وقرأ على يد كثير من العلماء. عُين إمامـاً بالمسجد الحرام. ألف مـؤلفات عدة منها «زبدة السـيرة النبوية» في ثلاثة أجزاء، توفي عام ١٣٦٠هـ / ١٩٤١م .
عاتق البلادي، نشر الرياحين في تاريخ البلد الأمين، (دار مكة للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م) : ١ / ٢٨٥ .
(٦) شطا، مرجع سابق : ٢٢٠ .
(٧) أصله من فـاس، عـاش أجـداده في المدينة المنورة منذ عـام ١١٤١هـ / ١٧٢٨م، ولد عـام ١٢٤٢هـ / ١٨٢٤م، تعلم العلوم الدينية في المدينة المنورة، وقرأ في اللغات الفارسية والتركية والهندية. عـدت داره منتدى لأدباء مـكة وعلمائهـا، عُين وكيـلاً للتـونسيين في المدينة عـام ١٣٠١هـ / ١٨٨٤م .=

في المدينة المنورة[١].

ومن ناحية أخرى كان عدد من علماء مكـة والمدينة ومجاوريها يتوجهون إلى تونس، حيث تتاح لهم فـرصة اللقاء مع العلماء التونسـيين، والتباحث معـهم في النواحي العلمية، ويمـكن ذكر بعض علماء الحـجاز الذين زاروا تونس، منهم: الشـيخ محـمد ظافـر المدني[٢] الذي تنقل في مـدن المغرب العربي، وتأثر بالطريقة التيجانية الصوفـية، ثم اتخذ لنفسه طريقة خاصة من طرق التصوف، وعـمل على نشرها حتى نسبت إليـه، وهي الطريقة المدنية الشاذلية. وقـد أسس له في تونس زواياعدة منها زاويتـان بصفاقس، وثلاث بمساكن، وواحدة بالمنستير[٣].

وكذلـك قام الشـيخ محمـد صالح الـرضوي[٤] من المدينة المنورة بزيارة تونس، واستفاد منه طلبة العلم هناك، ومنهم محمد العزيز بو عتور[٥] الذي

= أ، و، ت، س : ج، ك ٣٢، ١/١٢، ق : بدون، خطاب من وكـيل التـونسـيين بالمدينة إلى الوزير الأكبر في تونس في ١٣٠١/٧/٥هـ / ١٨٨٤م، وأيضـًا : السنوسي، مصدر سابق : ٣/ ١٢٣ - ١٣٣ .

(١) المصدر نفسه : ٢ / ١٣٠ .

(٢) هو من قبيلة الظوافـر من غرب الحجاز، ولد بمسراته في ليبـيا عام ١٢٤٤هـ/١٨٢٨م. كان رجلاً فاضلاً متواضعـًا. استقر بالمدينة المنورة مدة من الزمن، ثم تنقل في المدن الإسلامية فزار مصر، وأقام في إستانبول في الفترة (١٢٨٧ - ١٢٨٩هـ / ١٨٧٠-١٨٧٢م) وعاد بعدها إلى الحجاز، وعين عام ١٢٨٩هـ / ١٨٧٢م وكيلاً للتونسيين بالمدينة المنورة .

(٣) السنوسي، المصدر نفسه : ٣ / ٤١ - ٤٢ . وأيضـًا :
Zanetti, op.cit, P.67- 68.

(٤) محدث رحالة، أصله من سمرقند، رحل إلى الهند واليـمن ومصر وتونس والجزائر وغيرها، واستقر بالمدينة المنورة، فيها توفي عام ١٢٦٢هـ / ١٨٤٦م .
الزركلي، مرجع سابق : ٦ / ١٦٤ .

(٥) ولد عام ١٢٤٠هـ / ١٨٢٥م، ينتمي إلى أسرة مقربه من الـبيت الحسيني، عكف على الحياة العلمـية، عُين عـام ١٢٨١هــ / ١٨٦٤م وزيرًا للقلم، تقلد منـصب الوزارة الكبـرى عـام ١٣٠٠هـ/١٨٨٣م، واستمـر في هذا المنصب خمسة وعشـرين عامـًا. توفي عام ١٣٢٥هـ / ١٩٠٧م .

لازم الشيخ الرضوي ملازمــة شديدة، وروى عنه، وبرع في العلم حتى ذاع صيــته، وولاه المشــير أحمــد باي رئاسة ديوان الإنشــاء في عام ١٢٦٢هـ / ١٨٧٤م [١]. كما قــام الشيخ علي بن ظاهر الوتري[٢] بزيارة تونس في عام ١٢٨٦هـ / ١٨٦٩م، والتقى عــدداً من علمائهــا، ومنهم الشيخ محــمد بن عثــمان السنوسي[٣]، وكذلك قــام الشيخ حسين بن أحمــد بديري من أئمة المالكيــة بالمســجد النبــوي بزيارة إلى تونس في عــام ١٣٢٤هـ / ١٩٠٦م، وبقي فيها مدة تزيد على الشهر [٤].

وقد اعتاد بعض طلبة العلم فــي الحجاز على التوجه إلى تونس، ومع أن هدفهم كــان غالبًا طلب الإعــانة من أوقاف الحرمين الشــريفين في تونس، لكن وجودهم في البلاد التونسية كان يتيح لهم الاطلاع على الحركة الفكرية فيهــا وإثراء معلوماتهم، وكان من بين طلبة العلــم الذين توجهوا إلى تونس يحــيى بن مــحــمــد المكي الذي زار تونس في عــام ١٢٧٠هـ/ ١٨٥٣م[٥] وأحمد بن عبــدالسلام الذي ذهب إلى تونس في عام ١٢٧٩هـ/ ١٨٦٢م[٦]،

---

(١) القاسمي، مرجع سابق : ٣٧ .
محفوظ، مرجع سابق : ٣ / ٣٥٥ .

(٢) ولد عام ١٢٦١هـ / ١٨٤٥م قدم والده من بغداد إلى المدينة المنورة، ونشأ في طلب العلم، واجتمع بالعديد من العلماء وقرأ على يديهم، عالم محدث له ولع بكتب الحديث .

(٣) السنوسي، مصدر سابق :٣ / ١٣٥ - ١٦٣ .سترد ترجــمته مفصلة في هذا الفصل: ١٣٤ ومابعدها .

(٤) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨٨، خطاب من إمام الحرم النبوي وهو مــحمد صالح المدني إلى الســيــد رستم (تولــى وزارة الحــربيــة عــام ١٢٨٧هـ / ١٨٧١م) فــي مــحــرم ١٢٧٩هـ/يونيه ١٨٦٢م.

(٥) أ، و، ت، س. ت، ك ٦٥،م ٧٨٨، خطاب من أحمــد بن محمد الشيــبي فاتح بيت الله الحرام إلى حسن المرابط عامل القيروان في ١٢/ ١/ ١٢٧٠هـ الموافق ٢٣/ ١٠/ ١٨٥٣م.

(٦) أ، و، ت، س. ت، ك ٦٥،م ٧٨٨، خطاب من إمــام الحــرم النبــوي وهــو مــحــمــد صــالح المدني إلى السيــد رســتم (تولى وزارة الحربــية عــام ١٢٨٧هـ / ١٨٧١م) في محــرم ١٢٧٩هـ / يونيه ١٨٦٢م.

وكذلك أحمد مصطفى البدراوي الذي ذهب إلى تونس في عام ١٢٨٠هـ/ ١٨٦٣م [١] .

وكان بعض أهالي الحجاز قد غادروا بلادهم، وتوجهوا إلى تونس للاستقرار والتعلم والتعليم هناك . منهم صالح بن محمد بن شبيل الشريف من أهالي مكة المكرمة عاش في تونس، وتعلم على يد عدد من علمائها في جامع الزيتونة، وعمل معلماً للصبيان فيها [٢] .

ولا بد من الإشارة في مجال التبادل الثقافي إلى تبادل الإجازات العلمية بين علماء تونس والحجاز، وهي ظاهرة تعد من ثمار اللقاءات العلمية التي كانت تجري بينهم . وكان عدد من العلماء التونسيين خلال مرورهم بالبلدان الإسلامية في طريقهم إلى الحجاز يحصلون على إجازات من علماء تلك البلدان ثم يجيزون علماء الحجاز بما أجازهم به علماء تلك البلدان. وخير مثال على ذلك الشيخ محمد بن عثمان السنوسي الذي أجاز الشيخ عبد الجليل برادة في الحجاز بكل ما حواه ثبت الشيخ محمد عليش [٣] ، وكان الأخير قد أجاز السنوسي حينما مر بمصر أثناء رحلته إلى الحجاز عام ١٢٩٩هـ/ ١٨٨٢م [٤] .

كذلك فإن عدداً من علماء تونس الذين اتجهوا إلى الحجاز كانوا يحصلون

---

(١) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥ ، م ٧٨٨، ق : بدون، خطاب من عدد من أهالي المدينة منهم نقيب الأشراف ومفتي الأحناف إلى الوزير الأكبر بتونس وهو مصطفى خزنة دار في (١٣/ ٤/ ١٢٨٠هـ الموافق ٢٦/ ٩/ ١٨٦٣م).

(٢) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨٦، ق : بدون، خطاب من صالح بن محمد بن شبيل إلى الوزير الأكبر محمد العزيز بوعتور في ٢٨/ ٨/ ١٣٢٤هـ الموافق ١٦/ ١٠/ ١٩٠٦م .

(٣) ولد في القاهرة عام ١٢١٧هـ / ١٨٠٢م، وتعلم فيها وجلس للتدريس في جامع الأزهر، وتقلد مشيخة السادة المالكية والإفتاء في مصر، له مؤلفات في اللغة والتصوف منها فتح العلي المالك في الفتوى على مذهب الإمام مالك . توفي بالقاهرة عام ١٢٩٩هـ / ١٨٨٢م .
السنوسي، مصدر سابق : ٣: ١١٤، هامش : ١

(٤) المصدر نفسه، الجزء نفسه : ١٣١ .

على إجازات من علمائه، ويقومون أيضًا بتسليم إجازات علمية لطلبة العلم فيه . ومن هؤلاء الشيخ برهان الدين إبراهيم بن أحمد الخنقي [١]، وهو أحد علماء تونس، وكان قد قدم إلى مكة المكرمة، وأقام فيها، وأخذ المزيد من العلوم على يد علمائها كما أخذ يجيز طلبة العلم فيها [٢] .

وحرص علماء تونس الذين اجتذبتهم دعوة الشيخ «محمد بن عبدالوهاب» على أخذ الإجازة في الفقه الحنبلي، ومن بين هؤلاء الشيخ مصطفى بن خليل الذي قرأ فقه الإمام أحمد بن حنبل [٣] على يد أحد علماء المذهب هو الشيخ محمد بن حميد [٤]، وقد أجازه فيه [٥] . ومنهم أيضًا الشيخ برهان الدين الخنقي الذي أخذ الحديث عن مفتي الحنابلة محمد بن حميد [٦] . ولا شك أن حصول بعض العلماء التونسيين على الإجازات العلمية كان يعني اكتسابهم نصيبًا وافرًا من العلم مكنهم من

---

(١) ولد في قرية (خنقة) جنوب تونس عام ١٢٤٤هـ / ١٨٢٨م، وفيها نشأ وتلقى العلوم الدينية على يد علماء بلده ثم أتم تعليمه في العاصمة (تونس)، وبعدها توجه إلى مكة، واستقر فيها. الدهلوي، فيض : ١ / ٣٩ - ٤٠ .

(٢) المصدر نفسه، الجزء نفسه : ٤٠ .

(٣) من مرو (في خراسان) ولد ببغداد عام ١٦٤هـ/ ٧٨٠م نشأ في طلب العلم، سافر في سبيله إلى بلدان عدة، يعد أحد الأئمة الأربعة وهو إمام المذهب الحنبلي، امتحن في مسألة خلق القرآن، وسجن لامتناعه عن القول به، ألف العديد من المؤلفات منها «المسند» . أكرمه الخليفة المتوكل، وقدمه، وبقي على حاله تلك حتى توفي عام ٢٤١هـ/ ٨٥٥م . الزركلي، مرجع سابق :١/ ٢٠٣ .

(٤) ولد في عنيزة بالقصيم في نجد عام ١٢٣٦هـ / ١٨٢١م، وقرأ على يد العديد من العلماء، ثم سافر إلى مكة، واليمن، والشام، والعراق، ومصر لطلب العلم، وعاد إلى مكة واستقر بها، وعين مفتيًا للحنابلة فيها، عمل مدرسًا بالمسجد الحرام، وكان نابغًا في العلوم الأدبية والعقلية . ألف مؤلفات عدة منها : «السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة »، توفي بالطائف عام ١٢٩٥هـ /١٨٧٨م . البلادي، نشر : ٢/ ٦٢١ - ٦٢٣ .

(٥) محمد بن عبدالله بن حميد، إجازة لمصطفى بن خليل التونسي في عام ١٢٩٤هـ / ١٨٧٧م، مكتبة الحرم، مكة المكرمة، مخطوط برقم ١١٤٤ (ميكروفيلم)، ٥ ورقات .

(٦) الدهلوي، فيض : ١ / ٣٩ - ٤٠ .

التدريس بالحرم، ومن الأمثلة على هؤلاء الشيخ مصطفى بن خليل التونسي(١) الذي أصبح مدرساً بالحرم المكي الشريف .

وبالمقابل كان هناك عدد أقل من علماء الحجاز يحصلون في تونس على إجازات من علمائها، وقد حصل الشيخ علي بن ظاهرالوتري من الشيخ محمد الشاذلي عثمان بن صالح(٢) على إجازة منه أثناء إقامة الوتر في تونس (٣) .

وكان أحد مظاهر الصلات الثقافية بين علماء تونس والحجاز تبادل المراسلات فيما بينهم، ومثال ذلك رسالة المودة التي أرسلها الشيخ بيرم الخامس إلى الشيخ أحمد المشاط (٤) في جدة بصحبة الشيخ محمد بن عثمان السنوسي في ذي القعدة عام ١٢٩٩هـ / سبتمبر ١٨٨٢م (٥) ،كما أن علماء البلدين كانوا ينظمون القصائد أو يلقونها خلال اجتماعاتهم، ومن ذلك قصيدة كتبها الشيخ محمد بن عثمان السنوسي للشيخ رَحْمَة الله الهندي بمناسبة اطلاع السنوسي على مشروع كتاب للشيخ رحمَة الله عن الفرقة الاثني عشرية الشيعية (٦).

وقد ألقى الشيخ السنوسي نفسه على أمير مكة الشريف عون الرفيق

(١) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٢٧، ق : ٢٠، خطاب من أمير مكة عبد الله بن محمد إلى المشيرمحمد الصادق باشا باي في محرم ١٢٩٣هـ / فبراير ١٨٧٦م، .

(٢) فقيه، كان قاضياً في تونس، تولى رئاسة الفتوى فيها عام ١٢٧٧هـ / ١٨٦٠م، له فتاوى ورسائل فقهية عدة، توفي عام ١٣٠٨هـ / ١٨٩١م .
ابن مخلوف، مرجع سابق : ٤١٤ .

(٣) السنوسي، مصدر سابق : ٣ / ١٤١ .

(٤) من أعيان الحجاز، واسع التجارة، وله مكانة أدبية طيبة، يعد رئيس التجار بجدة، كان وكيلاً للبواخر المصرية عام ١٢٧٥هـ / ١٨٥٨م .

(٥) السنوسي، مصدر سابق : ٢ / ١٦١ . وأيضاً :
محمد علي مغربي، أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة وبعض القرون الماضية، (مطبعة المدني، القاهرة، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م) : ٣ / ١٦ .

(٦) السنوسي، مصدر سابق ٢/ ١٦٢ .

(١٢٩٩- ١٣٢٣هـ / ١٨٨١ - ١٩٠٥م) قصيدة بمناسبة حلول عيد الأضحى المبارك من عام ١٢٩٩هـ / ١٨٨١م جاء مطلعها [١] :

عيد التهاني عاد في أم القرى ... وأعاد للإسلام عيداً أكبرا

إذ قد أتى والمؤمنون بموقف ... كُلاً تراه ملبياً ومكبرا

لكن تضاعف بشرنا وهناؤنا ... بقدوم فخر السادة الشم الذرى

هو ذلكم عون الرفيق وحبذا ... عون وما من ذكر عون قد جرى

وكان من أوجه التبادل الثقافي بين أهالي تونس والحجاز رغبة كل منهما في الاطلاع على أحوال البلد الآخر ونظراً لمكانة الحجاز المقدسة لدى المسلمين فقد كانت الصحف التونسية تعهد إلى بعض الأشخاص في الحجاز ليبعثوا لها بما لديهم من أخبار عن الحجاز خاصة في موسم الحج، ومثال على ذلك ما قامت به صحيفتا «الحاضرة»[٢]و«الزهرة»[٣]. وقد نشرت صحيفة «الحاضرة»في (٢/ ٨/ ١٣١١هـ الموافق ٧/ ٢/ ١٨٩٤م)[٤] تحت عنوان «رسالة من مكة المكرمة» نص رسالة كان قد بعث بها أحد أهالي الحجاز وتتضمن أوضاع الحجاز الأمنية في ذلك العام، ولم تكتف الصحف التونسية بأخبار مراسليها في الحجاز، بل كانت تتابع ما ينشر عن الحجاز في صحف البلدان الإسلامية المجاورة، واقتطفت صحيفة «الحاضرة» مثلاً ما ورد في صحيفة «المؤيد» المصرية عن الحجاز، ونشرته في أحد أعدادها [٥].

(١) المصدر نفسه : ٢ / ١٩٦ .

(٢) مثال ذلك : ع ٢١٩، س ٦ في ١١/ ٤/ ١٣١٠هـ الموافق ١/ ١١/ ١٨٩٢م تحت عنوان " أخبار الحجاز "عن ولاية عثمان نوري باشا على الحجاز . .

(٣) مثال ذلك ع ١٤، س ١، في ٢٠/ ١٢/ ١٣٠٧هـ الموافق ٤/ ٨/ ١٨٩٠م، ورد فيها خبر يقول: "ورد من جدة في ٣٠ يوليه: (أصيب أمس في مكة ١٣ بداء الكوليرا. . .)" .

(٤) ع ٢٨٣، س ٦ .

(٥) ع ٢٢٩، س ٦، في ٩/ ٦/ ١٣١٠هـ الموافق ٢٨/ ١٢/ ١٨٩٢، تحت عنوان «الإصلاحات الجديدة في ولاية الحجاز» .

وحمل عدد من العلماء التونسيين بعد عودتهم إلى تونس إرثا ثقافيًا أفاد التونسيين، وأسهم في تعزيز الروابط الثقافية بين البلدين. ومن أمثلة ذلك ما رآه الشيخ محمد بن عثمان السنوسي من انتشار اللغات الأجنبية في الحجاز، وأثار إعجابه إقبال معلمي الحجاز على تعليمها . وحينما عاد إلى تونس اهتم بتشجيع المعلمين في تونس على تعليم اللغات الأجنبية، وقدم رسالة شكر لأحد المهتمين بتعليم اللغة الفرنسية في المدارس التونسية[١] . ويمكن ذكر الشيخ إبراهيم محمد البختري[٢] الذي أدى فريضة الحج، وتجول في مدن الحجاز وقراه، واتصل بعلمائه ثم عاد إلى بلده في تونس «توزر» وعمل بالتدريس هناك، ثم عُين قاضيًا فيها[٣] .

وبالمقابل كان بعض المؤرخين من أهالي الحجاز يتابعون ما يحدث في تونس، ويوردونه في كتاباتهم، ومنهم المؤرخ أبو الفيض عبد الستار بن عبدالوهاب الدهلوي (ت ١٣٥٥هـ / ١٩٣٦م) الذي أورد في مخطوطته «نزهة النظر فيما مضى من الحوادث والعبر من هبوط آدم أبي البشر» [٤] عن أحداث عام ١٣٠٨هـ/ ١٨٩٠م ما نصه: «وفيها نزل الثلج في تونس بكثرة، وتراكم نحو ثلاثة أذرع، ولم يعهد مثل ذلك أن تونس ينزل فيها ثلج ولا سُمع قط». وقد نوه محمد بن عثمان السنوسي في رحلته إلى رغبة أهالي الحجاز في معرفة أخبار تونس وأحوالها، فذكر ما نصه: «ولما دخلنا إلى القلعة التي حولها (يقصد حول بركة المعظم) وجدت بعض بدو تلك الجهات

---

(١) السنوسي، مصدر سابق : ٢ / ٢٥٨ .

(٢) أصله من توزر (في تونس) حفظ القرآن في بلده، وأخذ عن شيوخها قسطًا من العلوم، ثم التحق بالأزهر، وأدى بعدها فريضة الحج، وتجول في الحجاز، والتقى علماءه . عاد بعدها وعين قاضيًا في بلده ومدرسًا فيها . من مؤلفاته «شرح على الأجرومية في النحو»، توفي عام ١٣١٧هـ/ ١٨٩٩م . محفوظ، مرجع سابق : ١ / ١٠٩ .

(٣) المرجع نفسه، الجزء نفسه، الصفحة نفسها .

(٤) مكتبة الحرم المكي، مكة المكرمة، مخطوط برقم ٣٢٥٨ (ميكروفيلم) : ٣٦٥ .

سألني عن بلدي وعن أحوالها بعد حماية فرانسا (كذا) لها؛ فأعلمته بحسن حالها ففرح، وعند ذلك سألته عن سبب معرفته لتونس مع أنه من سكان تلك الصحراء المنقطعة، فأعلمني أنه وفد عليها في دولة أحمد باشا وأقام أشهراً بين ماطر وجبل نفزة»[١] .

وهكذا تعددت جوانب الصِّلات الثقافية بين تونس والحجاز، ولكن الملحوظ أن دور التونسيين في هذه الصلات كان أكثر وضوحاً نظراً لأهمية الحجاز الدينية وتطلع أنظار المسلمين كافة بمن فيهم أهالي تونس إليه[٢]. ولم يقم العلماء التونسيون بزيارة الحجاز رغبة فقط في أداء فريضة الحج، بل لكون الحجاز مركزاً إسلامياً مهماً يلتقي فيه العلماء من أرجاء العالم

---

(١) مصدر سابق : ٢/ ٢٣٧ .

(٢) ومن الأدلة على ذلك حرص بعض كبار الشخصيات في تونس على أن يكون لهم نصيب من الأجر والثواب في الحرمين الشريفين، فكانو يكلفون بعض المقرئين في الحرمين بقراءة بعض سور القرآن الكريم بنية المقروءة له، أو قراءة بعض الكتب مثل كتاب "دلائل الخيرات" ومن أمثلة ذلك أن الوزير التونسي إسماعيل السني قد كلف في عام ١٢٨٢هـ / ١٨٦٥م محمد بن عقبة التونسي ناظر قراءة دلائل الخيرات في الحرم المكي بأن يقرأ كتاب دلائل الخيرات في الحرم المكي مقابل مبلغ سنوي يتم إرساله إلى محمد بن عقبة .

أ، و، ت، س، ٦٥، م ٧٨٩، خطاب من عقبة التونسي إلى الوزير إسماعيل السني بتاريخ (١٩/ ١/ ١٢٨٢هـ الموافق ١٣/ ٦/ ١٨٦٥م .

ومما يجدر ذكره أن كتاب دلائل الخيرات يحوي صيغاً للصلاة على النبي ﷺ لم ترد عن السلف الصالح، انظر : حمد الجاسر، رحلة التميمي التونسي للحج (٢) ، (مجلة العرب، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، المجلدات ٥، و ٦، س ١٦، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م): ٤٥٩ .

ومن الأمثلة الأخرى التي تدل على تعلق المسلمين بالحرمين هو أن وكيل التونسيين بمكة المكرمة عبدالرحمن برهان الزمزمي، قد عين في عام ١٣٠١هـ/ ١٨٨٣م خمسة أشخاص يواظبون على تلاوة سورة (يس) في كل ليلة جمعة إحدى وأربعين مرة بنية المقروءة له وهو الوزير الأكبر محمد العزيز بوعتور .

أ، و، ت، س . ت، ك ٣٢، م ١ /١، رسالة من وكيل التونسيين بالمدينة وهو عبدالجليل برادة الى الوزير الأكبر في تونس محمد العزيز بوعتور في ٥/ ٧/ ١٣٠١هـ الموافق ٣٠/ ٤/ ١٨٨٤م .

الإسلامي كافة، حيث يثرون حصيلتهم العلمية ويستزيدون من العلم والمعرفة.

وقد أدركت السلطات الفرنسية بعد فرض الحماية على تونس أهمية توجه التونسيين كسائر المسلمين في العالم نحو الحجاز وتجمعهم فيه خاصة في موسم الحج، وخشيت أن يدفع ذلك إلى تبادل الآراء بين التونسيين وغيرهم من المسلمين بشأن الوجود الفرنسي في تونس، وسبل مناهضته في أجواء بعيدة عن مراقبة السلطات الفرنسية . وكان أشد ما تخشاه السلطات الفرنسية احتمال التقاء الشباب التونسي الشخصيات البارزة في الدولة العثمانية[١] الأمر الذي قد يؤثر في العلاقات الفرنسية بالدولة العثمانية [٢].

إلا أن السلطات الفرنسية من جهة أخرى رغبت في تهدئة خواطر التونسيين وغيرهم من مسلمي المناطق الإسلامية التي سيطرت عليها في شمال أفريقيا، خشية حدوث ما يخل باستقرار الأمور الداخلية في تونس وغيرها، وأخذت تسعى إلى إنشاء مؤسسات في الحجاز تتخذ زوايا تدرس فيها العلوم الدينية تحت إدارة علماء من جامع الزيتونة، أو علماء من أعضاء جمعية الأوقاف التونسية؛ وذلك بدعوى دعم الروابط الثقافية بين تونس والحجاز، ولكن تحت رعاية السلطات الفرنسية في تونس وإشرافها[٣] .

---

(١) كانت تصل إلى السلطات الفرنسية في تونس تقارير عن تحركات الشباب التونسي في الحجاز الذين كانوا يحاولون الاستفادة من عدم قدرة السلطات الفرنسية على مراقبتهم فيه فينشئون جمعيات سياسية تهدف إلى الدعاية ضد الوجود الفرنسي في تونس . وقد أنشئت إحدى تلك الجمعيات في المدينة المنورة في أعقاب الفترة موضع الدراسة عام ١٣٣١هـ / ١٩١٢م، وهي جمعية الشرفاء التي أسسها محمد المكي بن عزوز للغرض نفسه .

Zanetti,op.Cit,P.108-128.

(2) OP .Cit . P.184.

(3) Ibid .

ثالثًا - صورة الحجاز في مؤلفات بعض العلماء التونسيين :

لقد كان من بين التونسيين الذين توجهوا إلى الأراضي المقدسة رغبة في أداء فريضة الحج بعض العلماء والكتاب الذين وضعوا مؤلفات سجلوا فيها انطباعاتهم ومشاهداتهم عن رحلتهم إلى الحج، وقدموا صورة عن جوانب متعددة من أوضاع الحجاز، كما عايشوها خلال إقامتهم هناك . ومن هؤلاء: محمد بيرم الخامس (١٢٥٦-١٣٠٧هـ/ ١٨٤٠-١٨٩٠م)، ومحمد بن عثمان السنوسي (١٢٦٧-١٣١٨هـ/ ١٨٥١-١٩٠٠م)، ومحمد بن صالح الجودي القيرواني (١٢٧٨-١٣٦٢هـ/ ١٨٦١-١٩٤٣م) .

١- الشيخ محمد بيرم الخامس :

أ- سيرته :

هو محمد بن مصطفى بن محمد (الثالث) بن محمد (الثاني) بن محمد (الأول) بن حسين بن أحمد بن محمد بن حسين بن بيرام [١] [٢]. وأسرة البيارمة هي من أصل تركي، ارتبط بعض أفرادها عن طريق المصاهرة بعائلات تنتهي في نسبها إلى الحسين ابن علي رضي الله عنهما[٣]، كما احتلت هذه الأسرة «البيارمة» مكانة ونفوذًا سياسيًا في تونس لكونها من

(١) كلمة بيرام كلمة تركية معناها العيد، وقد خففت إلى كلمة بيرم . مصطفى بدري، الرؤية السياسية من خلال رسالتي محمد بيرم الخامس، ومصطفى فاضل باشا، (الدار التونسية للنشر، تونس، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م) : ٧٦ .

(٢) بيرم، مصدر سابق : ٥ ، الملحق (أ) بقلم ابنه محمد الهادي . كانت والدة بيرم الأول هي ابنة محمد بن أبي القاسم بن محمد بن علي بن أحمد الشريف الذي ينتهي نسبه إلى الحسين بن علي رضي الله عنهما، وكان جدها أحمد الشريف إمامًا لجامع دار الداي يوسف الباشا في عهد الأسرة المرادية، كما أن عددًا من أفراد الأسرة الشريفية قد تولى الخطبة بجامع الزيتونة.

(٣) محمد بن عثمان السنوسي، مسامرات الظريف بحسن التعريف، تحقيق محمد الشاذلي النيفر، (دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٤م) : ٢/ ٩ .
عبدالسلام، مرجع سابق : ٣٢٨ .

العائلات الغنية المقربة جـدًا من السلطة الحاكمة(١)، وشغل عدد من أفرادها مناصب علمية بارزة في الولاية (٢).

ولد مـحـمـد بـيـرم الخـامس في تونس في شـهــر مـحـرم من عـام ١٢٥٦هـ/ مارس ١٨٤٠م، واهتم والده بتـربيته تربية دينيـة، فبعد اجـتيازه التعليم الابتدائي دخل جامع الزيتونة، وتلقى العلم على أيدي بعض شيوخه كان من بينهم سـالم بو حاجب (٣)، ومحمـد الشاذلي عثمـان بن صالح، ومحمود قبادو(٤) (٥)، وبعد أن تكونت لديه ثقافة دينية وفقهية، تخرج في

(١) تولت أسرة البيارمة نقـابة الأشراف ورئاسة الفتوى الحنفية لأنها كانـت حنفية المذهب كالبيت الحـاكم . وكان بيـرم الرابع (عم المتـرجم له) صهـرًا للمـشيـر محـمد باشـا باي (١٢٧٢-١٢٧٦هـ/ ١٨٥٦-١٨٥٩م) كما كان من مستشـاريه، تولى رئاسة الفتوى الحنفية وهو أول من لقب بشيخ الإسلام في تونس .
بيرم، مصدر سابق، جـ ٥، الملحق ب .عبدالسلام، المرجع نفسه : ٣٤٠ .

(٢) كان من البيـارمة : محمد بيرم الأول (ت ١٢١٤هـ/ ١٧٩٩م) ممن شـغل مناصب علمية في الأسرة، فقد كان كان رئيسًا للفتوى الحنفية في عهد الباي "علي باشا" (١١٢٤-١١٩٦هـ / ١٧١٢-١٧٨٢م) كمـا أن منهم محـمد بيـرم الثاني (ت ١٢٤٧هـ/ ١٨٣١م) وهو من أشـهر شيـوخ التجويد والفـقه والحديث في تونس آنذاك وكـان من تلامذته ابن أبي الضـياف. ومن البيـارمة أيضـًا بيرم الثـالث (ت ١٢٥٩هـ/ ١٨٤٣م) الذي كان عـالمًا وشاعرًا، كـان مدرسـًا بجامع الزيتونة كما كان نقيبًا للأشراف بتونس .
القاسمي، مرجع سابق : ٤٤ - ٤٥ .

(٣) ولد في تونس في ١٢٤٤هـ/ ١٨٢٨م، درس بجـامع الزيتـونة، عمل مـدرسـًا مدة خـمسـة وستين عامـًا، اشتهر بالفصاحة والعلم والمعـرفة وكتابة الشعر، قام برحلات عديدة، توفي في تونس عام ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م .
الفاضل بن عاشـور، تراجم الأعلام، (الدار التونسيـة للنشر، تونس، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م)، ص ٢١١-٢٢٣.

(٤) أصله من صفاقس بتـونس، ولد بتونس العاصمة عام ١٢٢٧هـ/ ١٨١٢م ونشـأ فيها، تعلم العلوم الدينية واللغـة العربية ومال إلى التـصوف، درّس بجامع الزيتونة، وولي الـقضاء، ثم عُين مفتيـًا بالمجلس الشرعي بتونس على المذهب المالكي، كان إلى جانب مكانته الدينية شاعر تونس في عـصره، عُـرف بغزارة العلم وسـرعة البـديهة، توفي عـام ١٢٨٨هـ/ ١٨٧١م، له دواوين شعرية طبعت عام ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م في جزأين.
محـمود قابادو، ديوان قابـادو، جمع محمـد بن عثمـان السنوسي، (الدار التونسيـة للنشر، تونس، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م، جـ١ : ٦-١٧ وأيضـًا : الزمرلي، مرجع سابق : ٦٣ - ٧٠ .

(٥) محفوظ، مرجع سابق : جـ ١ : ١٩١ .

جامع الزيتونة، وعمل بالتدريس بالمدرسة العنقية عام ١٢٧٨هـ/ ١٨٦١م[١].

وخلال زيارة المشير محمد الصادق باشا باي للمدرسة العنقية في حفل الاختتام السنوي لها من عام ١٢٧٨هـ/ ١٨٦١م أعجب بمحمد بيرم، وعينه مدرسًا بجامع الزيتونة [٢].

وكان محمد بيرم الخامس بالإضافة إلى اهتماماته الفقهية ذا ميول سياسية وأدبية، وكان همه تتبع الأحداث السياسية وانتقادها [٣] [٤]. وساعده على تعميق ثقافته توافر العديد من الكتب في مكتبة عائلته إلى جانب احتكاكه المبكر بالحقل الصحفي، وعملت صحيفة «الرائد التونسي» على نشر أفكاره السياسية والاجتماعية[٥].

وحاول محمد بيرم الخامس التوفيق بين التدريس والصحافة، وبين إدارة أملاكه وعقاراته بعد أن توفي والده عام ١٢٨٠هـ/ ١٨٦٣م، وترك له ثروة كبيرة تعين عليه أن يديرها[٦]. إلا أنه في عام ١٢٩١هـ/ ١٨٧٤م تم تعيينه رئيسًا لإدارة الأوقاف[٧]، كما عهد إليه في العام التالي بإدارة المطبعة الرسمية التي تصدر صحيفة «الرائد التونسي»[٨]. واهتم محمد بيرم الخامس بإدارة المؤسستين الرسميتين وأولاهما رعايته، وبذل قصارى جهده من أجل إصلاحهما والرفع من شأنهما.

---

(١) بيرم، مصدر سابق : ٢، الملحق د .

(٢) القاسمي، مرجع سابق : ٥١ .

(٣) من أمثلة ذلك أنه كتب في صحيفة «الرائد التونسي»، وهي صحيفة الحكومة الرسمية مقالين عبر فيهما عن سعادة الأهالي بتغيير وزارة مصطفى خزنة دار، وتعيين خير الدين التونسي مكانه عام ١٢٩٠هـ/ ١٨٧٣م، وأشار إلى المناصرين للوزير السابق، وأنهم فئة قليلة لا تحب الخير للبلاد.

بيرم، مصدر سابق : ٥، الملحق هـ .

(٤) محفوظ، مرجع سابق : ١ / ١٩١ .

(٥) القاسمي، مرجع سابق : ٥١ .

(٦) المرجع نفسه : ٥٥ .

(٧) بيرم، مصدر سابق : ٥، الملحق ز .

(٨) محفوظ، مرجع سابق : ١ / ١٩٣ .

وقد أثر جمعه بين منصبين مهمين في اهتمامه بممتلكاته، فتضررت أوضاعه المالية[١]، ونتج عن ذلك تردي حالته الصحية، فأصابه مرض في الأعصاب الموصلة بين المعدة والقلب. وقد ذكر محمد بيرم الخامس في كتابه «صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار»[٢] أن هذا المرض وراثي زاد من تأثيره كثرة الأشغال الفكرية والبدنية، وبعد شهور من المعاناة اضطر للسفر عام ١٢٩٢ هـ / ١٨٧٥م إلى إيطاليا، وفرنسا للعلاج، ولما تحسنت حالته غادر إلى تونس. وبعد أن عاوده المرض من جديد قدم استقالته من وظائفه في عام ١٢٩٤هـ/ ١٨٧٧م، وسافر ثانية إلى فرنسا وبريطانيا للعلاج، وعاد عن طريق الجزائر إلى تونس[٣].

وبعد عودته عهدت إليه الحكومة التونسية مهمة الإشراف على تأسيس المستشفى الصادقي بتونس، فتولى أمره ونظمه على غرار ما رآه في المستشفيات الأوربية من حسن الإدارة، والتنظيم، ورعاية المرضى، وقد جلب إلى المستشفى أطباء مهرة، وخصص قسماً منه للعلاج المجاني[٤].

واستمر محمد بيرم الخامس خلال وجوده في تونس يعمل على توضيح آرائه الإصلاحية التي تدعو لإصلاح الأوضاع السياسية[٥][٦]، وكان أول

---

(١) بيرم، مصدر سابق : ١ / ٩٦ .
(٢) المصدر نفسه : ١ / ٩٦ - ٩٧ .
(٣) محفوظ، مرجع سابق : ١ / ١٩٣ .
(٤) القاسمي، مرجع سابق : ٥٦ .
(٥) من أمثلة ذلك تأييده لثورة علي بن غذاهم عام ١٢٨١هـ/ ١٨٦٤م، فحينما لامه أمير الأمراء الوزير مصطفى خزنة دار على موقفه المؤيد للثورة، أوضح موقفه بقول أورده ابنه محمد الهادي في ملحق كتاب والده صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والاقطار (مصدر سابق : ٥، ملحق ي ح - ي ط: إننا نطلب الحرية التي قال سيدنا: إنه لا يعطيها لنا غيره، فأجابه الأمير: لمن أعطي الحرية للنجار، والحداد أم لك أو لهذا (وأشار إلى أحد كبار الحاضرين) ؟! فإن النجار والحداد إذا أعطيا الحرية أساءا التصرف بها، ولم تبق لنا معهما راحة. فقال السيد بيرم: إن الحرية التي يعطيها سيدنا للحداد والنجار تصيرهما مثلي أنا ومثل هذا، وأشار إلى ذلك الوجيه . وسبب انزعاج الأمير من هذا الحوار هو تكرار لفظة الحرّية فيه، ولم يعهد أنه سمعها من قبل حتى إن أمراء تونس قديماً كانوا يعتقدون أنهم يمتلكون البلاد بمن فيها من الأرزاق والأنعام والسكان امتلاكاً شرعياً لا ينازعهم فيه منازع .
(٦) محفوظ، مرجع سابق : ١ / ١٩٢ .

تونسي جاهر بآرائه السياسية في الصحف تحت إمضائه[١] وهذا ما ألب عليه أعداءه . وقد واجه الدسائس من المغرضين، وخاصة من الوزير الأكبر مصطفى بن إسماعيل (١٢٩٥-١٢٩٩هـ/ ١٨٧٨-١٨٨٢م الذي كان على علاقة جيدة بالقنصل الفرنسي «روستان Roustan»[٢] ١٢٩١ - ١٢٩٩ هـ / ١٨٧٤ - ١٨٨٢م، وحدث هذا في وقت كانت فيه فرنسا تخطط من أجل الاستيلاء على تونس إثر مؤتمر برلين عام ١٢٩٥هـ/١٨٧٨م. ونتيجة لكثرة الدسائس لدى الباي على محمد بيرم آثر هذا الرحيل ونصحه بذلك بعض أصدقائه؛ لأن بقاءه في البلاد كان سيعرضه للخطر، وقد طلب محمد بيرم الخامس من الوزير مصطفى بن إسماعيل السماح له بالسفر لأداء فريضة الحج فرفض، ولكنه وافق بعد وساطة نقيب الأشراف «العربي البشيري» [٣] [٤].

وغادر محمد بيرم الخامس تونس في ٢٦ / ١٠/ ١٢٩٦هـ الموافق ١٢/ ١٠/ ١٨٧٩م متوجهًا إلى الحجاز عن طريق مصر لأداء فريضة الحج، وبعد أن مكث في الحجاز فترة الحج توجه إلى الشام، ومنها سافر إلى إستانبول . وهناك ألف كتابه «صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار» الذي أورد فيه انطباعاته عن الرحلة الحجازية[٥]، وكان في نيته الاستقرار في

---

(١) عبدالسلام، مرجع سابق: ٤٤٩ .

(٢) ولد في إكسن بروفانس Aixen Provence بفرنسا، تولى مهام عدة في بيروت، والإسكندرية، ودمشق وفلسطين. عين قنصلاً عامًا في تونس، ثم مقيمًا لمدة عام ثم عين وزيرًا مفوضًا في واشنطن، ثم سفيرًا في مدريد، عُرف بإجادته اللغة العربية كتابة ونطقًا، توفي عام ١٣٢٤هـ/ ١٩٠٦م .
القاسمي، مرجع سابق : ٥٥ .

(٣) تولى نقابة الأشراف عام ١٢٨٤هـ / ١٨٦٧م، وحظي بمكانة جيدة بين القبائل التونسية، وكانت له عزة وسطوة، كما كانت له حظوة بين ولاة البلاد. توفي عام ١٣٠٤هـ/ ١٨٨٧م .
ابن الخوجة، مرجع سابق : ١٥٣ .

(٤) بيرم، مصدرسابق : ٥، الملحق ك، هـ .

(٥) القاسمي، مرجع سابق : ٦٠ .

إستانبول نهائيًا إلا أن الدسائس لاحقته، فآثر المغادرة عام ١٣٠٢هـ/ ١٨٨٥م، وتوجه إلى مصر وبقي فيها حتى وفاته عام ١٣٠٧هـ/ ١٨٩٠م بسبب إصابته بآلام حادة في الصدر [١] .

وخلّف محمد بيرم الخامس العديد من المصنفات العلمية، والرسائل، والمقالات، ومن أهمها كتاب «صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار» في خمسة أجزاء. وطبعت الأجزاء الأربعة منه في المطبعة الإعلامية بمصر في الفترة (١٣٠٠-١٣٠٣هـ/ ١٨٨٣-١٨٨٦م) . أما الجزء الخامس فطبع بمطبعة المقتطف بمصر عام ١٣١١هـ / ١٨٩٣م [٢]. ومن مؤلفاته كذلك «رسالة في أحكام الأشراف آل بيت الرسول ﷺ»، وتحوي ست عشرة صفحة، وطبعت أيضًا في المطبعة الإعلامية بمصر عام ١٣٠٢هـ/ ١٨٨٤م. وقد طُبِعَ كتاباه «تحفة الخواص في حل صيد بندق الرصاص» وملحوظات سياسية عن التنظيمات اللازمة للدولة العلية في عام ١٣٠٣هـ/ ١٨٨٥م، وقامت بطبعهما المطبعة الإعلامية بمصر [٣]، وكان لبيرم عدد آخر من المؤلفات [٤] .

ب - انطباعات محمد بيرم الخامس في رحلته إلى الحجاز عام ١٢٩٦هـ/ ١٨٧٩م :

أورد محمد بيرم الخامس انطباعاته ومشاهداته عن الحجاز في كتابه المسمى «صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار»، ويقع الكتاب في خمسة أجزاء، خصص القسم الأخير من الجزء الرابع لوصف رحلته إلى الحجاز، وأدائه لمناسك الحج. وقدم في القسم الأول من الجزء الخامس فكرة عامة عن

(١) بدري، مرجع سابق : ٨٠ .
(٢) محفوظ، مرجع سابق : ١ / ١٩٦ .
(٣) القاسمي، مرجع سابق : ٦٧ .
(٤) للمزيد من المعلومات حول مؤلفات محمد بيرم الخامس، انظر : المرجع نفسه، الملحق : ١٦٥ - ١٧٤ .

الحجاز استعرض فيها بشكل موجز تاريخ الحجاز منذ العهد القديم حتى الفترة التي أقام فيها في الحجاز، كما تناول فيها بعض جوانب الحياة السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية في الحجاز خلال تلك الفترة.

وكان محمد بيرم الخامس قد سافر إلى الحجاز لأداء فريضة الحج بعد أن أذن له الوزير مصطفى بن إسماعيل بذلك، وقد غادر تونس بحراً في ٢٦/ ١٠/ ١٢٩٦هـ الموافق ١٢/ ١٠/ ١٨٧٩م، وقصد مالطة، ومنها توجه إلى الإسكندرية ثم القاهرة، حيث هنأ الخديوي محمد توفيق[١] بالولاية[٢]، وتوجه بعد ذلك إلى السويس، وركب باخرة مصرية أقلته إلى جدة في ثلاثة أيام عانى خلالها الكثير من الزحام وقلة النظافة[٣]. وكانت جدة تغص حين وصوله بأعداد كبيرة من الحجاج صوّرهم بقوله [٤]: «كان نمرة ورقتي (٧٦) ألفًا ونيفًا من المئات والآحاد»، وأشار إلى تعسف مأموري الجمارك في جدة [٥] «وأقل مكرهم بمن لايعطيهم تَرْكُهُمْ لحوائجه أيامًا بدعوى كثرة

---

(١) ولد في القاهرة عام ١٢٦٩هـ/ ١٨٥٢م، أتقن اللغتين الإنجليزية والفرنسية إلى جانب العربية والتركية، وكان أكبر أبناء الخديوي إسماعيل، تولى حكم مصر عام ١٢٩٦هـ/ ١٨٧٩م بعد أن أصدرت الدولة العثمانية قراراً بخلع والده الخديوي إسماعيل من حكم مصر بعد تفاقم الأحوال الاقتصادية في مصر بسبب كثرة الديون، وتغلغل النفوذ الأوربي، وتذمر ضباط الجيش . شهد عهد الخديوي توفيق تزايد النفوذ الأجنبي، وحدوث ثورة أحمد عرابي (١٢٩٨هـ/ ١٨٨١م) رداً على تدهور الأوضاع في البلاد، كما شهد عهده أيضًا الاحتلال الإنكليزي لمصر عام ١٢٩٩هـ/ ١٨٨٢م، وقد بقي يحكم البلاد حتى وفاته عام ١٣١٠هـ/ ١٨٩٢م .
القاسمي، مرجع سابق : ٥٦، هامش: ٢ .

(٢) بيرم، مصدر سابق : جـ ٥، الملحق ك هـ، ك د .

(٣) وصف بيرم ذلك بقوله: «رأيت من ازدحام الركاب وتراكمهم على بعضهم مع الوسخ وسوء الحالة وعدم احترامهم للطبقة الأولى، وكثرة السكان على سطحها ما أسفت به على الركوب هناك» . المصدر نفسه، الجزء نفسه، الصفحة نفسها . المصدر نفسه : ٤ / ١٣٤ .

(٤) المصدر نفسه، الجزء نفسه : ١٣٦ .

(٥) المصدر نفسه، الجزء نفسه، الصفحة نفسها .

شغلهم فهم من أخسِّ المأمورين، وأكثرهم سرقة كما علمت من التجار وغيرهم» .

وكان في انتظاره بعد خروجه من الجمرك أحد المطوفين[١] التونسيين الذي دله على دار للإيجار أقام فيها مدة ثلاثة أيام، تعرّف خلالها على مدينة جدة ووصفها بقوله[٢]: «جدة بلدة على ساحل البحر هي مرسى الحجاز العظيمة للحجاج والتجارة من سائر الجهات، وأغلب سكانها من العرب، والهنود، ثم المغاربة والآفاقيون (يقصد الأجناس الأخرى أي من مختلف الآفاق) حتى الإفرنج، ولها أسواق رحيبة مسقفة، وتكنس البلد، وترش يوميًّا، وتنوّر ليلاً بزيت النفط، وبها جوامع حسنة، وماء شربها يؤتى به من بُعْد، وهواؤها حار جدًا رديء لأن أرضها مسبخة، وبها بعض ديار جميلة المنظر لنواب الدول وبعض التجار، وأغلب المباني الكبيرة للكراء فيها ملك للأشراف».

وغادر جدة بعد ذلك متوجهًا إلى مكة وقابله فيها أحد المطوفين فأخذه إلى دار وكيل التونسيين[٣] وقضى ليلةً فيها. وفي صباح اليوم التالي استأجر منزلاً أقام فيه بضعة أيام تعرف خلالها على عمر الشيبي فاتح بيت الله[٤]، كما قابل أمير مكة الشريف حسين بن عبدالله (١٢٩٤-

---

(١) المطوف هو الذي يطوف الحاج حول البيت ويقوم بإرشاده لتأدية نسكه على أتم وجه، وكان أول ظهور لهذه المهنة في عهد المماليك الشراكسة . وغالبًا ما تتوارث هذه المهنة أبًا عن جد وكان لكل مطوف وكيل في جدة ينوب عنه بتصريف شؤون الحجاج إلى أن يصلوا إلى مكة هورخرونيه، مصدر سابق، جـ ٢ : ٨٧ وأيضًا :
شكيب أرسلان، الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف، تعليق محمد رشيد رضا، (د.م. ن، د. ت . ن)، ص ٧١ وأيضًا :
السباعي، مرجع سابق، جـ ١ : ٣٣٧ .

(٢) بيرم، مصدر سابق : ٤/ ١٣٦ .

(٣) وهو عبدالرحمن الزمزمي، انظر الفصل الرابع : ٢٩٣، وكان في عام ١٢٩٦هـ/ ١٨٧٩م .

(٤) ينتسب إلى آل الشيبي، وهم ذرية شيبة بن عثمان بن أبي طلحة من قريش ويجتمعون في=

١٢٩٧هـ/ ١٨٧٧ - ١٨٨٠م) وتعرف في مجلسه على بعض أعيان البلاد ومنهم أحمد المشاط [١].

وذكر محمد بيرم الخامس في كتابه الذي سجل رحلته أداءه لمناسك الحج دون أن يغفل المصاعب التي واجهها أثناء ذلك، خاصة صعوبة التنقل بين المشاعر المقدسة لشدة الزحام، ولفت نظره كثرة البدع والخرافات في مكة فسجل في رحلته[٢] قوله: «لم أر شيئاً لم تدخله البدعة أبدًا إلا الصلاة».

وبعد أن أدى فريضة الحج توجه إلى المدينة المنورة في نهاية شهر ذي الحجة من عام ١٢٩٦هـ/ ١٨٧٩م، وهناك قابل مزور[٣] التونسيين ويدعى «حلابة»، ونزل بضيافة أحد علماء المدينة الإجلاء وهو عبدالجليل برادة، وبقي في المدينة المنورة لمدة ثلاثة أيام زار خلالها قبر الرسول ﷺ، كما زار بعض قبور الصحابة رضوان الله عليهم [٤].

=نسبهم مع الرسول ﷺ في قصي. كانت خدمة الكعبة، والقيام بشأنها، وفتح بابها وإغلاقه من مسؤولية آل الشيبي منذ عهد الجاهلية، وبقيت معهم في عهد الاسلام وروي أن الرسول ﷺ أبقاها معهم وقال : « خذوها بني طلحة خالدة تالدة إلى يوم الدين لا ينزعها منكم إلا ظالم.

رفعت، مصدر سابق : ٢٩٨ - ٢٩٩ . وأيضًا :

السباعي، مرجع سابق : ٢ / ٥٦٨ .

(١) بيرم، مصدر سابق : ٤ / ١٣٨ .

(٢) المصدر نفسه، الجزء نفسه : ١٤٣ .

(٣) هو الذي يقوم بخدمة الزائر إلى مدينة الرسول ﷺ ومسجده، ويسميه التونسيون المعرّف، ويسمى في الحجاز «المدّعي» .

أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨٨، ق ٥٦، خطاب من درويش حلابة مدعي أهل تونس إلى الوزير الأكبر مصطفى خزنة دار في ١/ ١/ ١٢٧٤هـ الموافق ٢١/ ٨/ ١٨٥٧م . وأيضًا :

بيرم، مصدر سابق : ٤ / ١٤١ . وأيضًا :

أرسلان، مرجع سابق : ٧١ .

(٤) بيرم، مصدر سابق : ٤ / ١٤٠ - ١٤١ .

وأورد في كتـابه بعض مشـاهداته في المدينة المنورة فـقال [١]: في المدينة أسواق وصناع لكل ضروري ومدارس لسكن المهـاجرين (المجاورين) وكُتب موقوفة في عـدة خزائن بمكتبات أهمها مكتبة عـارف باي (كذا ولعله يقصد بيه)، ورأيت بها كتابًا لم أكن أعرفـه وهو «الجامع الصغير في النحو» لابن هشام [٢]. . وطرق المدينة غالبـها ضيـق لا يمر به إلا رجل واحد إلا طريق الباب المصري الموصل لباب السلام». وأشاد محمد بيرم الخامس بأهل المدينة بقوله[٣]: «أخلاقـهم -رضي الله عنهم- أحسن أخـلاق أهل الأرض فيـما علمت من لين الجانب وصفاء القلب، ومواساة القريب والبعيد، والكرم. . ومن وفد عليهم تخلّق بخلقهم» .

وتحدث محمد بيرم الخامس في كتابه عن موكب الحج الذي كان يقام في الحجـاز احتـفالاً بإتمام فـريضة الحج وقـدوم العيـد،ويحضـره علية الـقوم فقـال[٤]: «في صبـيحة يوم ثاني العـيد يحصل مـوكب عظيم في منى لدى فـسطاط الشريف أمـير مكـة، فيـحضـره الوالي، وأمراء الإركـاب ورئيس العسـاكر بالحجـاز، وسائر الأعـيان من أهل مكة والحجـاج كلهم بالملابس الرسمـية، ولما يحـتبك الموكب يخـرج السيـد الأمير الشـريف، ويقف في الصدر، وتقف الناس حوله على حسب مـراتبهم ثم يتلى المنشور السلطاني المؤذن بالثناء على الأمـير وتقليده الإمـارة، أو إبقائه فـيها، وتحـريضه على إدامـة الأمن، والقـيام بالواجـب بحقـوق الحـرمين والأهالي، وهو باللغـة التركـية، ثم يتلى تعريبه، ثم يخلـع عليه أمير الركب الشـامي الخلعة التي

(١) المصدر نفسه، الجزء نفسه : ١٤٦ .

(٢) هو عبـدالله بن يوسف بن هشام، ولد عام ٧٠٨هـ/ ١٣٠٩م، يعـد من أئمة اللغة العـربية، يقال عنه: «أنحى من سيبويه»، له مؤلفات عدة منها «الجامع الكبير» و «الجامع الصغير». الزركلي، مرجع سابق : ٤ : ١٤٧ .

(٣) بيرم، المصدر نفسه، الجزء نفسه : ١٤٦ - ١٤٧ .

(٤) المصدر نفسه، الجزء نفسه : ١٤٨ .

يرسلها أمير المؤمنين إلى أمير مكة السيد الشريف، وهي جبة من الجوخ واسعة سوداء مطرزة بالذهب، ثم يقبل الجميع بالتهنئة للسيد الأمير، ثم يتفرق الناس».

وتابع محمد بيرم الخامس تسجيل انطباعاته عن الحجاز في الجزء الخامس فتحدث عن سكان مكة والمدينة (١): «اعلم أن البلدين الأكرمين سكانهما الآن أغلبهم من غير العرب الأصليين ؛ فإن المدينة لا يوجد بها إلا العائلة الشريفة حقيقة من العرب، وقد كنت رأيت رجلاً واحدًا من ذرية العباسيين قيمًا في ضريح عمهم حمزة، ولم يبق من الأنصار هناك إلا بقية عائلة واحدة، وبقية سكانها كلهم من الآفاق، وأكثرهم مغاربة، وأما مكة فلا يوجد بها من العرب المحققين إلا عائلة السادة الأشراف، وعائلة الشيبي، والبقية كلهم من الآفاق وأكثرهم هنود» .

وأعجبه حشمة النساء في المدينتين المقدستين فقال (٢) : «لم أر بالمدينة امرأة قط، وأما مكة فكان بعض نسائها يخرجن لأداء مناسك الحج لكنهن في غاية التستر بحيث لا يظهر منهن شيء، وعادتهن في الجميع ألا يخرجن إلا ليلاً مع شدة التستر بالخمار واللحاف، وإن اضطررن للخروج نهارًا فلا يمررن بالأسواق، ولا بالطرقات الكثيرة المرور».

وذكر شيئًا عن عيون الماء في الحجاز (٣): «وقد شاهدت في كل من بلدي «الصفرا» و «الجديدة» عينًا غزيرة الماء عرضها أزيد من ذراع ونصف وعمقها أزيد من ثلاثة أذرع جارية في غاية العذوبة، غير أن ماءها حار فإذا رفع في الأواني برد وصلح للشرب، وهو صالح جدًا للزراعة لكنه الآن ليس عليه إلا بعض نخيلات وباقيه يسيح على الأرض إلى أن يغور فيها».

(١) المصدر نفسه : ٥ / ١٧ .
(٢) المصدر نفسه، الجزء نفسه : ١٩
(٣) المصدر نفسه، الجزء نفسه : ٢٢ .

ولفت نظر محمد بيرم الخامس افتقار الحجاز إلى الأطباء، (وحدث ذلك عند ظهور مرض في إبهام رجله اليمنى، وكان قد عالجه في باريس، ولكن عاوده في الحجاز) ووصف ما جرى له [1]: «لما كنت بمكة وعاودني مثل ما وقع سابقًا، وذكرت لبعض الحاضرين عندي ما كان وقع، أخبرني بأنه يوجد حكيم يفعل مثل ذلك (مثل ما وصفه عن طريق المعالجة في باريس) فجئ به إليّ وكنت محترسًا منه لكني رأيت معه آلات للقطع وغيره كثيرة متقنة، وابتدأ في العمل من غير كثرة ألم فظننت أنه على علم فلم يفعل إلا قطع الظفر لكن عقبه ألم كدت معه أن لا أستطيع المشي لولا لطف الله؛ لأنه أراد الزيادة في القطع بعد ذلك فامتنعت لأنه ليس له من العلم شيء سوى كونه حلاقًا حجامًا تعوَّد على فصد بعض الناس».

ومن الأمور التي استرعت انتباهه رؤيته بعض مغاليق الأبواب في المدن المقدسة على شكل الصليب فقال [2]: «ومن غريب صناعتهم المغاليق التي تقفل بها الأبواب، فإن المفاتيح نحو عود مستطيل في آخره أسنان تدخل في ثقب في المغلاق وترفع إلى فوق ويجذب المغلاق بعجله إذ ذاك فينفتح، لكن الأمر الفظيع أن تلك المغاليق على شكل الصليب، وقد رأيت على باب الحجرة النبوية مغلاقًا من تلك المغاليق وهو من ذهب تقشعر من رؤيته الجلود، وقد خاطبت من يقتدر على تغييره، فتعلل بأن ذاك لا يخطر على فكر أحد من الأهالي لجهلهم الصليب، وبقي الحال على ما هو ولله الأمر».

وأثار دهشته خلو الحجاز من العجلات، وعلق على ذلك قائلاً [3]: «فيا ليت شعري أي مانع لاستعمال العجلات في السفر هناك فإني لم أر إلا

(١) المصدر نفسه، الجزء نفسه : ٢٤ .
(٢) المصدر نفسه، الجزء نفسه : ٢٦ .
(٣) المصدر نفسه، الجزء نفسه : ٢٨ .

عجلة واحدة لوالي الحجاز بمكة [١]، وقالوا: إنه ليس بها غيرها، ورأيت بالمدينة عجلة قيل: إنها لركوب بعض المرضى هي أشبه شيء بعجلات حمل السلع ملقاة في الطريق، وكأن أمر الأمن هو الأساس» .

وقد أورد محمد بيرم الخامس في كتابه «صفوة الاعتبار لمستودع الأمصار والأقطار» بعض المقارنات اللطيفة بين الأوضاع في الحجاز والأوضاع في تونس في الفترة التي سجل فيها ملحوظاته فذكر مثلاً [٢] «الحجاز ومصر مثلاً يطلقون على الكل بيوت وتونس والمغرب يطلقون على الكل ديار»، كما ذكر [٣] «بعض هذه الأسواق بل أكثرها مسقوف بالألواح على نحو ما ذكرنا في أسواق تونس»، وأشار أيضًا إلى أن[٤] «النساء في أرجلهن أحذية من نوع البشامق التونسية».

٢- محمد بن عثمان السنوسي (١٢٦٧ - ١٣١٨هـ/ ١٨٥١-١٩٠٠م) :

أ- سيرته :

هو محمد بن عثمان بن محمد بن عثمان بن محمد بن أحمد بن مهنية السنوسي[٥] ويقال له: الكافي بن مهنية من حفدة الشيخ عساكر الشريف الحسيني .

وأصل هذه العائلة السنوسية من قلعة سنان، وتقع في الشمال الغربي من

(١) هو ناشد باشا (١٢٩٦-١٢٩٧هـ/ ١٨٧٩-١٨٨٠م) ومما يجدر ذكره أن الدولة العثمانية قد نقلت مقر والي الحجاز من جدة إلى مكة منذ عام ١٢٨٧هـ/ ١٨٧٠م. انظر الفصل الأول: ٧٨ .

(٢) المصدر نفسه، الجزء نفسه : ٢٧ .

(٣) المصدر نفسه، الجزء نفسه : ٢٨ .

(٤) المصدر نفسه، الجزء نفسه : ٢٩ .

(٥) مما يجدر ذكره في هذا الصدد أن محمد بن عثمان السنوسي لا ينتمي للأسرة السنوسية التي تنحدر من الجزائر، والتي قام أحد أفرادها (محمد بن علي) بتأسيس ما عرف بـ «الطريقة السنوسية» في برقة.
السنوسي، الرحلة : ٢، مقدمة المحقق : ١١ .

البـلاد التونسـية، وقد انـتقلت العـائلة إلى بلدة الكاف، وهي مركـز تلك المنطقة، ثم استقرت في تونس العاصمة [١].

ولد محـمد السنوسي بحـاضرة تونس في ١٢٦٧هـ/ ١٨٥١م[٢]، وتولى والده وجده القضاء المالكي في تونس، وقد التـحق بجامع الزيتونة، فتتلمذ على أيدي أبرز علمـائها منهم الشـيخ محمـود قابادو، والشـيخ صالح بن فرحات[٣]، والشيخ مـحمد بيرم الخامس والشـيخ محمد الطاهر الـنيفر[٤] وغيرهم [٥].

وبعد تخرجه في جـامع الزيتونة عُين مدرسًا به عام ١٢٨٧هـ/ ١٨٧٠م، ثم اختاره المشير محـمد الصادق باشا باي في عام ١٢٨٩هـ/ ١٨٧٢م ليكون معلمـًا لابنه محمد الناصر، وفي عام ١٢٩١هـ/ ١٨٧٤م انتخبه أستاذه محمد بيرم الخـامس كاتبًا أول في جمـعية الأوقـاف، وفي عام ١٢٩٣هـ/ ١٨٧٦م أصبح محررًا لصحيفة «الرائد التونسي»[٦].

وبعد فرض الحماية الفرنسية على تونس ١٢٩٨هـ/ ١٨٨١م آثر مغادرتها، فمنع من ذلك في البـداية، ولكن بعد أن تعلل بأداء فريضـة الحج سُمح له

---

(١) السنوسي، مسامرات : ١، مقدمة المحقق : ١٤ .

(٢) السنوسي، الرحلة : ١، مقدمة المحقق : ١٠ .

(٣) ولد بتبـرسق في تونس عام ١٢٣٥هـ/ ١٨٢٠م، وتعلم العلوم الدينيـة، ثم توجه إلى تونس العاصمـة وتعلم في جامع الزيتونة، ولي القضاء ثم الفـتوى على المذهب المالكي، وهو عالم فاضل حسن الأخلاق، أديب ينظم الشعـر، له عناية بالعلوم العقلية . توفي عام ١٣٠٩هـ / ١٨٩٢م .
السنوسي، مسامرات : ٢ : ٣١٢ - ٣١٤ .

(٤) نشأ في بيـت علم ودين، تعلم العلوم الدينية، وتفـقه في المذهب المالكي، تتلمـذ على يديه عدد من طلبة العلم، تولى القضاء، وتوفي عام ١٣١١هـ/ ١٨٩٤م .
ابن مخلوف، مرجع سابق : ٤١٥ .

(٥) محفوظ، مرجع سابق : ٣ / ٧٣ .

(٦) السنوسي، الرحلة : ٢، مقدمة المحقق : ١٢ .

بالسفر. واتجه في عام ١٢٩٩هـ/ ١٨٨٢م إلى إيطاليا، وبقي فيها ما يقرب من شهرين، ثم غادرها إلى إستانبول فأقام مدة شهرين تقريبًا، ثم توجه إلى جدة عن طريق البحر(١).

وقد أدى فريضة الحج واجتمع بعدد من العلماء منهم رَحْمة الله وحبيب الرحمن(٢)، ثم غادر الحجاز متوجهًا إلى الشام، وفي طريقه إليها علم بوفاة المشير محمد الصادق باشا باي وتولي أخيه الباي علي بن حسين باشا (١٢٩٩-١٣٢٠هـ/ ١٨٨٢هـ ١٩٠٢م) حكم البلاد التونسية، وإقصاء الوزير الأكبر مصطفى بن إسماعيل من الوزارة الكبرى، وهو الشخص الذي كان يكيد لمحمد السنوسي فعزم محمد عندئذ على العودة إلى تونس، وقبل عودته أقام أيامًا في دمشق انتقل بعدها إلى بيروت، واجتمع بعدد من الأدباء والصحفيين منهم بطرس البستاني(٣) (٤)، وقد عاد إلى تونس عن طريق البحر في عام ١٣٠٠هـ/ ١٨٨٣م (٥) .

وبعد عودته إلى تونس استأنف عمله بجمعية الأوقاف، وانضم إلى أوساط المثقفين التونسيين. وفي عام ١٣٠٢هـ/ ١٨٨٥م تزعَّم مظاهرة قامت ضد السلطات الفرنسية في تونس احتجاجًا على تغيير بعض القوانين في المجلس البلدي (٦) وبسبب المزاحمة الأجنبية

---

(١) عبدالسلام، مرجع سابق : ٤٧١ .

(٢) المرجع نفسه، الصفحة نفسها .

(٣) ولد في لبنان عام ١٢٣٤هـ/ ١٨١٩م، ونشأ فيه، كان عالمًا واسع الاطلاع، تعلم لغات عدة بالإضافة إلى العربية ومنها الإنجليزية والعبرية، عمل مترجماً للقنصلية الأمريكية في بيروت، اشتغل بالتأليف، كما أنشأ أربع صحف منها «الجنان». من أبرز مؤلفاته «دائرة المعارف» في ستة مجلدات أتم أبناؤه بعد وفاته ١٣٠٠هـ/ ١٨٨٣م البقية منها حتى المجلد الحادي عشر . الزركلي، الأعلام :١ / ٥٨ .

(٤) محفوظ، مرجع سابق، جـ ٣ : ٧٦ .

(٥) عبدالسلام، مرجع سابق : ٤٧١ .

(٦) أسس هذا المجلس في تونس منذ عام ١٢٧٥هـ/ ١٨٥٩م، وتألف من عشرة أعضاء مهمتهم=

للتجارة في تونس [1]، وقد ألقت السلطات الفرنسية القبض على محمد السنوسي، وعزلته عن وظيفته، ونفته إلى قابس في تونس. وبعد أن قدم اعتذاراً إلى السلطات الفرنسية صدر عفو عنه في ذي القعدة ١٣٠٢هـ/ أغسطس ١٨٨٥م فعاد إلى العاصمة بعد ثلاثة شهور من النفي، وتولى مناصب قضائية [2].

وقام برحلة إلى باريس في عام ١٣٠٦هـ/ ١٨٨٩م، وعاد في العام نفسه إلى تونس وبقي فيها يواصل أعماله الإدارية ونشاطه الفكري (وكان من بين مؤسسي صحيفة الحاضرة التي حرر كثيراً من اختصاصاتها)، إلى أن وافاه الأجل في ٢٤/ ٧/ ١٣١٨هـ الموافق ١٧/ ١١/ ١٩٠٠م بعد صراع مع المرض [3].

وقد تنوعت كتابات محمد السنوسي فشملت الرحلات والمقالات الصحفية بالإضافة إلى تراجم بعض العلماء والشعراء التونسيين. وكان من بين تلك المؤلفات «غرر الفرائد بمحاسن الرائد»، وجمع في هذا المؤلف مقالاته المنشورة في صحيفة «الرائد التونسي» وقد طبع بالمطبعة الرسمية بتونس عام ١٢٩٦هـ/ ١٨٧٩م [4] [5]. ومن مؤلفاته «درة العروض»، وهي منظومة تحتوي على مئتين وواحدٍ وسبعين بيتاً وقد طبعت أيضاً بالمطبعة

=النظر فيما يتعلق بأبنية البلاد، والعمل على توسيع الطرق، وغرس الأشجار فيها وما إلى ذلك.

ابن أبي الضياف، مصدر سابق، جـ ٤، ص ٢٨٣ وأيضاً: السنوسي، الرحلة: ٢ / ١١٣، هامش ٥.

(١) السنوسي، مسامرات: ٢، مقدمة المحقق / ٤٨.

(٢) السنوسي، الرحلة: ٢، مقدمة المحقق/ ١٣.

(٣) المصدر نفسه، الجزء نفسه، مقدمة المحقق ١٦.

(٤) غير أنه مفقود الآن.

المصدر نفسه، الجزء نفسه، مقدمة المحقق: ١٩.

(٥) محفوظ، مرجع سابق: ٣ / ٨٠.

الرسميـة بتونس عام ١٢٩٧هـ/ ١٨٩٠م . وله مؤلف «مـسامرات الظريف بحس التـعـريف»، ويقع في أربعـة أجزاء طبـع الجزء الأول منه بالمـطبعـة الرسمية بتونس في ١٢٩٨هـ / ١٨٨١م، وتم طبع بقيـة الأجزاء محققة في عام ١٣١٤هـ/ ١٨٩٧م .

ومن رحلاته «الاستطلاعات الباريسية»، وهي رحلته إلى باريس وطبعت عام ١٣٠٦هـ/ ١٨٨٩م بالمطـبعة الرسـمية بـتونس في ١٣٠٩هـ/ ١٨٩٢م، وكذلك «خلاصة النازلة التونسية»، وطبعـتها الدار التونسية للنشر في تونس في عام ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م. وأمـا «الرحلة الحجازيـة» وتقع في ثلاثة أجزاء محققة فقـد طبع الجزء الأول منها عام ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م، وتم طبع الجزء الثـالث عـام ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، كـمـا طبع الجـزء الثـاني فـي عـام ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م [١].

ب - انطبـاعات محـمد بن عـثمـان السنوسي في رحلتـه إلى الحجـاز عام ١٢٩٩هـ/ ١٨٨٢م :

تحدث مـحمد بن عـثمان السنوسي في الجـزء الثاني من كـتابه «الرحلة الحـجـازيـة» عن رحلتــه إلــى الحــجــاز لأداء مناسـك الحج عــام ١٢٩٩هـ/ ١٨٨٢م، وعند وصوله إلى جدة قال[٢] : «وعند نزولنا دخلنا إلى محل القمرق (الجمرك)، واطلعوا على تذاكر جوازنا، وكتبوا لنا فيها بالقلم التركـي كتابة أخـذوا عنها عـشرة قـروش. وعند دخولنا من البلد عـرضنا التذاكر المذكورة، فـأعطونا هناك تذاكر صغيرة مختـومة أخذوا عن الواحدة

(١) السنوسي، مسامرات : ١، مقدمة المحقق / ٦٨ .
(٢) محفوظ، مرجع سابق : ٧٩ .
للمزيد من المعلومات حول مؤلفاته انظر :
السنوسي، مسامرات : ١، مقدمة المحقق / ٥٣- ٧٣ .
السنوسي، الرحلة : ٢-١٦٠ .

ثلاثة قروش». ووصف جدة بقوله: «البلد مما يلي البحر جميل البناء بالحجارة مجصص كله» . ووصف بعد ذلك أبنيتها وأسواقها وتحدث عن سكانها واجتمع بعدد من أعيانها، ومنهم أحمد المشاط الذي قال عنه[١]: «هو شيخ فاضل واسع التجارة، حسن الإدارة مشارك في الآداب والسياسة».

وانتقل بعد وصف جدة إلى الحديث عن مكة، وأورد أولاً معلومات تتعلق ببناء الكعبة وسدنتها، ثم أخذ في ذكر رحلته قائلاً [٢]: «أشرفنا على مكة المشرّفة فجر الثلاثاء الثامن والعشرين من ذي القعدة ١٢٩٩هـ/ ١٨٨٢م، وتلقانا المطوفون فأعلمتهم بأن مرادي الدخول عن طريق كدا (كذا)، فأخبرني أنه لم يبق طريقاً مسلوكاً، وطريق القوافل إنما هو الطريق المسلوك فطلبت الاستقلال بالسير على طريق كدا [٣]، وانفردت فيه مع المطوف حسن صباغ». ولحظ السنوسي أن المطوفين في مكة يجهلون كثيراً من الأحكام الدينية فيقول[٤]: «وقد رأيت المطوفين يحملون القادمين على المناسك بمقدار معرفتهم لها مع أنهم لا تبعد حالتهم عن الجهل». وقد قابل في مكة كبير المطوفين التونسيين، ويدعى علي الكافي، ووصفه السنوسي بقوله: «وهو في سن الهرم» [٥] .

وقد استأجر منزلاً في مكة لبضعة أيام، ودُعي لحضور غسل داخل الكعبة فوصفه بقوله [٦]: «وقد تشرفت بالدعوة لحضور غسل داخل الكعبة

(١) المصدر نفسه، الجزء نفسه : ١٦١ .
(٢) المصدر نفسه، الجزء نفسه : ١٧١ .
(٣) كداء هو الموضع الذي يستحب للمحرم دخول مكة منه وهو الثنية التي بأعلى مكة .
كردي، مرجع سابق : ٢/ ٣٠٢ .
(٤) السنوسي، الرحلة : ٢/ ١٧١ .
(٥) المصدر نفسه، الجزء نفسه : ١٧٢ .
(٦) المصدر نفسه، الجزء نفسه، الصفحة نفسها .

المشرفة صبيحة يوم الأربعاء التاسع والعشرين من ذي القعدة عام ١٢٩٩هـ/ ١٨٨٢م، فحضر هناك الشريف عبدالله وعصمان (كذا) باشا والي الحجاز، والسيد الشيبي [١] وقاضي مكة السابق وقاضيها الجديد[٢] وبعض الأفراد من خاصة الوافدين، واتَّزر أولئك المتوظفون بطيالسة من الكشمير، وابتدأ العمل الشريف وكنت من الخادمين في ذلك العمل إلى منتهاه والمنة لله».

كما تحدث عن النشاط العلمي بمكة المكرمة فقال [٣]: «ووجدت الحرم المكي فيه كثير من العلماء يقرئ الدروس من الفقه، والتوحيد، والنحو، ومن المبتدئين من يقرئ مناسك الحج، ووجدت مفتي مكة يومئذ وشيخ شيوخها العلامة المحصل الشيخ أحمد دحلان يقرئ تفسير البيضاوي بعد صلاة الصبح، ويحضر دروسه كبار العلماء».

وروى مشاهداته عن أحوال التجارة بمكة فقال [٤]: «وقد رأيت أثناء إقامتي بمكة المشرفة من رواج سوق التجارة بها ما علمت من حسن حالة التجار في تلك الديار، ولكن رأيت من الواردين للحج تهافتًا على شراء ما لا يحتاجون إليه وتعللوا فيه بأنهم يريدون منه التجارة لما وجدوا عليه من تنازل الأسعار».

وقد سمع السنوسي وهو في مكة خبر عزل الشريف عبد المطلب ١٢٩٧-١٢٩٩هـ/ ١٨٨٠-١٨٨٢م أمير مكة، وإلقاء القبض عليه، واعتقاله

---

(١) ويقصد عمر بن جعفر بن محمد الشيبي فاتح بيت الله، انظر: المصدر نفسه، الجزء نفسه: ٢٠١.

(٢) كان قاضيها السابق الشيخ محمد أمين أفندي. أما قاضيها الجديد فهو الشيخ مصطفى رشدي الذي تولى رئاسة القضاء في ١٢٩٩هـ/ ١٨٨١م.
ك ردي، مرجع سابق: ٦/ ١٠٦.

(٣) السنوسي، الرحلة: ٢ / ١٧٧.

(٤) المصدر نفسه، الجزء نفسه: ١٧٨.

بالطائف، وإسناد إمارة مكة مؤقتًا إلى الشريف عبدالله بن محمد بن عون[(١)] ١٢٩٩هـ/ ١٨٨١م فذهب محمد السنوسي إليه مهنئًا وألقى عليه قصيدة مطلعها[(٢)] :

ثغر التهاني عن سرور يبسم *** والبشر من نفحاته يتنسم

وعلم السنوسي بعد انقضاء العشر الأوائل من ذي الحجة بقدوم الشريف عون الرفيق بن محمد بن عون من إستانبول لتولي إمارة مكة (١٢٩٩-١٣٢٣هـ/ ١٨٨٢-١٩٠٥م) لأن ولاية الأمير عبدالله كانت للمحافظة على الإمارة إلى حين قدوم أخيه، وقد رأى محمد السنوسي أن يقدم للأمير عون التهنئة، وقد ألحقها بقصيدة بدأها بقوله[(٣)]:

عيد التهاني عاد في أم القرى *** وأعاد للإسلام عيدًا أكبرا

وبعد أن أتم محمد السنوسي مناسك الحج عزم على التوجه إلى المدينة المنورة وتعرض أثناء رحلته إليها لاعتداء قطاع الطرق، وسلَّمه الله من شرورهم[(٤)]. وقد تحدث السنوسي في مؤلفه عن الأماكن التي مر بها أثناء رحلته إلى المدينة، فقال عن رابغ [(٥)]: «هذا ميقات إحرام أهل المدينة وكل من جاء على طريقها، وقد بلغناها في الساعة التاسعة من ليلة الجمعة (الثامن والعشرين من شهر ذي الحجة لعام ١٢٩٩هـ/ ١٨٨٢م)، وأصبحنا هنالك بين نخيلها، ودخلنا سوقها المملوء بصعاليك البدو المتوحشين يبيعون فيه الدقيق، والشعير، والسمن، والدجاج، والبيض، والتمر وبعض

---

(١) كان للشريف محمد بن عون ستة من الأبناء أُطلق على اثنين منهم اسم عبدالله، وقد تولى أحدهم وهو الأول إمارة مكة في الفترة ١٢٧٤هـ- ١٢٩٤ / ١٨٥٨-١٨٧٧م .
دحلان، خلاصة : ٣٦٦، ٣٧٦ .

(٢) السنوسي، الرحلة : ٢ / ١٨٢ .

(٣) المصدر نفسه، الجزء نفسه : ١٩٦ .

(٤) المصدر نفسه، الجزء نفسه : ٢٠٥ .

(٥) المصدر نفسه، الجزء نفسه : ٢٠٦ .

مصنوعات الخسف (كذا) [١] والجلد».

ومضى محمد السنوسي في وصف الطريق إلى المدينة المنورة ومراحله إلى أن بلغها فوصفها بقوله[٢] : «هذه طيبة ... دخلتها آخر ليلة الخميس الرابع من محرم الحرام (١٣٠٠هـ/ ١٨٨٣م)، ونزلت في منزل العالم المحدث الشيخ علي الوتري، وأدركت صلاة الصبح بالمسجد النبوي ... وبعد الحصول على شرف الزيارة اجتمعت هناك بأفاضل العلماء ... ولازمت المجاورة [٣] بقدر الاستطاعة وزرت ضريح إمام دار الهجرة مالك بن أنس رضي الله عنه وغيره من مزارات المدينة». وسجل السنوسي انطباعه عن أهل المدينة وهو يشبه إلى حد كبير ما أورده محمد بيرم الخامس فقال [٤]: «ورأيت من حسن أخلاق أهل المدينة ولطف شمائلهم ما اقتضاه الأدب في جوارهم لذلك المقام».

وقد وصف محمد السنوسي موكب قدوم المحمل الآتي مع قافلة الحج الشامي فقال[٥] : «وأعظم المواكب في المدينة المنورة يوم قدوم المحمل الشريف بصحبة الركب الشامي يخرج فيه جميع المتوظفين والرؤساء والأعيان والعامة إلى ظاهر المدينة، لتلقي المحمل الشريف، وقد كان اجتماع الخاصة في بيت هنالك حضرته بالاستدعاء فكان به شيخ الحرم والقاضي والمفتي وكبار الأئمة».

(١) خصف النعل خَرَزَها، وصناعة الحصير تسمى في مكة «الخَصفَ» وهي تصنع من خوص النخيل (أوراقها).
ابن منظور، مصدر سابق : ٩ / ٧٢، وأيضًا :
محمد بن أبي بكر الرازي، مختار الصحاح، (دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٨هـ) : ١٧٧، ١٩٢ وأيضاً: كردي، مرجع سابق : ٢ / ١٣٥ .
(٢) الرحلة : ٢ / ٢٠٩ .
(٣) يقصد بالمجاورة هنا الاعتكاف، انظر الفصل الرابع : ٢٨٥ .
(٤) المصدر نفسه، الجزء نفسه، الصفحة نفسها .
(٥) المصدر نفسه، الجزء نفسه : ٢١٤ .

وقد أعجبه انتظام الركب الشامي (أي قافلة الحج الشامي) فقرر العودة معه، وكانت فرصة له ليتعرف عليه عن قرب، وأورد تفاصيل عن هذا الركب كما أورد معلومات عن بعض مراحل طريق عودة الركب . فوصف مثلاً موضع «الزمردة» الذي توقف عنده الركب بقوله [١]: «موضع كثير الحجر قليل الماء فيه قلعة ضخمة متسعة في وسطها بئر ليس له آلة، وخارجها بركة قليلة الماء لا يمكن تعميم السقي منه، وسكان تلك الجهة لا يأكلون إلا التمر العجوة [٢]، ويوجد عندهم قليل المعز، ولذلك نصبوا سوقًا لبيع ذلك التمر ولحم المعز. فخرج سعيد باشا [٣] وأتلف الطعام المطبوخ بلحم المعز، ومنع بيع التمر خشية اعتراض الإسهال للآكلين مما يوجب الكرنتينة [٤]، وإلى هذه المرحلة بحمد الله لم يمت غير شخصين أُصيبا في أوائل السفر عليهما رحمة الله».

ومضى السنوسي في رحلته متحدثًا عن الأماكن التي مر بها الركب الشامي، مفصلاً ما يعرفه من تاريخها، كحديثه مثلاً عن غزوة تبوك التي قام بها الرسول ﷺ في العام التاسع من الهجرة [٥] .

وأورد السنوسي -كما فعل بيرم في رحلته في الحجاز - شيئًا من المقارنة

---

(١) المصدر نفسه، الجزء نفسه : ٢٣٣ .

(٢) نوع من أنواع التمور في المدينة وهو من أجودها ونخلتها تسمى "لينة " .
الرازي، مصدر سابق : ٤١٦ .

(٣) هو أمير الركب الشامي .
السنوسي، الرحلة :٢/ ٢٤٢ .

(٤) ذكر البتنوني، (مصدر سابق : ٣٠٥) أن لفظة كرانتينة (Quarantaine) هي من أصل فرنسي، ومعناها الحرفي: الشيء الذي يصل عده إلى أربعين. والمقصود بها هنا الحجر الصحي، وهو مكان يتم فيه حجز الحجاج القادمين إلى الحجاز أو الخارجين منه للاطمئنان على سلامتهم الصحية من وباء الكوليرا، وقد ذكر الدهلوي في كتابه «نزهة الأنظار» : ٣٠٦ أول بداية لإنشاء المحاجر الصحية في المنطقة العربية كان في مصر عام ١٢٥٤هـ/ ١٨٣٨م .

(٥) المصدر نفسه، الجزء نفسه : ٢٤٠ .

بين أوضاع الحجاز وتونس، فتحدث مثلاً عن مسألة الدخان وتقبُّل أهالي الحجاز له على خلاف التونسيين[١]، «وفي هذه الأحوال التونسية ما يدل كل جاهل على أن التدخين ليس حكمه في الشرع كحكم أكل الخبز وشرب الماء، والخلاف الشرعي فيه مقرر، ولكن حالة البلاد التركية والحجاز في عدم التستر منه لا تفيد شيئًا إن لم نقل إنها قاضية بأنه من أنواع المباح بإجماع وليس كذلك».

٣- محمد بن صالح الجودي القيرواني (١٢٧٨-١٣٦٢هـ/ ١٨٦١-١٩٤٣م):

أ - سيرته :

هو محمد بن صالح بن قاسم بن الحاج علي الجودي التميمي القيرواني . ولد في مدينة القيروان ونشأ فيها، تعلم على يد علماء بلده، ومنهم الشيخ القاضي محمد العلاني[٢]، وبعد أن نال قسطًا من التعليم في القيروان رحل إلى العاصمة تونس ودرس في جامع الزيتونة فتتلمذ على يد الشيخ سالم بوحاجب وعمر بن الشيخ[٣]، ومحمد الطيب النيفر[٤] وغيرهم. وبعد تخرجه عُيِّن مدرسًا بالقيروان في عام ١٣١٢هـ/ ١٨٩٤م، وفي عام ١٣٢٩هـ/ ١٩١١م تولى الإفتاء فيها[٥].

---

(١) المصدر نفسه، الجزء نفسه : ٢١٥ .

(٢) لم يرد له ذكر في كتب التراجم المذكورة في مراجع الكتاب .

(٣) من بلدة رأس الجبل بتونس، تعلم في جامع الزيتونة، وقرأ على أيدي علمائه . تولى التدريس والقضاء والفتيا، توفي عام ١٣٢٩هـ/ ١٩١١م .
ابن مخلوف، مرجع سابق : ٢٤٠ .

(٤) ولد عام ١٢٤٧هـ/ ١٨٣١م، وتتلمذ على يد عدد من فحول العلماء، عمل مدرسًا بجامع الزيتونة، وتولى القضاء ثم الفتيا، وأصبح رئيس المفتين في عهده. توفي عام ١٣٤٥هـ/ ١٩٢٦م .
المصدر نفسه : ٤٢٨ - ٤٢٩ .

(٥) محفوظ، مرجع سابق ٢ / ٧٠ - ٧١ .

واهتم الجودي - إلى جانب اهتمامه بالعلوم الدينية - بالتاريخ والتراجم، كما اعتنى بالرواية والإسناد، وحرص على البحث عن الكتب النادرة، فجمع مكتبة نفيسة ضمت كتبًا قيمة وأوقفها بعد وفاته على جامع عقبة بن نافع بالقيروان .

وقد أدى فريضة الحج مرات عدة، واجتمع في الحجاز بعدد من العلماء، أخذ عنهم وأجازوه، كما اجتمع في دمشق بعدد آخر من العلماء ومنهم جمال الدين القاسمي(١) . وقد دوّن ذلك كله في رحلته إلى الحج التي قام بها في ٢٤/ ١١/ ١٣٣١هـ الموافق ٢٤/ ١٠/ ١٩١٣م(٢)، ومكث في الحجاز إلى نهاية شهر صفر من عام ١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م، ثم عاد إلى القيروان، وأسندت إليه رئاسة الفتوى فيها في عام ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٩م، وبقي فيها حتى وفاته عام ١٣٦١هـ/ ١٩٤٢م (٣) .

وقد قام محمد الجودي بوضع عدد من المؤلفات ما زال معظمها مخطوطًا : منها «تاريخ قضاة القيروان» (٤)، وتوجد منه نسخة مصورة بالمكتبة الوطنية بتونس، كذلك مؤلف «مورد الظمآن في ذكر المتأخرين من فضلاء القيروان» وهو في جزأين كبيرين. وقد وضع الجودي كذلك ثبتاً بشيوخه وإجازات من لقيه من العلماء (٥)، ومن مؤلفاته أيضًا رحلته إلى

(١) ولد عام ١٢٨٣هـ/ ١٨٦٦م في دمشق. كان سلفي العقيدة عَلَمًا من علماء الدين، تضلع في فنون الأدب رحل إلى مصر، وزار المدينة. له مصنفات عدة منها «دلائل التوحيد». اتهم بتأسيس مذهب جديد هو المذهب الجمالي، فقبض عليه ثم أخلي سبيله عام ١٣١٣هـ/ ١٨٩٥م. توفي عام ١٣٣٢هـ / ١٩١٤م.
الزركلي، مرجع سابق : ٢ / ١٣٥ .

(٢) تاريخ هذه الرحلة هو خارج فترة الدراسة غير أن ما وصفه محمد الجودي في رحلته من الممكن أن ينطبق على أوضاع تلك الفترة في الحجاز نظرًا للقرب الزمني.

(٣) محفوظ، مرجع سابق : ٢ / ٧٠ - ٧١ .

(٤) حمد الجاسر، رحلة التميمي التونسي إلى الحج، (مجلة العرب، الرياض، ع ١، ٢، س ١٦، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م): ١٣٧ .

(٥) المرجع نفسه، الصفحة نفسها .

الحج عام ١٣٣١هـ/ ١٩١٣م التي وصفها الشيخ حمد الجاسر -رحمه الله- بقوله [1]: يظهر أن المؤلف عاجلته المنية قبل نقل رحلته من المسودة، ولهذا وضع فيها كثيراً من الإضافات في الهوامش مع عدم وضوح كثير من الكلمات مما يدل على أنه كان يكتب لنفسه، لا ليقرأ غيره، وتقع في نحو (٨٨) صفحة، في الصفحة نحو (٢٥) سطرًا بخط مغربي .

ب - انطباعات محمد بن صالح الجودي في رحلته إلى الحجاز عام ١٣٣١هـ/ ١٩١٣م :

بدأ محمد الجودي القيرواني رحلته في ٢٤/ ١١/ ١٣٣١هـ الموافق ٢٤/ ١٠/ ١٩١٣م بعد أن أذنت له الوزارة التونسية في ذلك، وخرج من القيروان باتجاه العاصمة تونس؛ ليستقل في ٢٤/ ١١/ ١٣٣١هـ الموافق ٢٤/ ١٠/ ١٩١٣م باخرة توصله إلى جدة، وتحدث عن وصوله إليها في ٣/ ١٢/ ١٣٣١هـ الموافق ٢/ ١١/ ١٩١٣م بقوله [2]: «فدخلنا جدة وسلمنا السراحات [3] للمكلف من طرف الحكومة، ودخلنا البلد فأول ما لاقيناه أنه لا يطلب الإنسان شربة ماء إلا بثمن قدره هلالة [4] [5] لكل شربة ... وسألنا عن الميضات (مكان الوضوء) فأرشدنا إليها حذو جامعها، فوجدنا لا يتوضأ الإنسان إلا بماء ذي ثمن قدره هلالة مع رداءة الماء وملوحته، فتوضأنا، وصلينا الظهر بجدة، واكترينا جمالاً حملتنا لمكة. الجمل الواحد

(١) الجودي، مصدر سابق : ٤ .

(٢) المصدر نفسه : ٥ .

(٣) مفردها سراح وهي لفظة تونسية يقصد بها جواز السفر .
أ، و، ت، س : هـ، ك ٧٥، م ١/ ١٥، ق : بدون، خطاب من المراقبة المدنية بسوسة إلى عامل مدينة المهدية في ٥/ ١٠/ ١٣١٦هـ الموافق ١٥/ ٢/ ١٨٩٩م .

(٤) ربما يقصد الهللة وكان الريال المجيدي يساوي عشرين قرشًا والقرش الواحد أربع هللات والهللة الواحدة تساوي عشرين بارة .
مغربي، ملامح : ١٨٩ .

(٥) انظر عن العملات المتبادلة في الحجاز الفصل الثالث : ١٥٢ - ١٥٩ .

بثلاثة وعشرين فرنكًا[١]». واستاء محمد الجودي من سوء معاملة الجمالين فقال [٢] : «ولما خرجنا معهم وجدنا فظاظة وغلظة من الجمالين يطلبون من المال ما يسمى البقشيش، فلم يسعنا إلا دفعه وقدره نحو فرنكين».

ووصف رحلته إلى مكة بقوله[٣]: «سرنا ليلاً، وقبل نصف الليل وصلنا لمكان يسمى (بَحرة) بتنا فيه على خوف شديد إذ أصحابه من البدو. والجمالون منهم وكلهم مسلحون». وحينما بلغ مكة استأجر دارًا بسبعين فرنكًا، وشرع في تأدية مناسك الحج، وأورد انطباعاته عن حج ذلك العام فقال [٤]: «ولم يقع في هذا الموسم مرض ولا كثرة موت مع كثرة الحجاج في هذا العام بكيفية لم تعهد. قيل: إن عدد الحجاج في هذا العام على ما حصره شيخ المطوفين ست مئة ألف نفس وثمانية وتسعون نفسًا، وهذا القدر هو الذي ورد بالبحر عن طريق المطوفين خلاف من جاء بالبر». وبعد ذلك وصف المسجد الحرام بقوله [٥] : «وهذا الحرم المكي متسع جدًا كسي بثوب الإجلال بحيث إن الإنسان تحصل له مهابة عظيمة وخشية. والحرم صحن بوسطه الكعبة المشرفة» .

وتحدث عن زيارته لأمير مكة الشريف حسين بن عبدالله بن عون فقال[٦]: «وبعد صلاة الجمعة ذهبت أنا وسي العربي بسيس وسي بلقاسم شيخ الطريقة القادرية بنفطة وولد الشيخ البحري التونسي لشريف مكة بداره، فتلقانا بأحسن قبول، وفرح بنا، وأعلمه سي العربي بأني من أهل القيروان، ومن مفاتيها فشملتني عنايته وأثنى على القيروان».

(١) الجودي، مصدر سابق : ٥ .
(٢) المصدر نفسه، الصفحة نفسها .
(٣) المصدر نفسه، الصفحة نفسها .
(٤) المصدر نفسه : ٨ .
(٥) المصدر نفسه، الصفحة نفسها .
(٦) المصدر نفسه : ٩ - ١٠ .

ومكث في مكة أياماً عدة توجه بعدها في يوم الخميس ٢١/ ١٢/ ١٣٣١هـ الموافق ٢٠/ ١١/ ١٩١٣م إلى المدينة المنورة، وأورد بعض المراحل التي مر بها [١]: «وبتنا في أول ليلة بالمرحلة الأولى، وتسمى وادي فاطمة، والمرحلة الثانية تسمى عسفان، والثالثة تسمى الحليفة (ذا الحليفة) ولما بتنا بها بتنا في خوف شديد من أهل البدو الحرامية».

وبلغ المدينة المنورة في يوم الاثنين ٢٥/ ١٢/ ١٣٣١هـ الموافق ٢٤/ ١١/ ١٩١٣م فقصد الحرم النبوي الشريف للصلاة والزيارة. وعبر عن مشاعره في تلك الزيارة [٢]: «وصلينا بالمسجد الشريف، ورأينا عليه من الجلالة والمهابة والجمال ما أدهش العقل». وقد وصف الحرم الشريف بقوله[٣] : «المسجد النبوي من طرفه الغربي إلى طرفه الشرقي إلى الحجرة الشريفة أربعة عشر قوساً، ومن القبلة إلى حد المحرابين والمنبر إلى الصحن عشرة أقواس». كما تحدث عن دخوله الحجرة النبوية الشريفة فقال[٤]: «عرض عليَّ الشيخ عبدالقادر بن محمد حواري مدير كتبخانة (مكتبة) شيخ الإسلام أن أوقد مصابيح الحجرة الشريفة [٥] تبركًا بذلك، ولأحسب من خدمة القبر الشريف، وأدخل عليَّ من السرور بذلك مالا أقدر أن أصفه».

---

(١) المصدر نفسه : ١١ .

(٢) المصدر نفسه : ٧١ .

(٣) المصدر نفسه : ٦٣ .

(٤) نقل محمد الجودي (المصدر نفسه : ٧٠) في هذه الرحلة عن مناسك الحج للوقائي ما نصه: «ودخول الحجرة الشريفة لغير مصلحة شرعية خلاف للأدب قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾، وعلق الجاسر في (رحلة التميمي التونسي إلى الحج٨، (مجلة العرب، الرياض، ع ١١، ١٢، س ١٨، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م)، ص ٧٠) بقوله: «كل هذه الأفعال لا تتفق مع ما ورد عن السلف الصالح، ولا يليق في هذا المقام إلا الاقتداء بهم، فهم الذين تلقوا عن الرسول ﷺ تعاليم الدين الحنيف، ومن ذلك الطريقة الشرعية في زيارة القبور».

(٥) المصدر نفسه : ٧١.

وقد زار محمد الجودي في المدينة كذلك قبور بعض الصحابة في البقيع ومن ذلك قبر الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه .

وقد اجتمع محمد الجودي بعدد من العلماء، ومنهم الشيخ عمر بن حمدان المحرسي، وتحدث عنه بقوله: «أصله من بلد المحرس من أعمال تونس، وارتحل به والده قبل البلوغ إلى المدينة المنورة . . فأقبل على العلم، واعتنى به حتى حصل جانبًا وافرًا من العلم، وصار يقرئ بالمسجد النبوي».

وقد قام الشيخ عمر حمدان بدعوة محمد الجودي إلى منزله فلبى الدعوة في ليلة الجمعة ٢٨/ ١٢/ ١٣٣١هـ الموافق ٢٧/ ١١/ ١٩١٣م واجتمع بعدد من أهل العلم ومنهم[١] «السيد أحمد بن الصديق المدني المالكي أحد مدرسي الحرم الشريف، وهو شريف علوي، والسيد عبدالله فرحات المدني كان مجاورًا بمكة لنحو عامين، ثم رجع هذه الأيام إلى المدينة».

وقد أسهب محمد الجودي في التحدث في رحلته إلى الحجاز عن العلماء الذين التقاهم أثناء وجوده في المدينة، وأورد شيئًا من المناقشات التي دارت معهم حول أمور فقهية [٢]. كما قام وهو في المدينة المنورة بزيارة للمكتبة المجاورة للحرم فقال عنها[٣]: «في يوم الاثنين عاشر محرم ١٣٣٢هـ/ ١٩١٣م ذهبت للمكتبة المجاورة للحرم الشريف من شرقيه التي حبَّسها شيخ الإسلام أحمد عارف فوجدتها مشتملة على كتب كثيرة مضبوطة بدفاتر عدة ذات أودية أحدها به اسم التأليف، والثاني به اسم مؤلفه وآخر هل هو عربي الخط أو تركي» .

---

(١) المصدر نفسه : ١٢٠

(٢) المصدر نفسه : ١٢-١٣.

(٣) المصدر نفسه : ٢٠ .

ووصف الجودي ما حوته تلك المكتبة من كتب[١] : «فرأيت من جملتها في فن التاريخ تأليفًا للزركشي التونسي سماه «عقود الجمان وتذييل وفيات الأعيان» نمرة (٤٥٩)»، بالإضافة [٢] إلى إسعاف المبطا (كذا) لرجال الموطا للسيوطي، و«تزيين الممالك بمناقب الإمام مالك» للسيوطي، و«الجواهر البهية شرح الأربعين النووية» للشيخ محمد الشبشيري نمرة (٣٣٨) من كتب المجاميع» .

وقد أتيح لمحمد الجودي وهو في المكتبة الالتقاء بعدد من العلماء منهم الشيخ البشير الإبراهيمي [٣]،والشيخ إبراهيم بن أحمد حمدي المدني الحنفي[٤]،والسيد أحمد ابن الحاج عمر أفندي «المعروف بابن رسول زاده»[٥][٦] .

ويستدل من مكوث الجودي في المدينة المنورة ما يقرب من الشهرين اهتمامه بالعلم والعلماء، وسعيه للاجتماع بأكبر عدد منهم. وشغله التردد على مكتبة شيخ الإسلام «أحمد حكمت عارف» لمطالعة بعض المخطوطات ولنقل بعض تراجم علماء بلده [٧] . وأوقف على تلك المكتبة

(١) المصدر نفسه، الصفحة نفسها .
(٢) المصدر نفسه : ٢٩ .
(٣) أصله من سطيف بالجزائر، رحل في طلب العلم، فتعلم في دمشق، كما تعلم في الحجاز، جاور في الحجاز عام ١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م، أسس مع عبدالحميد بن باديس جمعية العلماء الجزائريين عام ١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م، وتهدف إلى المحافظة على الثقافة الإسلامية واللغة العربية، وتطهير الإسلام مما علق به من البدع والخرافات. تولى رئاسة الجمعية في الفترة (١٣٥٩-١٣٧٦هـ/ ١٩٤٠-١٩٥٦م).
الجودي، مصدر سابق : ٢١ وأيضاً : العقاد، مرجع سابق : ٢٩٥ - ٢٩٨ .
(٤) لم يرد له ذكر في كتب التراجم المثبتة في آخر الكتاب.
(٥) لم يرد له ذكر في كتب التراجم المثبتة في آخر الكتاب .
(٦) المصدر نفسه : ٣٦ .
(٧) منها ترجمة الشيخ أحمد حلولو (ت ٨٩٨ هـ/ ١٤٩٢م) التي نقلها من مخطوطة الحلل السندسية للسرّاج .

كتاب «شرح موطأ محمد بن الحسن عن الإمام مالك»، وقيد اسم الكتاب في الدفتر المعدّ لتقييد الكتب تحت قسم الحديث برقم ٢٦٠[١]، وحصل محمد الجودي في المدينة على إجازات عدة من بعض المشايخ، ومنهم الشيخ أحمد البرزنجي الذي أجاز محمد الجودي في جميع العلوم، وكذلك الشيخ محمد معصوم شيخ الطريقة النقشبندية وهو هندي الأصل، وكذلك أجازه الشيخ محمد بن جعفر الكتاني الفاسي[٢] وغيرهم[٣].

وما يدل على اهتمام محمد الجودي بالعلم استعارته لكراسين من مكتبة شيخ الإسلام بهما ثبت الشيخ الشبراوي[٤]، وقد أعطاهما لناسخ ينسخهما له فتأخر الناسخ عن إعادتهما، ولم يتيسر لمحمد الجودي السفر إلى الشام إلا بعد أن أعاد الكراسين إلى المكتبة[٥]. وكان سفره يوم الخميس ١٨/ ٢/ ١٣٣٢هـ الموافق ١٥/ ١/ ١٩١٤م.

وأخيراً يمكن القول: إن المؤلفات التي وضعها العلماء التونسيون الذين دونوا أخبار رحلاتهم إلى الحجاز خلال فترة الدراسة، وفي أوقات متباعدة

---

(١) الجودي، مصدر سابق: ٧٧ - ٧٨.

(٢) ولد بفاس عام ١٣٠٠هـ/ ١٨٨٣م، في أسرة عرفت بالعلم والصلاح. تعلم العلوم الدينية، ثم رحل إلى الحجاز عام ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م، وأخذ الحديث عن عدد من علمائه. ألقى دروساً في الحرم المدني، ورحل في طلب العلم إلى الجزائر وتونس. اشتهر بمعرفة تراجم الرجال. له مؤلفات عدة منها فهرس الفهارس، وقد طُبع في مجلدين، كذلك التراتيب الإدارية في جزأين. توفي عام ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م.
الفاداني، مرجع سابق: ٢٧٨ - ٢٨١.

(٣) الجودي، مصدر سابق: ٧٦.

(٤) من المنوفية بمصر، تعلم بالأزهر، كان من علماء الشافعية، من مؤلفاته: «إرشاد المريدين في معرفة كلام العارفين» توفي عام ١٣٠٣هـ/ ١٨٨٦م.
الزركلي، مرجع سابق: ٥ / ٤٣.

(٥) المصدر نفسه: ٧٧ - ٧٨.

نوعًا ما، لا يمكن أن تعد تاريخًا متكاملاً للفترة التي دونت فيها إلا أنها تقدم تجارب ومعارف شخصية تمكّن أصحابها من الاطلاع عليها، أو معايشتها خلال الرحلة التي قاموا بها إلى الأراضي المقدسة. ومع أن مشاهداتهم تحوي قدرًا كبيرًا من الانطباعات الشخصية والآراء الذاتية، إلا أنها ترسم صورة حية لأبرز المعالم عن أوضاع الحجاز الثقافية، والاقتصادية، والاجتماعية في الفترة التي دونت فيها تلك المؤلفات، وغاص أصحابها في تفاصيل دقيقة تحوي الجانب الإنساني الذي قد لا يتوافر في كتب التاريخ العادية . وهي تدل على عمق الصلات الوثيقة ما بين تونس والحجاز في مرحلة مهمة من مراحل التاريخ الحديث من منتصف القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي إلى أوائل القرن الرابع عشر الهجري/ العشرين الميلادي.

رابعاً - الحج ودوره في تدعيم الروابط الثقافية بين البلدين :

الحج في اللغة : هو القصد، وشرعًا: قصد التوجه إلى بيت الله الحرام بالأعمال المشروعة فرضًا وسنة، وقضاء نُسك سنة واحدة[١] .

والحج هو الركن الخامس من أركان الإسلام، وهو فرض عين على المستطيع ماديًّا وجسديًّا قال تعالى[٢]: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ .

وللحج مكانة بارزة في نفوس التونسيين، كما في نفوس المسلمين جميعًا، حتى إن من يعود من الحج منهم كان يحمل لقب «حاج» افتخارًا بأن الله مَنَّ عليه بأداء الفريضة، وقد ذكر السنوسي[٣] ما يؤيد ذلك فقال : «وأذن له فحج بيت الله، وصار الحاج أحمد ابن الحاج حسين ابن الحاج

(١) ابن منظور، مصدر سابق : ٢ / ٢٢٦ - ٢٢٧ .
(٢) سورة آل عمران، آية ٩٧ .
(٣) مسامرات : ٢ / ٧٩ .

إبراهيم، فثلاثتهم قد حجوا وزاروا».

وكان للحج دورٌ كبيرٌ في تدعيم الروابط الثقافية بين تونس والحجاز، وهو دور يعد من بين فوائد الحج الجمّة للمسلمين من مختلف أنحاء العالم الإسلامي الذين يلتقون في مكة المكرمة في شهر ذي الحجة من كل عام، ويتبادلون الآراء، ويتناقشون في مختلف المجالات. ويمكن إيراد مثال واضح على ذلك وهو الدور الذي قام به الحج في نشر دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية وامتدادها في أنحاء متعددة من العالم الإسلامي، ومنها البلاد التونسية، فقد كان الحجاج التونسيون حين يعودون إلى بلادهم يحملون معهم معلومات عن تلك الدعوة، ويعملون على إيصالها للأهالي في تونس [١]، فكان الحج بذلك أحد المعابر الرئيسة التي من خلالها انتشرت هذه الدعوة في تونس .

وكان علماء تونس بوجه عام ينتهزون فريضة الحج للإفادة العلمية والاستفادة. فالشيخ إبراهيم الرياحي[٢] التقى في مكة في رحلاته المتعددة إليها العديد من الشخصيات المرموقة، وكان يتبادل معها وجهات النظر حول المسائل التي تهم الأمة الإسلامية[٣]. وكان من بين العلماء الذين التقاهم الشيخ محمد عابد السندي[٤] الذي أجازه بما حواه ثبته المعروف باسم

(١) العجيلي، الوهابية : ٢٢ .

(٢) ولد بمدينة تستور في تونس عام ١١٨٠هـ / ١٧٦٦م، وحفظ فيها القرآن، ثم انتقل إلى العاصمة، وتتلمذ على يد عدد من علمائها، وتعلم بجامع الزيتونة، وعمل مدرساً به . وقد تخرج على يديه أجيال عديدة توفي بالطاعون عام ١٢٦٦هـ / ١٨٤٩م. محمد بن محمد الطيب النيفر، عنوان الأريب عما نشأ بالمملكة التونسية من عالم أديب (المطبعة التونسية، تونس، ١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م) : ٢ / ٩٠ - ٩٧ .

(٣) الزمرلي، مرجع سابق : ٤٩ .

(٤) كان من أهل العلم والصلاح، دعي من السند إلى المدينة المنورة، وولي رئاسة علمائها من قبل والي مصر محمد علي باشا. استفاد في المدينة المنورة من علمائها البارزين، ومنهم الشيخ محمد صالح الفلاني، ألف العديد من المؤلفات منها شرح الدرر المختار المسمى بـ «طوالع=

«حصر الشارد في أسانيد محمد عابد» [١] وقد التقى الشيخ محمد السنوسي في موسم الحج عام ١٢٩٩هـ / ١٨٨٢م الشيخ حبيب الرحمن [٢]، والشيخ علي بن ظاهر الوتري في مكة. وروى السنوسي عن الشيخ على الوتري ثبت الشيخ محمد عابد السندي، كما روى عنه كتاب «الشفا بتعريف حقوق المصطفى» للقاضي أبي الفضل عياض (ت ٥٤٤ هـ / ١١٤٩م)، وكتاب «المواهب اللدنية بالمنح المحمدية» لشهاب الدين القسطلاني (ت ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م)، وغيرهما من كتب الحديث [٣].

وكان العلماء التونسيون خلال موسم الحج يلقون الدروس العلمية في الحرمين الشريفين، أشار إلى ذلك السنوسي[٤] : «وقد متعني الله من فضله بملازمة المسجد الحرام في أكثر الأوقات، وأكثر جلوسي في المقام المالكي لرواية الشفا للقاضي عياض».

وقد أتاح الحج للعلماء التونسيين فرصة التعرف على عدد من علماء العالم الإسلامي، فالشيخ محمد بن صالح عيسى الكناني [٥]، تعرف في

=الأنوار» في أربعة مجلدات، كذلك ألّف «حصر الشارد في أسانيد عابد». توفي عام ١٢٥٧هـ/ ١٨٤١م.

أبو الفيض عبد الستار بن عبد الوهاب الدهلوي، نثر المآثر فيما أدركت من الأكابر، (مكتبة الحرم المكي، مكة المكرمة) مخطوطة برقم ٢٧٠ (ميكروفيلم) : ١٢ - ١٣ .

(١) محفوظ، مرجع سابق : ٢ / ٣٩١ .

(٢) ولد بالهند عام ١٢٥١هـ / ١٨٣٥م، وقرأ في بلاده علوم الدين واللغة العربية،كما درس الرياضيات والطب. خرج إلى مكة للحج عام ١٢٧٠هـ / ١٨٥٣م، وبقي فيها. قرأ على يد العديد من علمائها. أقام في المدينة المنورة، ودرس عدداً من تلاميذها. كان عالمًا متبحراً.

الدهلوي، فيض : ٣ / ١٠١ . وأيضـًا :

السنوسي، الرحلة : ٣ / ١١٧ - ١٢١ .

(٣) المصدر نفسه، الجزء نفسه : ١٤٢، ١٥٣ .

(٤) المصدر نفسه : ٢/ ١٧٦ .

(٥) ولد عام ١٢٢٢هـ / ١٨٠٧م في القيروان . كان فقيها، مؤرخـًا، كما كان متصوفـًا . تولى مناصب إدارية في بلده، وصار شيخـًا للطريقة القادرية، له مؤلفات عديدة. منها: «تكميل=

أثناء حجـه عام ١٢٦٥هـ/١٨٤٩م على جمـاعة من كبـار العلماء [١] كما التقى العلماء التونسيون خـلال موسم الحج عدداً من ذوي المناصب العلمية من الأتراك .

فالشيخ محمد السنوسي قـد التقى في أثناء حجه عام ١٢٩٩هـ/١٨٨١م عدداً من القضاة الأتراك، وتباحث معهم في عدد من المسائل العلمية [٢] .

ولا شك أن مثل هذه اللقاءات كانت تتيح للعالم التونسي فرصة التعرف على عدد من كبار الشخصيات من ذوي المكانة العلمية في الدولة العثمانية، وهو أمر يغني ذخيرته العلمية .

وقد تمكن العلمـاء التونسيون خلال مـوسم الحج من الاطلاع على الإنتاج الفكري لعلمـاء الحجـاز ومجـاوريه، ومن ذلك اطلاع السنوسي على أوراق عدة ألفها الشيخ محمـد رَحْمَةُ الله، وقد أبدى السنوسي رأيه فيها [٣]، كما كان يتاح لهم ارتياد مكتبات الحجاز العـامة، ومن أهمها مكتبة شيخ الإسلام «أحمـد حكمت عـارف»، وقد زارها الشيـخ بيرم الخـامس، وأثنى عليـها، وأشـار إلى أنها تحـوي كـتبـًا عـديدة ومـتنوعة إلى جـانب احـتوائهـا على المخطوطات النادرة [٤]، كمـا زارها البشيـر بن أحمد النيـفر [٥] في رحلاته

=العلماء والأعيان لمعالم الإيمان في أولياء القيروان»، توفي عام ١٢٩٢هـ / ١٨٧٥م.
محفوظ، مرجع سابق : ٤ : ١٧٦ - ١٧٨ .

(١) محفوظ، مرجع سابق : ٤ / ١٧٦ .
(٢) السنوسي، الرحلة : ٣ / ٩٣، ٩٤، ١٧٦ .
(٣) المصدر نفسه، الجزء نفسه : ١١٦ .
(٤) بيرم مصدر سابق : ٤ / ١٤٦ .
(٥) ولد عـام ١٣٠٦هـ / ١٨٨٨م وحفظ القـرآن، ثم تعلم في جـامع الزيتـونة، وعمل بعـدها مدرسًا كـما عمل قاضيـًا، وتولى الفتيا. سافـر إلى الحجاز مرات عـدة، وألف العديد من الكتب منها: «رسالة في شرح البخـاري من علماء المغرب والأندلس»، توفي عام ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م.
محفوظ، مرجع سابق : ٥ / ٦٧ - ٧١ .

المتعددة إلى الحجـاز، وحرص على الاطلاع على الكتب والمخطوطات النادرة فيها، والاسـتفادة منها[١]، وكان البشير معروفـًا بقوة الذاكرة والخبرة الجيدة بالمخطوطات .

ولا شك أن علماء الحجاز ومجـاوريه قد أتيحت لهم خلال موسم الحج الاستـفادة من وجود العلماء التـونسيين بينهم فقـد كان العلماء التونسـيون يلقون الدروس، ويقومون بتسليم الإجازات لطلبة العلم . ويذكر من هؤلاء الشيخ مصطفى بن عزوز[٢] الذي اجتمع أثناء حجه بكثير من العلماء فأجاز واستجاز، وقد شارك السنوسي في حضـور امتحان طلبة العلم في المدرسة الصولتية بطلب من الشيخ محمد إسحاق الأدهمي[٣] مدير مدرسة الشيخ - رحمـه الله - وذلك عام ١٢٩٩/ ١٨٨٢م، وألقى السنوسي بـعض الأسئلة على الطلبة المتحنين[٤] .

وبوجه عام كان موسم الحج مجالاً ليس فقط لتدعيم الروابط الثقافية بين تونس والحجاز، بل أيضـًا بين تونس والبلاد الإسـلامية الواقعة على طريق الحج، إذ كان العلماء التونسيون يجتمعون بعلماء مصر، أو الشام في طريق الذهاب إلى الحج أو العـودة منه[٥] . ومن أمـثلة هؤلاء الشـيخ أحـمـد

(١) المرجع نفسه، الجزء نفسه : ٦٨ .

(٢) هو من بيت فضل وعلم، لعائلته زاوية بصحراء سـوف بالجزائر ذهب إلى تونس، ونشر فيها الطريقة الرحمانية الصوفية، وأنشأ له زاوية بنفطة. توفي عام ١٢٨٢هـ/ ١٨٦٥م.
ابن أبي الضياف، مصدر سابق : ٨ / ١٤٢ .

(٣) ولد بطرابلس الشام (١٢٥٢هـ / ١٨٣٦م)، قـرأ على علماء بلده، ورحل في طلب العلم، فقـرأ بالجـامع الأموي، وجـامع الأزهر . تولى الإفتـاء في الشام . كـان بارعـًا في الأدب، فصيح اللسان، عالمـًا بالفقه والنحو والمنطق، توفي عام ١٣٠٢هـ/ ١٨٨٥م.
السنوسي، الرحلة : ٣ / ٩٩ - ١٠٣ .

(٤) المصدر نفسه، الجزء نفسه : ١٠٨ - ١٠٩ .

(5) Mohammed EI Aziz Ben Ashore, Les ulama Atunis Aux xviil et xix Siecles, Thes,e De Doctorat De Siecles, These de doctorate de 3 em cycle (Histoire) (University) paris - Sorboon Ietters et civilistion (Paris Iv) P.178.

الورتتاني [١] الذي انتهز فـرصة ذهابه إلى الحج عام ١٢٧٠هـ / ١٨٥٤م[٢]، واجتـمع في مصـر بعدد من العلمـاء، ومنهم الشيخ مـحمد ابن مـصطفى الأزهري [٣]، والشيخ إبراهيم الباجوري[٤]، واستجازهمـا فأجازا له إجازة مطلقة [٥]، كما أن الشيخ أبا العيش عمار بن سعيدان [٦] التقى أثناء توجهه للحج عام ١٣٠٧هـ / ١٨٩٠م عـدداً من علماء مـصر، واجتـمع بالشيخ محمد عليش، ووقعت بينهما محاورة في مسائل علمية [٧]. واجتمع محمد بن عثمان السنوسي في دمشق وهو في طريق العودة من الحج بالشيخ سليم العطار[٨]، وأجازه بما تضمنه ثبت مـحدث الديار الدمشقية الشـيخ الشهاب

(١) ولد بمنازل قبيلـته (ورتتان) قرب الكاف بتونس عـام ١٢٤٦هـ / ١٨٣٠م، وتعلم القرآن ثم درس في جامع الزيتـونة وأصبح مـدرسًا فيه أسندت إليـه رئاسة الأوقاف وتحـرير صحيـفة «الرائد التونسي» في عام ١٢٩٧هـ / ١٨٨٠م. توفي عام ١٣٠٢هـ/ ١٨٨٥م.
القاسمي، مرجع سابق : ٦٩، هامش: ٣ .

(٢) المرجع نفسه، الصفحة نفسها .

(٣) أصله من طرابلس الغرب، هاجر إلى مـصر في طلب العلم، وبقي هناك، ونسب إلى جامع الأزهر، توجه إلى تونس في عهد الباي حمودة، فبالغ في إكرامه، وبقي فيها حتى وفاته عام ١٢٦٧هـ/ ١٨٥١م.
ابن أبي الضياف، مصدر سابق : ٢ / ٤٣، هامش: ٤ .

(٤) ولد عام ١١٩٨هـ/ ١٧٨٤م في قرية باجـور (من قرى المنوفية بمصر)، وفيـها نشأ، تعلم في الأزهر وأصبح من فقهاء الشافعية. ألف العـديد من المؤلفات منها «تحفة البشر على مولد ابن حـجـر»، تقلد مـشيـخـة الأزهر عـام ١٢٦٣هـ/ ١٨٤٧م، وبقي فـيـها حـتى وفـاته عـام ١٢٧٧هـ/ ١٨٦٠م.
الزركلي، مرجع سابق : ١ / ٧١ .

(٥) السنوسي، مسامرات : ٤/ ١٢٦ .

(٦) حفظ القـرآن الكريم، ثم توجه إلى القـيروان وتفـقه فيـها، ثم رحل إلى تونس لاسـتكمال العلوم، وحصل على رتبـة التدريس بجامع الزيتـونة. ألف بعض الكتب منها «اختـصار شرح ابن ناجي»، دُعي لقضاء القيروان فامتنع. توفي عام ١٣٠٤هـ/ ١٨٨٦م.
ابن مخلوف، مرجع سابق : ٤١٣ .

(٧) المرجع نفسه، الصفحة نفسها .

(٨) ولد عـام ١٢٣١هـ / ١٨١٦م قرأ على يد الـعديد من العلمـاء، عكف على دراسـة العلوم الفقهية، والحديث، والتوحيد. عُدّ محدث دمشق وفقيهها .
السنوسي، الرحلة : ٣/ ٢٣٧ - ٢٤٤ .

العطار، كما حصل السنوسي على إجازة من الشيخ محمد الطنطاوي[1] في دمشق [2] .

ويضاف إلى ذلك فإن تونس نظرًا لكونها معبرًا لحجاج بقية بلدان الشمال الأفريقي كانت أيضاً ملتقى لعلماء تلك البلدان فقد اجتمع العالم المغربي محمد يحيى الولاتي[3] في تونس وهو في طريق عودته من الحج عام ١٣١٣هـ/ ١٨٩٥م إلى بلاده بعدد من العلماء التونسيين منهم الشيخ سالم بو حاجب، ومفتي تونس الشيخ حسين بن أحمد ابن حسين[4]، وغيرهما[5].

وعمد بعض العلماء التونسيين إلى تكرار فريضة الحج رغبة في نيل الأجر والثواب، ومع تكرار الحج تتضاعف الاستفادة العلمية.

ومن أبرز العلماء التونسيين الذين قاموا بأداء الحج مرات عدة الشيخ

---

(١) ولد بطنطا بمصر عام ١٢٤٦هـ / ١٨٣٠م، ثم رحل إلى الشام، وقرأ فيها على يد عدد من العلماء . وهو عالم فاضل له شهرة في علم الكلام والحديث .
السنوسي، الرحلة : ٣/ ٢٤٦ .

(٢) المرجع نفسه، الجزء نفسه : ٢٤٠، ٢٤٦ .

(٣) شنقيطي الأصل (موريتاني)، ولد عام ١٢٦٩هـ/١٨٤٣م في ولاية بالمغرب الأقصى. نشأ في بيت علم، كان جادًا في طلب العلم وتحصيله، عُرف بجرأته في العمل ضد المبتدعين والمشعوذين، ألف الكثير من المؤلفات يصل عددها إلى المئة منها: «إيصال السالك في أصول الإمام مالك». توفي عام ١٣٣٠هـ/ ١٩١٢م.
الزركلي، مرجع سابق : ٧ / ١٤٢، وأيضًا :
محمد بن يحيى الولاتي، فتح الودود على مراقي السعود، مراجعة حفيده محمد بن عبدالله الولاتي، (دار عالم الكتب للطباعة والنشر، الرياض، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م)، المقدمة : ١-٣.

(٤) نشأ نشأة دينية. تعلم على يد والده (رئيس المفتين بتونس) وعدد من علماء عصره، كان آية في التفسير، تولى الفتيا وتوفي وهو عليها عام ١٣٢٣هـ / ١٩٠٥م.
ابن مخلوف، مرجع سابق : ٤١٧ .

(٥) محمد بن يحيى الولاتي، الرحلة الحجازية، تعليق محمد الحجي، (دار الغرب الإسلامي، تونس، ١٤٠٠هـ/ ١٩٩٠م)، ص ص ٢٧٥، ٢٧٦ .

محمد بن محمد بن أحمد النيفر (١) الذي حج الفريضة، وتطوع بثانية وثالثة مع ما في ذلك من المشقة، وكان يقول: أريد أن أدفن في البقيع، وقد حقق الله رغبته فتوفي في المدينة المنورة بعد حجته الثالثة، ودفن بالبقيع في ١٢/ ١/ ١٢٧٧هـ الموافق ٣٠/ ٧/ ١٨٦٠م(٢)، كما أن البشير بن أحمد النيفر حج ست مرات، وكان هدفه إلى جانب أداء الحج الاطلاع على المخطوطات التي تحويها المكتبات العامة في الحجاز(٣).

وكان للحج دور آخر إضافة إلى دوره في التبادل الثقافي هو أن التونسيين كانوا يتخذون الحج سبيلاً للخروج من البلاد التونسية لأسباب عدة؛ قد يكون أهمها التخلص من ضغط السلطات الفرنسية، كما فعل بيرم الخامس عام ١٢٩٦هـ / ١٨٧٩م، أو التهرب من مراقبة السلطات الفرنسية ومثال ذلك ما فعله الشيخ محمد بن عثمان السنوسي (٤) عام ١٢٩٩هـ/ ١٨٨٢م.

واستغل بعض التونسيين موسم الحج لالتقاء بعضهم ببعض للتباحث في النواحي السياسية بعيداً عن أعين السلطات الفرنسية في تونس، كما فعل المكي بن عزوز(٥)، وإسماعيل الصفائحي(٦)، وهما من رموز الحركة

---

(١) أصله من مصر، كان عالمًا فاضلاً محققًا . تولى القضاء في تونس عام ١٢٦٢هـ / ١٨٤٥م، اشتهر بالعدل في أحكامه . توفي عام ١٢٧٧هـ / ١٨٦٠م.
ابن مخلوف، مرجع سابق : ٣٩٠ .

(٢) ابن أبي الضياف، مصدر سابق : ٨ / ١١٤ .

(٣) محفوظ، مرجع سابق: ٥ / ٦٨ .

(4) Zanetti, O.p. Cit. P.126,131.

(٥) أصله من البوسنة، ولد عام ١٢٦٩هـ / ١٨٥٣م. تعلم العلوم الدينية في تونس، ودرس بجامع الزيتونة عام ١٢٨٥هـ / ١٨٦٨م عمل مدرسًا بالمعهد الصادقي، وزار عدداً من البلدان الإسلامية، واستقر في إستانبول وفيها توفي عام ١٣٣٦هـ/ ١٩١٨م.
محفوظ، مرجع سابق : ٣ / ٢٣٣-٢٣٥ .

(٦) أحد العلماء التونسيين، تعلم في جامع الزيتونة، ولي قضاء نفطة (في تونس) ثم عمل=

الوطنية المناهضة للسياسة الفرنسية في تونس التي ظهرت في بداية القرن الرابع عشر الهجري / العشرين الميلادي [١] .

وهكذا أدى الحج دورًا مهمًا في دعم الروابط الثقافية بين تونس والحجاز، فاستفاد أهالي الحجاز ومجاوروه من علم التونسيين، كما استفاد العلماء التونسيون من وجودهم في الحجاز فترة حجهم.

=مدرسًا بجامع الزيتونة، غادر تونس عام ١٣١٥هـ/ ١٨٩٧م، وتنقل في مصر، والحجاز، والشام، واجتمع بكثير من العلماء واستقر أخيرًا في إستانبول وفيها توفي عام ١٣٣٤هـ/ ١٩١٦م.

ابن مخلوف، مرجع سابق : ٤٢٣ .

(1) Zanetti, O.p. Cit. P .P.111-112,138.

الفصل الثالث

الصّلات الاقتصادية

أولاً - لمحة عامة عن الأوضاع الاقتصادية في تونس والحجاز.

ثانيًا - التبادل التجاري بين تونس والحجاز.

ثالثًا - الأوقاف التونسية للحرمين الشريفين ودورها في دعم الصلات الاقتصادية بين البلدين.

رابعًا - الصُّرة ودورها في دعم الصلات الاقتصادية بين البلدين.

أولاً- لمحة عامة عن الأوضاع الاقتصادية في تونس والحجاز:

(أ) في تونس :

يمكن القول بوجه عام : إن الصلات الاقتصادية بين تونس والحجاز في الفترة موضوع الدراسة كانت ترتبط بشكل وثيق بأوضاع البلدين الاقتصادية في جميع المجالات الزراعية والصناعية والتجارية، وهي أوضاع تتسم إلى حد كبير بعناصر مشتركة، وإن اختلفت نتيجة اختلاف الموقع وظروف البيئة .

وتعرف تونس من الناحية الزراعية بأنها بلد منتج للحبوب ومصدّر لها، ومع ذلك فقد كانت بحاجة إلى استيراد الحبوب في بعض الأعوام حينما تتعرض البلاد للجفاف والقحط كما حدث عامي ١٢١٨هـ/ ١٨٠٣م [١]، و١٢٨١هـ/ ١٨٦٤م[٢]، ذلك أن الزراعة التونسية كانت تعتمد على مياه الأمطار[٣]، والملحوظ أن المدن التونسية عدا العاصمة تونس التي كان يجلب لها الماء من زغوان قرب العاصمة تونس لتعويض نقص مياه الأمطار كانت تعاني من تدهور الزراعة في حالة عدم نزول الأمطار[٤]، يضاف إلى ذلك كان زحف الجراد الذي يجتاح البلاد بين فترة وأخرى يُسهِم في تفاقم المشكلات التي كان يعاني منها المزارعون[٥]. وكان لانتشار الأوبئة والأمراض[٦] أثر في نقص الأيدي العاملة المؤدي إلى ضعف الإنتاج الزراعي.

(١) ابن أبي الضياف، مصدر سابق : ٣ / ٥٤ .

(٢) بيرم، مصدر سابق : ٢/ ٣٤ .

(٣) محمد الصالح مزالي، تطور تونس الاقتصادي (١٨٨١ - ١٩٢٠م)، تعريب (عن الفرنسية) الهادي التيمومي، (بيت الحكمة، قرطاج (تونس)، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م) : ٥٦ .

(٤) القاسمي، مرجع سابق : ٢٦ .

(٥) مزالي، مرجع سابق : ٥٦ .

(٦) من ذلك ما حدث عام ١٢٨٤هـ /١٨٦٧م حين جرفت السيول مساكن القبائل وأنعامها،=

ولا يمكن إغفال دور السياسة التي كان يتبعها بعض البايات التونسيين تجاه الفـلاحين وزيادة إرهاقـهم. فـقد كـانت الضـرائب البـاهظة تفـرض على الأراضي الزراعية[1]، كما كان بعض الفلاحين يتـعرضون لمصادرة أراضيهم خاصة في فـترة الثورات، وكان لهذا تأثيـره السلبي في الإنتاج الزراعي في تونس[2].

وقد عـمدت السلطـات الفرنسيـة بعد فـرض الحمـاية على ولاية تونس (١٢٩٨هـ/ ١٨٨١م) إلى استغلال البـلاد في المجال الزراعي، فأنشأت إدارة تسمى «مصلحة الاستعمار والفـلاحة» هدفها العمل من أجل الحصول على أكـبر قـدر من الأراضي الزراعـية، ومن ثمّ توزيعـهـا على المستـوطنين[3] لتشـجيعـهم على الاستقـرار في تونس والتجنس بالجنسـية الفرنسـية[4]،

= واشتد البرد حـتى مات خلق كثير، وانتشرت الأمراض، وفـتكت الأوبئة بالعديد من الناس حتى قيل: إنه مات في تلك السنة نصف أهلها. وقد سماها ابن أبي الضياف السنة الشهباء.
ابن أبي الضياف، مصدر سابق: ٦/ ١٢٠-١٢٢.

(١) من ذلك ما فـرض عليهم عام ١٢٨٣هـ/ ١٨٦٦م من ضـرائب تراوحت قيمـتها من خمـسة وعشرين ريالاً حتى الألف حسب المكسب الذي يتحصل عليه الفلاح من نتاج أرضه، هذا عدا ما يدفعه (وهو العشر) على الأرض. المصدر نفسه، الجزء نفسه: ١٠٢.

(٢) عروسيـة صميدة، وثائق جـمعية الأوقاف بالأرشـيف الوطني التونسي، مذكرة للـحصول على الأستاذية (الليسانس) في علوم المكتبات والتـوثيق والأرشيف، جامعة الآداب والفنون الإنسانية، تونس، ١٤١٠هـ/ ١٩٩١م، (موجودة بالأرشيف الوطني التونسي): ١٥.

(٣) ويقصـد بهم العنصر الأوربي الموجـود في تونس الذي أخذ في التزايد مـنذ القرن الثالث عـشر الهجـري/ التاسع عـشر الميـلادي بمن فيـهم الفرنسيـون، والإيطاليون، والمالـطيون، والروس، واليوغسلاف.
العبسي، ملامح من المجتمع التونسي من خلال جريدة النديم لحسين الجزيري، شهادة الكفاءة في البحث، (الجامعة التونسية، تونس ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م)، توجد بمكتبة الجامعة التونسية: ٢١٥.

(٤) عمدت الـسلطات الفرنسية إلى تشـجيع التجنس بالجنسـية الفرنسيـة بين الأوربيين لزيادة أعداد الفرنسـيين في تونس بالنسبة لغيـرهـم من الأوربيين وخاصة الإيطاليين الذين كـانت أعدادهم في تونس تفـوق أعداد الفرنسـيين، فقـد كان عدد الإيـطاليين عام ١٣١٩هـ/ ١٩٠١م يقـدر بواحد وسبـعين ألفـًا وستمائة نسـمة في حين كان عـدد الفرنسيين يقـارب أربعة وعشرين ألفـًا ومـئتي نسمة.
القصاب، مرجع سابق: ٢٧٥ - ٢٧٦.

وتقديم التسهيلات لهم للحصول على قروض لاستثمار تلك الأراضي. ومن أجل تنشيط الزراعة في تلك الأراضي لصالح السلطات الفرنسية أقامت تلك السلطات المعاهد الزراعية للتعليم الزراعي، وقصرتها على المستوطنين، كما أجرت البحوث العلمية للنهوض بالزراعة، وقدمت النصح والإرشاد للمستثمرين الفرنسيين من المستوطنين، وأمدتهم بالقروض اللازمة لاستخدام الآليات والوسائل العلمية المتقدمة [١] .

ومن الناحية الصناعية فقد اشتهرت تونس بعدد من الصناعات التقليدية أهمها صناعة الخزف، والسجاد، والمصنوعات الجلدية [٢]، وصناعة ما يعرف بـ «الشاشية»[٣] .

وقد شهدت تلك الصناعات ركوداً في النصف الثاني من القرن التاسع عشر على وجه الخصوص، ويعود السبب في ذلك إلى غلاء بعض المواد الأولية كالصوف الجيد[٤] من جهة وإلى مزاحمة المصانع الحديثة في كل من إيطاليا وفرنسا للإنتاج الصناعي التونسي من جهة أخرى. وأدى هذا من ثم إلى هبوط أسعار الصناعات الوطنية التونسية، خاصة وأنه لم يتم إدخال تجديد يذكر في المصانع التونسية وآلاتها القديمة[٥] .

ويلحظ أن السلطات الفرنسية اتخذت خلال عهد الحماية إجراءات في المجال الصناعي أضرّت بالصناعات التونسية. ذلك أن فرنسا أخذت تصدّر البضائع

---

(١) القصاب، مرجع سابق : ٩٣ - ١٠١ .
(٢) الإمام، مرجع سابق : ٢٧١ .
(٣) لفظة أسبانية تعني القلنسوة، والشاشية غطاء للرأس (يشبه الطربوش)، ويُصنّع من الصوف. القصاب، مرجع سابق : ١٨٨ ، وأيضاً : مزالي، مرجع سابق : ١٦٥ .
(٤) الإمام، مرجع سابق : ٢٧٣ .
(٥) بيرم، مصدر سابق : ٢/ ١٢٧ .

المصنّعة فيها للبلاد التونسية، وهي بضائع لا تخضع للرسوم الجمركية ولا للضرائب التي كانت تفرض على الصناعات التونسية التقليدية[١]، يضاف إلى ذلك أنه كانت تصدر إلى تونس منتجات مقلّدة لمنتجات الصناعات التقليدية التونسية كالشاشية والمصنوعات الجلدية[٢] وتعرضها في الأسواق التونسية بأسعار أقل عن مثيلاتها من البضائع التونسية المصنعة في تونس[٣]، وهي بضائع كان بعضها يصنع يدويًا، ويستخدم في تصنيعه مواد أولية جيدة، ولكن نظرًا لما كان يفرض على هذه البضائع من ضرائب كانت مرتفعة السعر مقارنة بالبضائع الفرنسية المقلدة التي لا ترقى إلى جودة البضائع التونسية اليدوية. وقد اضطر الصانع التونسي نتيجة للمزاحمة الأجنبية إلى تخفيض أسعار مصنوعاته باستعمال مواد أولية من النوع الرديء[٤]، وكان لذلك تأثير سلبي في جودة الصناعات التقليدية، ومكانتها في الداخل والخارج، وأدى من ثم إلى تراجع حجم البضائع التونسية المصدرة للخارج [٥] [٦] .

أما في المجال التجاري فإنه من المعروف أن التجارة في تونس قد ارتبطت

---

(١) بشير بو علي، السياسة الاستعمارية وآثارها في الميادين الاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية، محاضرات الحركة الوطنية التونسية (معهد التوثيق القومي، تونس، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م)١/ ٣٠ .

(٢) القصاب، مرجع سابق : ١٨٤ .

(٣) من ذلك أن الشاشية الفرنسية كان سعرها أقل من سعر الشاشية التونسية .
المرجع نفسه : ١٧٧ .

(٤) من ذلك مثلاً استخدام النساجين خيوط القطن والصوف، أو الحرير من النوع الرديء .
المرجع نفسه : ٢٠١ .

(٥) من أمثلة ذلك أن الشاشية التي كانت أكثر المصنوعات التونسية رواجًا، كانت تصدر في عام ١٢٥٣هـ-١٨٣٧/م ما قيمته ألف وسبع مئة واثنان وأربعون ريالاً من الشواشي الموجهة نحو مصر، وطرابلس الغرب، والجزائر، وغيرها، غير أن حجم الصادرات منها أخذ في التناقص حتى إنه في عام ١٣٣٩هـ/ ١٩٢٠م أصبحت لا تصدر إلا القليل لتلك البلدان. وتقلص الحرفيون العاملون بهذه الصناعة من خمس مئة معلم في عام ١٣٠٨هـ/ ١٨٩١م إلى مئة وعشرة معلمين في عام ١٣١٨هـ/ ١٩٠٠م.
المرجع نفسه : ١٩٥، ٢٠٣ .

(٦) المرجع نفسه : ٢٠٠ - ٢٠٣ .

بالإنتاجين: الزراعي والصناعي، وتأثرت بأحوالهما، وكان بعض التونسيين يركزون على التجارة الداخلية التي تتم بين مدن الولاية التونسية.

واستخدم التجار في نقل بضائعهم الإبل والخيل والبغال والحمير، وتولى فريق من تجار تونس عُرفوا باسم «الحمّارة»، ولديهم دواب كافية لنقل البضائع عملية التبادل التجاري، وكان هؤلاء يتصفون بالأمانة؛ فيعهد لهم التجار ببضائعهم التي يوصلونها حسب المطلوب منهم (وكان لكل جهة «حمارون» خاصون بها).

أما التجارة مع مناطق البادية فكانت تتم بواسطة القوافل، وكان أهل البادية يجتمعون في الأسواق، ويحملون البضائع على دوابهم، ثم يعودون بها إلى أماكنهم [١].

ولم تكن غالبية التجار العاملين في التجارة الخارجية في تونس من أهالي البلاد، ذلك أن الدول الأوربية في سعيها من أجل السيطرة على التجارة العالمية إثر الثورة الصناعية فرضت على بايات تونس في القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي معاهدات تجارية تمنح التجار الأوربيين امتيازات كبيرة في تونس[٢] على شاكلة ما جرى في الدولة العثمانية[٣].

---

(١) بيرم، مصدر سابق : ٢/ ١٢٠ .

(٢) رياض، مرجع سابق : ١٨٧ .

(٣) عقدت الدولة العثمانية منذ عام ٩٤١هـ / ١٥٣٥م معاهدة صداقة وتجارة بينها وبين فرنسا من أجل تشجيع التجارة بين الطرفين . وبموجب تلك المعاهدة كان يسمح للفرنسيين ولبواخرهم بالتجارة في الموانئ العثمانية، وطبقًا لذلك فقد كان الفرنسيون يتمتعون بامتيازات في أراضي الدولة العثمانية، وعليه فإنهم يخضعون في الدولة العثمانية لقوانين حكومتهم، ولا يخضعون للقوانين العثمانية خلال وجودهم بموانئها . وأصبحت هذه المعاهدة مقياسًا للمعاهدات التي عقدتها الدول الأوربية مع الدولة العثمانية بعد ذلك ومن أهمها بريطانيا، والجدير بالذكر أيضًا أن الدولة العثمانية عندما ضعفت تحولت الامتيازات إلى نموذج مؤسساتي أوربي يعمل على تقويض السيادة العثمانية .

ولم تكن تونس تتقيد بالامتيازات التي منحـتها الدولة العثمانية لتلك الدول الاوربية، وإنما كانت لها معاهداتها الخـاصة، وكانت ترفض أحيانـًا احترام الامتيازات التي منحها السلاطين العثمانيون للدول الأوربية، أو لرعايا تلك الدول[١]. ومكنت تلك الامـتيازات التـجار الأجـانب ومعظمهم إيـطاليون وفرنسيون من السـيطرة على التجارة الخارجية للبلاد التـونسية، خوّلت لهم حق الحصول على امتـيازات قضائية واسعة، وحصانة مـن الأعمال الردعية التي كانت تمارسها الحكومة التونسيـة في بعض الأحيان، كما منحتهم تلك الامتيازات إعفاءً من الضرائب[٢].

ومع أن كلاًّ من فـرنسا وبريطانيا كـانتا تتنافسـان في القرن الثالث عـشر الهـجري/ التـاسع عـشر الميـلادي من أجل الحصـول على امـتيـازات في تونس[٣]، إلا أن نصيب فرنسـا أخذ في التزايد بعد الحماية الفـرنسية على تونس[٤] . فقد نشطت التـجارة الخارجية في البـلاد التونسية إلى حد كـبير لصالـح السلطات الفرنسـية فـقام الفـرنسيـون بإنشاء الشـركات التـجارية الأوربية، ومنها شركة الفوسفات وحديد قفصة والشركة الفرنسية الأفريقية. وهكذا أصبحت تونس كغيرها من بلدان شمـال أفريقيا سوقـًا نشطـًا للتجار الأوربيين وخاصة الفرنسيين، وسيطر العـديد من هؤلاء على عملية التبادل

---

(1) Mohammad S.AI-Shaafi, The Foreign Trade of Judda During The Ottoman. Period 1840-1914 9 D.P, 1405/1985) P. 38-39 Also:
Brown, Modernization, P. 33.

(2) Ibid.

(٣) رياض، مرجع سابق : ١٨٧ .

(٤) من ذلك مثلاً أن الصادرات التونسيـة إلى فرنسا قد ارتفعت من ١٩٪ عام ١٣٠٥هـ/ ١٨٨٨م إلى ما يفوق ٥٠٪ عام ١٣١٨هـ/ ١٩٠٠م.
القصاب، مرجع سابق : ٢٤٦ - ٢٤٧ .

التجاري[١]، هذا في حين تَقَاعَسَ الأهالي التونسيون وغالبتهم من المسلمين عن الاهتمام بها . ويعزى ذلك إلى أن الأحوال المادية للتونسيين لم تكن تساعد على إنشاء شركات استثمارية خاصة لمنافسة تلك الشركات الفرنسية، ولم يتوافر سوى قلة من أصحاب رؤوس الأموال المحليين كانوا يتاجرون بالأشياء النفيسة، كالعطور والحرير، ومع ذلك كانوا يلاقون صعوبات كثيرة في تصريف شؤونهم التجارية [٢] بسبب ضغط السلطات الفرنسية عليهم كفرض رسوم جمركية باهظة على الواردات [٣]. وكان من أبرز المراكز التجارية في تونس المدن الساحلية المطلة على البحر الأبيض المتوسط، وأهمها سوسة، وصفاقس، والمنستير، هذا بالإضافة إلى جزيرة جربة الواقعة في مواجهة الجهة الشرقية من البلاد، ويعد ميناء حلق الوادي وهو أحد موانئ تونس العاصمة من أهم الموانئ التونسية [٤] وكانت البواخر والسفن ترسو فيه بأعداد كبيرة حتى وصلت عام ١٢٩٥هـ/١٨٧٨م إلى حوالي مئتين وسبع وخمسين باخرة، وأربع مئة وثمانين سفينة شراعية، وأكثر تلك السفن كان يملكها الأجانب [٥] .

وكانت أهم الصادرات التونسية الزيتون وزيته، والشواشي (جمع شاشية) والأقمشة الصوفية، والصوف الخام، والقمح والجلود، وقد اختفى الصوف والمصنوعات الصوفية تدريجيًا بسبب المنافسة الأجنبية، غير أن صادرات زيت الزيتون أخذت في التزايد مع انتشار حقوله، وكان يتم تصدير كثير من

---

(١) عبدالمالك التميمي، الاستيطان الأجنبي في الوطن العربي، (عالم المعرفة، الكويت، ع ١٧، محرم / صفر ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م) : ٤٥ .

(٢) الطاهر عبدالله، تاريخ الحركة النقابية في تونس، (دار الطليعة، بيروت، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م)، ص ١٨ .

(٣) رياض، مرجع سابق : ٢٥٨ - ٢٥٩ .

(٤) بيرم، مصدر سابق : ١ / ١٢٤ - ١٢٥ .

(٥) المصدر نفسه : ٢ / ١٢٠ .

المواد المنتجة في تونس إلى الولايات الإسلامية مثل: مصر، والشام في المشرق العربي، وطرابلس الغرب، والجزائر، والمغرب الأقصى في المغرب العربي، كما أن بعض البضائع كانت تصدر إلى إستانبول (وخاصة الشواشي) [١]، وكذلك إلى الدول الأوربية، وأهمها: فرنسا وبريطانيا، وأسبانيا، وإيطاليا وأيضاً الولايات المتحدة الأمريكية، وبعد فرض الحماية زادت حصة فرنسا من صادرات تونس الخارجية وخاصة القمح [٢].

وكانت واردات تونس من الدول الإسلامية هي: البقول، والقطن، والحلي المرصع بالماس، والنحاس. أما من الدول الأوربية فقد كانت تونس تستورد البطاطا والسكر ومنسوجات صوفية وقطنية [٣].

وبوجه عام فإن الأوضاع الاقتصادية في تونس في القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي حتى قبل فرض الحماية الفرنسية على تونس عام ١٢٩٨هـ/ ١٨٨١م كانت قد واجهت تدهوراً ملموساً على الرغم من محاولات البايات المصلحين أمثال حمودة باشا، وأحمد باي للنهوض بالاقتصاد. فقد كان التدهور أكبر من قدرة هؤلاء على الصمود، وخاصة في ظل المنافسة الأجنبية، وكان لذلك أثره السلبي في الصلات التجارية لتونس مع الحجاز، وجاءت الحماية الفرنسية لتسهم في تفاقم الأوضاع الاقتصادية في البلاد التونسية [٤].

(ب) في الحجاز :

تتشابه الأوضاع الاقتصادية في الحجاز مع أوضاع تونس من حيث قلة

---

(١) الإمام، مرجع سابق : ٢٩٧ .
(٢) المرجع نفسه : ٢٨٧ - ٢٩٥ .
(٣) شارل عيسوي، التاريخ الاقتصادي للشرق الأوسط وشمال أفريقيا، ترجمة سعد رحمي، (دار الحداثة لبنان، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م) : ٦٦ - ٦٧ .
(٤) الإمام، مرجع سابق : ٢٩٧ - ٢٩٨ .

المنتجات ولا سيما الزراعية منها، ومن حيث تركز التجارة في يد الأجانب .

وقد اتسم الحجاز من الناحية الزراعية بقلة الإنتاج نظرًا لقلة الأمطار؛ ولهذا كانت الزراعة في الحجاز ضعيفة [١]. ولكن توجد بعض المناطق الخصبة، وخاصة في المرتفعات مثل الطائف التي اشتهرت بوجود بساتين كثيرة فيها أنواع عديدة من المنتجات الزراعية كالتين الشوكي، والرمان، والعنب، والخوخ وغيرها [٢]، واشتهرت المدينة المنورة بزراعة النخيل الذي يوجد فيها بكثرة [٣]، كما أن وادي فاطمة وهو من أودية مكة المكرمة كان يعد من المناطق الخصبة لزراعة الفاكهة [٤]، كما انتشرت أشجار «الحنا» في الوديان[٥]. وبوجه عام فإن منتجات الحجاز كانت موسمية وأقل من احتياجات الولاية [٦].

أما من الناحية الصناعية فقد وجد بالحجاز بعض الحرف المحلية . من أشهرها صناعة السبح التي كانت تروج في موسم الحج، كذلك صناعة الهوادج (الشقادف) [٧]، وصناعة الأحذية، وصناعة الفخار إضافة إلى صناعة

---

(1) Al Amr, op. cit, p. 35.

(٢) ولايتي سالنامه سي ١٣٠١ : ١٣٥ .

(3) Al Amr, op. cit, P. 34-35.

(4) Ibid .

(٥) سالنامه الحجاز بالعربية، ١٣٠٣هـ : ١٩١ .

(6) Al Amr, op. cit, P. 35

(٧) جمع هودج، وهو نوع من أنواع المحامل التي توضع عادة فوق ظهر الجمل . وهو عبارة عن كرسيين متماثلين يشدان إلى الجمل ويعلو كل واحد منها قُبة على شكل نصف دائرة بحيث اذا رُبطا شكلا قبة دائرية كاملة ويمكن للراكب أن ينام فيه، كما يمكن أن يسع شخصين، كما أنه لا تصيب راكبه الشمس ولا المطر .
حمد الجاسر، الرحلة الحجازية، (مجلة العرب، الرياض، ع ١٠، ١١، س ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م)، ص ٨٥٨ . وأيضًا :
ابن سلم، مرجع سابق : ١٧٠ .

المجوهرات من الذهب والفضة. وقد وجدت في جدة عام ١٣٢٧هـ / ١٩٠٩م مطحنة للغلال كان يمتلكها أحد النصارى الأجانب [١].

وقد حظيت الحجاز بنشاط وافر في المجال التجاري، وكانت التجارة الداخلية تتم غالبًا بواسطة البدو الذين كانوا يتاجرون في التمور، والسمن، والأجبان فيبيعونها ويشترون مقابلها الحبوب، والملابس، والنحاس، كما يتاجرون في الإبل والغنم، والخيل الجيدة التي كانوا يجلبونها من نجد، كما كانوا يجلبون الحمير من الأحساء هذا في حين كان الحضر يتاجرون بالتمور على وجه الخصوص خاصة في المدينة المنورة التي تشتهر بتعدد أصنافه كما يتاجرون بالسجاد التي يستوردونها من فارس، وبغداد، والبصرة، وكذلك يتاجرون بالعباءات والنحاسيات [٢].

أما فيما يتعلق بالتجارة الخارجية فقد كانت جدة تعد مرفأ الحجاز التجاري الرئيس [٣]، وكان نشاطها التجاري يتمثل بقدوم السفن التجارية إليها من مختلف البلدان، والرسو في مينائها . وكان من أهم ما يتم الاتجار به في جدة البن، والأرز، والسكر، والقمح، والصمغ العربي، والعطور، وريش النعام، واللؤلؤ والمرجان، وغير ذلك من أنواع البضائع [٤] .

ومن جدة كانت مواد التجارة توزع إلى مناطق الحجاز الداخلية، وخاصة إلى مكة التي كانت تستوعب الكثير من تجارة جدة في موسم الحج

(١) البتنوني، مصدر سابق : ١ / ٩ .

(٢) رفعت، مصدر سابق : ١/ ٤٤٠ - ٤٤١ .

كانت جدة من المراكز المهمة لتجارة العبيد، وقد صدر قرار من السلطان العثماني (فرمان) في ١٢٧٢هـ/ ١٨٥٦م بإبطال تجارة الرقيق، غير أن تلك التجارة استمرت حتى العشرينيات من القرن الرابع عشر الهجري / السنوات العشر من القرن التاسع عشر الميلادي .
دحلان، مصدر سابق، تحليل : ٧٩، وأيضًا :

(3) Al Amr, op. cit, P. 27.

(٤) صبري، مصدر سابق : ٢ / ١٧٥ .

بالتحديد، إلا أن مكة كانت تعد أقل أهمية في التجارة من مدينة جدة. وكان التجار المسلمون يأتون إلى مكة من جميع أنحاء العالم، وهم يعلمون أن بإمكانهم تصريف بضائعهم مهما كثرت . ومن أهم البضائع التي كانت تروج في مكة القمح، والأرز، والفواكه المجففة والحناء، والسبح والملابس الحريرية والقطنية، وأغطية الرأس الحريرية، والذهب والأحجار الكريمة [١].

وكانت التجارة في المدينة المنورة تزدهر بشكل خاص في موسم الحج بالإضافة إلى موسم آخر هو شهر رجب [٢]، حيث يزداد زوارها خلال ذلك الشهر[٣] .

وقد وجد في الحجاز إضافة إلى المراكز التجارية الرئيسة (جدة، مكة، المدينة) مراكز أقل أهمية تقع على طريق الحجاج، ومنها الوجه وينبع . وتقع الوجه على طريق الحجاج المغادرين إلى مصر، وكان التمر هو أبرز المواد المتاجر بها في تلك المدينة، وكانت مدينة ينبع تُعَدُّ ميناء المدينة المنورة، وتستقبل التجارة القادمة إليها خاصة من موانئ الشاطئ الغربي للبحر الأحمر، واشتهرت مدينة ينبع بإنتاج التمور وتصديرها[٤].

(1) John Keane , Six Months in the Hejaz, Ward and Downey, London, (1887) P.291.

(٢) هذا الشهر فيه يومان لهما أهميتهما الخاصة عند أهالي الحجاز بوجه عام والمدينة بوجه خاص، ويسمى الشهر بـ (الرجبية)، ففي يوم الثاني عشر منه يقام احتفال كبير وتمتلئ المدينة بالزائرين. ويقول ك. سنوك هورخرونيه (مصدر سابق : ٢ / ١٤١) : إن الاهتمام بذلك اليوم يعود للاحتفال بالذكرى السنوية لمؤسس الطريقة السنوسية. بينما يقول محمد حسين زيدان ذكريات العهود الثلاثة، (مطابع الفرزدق، الرياض، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م) : ١٣٧ «لا أدري لماذا كان ذلك اليوم تمتلئ فيه المدينة بالزائرين من القبائل ومن مدن الحجاز». أما اليوم الثاني الذي له أهمية في الحجاز فهو ليلة السابع والعشرين منه الذي كان يتم فيها الاحتفال بالذكرى السنوية للإسراء والمعراج .
المصدر نفسه، الصفحة نفسها

(3) Al Amr, op. cit, P.30.

(4) Ibid.

ويشير إبراهيم رفعت [١] إلى أن تجار المدينة المنورة كانوا في غالبيتهم من غير أهل البلاد، من مصريين، وأتراك، وشوام، وهنود، وغيرهم، ويلي هؤلاء التجارُ المحليون، إلا أن محمد بيرم [٢] كان يرى أن التجارة في المدينة المنورة على وجه التحديد قد اقتصرت في الغالب على أهلها. أما غالبية التجار في مكة فكانوا هنودًا، بينما تعددت جنسيات التجارة في جدة، ويذكر صالح العمرو أن [٣] «الملحوظ أنَّ تجار مدن الحجاز لم يكونوا في غالبيتهم من أهل البلاد»، وهو الرأي الأرجح .

ثانيًا - التبادل التجاري بين تونس والحجاز :

(أ) وجوه النشاط التجاري بين البلدين :

كانت المبادلات التجارية بين ولايات الدولة العثمانية تتم بسهولة نظرًا لوقوعها تحت سلطة دولة واحدة هي الدولة العثمانية[٤]، وفيما يتعلق بالمبادلات بين بلاد المغرب العربي ومنها تونس، وبلاد المشرق العربي كمصر، وبلاد الشام، والعراق، وشبه الجزيرة العربية، فكانت تجري بواسطة القوافل البرية، والطرق البحرية [٥].

ولكن بوجه عام ظلت الصلات التجارية بين تونس وولايات المشرق حتى نهاية القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي محدودة نوعًا ما، غير أنه عندما تولى حمودة باشا (١١٩٦- ١٢٢٩هـ / ١٧٨٢ - ١٨١٤م)

---

(١) مصدر سابق : ١ / ٤٤١ .

(٢) بيرم، مصدر سابق : ٥ / ٢٠ .

(3) Al Amr, op. cit, P.30 .

(٤) صباغ، مرجع سابق : ١٨٦ .

(٥) عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم، العلاقات الاقتصادية والاجتماعية بين الولايات العربية إبان العصر العثماني (١٥١٧ - ١٧٩٨م) من خلال وثائق المحاكم الشرعية المصرية، (المجلة التاريخية المغربية، زغوان (تونس)، ع ٢٩ ٣٠، السنة العاشرة، ١٩٨٣م) : ٣٩٧ - ٣٩٨.

حكم البلاد عمل على تنشيط التجارة فيها فحدد الرسوم التي كانت تجبى على البضائع المستوردة من بلاد المشرق العربي بـ(٥٪) مقابل (١١٪) على البضائع التي كانت تستورد من البلاد الأوربية رغبة منه في تشجيع التجارة مع البلاد العربية، وقد نتج عن ذلك تنشيط التجارة مع موانئ المشرق مثل الإسكندرية، وإستانبول، وسالونيك، وإزمير وغيرها. وكان أعظم نشاط لتجارة تونس مع المشرق هو مع مصر عن طريق ميناء الإسكندرية[١]، ويعود ذلك إلى قرب تونس من مصر وموقع مصر التجاري المهم الذي يمكنها من أن تمارس التجارة مع وسط أفريقيا كما تمارسها مع بقية بلاد المشرق العربي، وخاصة الحجاز التي كانت ترد إليه البضائع من مختلف أنحاء العالم، هذا بالإضافة إلى تنوع المنتجات المصرية.

وقد شهد عهد حمودة باشا كذلك نشاطًا تجاريًّا مع الحجاز، فاستوردت تونس من الأسواق الحجازية على وجه الخصوص البن[٢]، غير أن المبادلات التجارية بين تونس والولايات العربية، ومن بينها الحجاز قد تراجعت بشكل واضح ابتداءً من النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي، وهناك من الأدلة ما يشير إلى أن تونس لم تكن من بين البلاد الرئيسة التي كانت تستورد منها جدة في تلك الفترة[٣]، ولعل ذلك يعود إلى تدهور الأوضاع الداخلية في تونس، وحدوث بعض الثورات، كان من أبرزها ثورة علي بن غذاهم عام ١٢٨١هـ/ ١٨٦٤م[٤]، وما تلاها من قحط وجفاف أصاب البلاد التونسية فيما بين عامي ١٢٨١-١٢٨٧هـ/ ١٨٦٤ - ١٨٧٠م. وزاد الأوضاع سوءًا كثرة الضرائب المفروضة على

(١) الإمام، مرجع سابق : ١٨٦، ٢٩٩ .
(٢) المرجع نفسه : ٢٩٨ .

(3) Al Shaafi Op. Cit, P 93-96

(٤) انظر الفصل الأول : ٥٠ .

السلع، وضعف المستوى الاقتصادي العام للشعب، وعدم استتباب الأمن، وقد أدى ذلك كله إلى ركود أحوال التجارة وتقلص أعداد التجار العرب.

ولا بد من الإشارة إلى أثر المزاحمة الأوربية في تدهور أحوال التجارة، ذلك أن التجارة في العصور الحديثة أصبحت تتطلب رؤوس أموال ضخمة لتوسيع المبادلات التجارية، كما اقتضت إنشاء الشركات الضخمة المساهمة، وهي أمور افتقر إليها أغلب التجار العرب المسلمين من أجل تنمية المبادلات التجارية فيما بين الولايات العربية [١].

وكان للأوضاع الخارجية مثل صدور قرارات مؤتمر إكس لاشابل عام ١٢٣٣هـ/١٨١٨م أكبر الأثر في عملية التبادل التجاري في تونس، كما أن الاحتلال الفرنسي للجزائر عام ١٢٤٦هـ / ١٨٣٠م، قد أثر في النشاط التجاري في تونس. بالإضافة إلى ذلك فإن انخفاض الحركة التجارية داخل الدولة العثمانية في تلك الفترة كان له أثره في نشاط تونس الاقتصادي، فقد تولى الأوربيون نتيجة لضعف الدولة العثمانية زمام المبادرة في تجارة الدولة العثمانية الخارجية [٢].

وفي تونس ساعدهم على ذلك الوضع الاقتصادي المتردي والمتأثر بعاملين هما: ضغوط السوق العالمي من جهة، ورغبة الحكام في إيجاد بنية اقتصادية قادرة على تحديث الولاية من جهة أخرى. وقد أسهم السوق العالمي من خلال زيادة مكثفة في الطلب بشكل متصاعد على تردي الوضع الاقتصادي في تونس، ذلك أن دول أوربا الصناعية كانت سوقًا نهمًا للمواد الخام القادمة من الولايات العربية، ومن بينها تونس[٣]، ومن ثم خضعت تلك

(١) مزالي، مرجع سابق: لصفحات ٩٢ : ١١٢ - ١١٣.

(٢) عيسوي، مرجع سابق: ٣٤٦ - ٣٤٧.

(3) Brown and Black , Modernization. P. 73-74.

الولايات لتقلبات التجارة العالمية، ولتحكم الأوربيين في بعض سلعها [١]. أضيف إلى هذا كله تنوع النقد الأوربي المستخدم في الأسواق، والتلاعب في قيمته وتزييفه.

وبوجه عام كان لضعف الدولة العثمانية وتغلغل الأوربيين الاقتصادي والعسكري في مقدرات العالم العربي الإسلامي أثر بالغ في اقتصاد الولايات العربية ومنها تونس، ومن ثم في المبادلات التجارية فيما بينها. ويُمثَّل على ذلك أنه قد «تراجعت الملاحة العربية في ميناء جدة باطراد طيلة السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر الميلادي الثالث عشر الهجري، وفي السنوات الأولى من القرن العشرين الميلادي (الرابع عشر الهجري) كانت الصورة تبدو مفزعة ومخيبة للآمال».

لم يكن هذا يعني انقطاع سبل التجارة بين تونس والحجاز، فقد وردت إشارات يسيرة دلت على وجود نشاط تجاري فيما بينهما في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي. من ذلك ما أشارت إليه إحدى الوثائق الحجازية[٢] عن توجه عدد من تجار تونس إلى الحجاز بهدف التجارة، ومنهم التاجر محمد بن الأمين . كما أشير في إحدى المخطوطات الحجازية[٣] إلى أن الشريف عبدالله بن محمد بن عون (١٢٧٤ - ١٢٩٤هـ/ ١٨٥٨- ١٨٧٧م) هو الذي أمر بجلب التين الشوكي[٤] المسمى في تونس بالهندي من تونس وزرعه في الطائف وما

---

(١) صباغ، مرجع سابق : ١٩ .

(٢) أ، و، ت، س، ت، ك ٦٥، م ٧٨٧، ق : ٣٠، رسالة بالتركية من عثمان باشا شيخ الحرم النبوي إلى والي تونس المشير أحمد باشا باي في ٥/ ٢/ ١٢٥٦هـ الموافق ٧/ ٤/ ١٨٤٠م .

(٣) محمد بن أحمد الصباغ، تحصيل المرام في أخبار البيت الحرام، مخطوط بمكتبة الحرم المكي، مكة المكرمة برقم ١١ دهلوي (ميكروفيلم)، تاريخ النسخ ١٣٢٠هـ/ ١٩٠٢م : ٢٠٤ .

(٤) نوع من الغلال غزير الأشواك تكثر زراعته في تونس ويتميز بتحمل الجفاف.
القاسمي، مرجع سابق : ٢٦ .

زالت الطائف تشتـهر بإنتاجه حـتى اليوم، وأشارت سالنامـة الحجاز[١] إلى وجود نوع من التين المغربي واسمه برشومي بكثرة في الطائف [٢]، وأشارت إحدى الوثائق التونسية [٣] إلى أن أهالي الحجاز كانوا يحتاجون إلى بعض المنتجـات التونسيـة التي يعرفون جـودتها، فـقد بعث حسن خـير الله من الحـجـاز خطاباً إلى والي تونس المشـيـر مـحمـد الصـادق باشـا باي في ٢٥/٨/١٢٩٦هـ الموافق١٣/٨/ ١٨٧٩م ذكر فيه: «أن بالمدينة المنورة في قبة أهل البـيت الطاهرين بالبقـيع الشريف الدربزون المحـيط بالقـبور الشريـفة مصنوع من الأخشاب النفيسة . . ومع دور الأعوام . . زال عنه ما كان من الدهن والرونق، واحتيج إلى دهان جديد يزيده رونقـاً وبهجة، ويصونه من التآكل والتساقط . . وذكر لنا أحـد النجارين الموجودين عندنا . . أنه خرج بتونس دهان جـديد مركب من زيت الكتـان وتراب يأتي من ناحيـة إيطاليا وأنه هو المناسب لذلك . . فـاقتـضى الحـال إلى جلب شيء من ذلك . . فخصصنا حضرتكم بقضاء هذه الخدمة الشريفة. .». كما أورد أيوب صبري في كتابه «مـرآة جزيرة العرب» [٤] أن «مجموعـة من أهالي جدة يمارسون التجارة مع . . بلاد المغرب». ومع أن المؤلف لم يخص تونس بالذكر، ولم تكن تونس من بين البلاد الرئيسة التي كـانت تستورد جدة منها في النصف الثاني من القرن الثـالث عشر الهجري/ التاسع عـشر الميلادي، إلا أنه ربما تكون تونس من بين بلاد المغرب التي كان يتم التعامل التجاري معها؛ نظراً لأن تونس هي أقرب بلاد المغـرب إلى الحجاز، وبالإضافـة إلى أن الحجاز كان يستورد الزيتون من مصر عبر السويس [٥]،وكانت تونس تشتهر بإنتاجه

(١) ولايتي سالنامه سي، ١٣٠١هـ : ١٣٥ .

(٢) المصدر نفسه، الصفحة نفسها .

(٣) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٩٠، ق : بدون، خطاب من حسن خيـر الله إلى المشير محمد الصادق باشا باي في ٢٥/٨/١٢٩٦هـ الموافق ١٣/٨/١٨٧٩م .

(٤) جـ ٢/ ١٧٤ .

(5) Al Shaafi Op. Cit, P. 93-96.

بكثـرة وتقوم بتـصديره إلى مـصر[١] وهي غيـر منتجـة للزيتون [٢]، ومن الإشارات التي توحي بوجود صلات تجارية بـين البلدين في الفترة موضوع الدراسة مـا ذكره محـمد بن عثـمان السنوسي [٣] عن بعض التونسيين في مكة: «رأيت من الواردين للحج تـهافـتًا على شراء مـا لايحتـاجون إليـه وتعللوا فيـه بأنهم يريدون منه التجـارة لما وجدوا عليه من تنازل الأسـعار، وربما هذا الشره حملهم على التفريط فيما بين أيديهم من المال. . . » .

ولا بد من التنويه إلى أن الحركة التجارية بين تونس والحجاز كانت تزداد نشاطًا خلال مواسم الحج التي تشهد تجمـعًا إسلاميًا ضخمًا يتيح المجال لازدياد الأنشطة التجارية.

(ب) دور الحج وطرقه في تعزيز التعامل التجاري بين البلدين :

كانت الطـرق التي يسلكهـا الحجاج التونسيون في طريقـهم إلى الحجاز تتبع الخطوط الطبيعـية، آخذة أسهل طريق حول الصخور أو فـوقها، أو كتل الرمال، أو الأودية الصغيرة، وينحدر مسار تلك الطرق حسب وجود المياه . وبعض هذه الطرق كانت تسمى طرقًا تجارية، وغيرها تسمى طرق حج، ولا يمكن أن يكون هناك تمييـز واضح بين النوعين لمعرفة أي منهما يسـتخدم لأي الغرضين، والفـرق بينهمـا هو الخلفية التـاريخيـة، والمقصود بهـا قدَم طرق التجارة بالقياس لطرق الحج التي حُددت في العهد الإسلامي [٤] .

ويمكن أن تصنف طـرق الحجـاز إلى نموذجين الأول: يـتكون من الطرق التي تربط الحجـاز بالولايات المجاورة، مثل مـصر، وسوريا في الشـمال،

(١) عبدالرحيم، مرجع سابق : ٤٠٢ .
(٢) عيسوي، مرجع سابق : ٦٠- ٦١ .
(٣) الرحلة : ٢ / ١٧٨ .

(4) Al Shaafi Op. Cit, P . 40.

واليـمن في الجنوب، ونجد في الشـرق، وهي طرق عرف أنهـا طرق حج وتجارة [١]. والنوع الثـاني: يتكون من الطرق المعروفـة بطرق الحج، وتربط مكة بالمدينة [٢]، وهي أربعة [٣] أهمهـا : الطريق السلطاني الذي يمتد عـبر الأماكن الآتية: وادي فاطمة، عسفان، خليص، القضيمة، رابغ، مستورة، بئر الشيخ، بئـر بني حصاني، بئر عبـاس، بئر درويش، آبار علي، المدينة. والطريق الفـرعي يبتدئ من رابغ مـتجـهـًا إلى الشمال الشـرقي، ويمر على المحطات الآتيـة: وادي حرشـان، بئر رضـوان، أبو ضبـاع، وادي الريان، الغدير، بئر الماشي، آبار علي، المدينة.

أمـا الطريق الثالث فـهـو طريق الغاير، أو الطـريق المدني، ويبتـدئ من رابغ، ويمر بمحطات عدة منها: «بئر مبيرك، وجبل الغاير، ثم بئر الماشي»، حـيث يلتقـي هناك مع الطريق الفـرعي. وطريق الغايـر هو أقصـر الطرق الحجيـة إذ يستغرق خمسـة أيام فقط من رابغ إلى المدينة [٤]،بينما يستغرق غيـره من الطرق من رابغ إلى المدينة مدة تزيد على سبـعة أيام [٥]، غير أن

(١) عمل كثير من التجار المسلمين على الانضمام لـقوافل الحج الضخمة التي كانت تشرف عليها الحكومة العـثمانية، وتهـتم بأمنها وسلامتـها من هجمات البـدو، وكان التجار خشـية قطاع الطرق، وعدم اسـتتـباب الأمن يلجـؤون إلى إعداد القوافل الكـبيرة المشـتركـة، ويزودونها بالحراس، وقد يصل حجم بعضها إلى سـتة آلاف جمل، وأدت تلك القوافل دورًا مهمـًا في عملية التـبادل التجاري، فكان كثـير من التجار يرافقـونها، ويحملون معهم بضـائعهم حيث يبيعونها في الحجاز، ويشترون حاجـاتهم من البضائع التي ترد إلى الحجاز من أماكن متفرقة. وكذلـك كانوا يقـومون بالمبـادلات التجـارية في الأسواق التي يمرون عليـها أثناء طريقـهم. ويشجعهم على ذلك إعفاء البضائع المحملة من قبل الحجاج من الرسوم الضريبية .
عبدالرحيم، مرجع سابق : ٣٩٧، ٤٠٩، وأيضـًا :
صباغ، مرجع سابق : ١٨٧ .

(2) Al Amr, Op. Cit, P.40.

(٣) انظر طرق الحج في الحـجاز في القرن الثـالث عشـر الهجري / التـاسع عشـر الميلادي في الملحقات خريطة رقم ٥ .

(٤) انظر : رفعت، مصدر سابق : ١/ ٣٧٩ .

(٥) المصدر نفسه : ٢ / ١٤٠ .

هذا الطريق (الغاير) يختلف عن غيره من طرق الحج بوعورته وضيقه بحيث إن أكثر سالكيه هم من المشاة الذين يترددون بين مكة والمدينة[١].

وسالك الطريق الشرقي يخرج من مكة من باب المعلى، ويتجه إلى البياضية، ثم يسير في شمال طريق منى، ويتجه إلى الشرق، ويسير عبر محطات عدة أهمها: بئر البارود، وادي الليمون، الضريبة، وادي البركة، الضيعة، الصفينة، السويرقية، الحجرية، غرابة، الغدير، المدينة المنورة [٢].

وكان معظم الحجاج التونسيين يخرجون من ميناء تونس متجهين إلى ميناء الإسكندرية في مصر. في حين أن بعضاً منهم كان يصل إلى الإسكندرية براً سالكاً الطريق الموازي للساحل[٣]، ويتجه الجميع بعد ذلك براً من الإسكندرية إلى القاهرة[٤]، حيث يجتمع هناك حجاج المغرب العربي قبل شهر شوال، وبعد الاجتماع تنطلق قافلة الحج المغربي من القاهرة إلى الحجاز برفقة قافلة محمل الحج المصري التي تنطلق في نهاية شهر شوال من كل عام، وقد ينطلق الركب المغربي بمفرده قبل خروج قافلة المحمل المصري، أو بعده بقليل [٥].

وتتجه قافلة الحج المصري في موكب كبير إلى بركة الحاج خارج القاهرة تجاه السويس، حيث يقام هناك احتفال كبير تسلم فيه الصرة لأمير الحج المصري، وتقيم القوافل هناك مدة خمسة أيام لتفقد أحوال الحجاج، وكتابة أسمائهم، وتنظيم أمورهم، ثم يبدأ المسير باتجاه مكة، ويسلك الحجاج إليها

---

(١) المصدر نفسه، الجزء نفسه : ١٤٣ .

(٢) البتنوني، مصدر سابق : ٢١٠ - ٢١١ .

(٣) السيد محمد الدقن، سكة حديد الحجاز الحميدية، دراسة وثائقية، (مطبعة الجبلاوي، القاهرة، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م) : ٤٨ .

(٤) بيرم، مصدر سابق : ٤ / ٨٢ - ٨٣ .

(٥) الدقن، مرجع سابق : ٤٧ - ٤٨ .

طريقًا عرف بالدرب المصري[١] وهو أقرب ما يكون إلى البحر، ويفضل لكونه أقصر الطرق على الرغم من أن أرضه قاحلة. ويمر ركب الحج إلى مكة من هذا الدرب عبر مراحل منها [٢] بركة الحاج، عجرود، الناطورة، علوة المنصرف، نخل، بئر قريص، العقبة، الشرفا، مغاير شعيب، عيون القصب، المويلح، سلمى، ضباء، الأزلم، إسطبل عنتر، الوجه، عكرة، الحنك، الحوره، خضيرة، ينبع، مستورة، رابغ، ومن هناك يسلك الطريق السلطاني الذي هو أفضل الطرق وأكثرها أمنًا [٣].

وكانت المسافة من تونس إلى القاهرة عن طريق ميناء الإسكندرية تستغرق ست ليالٍ وثلاث ساعات ونصف الساعة [٤].

أما المسافة من القاهرة إلى مكة المكرمة عن طريق البر فقد قدرها البتنوني[٥] بقوله: «على حساب أن الجمل يقطع في الساعة الواحدة (٧) كيلو مترات تكون المسافة ألفًا وأربع مئة كيلو متر تقريباً، كان الحجاج يقطعونها في نحو أربعين يومًا على الأقل».

واستمر استخدام الحجاج - التجار - المغاربة بما فيهم التونسيون لهذا الطريق البري إلى أن ظهر تطور في نظام المواصلات.

فقد حصلت بريطانيا عام ١٢٦٨هـ/ ١٨٥١م على امتياز بناء خط السكة

---

(١) أحمد الرشيدي، حسن الصفا الابتهاج بذكر من ولي إمارة الحاج، تحقيق ليلى عبد اللطيف أحمد، (مكتبة الخانجي، مصر، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م)، الفصل الأول (بقلم ابنه): ٣٢ ٤٧

(٢) انظر درب الحجاج التونسيين عبر مصر في الملحقات في خريطة ٦.

(٣) البتنوني، مصدر سابق: ٣٣ - ٣٤.

(٤) الولاتي، مصدر سابق: ٢٧٣.

(٥) مصدر سابق: ٣٧.

الحديدية[١] من الإسكندرية إلى القاهرة، ومنها إلى السويس، وأصبح بإمكان التونسيين بعد عام ١٢٧٢هـ/ ١٨٥٦م استخدام السكة الحديدية من الإسكندرية إلى القاهرة، ومنها إلى ميناء السويس وبعد ذلك ينتقلون على متن البواخر إلى ميناء جدة [٢] .

وحصل تطور آخر في نظام المواصلات حينما تم افتتاح قناة السويس عام ١٢٨٦هـ/ ١٨٦٩م، فأخذ الحجاج يتجهون من تونس إلى ميناء بورسعيد، وبعدها يتجهون بالسفن عبر قناة السويس إلى ميناء السويس ومنه إلى جدة[٣] .

وكانت غالبية الحجاج المغاربة بما فيهم التونسيون يستخدمون في طريق عودتهم من الحجاز الطريق البحري، فكانوا بعد أداء فريضة الحج يتجهون إلى المدينة المنورة إما براً عن طريق مكة المكرمة، وإما بحراً عن طريق جدة - ينبع، ومنها براً إلى المدينة ويعودون بعد ذلك إلى ينبع، ومنها يستقلون البواخر عبر قناة السويس إلى الإسكندرية، ومنها إلى بلادهم [٤] .

وكان بعض الحجاج التونسيين يرغبون في مصاحبة محمل الحج الشامي

---

(١) أنشئ هذا الخط بطلب بريطاني لتسريع حركة النقل على طريق الهند - البحر المتوسط، وتم على يد مهندسين بريطانيين، ولكن كما جرى بالنسبة لخطوط السكك الحديدية في مصر فقد موّل من قبل الحكومة المصرية .
الدقن، مرجع سابق : ٣٧ .

Brown and Black , Modernization, P.89.

(2) Ibid.

(٣) الولاتي، مصدر سابق : ١٦٧ - ٢٧٣

(4) A.N.T,S : A, Car 276, Dos 5 F44 .

خطاب من وزير الخارجية الفرنسية إلى المقيم العام في تونس بتاريخ ٦/ ٢/ ١٣٣١هـ الموافق ١٤/ ١/ ١٩١٣م مرفق به مذكرة شركة خطوط سكة حديد دمشق / حماة بعنوان «مذكرة بشأن حجاج: تونس، والجزائر، والمغرب الأقصى إلى مكة».

في طريق العـودة وكـان هذا ينطلق من المدينة المـنورة تجـاه دمـشق عـبـر محطات[١] بئر عثمان بئر جابر، آبار نصيف، القبلتين، هدية، البئر الجديد، الزمردة، قلعة المدائن، بركة المعظم، وادي الأخضـر، تبوك، قاع الصغير، ذات الحج، المدورة، بطن الغول، ظهر العقبة، مـعان، عنيزة، قلعة الحسا، قلعة قطرانة، وادي الزرقـاء، المفرق، المزيريب، أذرع، غبـاغب، الكسوة، دمشق[٢]. ويقطع الحاج عبـر هذا الطريق مسافة تقـدر بـ «ألف وثلاث مئة وكيلين» تقطعها الجمال في مدة لا تقل عن شهر[٣].

وقـد بـدأ مـشـروع إقـامـة خـط سكة حـديد الحـجـاز في عـام ١٣١٨هـ/ ١٩٠٠م منطلقًا من دمـشق واكـتمل علـى أربع مراحل انتـهت المرحلة الأخيـرة منه عند المدينة المنورة[٤] في عام ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م بطول بلغ ألفًا وثلاث مئـة وعشرين كيلو مـتراً[٥]. وكان لهذا الخط أهـمية في تقصـير مدة السـفر بين المدينة ودمشق فـقد أصبح بإمكان مـستخـدمه قطع المسـافـة من المديـنة إلى دمـشق في أربعـة أيام مع الـوقـوف في المحطات الفرعية[٦].

وقد رأى محـمد البتنوني[٧] أن الحجاج المغاربة أخذوا يـستخدمون خط حديد الحـجاز على الرغم من قلة عـددهم خمسـون عائلة من مـصريين، وشوام، وأتراك، ومـغاربة، إلا أن السلطات الفرنسـية عمدت إلى تشـجيع

(١) انظر درب الحجاج التونسيين من الحجاز عبر الشام إلى تونس في الملحقات، خريطة : ٦ .
(٢) السنوسي، الرحلة : ٢ / ٢١٨ - ٣٠٤ .
(٣) سيد عبدالمجيد بكر، الملامح الجغرافية لدروب الحجيج، (تهامة، جدة)، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م : ٢١١.
(٤) انظر خط سكة حديد الحجاز من دمشق إلى المدينة في الملحقات، خريطة ٦ .
(٥) الدقن، مرجع سابق : ٩١ - ٩٢ .
(٦) المهندس، مرجع سابق : ٩١ - ٩٢ .
(٧) مصدر سابق : ٣١٢ .

الحجاج المغاربة، ومن ضمنهم التونسيون، على استخدام خط سكة حديد الحجاز وذلك بإبراز مزاياه .

وأشارت مذكرة فرنسية [١] إلى أن طريق العودة مثلاً من المدينة إلى ينبع باتجاه البحر الأحمر يستغرق مدة ثمانية عشر يومًا بينما الطريق من المدينة عبر سكة حديد الحجاز إلى دمشق عبر الخط الحديدي دمشق - رياق - بيروت حيث تقل البواخر الحجاج المغاربة إلى بلادهم لا يستغرق سوى ستة عشر يومًا ونصف اليوم .

وترى المذكرة الفرنسية ذاتها أن استخدام الخط الحديدي يجنب الحجاج مشاق الطريق البري الذي يربط بين المدينة المنورة وينبع، كما يجنبهم مخاطر اعتداءات البدو. وتصف المذكرة أن استخدام الخط سوف يتيح للتونسيين زيارة دمشق وجوامعها التي يعلق عليها الحجاج التونسيون أهمية كبرى، كما أن ميناء بيروت يتميز عن ميناء ينبع بصلاحيته لرسو السفن قرب الساحل هذا في حين أن السفن تقف في ميناء ينبع على بعد عدة كيلو مترات من الساحل .

مع ذلك فقد أشارت المذكرة الفرنسية إلى إحدى سلبيات استخدام طريق سكة حديد الحجاز . وهي زيادة نفقات الحجاج بمقدار واحد وأربعين ريالاً، أي ما يعادل عشرة فرنكات، ولكن هذا الفارق في رأي المذكرة ضئيل مقارنة بالمزايا، وأنه بالإمكان اعتماد تسعيرة مخفضة على البواخر تخفف العبء المادي على الحجاج، وتشجعهم على استخدام هذا الطريق.

---

(1) A.N.T,S : A, Car 276, bis, Dos, 5 F44.

خطاب من وزير الخارجية الفرنسية إلى المقيم العام في تونس بتاريخ ٦/ ٢/ ١٣٣١هـ الموافق ١٤/ ١/ ١٩١٣م مرفق به مذكرة شركة خطوط سكة حديد دمشق / حماة بعنوان «مذكرة بشأن حجاج تونس والجزائر والمغرب الأقصى إلى مكة».

ولا بد من التنويه إلى أن السلطات الفرنسية لم تضع في حسبانها مصلحة الحجاج بقدر ما اهتمت بالعوائد المادية التي سوف تجنيها من استخدام الحجاج لهذا الطريق؛ خاصة وأن شركات الملاحة التي ستتولى نقل الحجاج من بيروت إلى تونس عبر البحر المتوسط هي شركات أوربية، وبالمقابل كانت ولاية الحجاز تجني فوائد مادية خلال مواسم الحج التي يمكن عدها كذلك مواسم تجارة، وكان جميع الحجاج ومنهم التونسيون يُكَلَّفُون بدفع ما يعرف بـ «أداء الحجر الصحي» (الكورنتينة) إلى المصلحة الصحية وقدره حوالي ريال واحد [١] [٢] .

كما كان يطلب من كل حاج دفع مبلغ ريالين رسم الدخول «الجمرك»[٣]، وكذلك كان على الحاج حين استخدامه وسيلة النقل وهي الإبل في الغالب دفع مبلغ من المال على أنه نوع من الضريبة، فمثلاً كان يؤخذ عن كل جمل يخرج من جدة محملاً إلى مكة ستة قروش ونصف منها أربعة قروش ونصف لخزينة الدولة، والباقي لخزينة الإمارة، وقد تضاعف المبلغ المأخوذ من الحجاج بخصوص استئجار الجمال منذ عام ١٣١١هـ/ ١٨٩٣م [٤].

وكانت الفوائد المادية التي تعود على إدارة الحجاز من الحجاج تزداد في الأعوام التي يكثر فيها أعداد الحجاج. أما بالنسبة للتونسيين كانت هذه الأعداد تختلف من عام إلى آخر، ويتحكم في ذلك أمور عدة منها : الوضع الاقتصادي في تونس، فلم تكن أعداد الحجاج التونسيين في أوقات

---

(١) انظر ما يعادله من القروش في : ١٩٨ من هذا الفصل .

(2) Al Shaafi Op. Cit, P. 40.

(٣) بيرم، مصدر سابق : ١٣٦ .

(٤) صحيفة الزهرة، ع ١٩٤، س ٥، في ٢٥/ ١/ ١٣١١هـ الموافق ٧/ ٨/ ١٨٩٣م .

الشدة تتجاوز المئة، وقد تتجاوز أعدادهم في أعوام الرخاء الألفين[١]. كذلك حينما تكون الأوضاع في الحجاز غير ملائمة لسفر الحجاج كاكتشاف مبكر لوجود وباء الكوليرا بين الحجاج تصدر السلطات في تونس قرارًا بحظر السفر إلى مكة[٢]. كان القليل منهم يسافر خفية، أو تحت أعذار وهمية[٣]، وقد يزيد عدد الحجاج في الأعوام التي يتوقع أن يوافق فيها يوم عرفة يوم الجمعة كما حدث في موسم عام ١٣٠٣هـ/١٨٨٦م، وهو ما أشارت إليه صحيفة «الرائد التونسي[٤]». قد كثر في هذه السنة ١٣٠٣هـ المسافرون للحج بوجه لم يسبق له مثيل في السنين الماضية؛ وذلك لنيل بركات حجة الجمعة، وقد سافر في ١٠ رمضان ١١/٦/١٨٨٦م عدد عظيم منهم، وفي الخامس من شوال (٦/٧/١٨٨٦م) سيذهب وفد ثالث " . ولو قدرت أعداد الحجاج التونسيين بألفين في سنوات الرخاء فهذا يعني أن إمارة مكة كانت تتلقى من التونسيين حوالي ألفي ريال أداء الحجر الصحي، وحوالي أربعة آلاف ريال تدفع لإدارة الجمارك. هذا عدا رسوم وسائل النقل الداخلية السابق ذكرها .

وكما أن موسم الحج كان يعد موردًا اقتصاديًا مهمًا لولاية الحجاز فإنه يأتي بالفوائد للأهالي إذ تنشط الصناعات المحلية، ويتضاعف إنتاجها استعدادًا لهذا الموسم[٥].

---

(١) صحيفة الحاضرة، ع ٢٥٣، س ٦ في ٢٧/٢/١٣١٠هـ الموافق ١١/٧/١٨٩٣م ،

A.N.T,S : A, Car 276, bis, Dos, 5 F44.

تقرير باللغة الفرنسية عن مشروع قانون الحكومة الفرنسية الهادف إلى إنشاء فندقين بالمدينة ومكة، (بدون تاريخ)، ويرجح أنه عام ١٣٣٣هـ / ١٩١٤م .

(2) A.Q.D, N.S, Car 128 , Dos 2 , F246, (B:46)

خطاب من وزير الداخلية في باريس إلى وزير الشؤون الخارجية في ١٨/١٢/١٣٠٧هـ الموافق ٤/٨/١٨٩٠م.

(٣) انظر الفصل الرابع : ٣٣٠ .

(٤) ع ٣٩، س ٢٧، في ٢٧/٩/١٣٠٣هـ الموافق ١٨/٦/١٨٨٦م .

(٥) كردي، مرجع سابق : ١٢٧/٢ .

وكذلك فإن تلبية حاجات الحجاج الوافدين إلى الحجاز وبقاءهم فيه شهوراً عدة كان يقتضي تأمين متطلبات هؤلاء الحجاج، وذلك باستيراد كميات كبيرة من المواد الغذائية والبضائع الضرورية [١] ، ويزداد في هذا الموسم حجم التبادل التجاري وذلك لأن بعض الحجاج القادمين لأداء فريضة الحج كانوا لا يجلبون معهم المال فقط لتأمين عيشهم خلال إقامتهم، وإنما غالبًا ما يجلبون معهم بضائع لبيعها في الحجاز كما قد يشترون من البضائع المتوافرة فيه سواء المنتجة محليًّا: كالتمور [٢] أو السبح، أو الأحذية، أم المستوردة : كالبن، والسجاد، وغيرهما، وذلك بهدف الاتجار بهذه البضائع، أو إهدائها كالتمر، أو ماء زمزم أو بعض الكتب [٣]. هذا بالإضافة إلى أن بعض الحجاج كانوا عند قدومهم إلى الحجاز يجلبون معهم النقود الذهبية التي يحولونها إلى عملات فضية فيستفيد الصيارفة من هذه العملية[٤].

وقد بالغ المقيم العام الفرنسي في تونس في رسالته إلى وزير الشؤون الخارجية في باريس في ١٩/ ٥/ ١٣٠٣هـ الموافق ٢٢/ ٢/ ١٨٨٦م في أهمية التجارة بالنسبة للحجاج التونسيين، فزعم [٥] «أن المكاسب التجارية تحتل في

---

(1) Al Shaafi Op. Cit, PP. 187-190.

(٢) محمد كامل بن نعمان، جزيرة العرب دائرة معلومات، (مكتبة إستانبول، مخطوط برقم ٤٤٣٢، نسخ عام ١٣١٢هـ/ ١٨٩٤م) : ١٨ .

(٣) من الكتب التي حملها أحد التونسيين من الحجاز: كتاب شرح القسطلاني لصحيح البخاري، في خمسة أجزاء، وكتاب وفيات الأعيان لابن خلكان، وكتاب مقدمة ابن خلدون.
أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨٨، ق : ٤٢، ٢١، خطاب من محمد بدر الدين إلى الوزير الأكبر مصطفى خزنة دار في ١/ ٧/ ١٢٧٨هـ الموافق ١/ ١/ ١٨٦٢م بخصوص وصول الكتب المرسلة إليه من مكة بصحبة الحاج حامد التونسي .

(4) Al Shaafi Op. Cit, P .187-190.

(5) Les Archives Du QuaiD'orsay, Nouveau serie, Tunisian 1882-1919, Cart 127 Dossier I,folio 2 (Bobine 46).

نفوس الحجاج التونسيين نفس المنزلة التي تحتلها المشاعر الدينية»[١]، ولا شك أن التقلب في تدفق حركة الحجاج كان له تأثيره في الحركة التجارية صعودًا أو هبوطًا، ومثال على ذلك أن صادرات الجلود التي كان لجدة أكثر من نصف مجموعها عام ١٣١١هـ/١٨٩٣م كانت تعتمد كليًّا على الحجاج إذ كلما كثر عددهم كثرت الأضاحي التي تذبح في منى، ومن ثم زادت كمية الجلود المصدرة[٢] .

ومن فوائد قدوم الحجاج كذلك ومنهم التونسيون توفير فرص عمل للكثيرين من أهل الحجاز الذين هم بحاجة إلى العمل، كالحمالين، والجمالين الذين يكسبون عيشهم بصفة مباشرة أو غير مباشرة من الحج[٣]، وكذلك يستفيد البدو في موسم الحج الذي تستخدم فيه الحيوانات بشكل كبير سواء في الأضاحي، أم في وسائل النقل .

وتُعَدُّ فئة المطوفين في مكة والمزورين في المدينة المنورة أكثر الفئات العاملة في خدمة الحجاج استفادة، والمطوف كما يصفه الأمير شكيب أرسلان[٤]

= خطاب من الإقامة الفرنسية بتونس إلى وزير الشؤون الخارجية بباريس في ١٩/ ٥/ ١٣٠٣هـ الموافق ٢٢/ ٢/ ١٨٨٦م . وثائق أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية (نسخة مايكروفيلم في المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية) وسيرمز لهذه الوثائق فيما بعد بـ :, A.Q.D, N.S, Car 128 Dos 2 , F246, (B:46)

(١) مما لا شك فيه أنه مهما وصلت أهمية التجارة بالنسبة للتونسيين فلا يمكن أن ترقى إلى مستوى المشاعر الدينية التي يحملها المسلمون في تونس وغيرها تجاه الحج، والحرص على أدائه على الرغم من المشاق والصعوبات الجمة التي كانوا يواجهونها . بل إن عددًا من فقراء المغاربة كانوا يحرصون على الحج دون النظر إلى فقرهم واحتياجهم .
انظر : شاكر، حجازك أحوال عمومية وصحية وإصلاحات أساسية وحاضرة سيله برابر بعض مشاهدات وملاحظات بندكانيئ حاوي بر لائحة طبي، (مكتبة جامعة إستانبول، إستانبول، مخطوط برقم ٤٦٠٩ عام ١٣٠٨هـ) : ٣٢٢ .

(2) Al Shaafi Op. Cit, P .P 188,190 .

(3) Ibid, P. 188.

(٤) أرسلان، مرجع سابق : ٧٤ .

يكاد يكون كالجمل في الحج لا يستطاع الحج بدونه . يأتي إلى السفينة بمجرد أن تلقي أنجرها (مراسيها) في بحر جدة فيأخذ حاجه بيده ويضع له حوائجه في الزورق، ويأتي به إلى الميناء، ويخرجه إلى البر، ويخلص له معاملة تذكرة المرور، ومعاملة المكس (الضريبة)، وليستا بالشيء الهين نظرًا للزحام، ولما يجب على إدارة التذاكر وإدارة الجمرك من التدقيق، ثم إذا أراد الحاج أن يستريح في جدة بيّته المطوف فيها، وأركبه ثاني يوم جملاً في شقدف (هودج)، وسار به وبغيره من أمثاله، وقد حمل لهم زادهم وماءهم وكل شيء، وأوصلهم إلى مكة وافرين آمنين .

وبمجرد وصول الحاج إلى البلد الحرام يأخذ المطوف بيده إلى الحرم، فيطوف به سبعًا حول البيت العتيق، ثم يسعى به سبعًا بين الصفا والمروة .. ويعلمه جميع أصول الحج .. ويلخص الأمير شكيب أرسلان مهمة المطوف بقوله : «هو الذي يكفل جميع حاج الحاج وأغراضه منذ يطأ رصيف جدة إلى أن يطأ سلم الباخرة قافلاً فيحمله إلى مكة، ثم إلى عرفة، ثم إلى المزدلفة، ثم إلى منى، ثم يعود به إلى مكة، وإذا أراد الزيارة هيأ له جميع أسباب السفر إلى المدينة وهناك سلمه إلى المزور الذي هو صاحب هذه المصلحة في المدينة».

وكان يتعين على كل واحد من الحجاج في الغالب أن يدفع للمطوف أو المزور جنيهًا واحدًا (عثمانيًّا)، وقد يدفع بعض الحجاج جنيهات كثيرة، وبعضهم قد يتعذر عليه دفع الجنيه الواحد، أو قد لا يبقى لديه إلا ما يكفيه للعودة فيضطر المطوف أو المزور للرضا بنصف الجنيه، أو قد لا يأخذ منه شيئًا [١].

---

(١) المرجع نفسه : ٧٧ - ٧٨ .

ولكن بوجه عام ونظرًا لاستفادة المطوفين والمزورين من موسم الحج فإنهم قد يتوجهون خارج البلاد لتشجيع قدوم الحجاج إلى الحجاز وتسهيله ويُمثَّل على ذلك بما أشارت إليه إحدى الوثائق الفرنسية [١] بأن عددًا من المطوفين غادر جدة عام ١٣١٧هـ/ ١٨٩٩م للتوجه إلى كل من تونس والجزائر من أجل تشجيع أهاليهما على الحج، وأثار ذلك قلق السلطات الفرنسية، ووجهت تعليماتها إلى المسؤولين المحليين في كلا البلدين للحيلولة دون السماح لهؤلاء المطوفين بالقيام بما عدته تلك السلطات «تعبئة المشاعر الدينية للمسلمين» .

(ج) النقد المتداول في تونس والحجاز :

كانت العملة العثمانية المضروبة في إستانبول باسم السلطان العثماني هي المتداولة في الولايات العربية، ومنها تونس والحجاز. وهذه العملة هي الجنيه العثماني وهي عبارة عن قطعة من الذهب تساوي خمسة مجيديات، أو مئة قرش[٢] والمجيدي وهو عملة فضية تساوي الواحدة منها عشرين قرشًا. وينقسم المجيدي إلى أنصاف وأرباع.

أما القرش فهو قطعة معدنية من النيكل تنقسم إلى أربعين بارة، أو إلى أربع قطع كل قطعة تعادل عشر بارات، وهذه بدورها تنقسم إلى قطع نحاسية من فئة خمس نحاسيات، وينقسم القرش أيضًا إلى نصف قرش ويعادل عشرين بارة [٣].

---

(1) A . N.T, S:H Car 15 , Dos 1/14 ,

تقرير من الجزائر حول مسألة الحج بتاريخ ١/ ٧/ ١٣١٦هـ الموافق ٢٣/ ١١/ ١٨٩٨م .
لم يتضح في التقرير المرسل أو الجهة المرسلة إليه ويبدو أنه مقدم من قنصل فرنسا في جدة إلى المقيم العام الفرنسي في تونس.

(2) Al Shaafi Op. Cit, .P .236 .

(٣) خالد العظم، مذكرات، (الدار المتحدة للنشر، بيروت، ط٢، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م)، جـ ٢: ٦٢ .

وظل النظام النقدي في تونس مرتكزًا في أساسه على العملة العثمانية التي تصدر في إستانبول حتى عام ١١٤٠هـ/ ١٧٢٧م حيث جرى سك العملات العثمانية في تونس التي تحمل اسم السلطان العثماني.

ولم يحل هذا دون استخدام أنواع أخرى من العملات ذهبية وفضية ونحاسية تم ضربها في تونس أيضًا، وتحمل اسم السلطان العثماني، ومنها ما عرف باسم «المحبوب أو السلطاني»، وهو عملة ذهبية تزن حوالي ٣,٥ غرام، وكانت قيمة المحبوب تتغير وفقًا لقيمة الريال الأسباني (Real) ومدى الإقبال عليه، ووفق متطلبات التجارة في الداخل والخارج. فمثلاً كانت قيمة المحبوب في بداية القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي تبلغ ثلاثة ريالات فضية، ولكنها تنزل أحيانًا إلى ريالين أسبانيين[١].

وقد عمل الباي حسين (١١١٧-١١٤٨هـ/ ١٧٠٥-١٧٣٥م) مؤسس الأسرة الحسينية على وضع حد لتداول الريال الأسباني فقرر سحبه من الأسواق وإحلال العملة التونسية محله فأبدل الريالات الأسبانية بـ «الناصري»، وهو عملة فضية مربعة الشكل يتراوح وزنها بين (٣٥, ٠) و (٥٥, ٠) غرام، على اعتبار أن اثنين وخمسين ناصريًا يعادل ريالاً واحدًا. هذا بالإضافة إلى وجود العملة البرونزية «القفصي»[٢] التي تعادل اثنتا عشرة منها ناصرياً واحدًا[٣].

(١) محمود فروة، النظام النقدي في تونس في القرنين الثامن والتاسع عشر: مدخل لدراسة أحد مؤشرات الإيالة التونسية (١٧٤٠ - ١٨٩١م)، (المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، زغوان (تونس)، ع ١، ٢، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م): ٢١٧.

(٢) ترجع تسميتها بذلك إلى العهد الحفصي الذي ضربت هذه النقود في عهده (لأول مرة) في مدينة قفصة في تونس.
فروة، مرجع سابق: ٢١٧.

(٣) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

وخلال النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي جرى سك عملات إضافية، فضربت في تونس نقود ذهبية من فئة نصف محبوب وفضية من فئة ريال (دورو)، وثمن ريال على اعتبار أن ثلاثة ريالات تعادل محبوبًا. كما سكت عملة فضية أخرى وهي «الخروبة»، وتساوي ربع ربع الريال (أي ١٦ خروبة تساوي ريالاً)، وكذلك ضربت نصف خروبة، ثم سك الفلس النحاسي الذي يساوي مئة وأربعة منه ريالاً واحدًا [(١)] .

وقد وجد إلى جانب هذه العملات بعض العملات الأجنبية : مثل الجنيه الإفرنجي الذهبي «لويز بنتو»، والسلطاني البندقي، وقطع نقدية من البرتغال، ومن جنوة، ومن مالطة[(٢)].

وشهدت البلاد التونسية في القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي تدهورًا في قيمة العملة ظهر خلال حكم محمود باي (١٢٢٩-١٢٣٩هـ/ ١٨١٤-١٨٢٤م) لسوء الأوضاع الاقتصادية [(٣)]. وعمل الباي حسين (١٢٣٩- ١٢٥١هـ / ١٨٢٤ - ١٨٣٥م) لمعالجة الصعوبات المالية الكبيرة الناجمة عن سوء سياسته المالية، وحبه للبذخ والإسراف إلى إصدار أمر بحظر التعامل بالريالات المتداولة، وتعويضها بريالات أقل معيارًا ووزنًا ومن ثم أقل قيمة . وأسهم هذا الإجراء في إنعاش اقتصاد الولاية نسبيًا ولفترة قصيرة .

---

(١) المرجع نفسه : ٢١٨ - ٢١٩ .

(٢) المرجع نفسه : ٢١٦ .

(٣) من ذلك الانعكاسات السلبية التي تركتها قرارات مؤتمر إكس لاشابل (١٢٣٣هـ/١٨١٨م) على تونس فيما يتعلق بمنع ما يسمى بالقرصنة، وحظر أسر المسيحيين، ففقدت البلاد أهم مواردها المالية إضافة إلى تفشي وباء الطاعون في البلاد فيما بين عامي (١٢٣٣-١٢٣٥هـ/١٨١٨-١٨٢٠م) مما أودى بحياة ما يقارب من خمسين ألف شخص .
المرجع نفسه : ٢١٩ - ٢٢٠ .

وضربت في عهد هذا البـاي نقود فضية من فئة ريـالين، ولم يطرأ تغيير يذكر على النقود في عهد خلفه مصطفى باي (١٢٥١ - ١٢٥٣هـ / ١٨٣٥ - ١٨٣٧م) إلا اختفاء النقود التي ضربت في عهد سلفه[١].

وشهـدت فترة حكم المشير أحمـد باشا باي تطوراً في عمليـات ضرب العملة فنقل المشيـر في عام ١٢٦٢هـ/ ١٨٤٦م دار السكة من شارع (نهج) الحفصيـة في العاصمة تونس إلى باردو حيث مقـر الباي، وأسس ما يسمى «دار المال» بهدف إصـدار الأوراق المالية لتلافي أي نقص في حـجم العملة المتـداولة، واستـقدم من باريس آلات حـديثة لسك النقـود . ولكن تداول الأوراق النقدية في تونس ظل محدوداً ؛ لأنه واجه معارضة من كبار التجار الأوربيين، وهذا ما دفع الباي إلى جعل مسألة استعمال الأوراق النقدية أمراً اختياريـاً، وما لبثت دار المال أن توقـفت عن القيام بوظائفها عام ١٢٦٨هـ/ ١٨٥٢م[٢].

وفي عام ١٢٧١هـ / ١٨٥٥م تولى حكم البلاد المشيـر محمد باشا باي، وتميز عهده بضرب نقـود تحمل لأول مرة اسم باي تونس في محاولة لإبراز استقلالية تونس عـن الدولة العثمانية فضربت ريالات تونسيـة ذهبية من فئة مئـة، وثمانين، وأربعين، وعشـرين، وعشـرة ريالات، كما ضُـرِبتَ نقود فـضيـة من فئـة خمـسة، وأربعـة، وثلاثة، واثنين وريال واحد، وبسـبب احتجاج الصيارفة والتجار على خـفة وزن النقود الذهبية صدر قرار في عام ١٢٧٤هـ/ ١٨٥٨م يقضي بزيادة وزن النقود الذهبية بنسبة ١٠٪، وعوضت النقود من فئة ثـمانين، وأربعين، وعشرين بنقود من فئـة خمسين، وخمس وعشرين، وخـمسة ريالات، كما أضيف إلى العـملة الفضية كسور بقـيمة

---

(١) المرجع نفسه، الصفحة نفسها .
(٢) المرجع نفسه : ٢٢٠ .

نصف، وربع، وثمن ريال[1] .

وفي عهد المشير محمد الصادق باي حدث تدهور كبير للعملة التونسية نظرًا لازدياد التدهور الاقتصادي في البلاد[2] مع استمرار سياسة البذخ والإسراف، وكثرة الفتن والثورات. ولمواجهة هذا الوضع جرى التلاعب بقيمة العملة، وذلك بالتخفيض من وزنها، أو حجمها، واللجوء إلى غشها بالمعادن الأخرى .

غير أن هذا الأمر زاد الوضع سوءًا، وفتح المجال أمام الدول الغربية للتدخل في شؤون تونس المالية، وأخذت اللجنة المالية الدولية [3] على عاتقها مراقبة سك العملة التونسية .

واستمر الوضع النقدي في التردي إلى أن فرضت الحماية الفرنسية على تونس عام ١٢٩٨هـ / ١٨٨١م، فتولت السلطات الفرنسية السيطرة على النظام النقدي التونسي، وعملت على إدخال العملة الفرنسية (الفرنك) بكميات كبيرة إلى البلاد التونسية[4]. وكانت تحسب على أساس أن الريال التونسي (الدورو) يعادل خمس فرنكات فرنسية[5].

وقد حاول سكان البلاد التونسية تجاهل العملة الفرنسية، والعزوف عن التعامل بها فلجأت السلطات الفرنسية إلى اتخاذ إجراءات عدة لإنعاش الفرنك الفرنسي في تونس، وربط العملة التونسية بالعملة الفرنسية، وأنشأت لهذا الغرض البنك التونسي في عام ١٣٠١هـ/ ١٨٨٤م برأسمال

---

(١) المرجع نفسه : ٢٢١ .
(٢) انظر الفصل الأول : ٥٧ - ٥٨ .
(٣) انظر الفصل الأول : ٥٨ .
(٤) فروة، مرجع سابق : ٢٢٥ .
(٥) صحيفة الحاضرة، ع ٩٢، س ٩، شوال ١٣١٢هـ / إبريل ١٨٩٥م .

يبلغ ثمانية ملايين فرنك من أجل توفير الضمانات لأصحاب رؤوس الأموال لاستثمار أموالهم في تونس من جهة، ومن أجل تنظيم اقتصاد البلاد على النمط الأوربي من جهة أخرى .

وفي عام ١٣٠٨هـ/ ١٨٩١م سُحبت الريالات التونسية من الأسواق التونسية، واستبدلت بالفرنك، وكتب على النقود الجديدة كلمة «تونس» بالفرنسية مع إدراج اسم الباي عليها باللغة العربية، وكان هدف السلطات الفرنسية من ذلك الإيهام بأن إصدار النقود لا يزال من صلاحيات الباي، كذلك رغبة في كسب ثقة السكان للإقبال على التداول بالعملة الجديدة . وقد ضربت عملات ذهبية من فئة عشرين، وعشرة فرنكات، كما ضربت عملات فضية من فئة فرنكين وفرنك، وضربت عملات نحاسية من فئة نصف فرنك[١] . وهكذا فقدت البلاد التونسية أحد مقومات سيادتها، ووُضع حد للنظام النقدي التونسي المستند على الريال، وحل محله النظام النقدي المستند على الفرنك، كما سُحبت جميع العملات الأجنبية، وخاصة النقود الإيطالية، وحُظرت من التداول في تونس[٢] .

أما في الحجاز فقد كانت العملات العثمانية في جميع أنواعها من الذهب والفضة والنحاس هي المستخدمة فيه تماماً كما كان الأمر في تونس مع فارق واضح وهو أنه بينما كانت تونس تستخدم العملات المحلية إلى جانب العملات العثمانية فإن الحجاز لم تسك فيه عملة خاصة به [٣] . إلا أنه نظراً

(١) فروة، مرجع سابق : ٢٢٥ - ٢٢٦ .
(٢) المرجع نفسه : ٢٢٦

(3) AI Amr, OP. Cit, P 52, Also:
Al Shaafi, O.p Cit, P .233

ومما يجدر ذكره أن إبراهيم رفعت (مصدر سابق، جـ ١، ص ٣٧) قد عَدَّ ريال (أبو طاقة) المتداول في الحجاز-آنذاك-ريالاً حجازياً في حين أن صالح العمرو (AI Amr, OP. C.t, P 33) عدَّ ريالاً هنغارياً (مجرياً) .

لأهمية الحجاز الدينية والتجارية كانت النقود الأجنبية متداولة به أيضًا كما في تونس، وكانت تستخدم بشكل كبير في موسم الحج [١].

ومن أبرز العملات الذهبية الأجنبية التي كانت متداولة في الحجاز في تلك الفترة الجنيه الإنجليزي وهو يزيد في قيمته قليلاً على الجنيه العثماني[٢]، والجنيه (لويز بنتو) [٣] . كما وجدت عملات فضية ومن أبرزها الريال النمساوي (ريال ماريا تريزا)، ويطلق عليه ريال فرانسة أو ريال شينكو (أو سينكو) [٤]، وتعادل خمسة ريالات منه جنيهًا عثمانيًا[٥]، كما يعادل (المبلغ نفسه) جنيهًا إفرنجيًّا (لويز بنتو) [٦] .

واستخدمت في الحجاز كذلك الروبية الهندية وهي من الفضة وتساوي الواحدة منها أربعة عشر قرشًا عثمانيًا ونصف [٧]. وكانت أكثر العملات استعمالاً عند البدو ريال (أبو طاقة)، ويعادل الريال الشينكو [٨]. وكان القرش (العثماني) يشكل العملة الفعلية لتجارة جدة في تلك الفترة (النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي) [٩]، إلا أن المبادلات التجارية كانت تتم بالعملات الذهبية . ومن بين مختلف البلاد

(1) Ibid .

(٢) مغربي، مرجع سابق : ١٨٩ .

(٣) رفعت، مصدر سابق : ١ / ٢٠٧ .

كان كبير الحجم، يزيد وزنه على الريال المجيدي، وضعت عليه صورة الإمبراطورة ماريا تريزا ١١٥٣ -١١٧٩هـ/ ١٧٤٠-١٧٦٥م إمبراطورة النمسا التي صدر في عهدها هذا الريال .

مغربي، مرجع سابق : ١٩٠ .

(٤) أ، و، ت، دفتر ٢٣٢٤، ق ٢٨، دفتر صرة عام ١٢٥٥هـ/ ١٨٣٩م .

(٥) مغربي، مرجع سابق : ١٩٠ .

(٦) أ. و. ت، دفتر : ٢٣٢٤، ق ١٤، دفتر صرة عام ١٢٦٩هـ/ ١٨٥٢م .

(7) Al Shaafi, O.p Cit, P .235 .

(٨) البتنوني، مصدر سابق : ٦١ .

(9) Al Shaafi, O.p Cit, P .235 .

كان الذهب العثماني والفرنسي (الليرة الفرنسية) متوافرًا أكثر في الحجاز، في حين كان الذهب الإنجليزي (الجنيه الإسترليني) قليلاً وكان دولار ماريا تريزا [١] (الذهبي) يُعد المعيار النقدي للتبادل التجاري في الحجاز قبل عام ١٢٩٢هـ / ١٨٧٥م إلا أن قيمته أخذت في التقلب بعد ذلك تجاه الجنيه الإسترليني الإنجليزي[٢].

وكان يتم في الحجاز أيضًا تبادل العملات المتداولة في تونس، وكانت تحسب على أساس القرش العثماني، فالجنيه الذهبي (لويز بنتو) يعادل مئة وثمانية وعشرين قرشًا عثمانيًّا تقريبًا، كما أن الريال الشينكو (أو ريال فرانسة) يعادل واحداً وعشرين قرشًا عام ١٢٦١هـ/ ١٨٤٥م [٣]، وثمانية وعشرين قرشًا عثمانيًّا عام ١٣١٨هـ/ ١٩٠٠م[٤].

وحين أصبحت العملة الرئيسة في تونس هي الفرنك منذ عام ١٣٠٨هـ/ ١٨٩١م لم يكن غريبًا على الحجاز التعامل بها، فكانت تحسب على أساس أن الريال الفضي المتداول في الحجاز وهو ريال «ماريا تريزا» (الشينكو أو ريال فرانسة)، أو الريال أبو طاقة يعادل خمسة فرنكات[٥]. وكان التونسيون عند الإهداء يستخدمون عملتهم التونسية قبل إلغائها في عهد الحماية، وهي ريال تونسي (دورو). وقد أشارت رسالة شكر من أحمد بن

(١) يحتوي على ثلثين من الفضه والباقي ذهب، وفي حين يساوي الجنية الإسترليني في الفترة ١٣١٩-١٣٢٤هـ١٩٠٢/ -١٩٠٧م) مئة وتسعة قروش عثمانية كان دولار ماريا تريزا يعادل من ثلاثين إلى ستة وثلاثين قرشًا.

Ibid.P 237 -238 .

(2) Ibid.

(٣) أ، و، ت، دفتر رقم ٢٣٢٤، صرة عام ١٢٦١هـ/ ١٨٤٥م .

(٤) رفعت مصدر سابق : ١ / ٢٠٧ .

(٥) ابن نعمان، مصدر سابق : ١٨ .

محمد الشيبي إلى الوزير الأكبر مصطفى خزنة دار في ١٢٦٩/١١/٢٩هـ الموافق ١٨٥٣/٩/٢م بشأن وصول مبلغ خمس مئة ريال (دورو) أرسلها الوزير بيد شخص يقال له «سلطان الحبشي» (١). كما بعث المشير محمد الصادق باشا باي في ١٢٨٤هـ / ١٨٦٧م هدية إلى السيد محمد عقبة في الحجاز بصحبة الشيخ عبدالرحمن النابلسي، وهي مئة ريال فرانسة (٢).

والجدير بالذكر أن أسعار تلك العملات كانت تتفاوت بين فترة وأخرى حسب التغيرات التي تطرأ على أسعار العملات في الأسواق العالمية؛ فمثلاً كان يُحْسب الجنيه العثماني في نهاية القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي على أساس أن الجنيه يقارب مئة قرش (٣) بينما قُدِّر الجنيه العثماني في بداية القرن الرابع عشر الهجري / العشرين الميلادي بمئة وواحد وخمسين قرشًا قبل موسم الحج وبعده، ومئة وثمانية وأربعين قرشًا أثناء موسم الحج (٤).

وقد رسمت خطة في الحجاز في نهاية تلك الفترة من قبل الإدارة العثمانية تهدف إلى إلغاء العملات الأجنبية فيه وتداول العملة التركية فقط مع تثبيت أسعار النقود الأجنبية بما يعادلها من القروش العثمانية (٥).

---

(١) أ، و، ت، س . ت ٦٥، م ٧٨٨، ق : بدون، خطاب من أحمد بن محمد الشيبي الى الوزير مصطفى خزنة دار في ١٢٦٩/١١/٢٩هـ الموافق ١٨٥٣/٩/٢م .

(٢) أ، و، ت، س . ت ٦٥، م ٧٨٩، ق : بدون، خطاب من محمد عقبه الى المشير محمد الصادق باشا باي (١٢٨٤/١/١٠هـ الموافق ١٨٦٧/٥/١٣م)

(3) Al Shaafi, O.p Cit, P .236.

(٤) رفعت، مصدر سابق : ١ / ٢٠٧ .

(5) P.R.O, Fo881/9618-c 105657,P 21.
خطاب من السفير البريطاني في إستانبول لوثر LowtherG إلى وزير الخارجية البريطانية قريGrey في ١٣٢٧/١٠/٦هـ الموافق ١٩٠٩/١٠/٢٠م .

وختامًا يمكن القول: إنّ الصِّلات التجارية بين تونس والحجاز كانت موجودة واتخذت صوراً مختلفة إلا أنها كانت تزداد على وجه الخصوص في مواسم الحج . واستمرت تلك الصلات مع ما يلحق بها من تبادل العملات بين الولايتين حتى بعد تغير الأوضاع في تونس، وفرض الحماية الفرنسية على البلاد عام ١٢٩٨هـ/ ١٨٨١م، وربط العملة في تونس بالعملة الفرنسية .

ثالثًا - الأوقاف التونسية للحرمين الشريفين، ودورها في دعم الصلات الاقتصادية بين تونس والحجاز:

(أ) تعريف الوقف :

الوقف لغةً: هو الحبْس [١]، وشرعاً: «الحبيس يقع على كل شيء وقفه صاحبه وقفًا محرمًا، لا يورث، ولا يباع من أرض ونخل وكرم ومُستغل يحبس أصله وقفًا مؤبدًا، وتُسبَّل ثمرته تقربًا إلى الله عز وجل.

ومعنى تحبيسه ألا يورث، ولا يباع، ولا يوهب، ولكن يترك أصله، ويجعل ثمره في سبيل الخير» [٢] .

والوقف من الصدقات الجارية التي ورد فيها قول الرسول ﷺ : «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له[٣] .

---

(١) كان المصطلح المستخدم في تونس كما في بقية بلدان المغرب العربي هو " الحبس"، واستخدم بصورة أقل اسم " الوقف " أما في المشرق العربي فاستخدم اسم " الوقف" فقط.

(٢) ابن منظور، مصدر سابق : ٦ / ٤٤ - ٤٥ .

(٣) محمد بن علي الشوكاني، نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار شرح منتقى الأخبار، (دار الجيل، لبنان ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م) : ٦ / ١٢٧ .

وروى عمر بن شبة عن عمرو بن سعد بن معاذ قال: «سألنا عن أول حبس في الإسلام، فقال المهاجرون: صدقة عمر، وقال الأنصار: صدقة رسول الله ﷺ »[(١)] .

وذكر الشوكاني[(٢)] عن الواقدي: «أن أول صدقة موقوفة كانت في الإسلام أراضي مخيرق -بالمعجمة مُصغَّرًا التي أُوصى بها إلى النبي ﷺ فوقفها»، وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: «أصاب عمر بخيبر أرضًا فأتى النبي ﷺ فقال: أصبت أرضًا لم أصب مالاً قط أنفس منه، فكيف تأمرني به ؟ قال : إن شئت حبست أصلها وتصدقت بها، فتصدق عمر أنه لا يباع أصلها، ولا يوهب، ولا يورث . .»[(٣)] .

ونظرًا لأهمية الوقف ومكانته في الدين الإسلامي فإن الأماكن التي يجري وقفها تصبح مهمة، ومحترمة من الأهالي، ومن قبل السلطة - في غالب الأحوال - وتُضفي على هذه الأماكن الصفة الدينية بحيث إن التصرف بها يكون وفق نص الوقف فقط، فلا ترهن، ولا تباع، ولا تورّث[(٤)] .

وتنقسم الأوقاف (الأحباس) بصورة عامة إلى نوعين: الأوقاف العامة، والأوقاف الخاصة . فالأوقاف العامة هي المنشآت التي يجري وقفها لفائدة عامة تخدم المجتمع كإقامة المساجد، أو المدارس، أو الكتاتيب، وما إلى ذلك .

---

(١) المصدر نفسه، الجزء نفسه : ١٢٩.

(٢) مصدر سابق : ٦ / ١٢٩ .

(٣) أبو عبدالله محمد بن اسماعيل البخاري، صحيح البخاري، (عالم الكتب، بيروت، د. ت. ن : ٤/ ٦٢).

(٤) صميدة، مرجع سابق : ١٥ .

أما الأوقاف الخاصة فهي الأوقاف المخصصة لأفراد معينين ولأحفادهم من بعدهم بهدف الحفاظ عليها وعدم تجزئتها، أو لتحديد الاستفادة منها لفئة معينة من ذرية ذلك الشخص لمدة حياتهم فقط، أو ما شابه ذلك حتى إذا ما انقرضوا رجع الوقف لوجه من وجوه البر ذي النفع الاجتماعي[١]. ومن تلك الأوقاف الأوقاف العائلية، أو أوقاف الجنسيات مثل: أوقاف المغاربة، أو أوقاف الحضارمة، أو غيرهم [٢].

على أنه يوجد في تونس نوع ثالث من الأوقاف وهو ما يسمى "أحباس الزوايا"، يكثر فيها ويقل في الحجاز لكثرة الطرق الصوفية في البلاد التونسية. فقد ساد الاعتقاد في الأولياء والصالحين، فوقف بعض التونسيين جزءاً من ممتلكاتهم على نسل الولي لطلب مرضاته حسب اعتقادهم، أو ليتم إنفاقه على الاعتناء بالأضرحة والزوايا وترميمها، وما إلى ذلك من الاعتقادات التي سادت بين أوساط المتصوفة [٣].

وتستمد القوانين المنظمة للأوقاف في تونس من المذهبين المالكي والحنفي؛ لأنهما المذهبان اللذان عليهما أهل البلاد، وذكر محمد بيرم الرئيس الأول لجمعية الأوقاف التي تكونت عام ١٢٩١هـ/ ١٨٧٤م أنه عند الخلاف «يتفق علماء المذهبين أن يُفتى للوقف بما هو أصلح له» [٤].

وجرى الأمر في العهود الإسلامية في تونس أن توكل مهمة رعاية

(١) أحمد قاسم، أحباس العثمانيين الأوائل بتونس وجمعية الأوقاف والإنزال (المجلة التاريخية المغربية، زغوان (تونس)، ع ٣٧ - ٣٨، س ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م)، ص ٢٤٤.

(٢) ابن سلم، مرجع سابق: ٣٦.

(٣) صميدة، مرجع سابق: ١٤.

(٤) أحمد قاسم، الوقف في تونس في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، في كتاب المعهد الفرنسي للدراسات العربية، الوقف في العالم الإسلامي أداة سلطة اجتماعية وسياسية، (منشورات المعهد، دمشق، ١٤٠٥هـ/ ١٩٩٥م): ٧.

الأوقاف العامة والإشراف عليها إلى الحكومة لتحقيق النفع والفائدة منها .

أما مسؤولية الأوقاف الخاصة فإنها تقع على أسرة الموقف نفسه، وقد يعهد بذلك إلى أحد أفراد أسرته، وقد تعيِّن الأسرة وكيلاً لإدارة الوقف تختاره من بينها، أو من خارجها في بعض الأحيان [١] ليتم الانتفاع بهذا الوقف بشروط معينة من الموقف أو بدون شروط [٢].

وغالبًا ما يخصص ريع الوقف للأعمال الخيرية كالتصدق بجزء منه على الفقراء والمساكين، كما قد يخصص جزء آخر لأسرة الموقف، أو ينتفع به نسل هذه الأسرة . ويبقى الوقف الخاص تحت مسؤولية أفراد أسرة الموقف حتى إذا انقرضوا عاد الوقف إلى إدارة الأوقاف [٣].

ومع أن الهدف الغالب على تخصيص الأوقاف في تونس كما في سائر البلدان الإسلامية هو الهدف الديني وهو التقرب إلى الله بالأعمال الصالحة، إلا أن هناك أهدافًا أخرى قد تدفع الشخص إلى تخصيص جزء من ممتلكاته وقفًا. فقد يخشى بعضهم من مصادرة الحكام لأراضيهم، أو مبانيهم، فيلجأ إلى وقفها لتقل الفرصة أمام غيرهم للاستيلاء عليها إذ إن الوقف لا يجوز التصرف فيه[٤] .

وظهر ذلك في تونس في عهد الباي حمودة باشا (١١٩٧ - ١٢٣٠هـ / ١٧٨٢ -١٨١٤م) حينما أرغم بعضاً من أصحاب المباني المتهالكة على إصلاح مبانيهم، أو بيعها إن عجزوا، فأرادوا التخلص من ذلك القرار بوقف تلك المباني، وعندها أمر الباي حمودة باشا بعدم إنفاذ ذلك إلا بعد

---

(١) مزالي، مرجع سابق : ١٢٨ .

(٢) محمد شوقي، الأراضي الوقف في المدينة المنورة، (مجلة الدَّارة، الرياض، ع ٢، س ١٠، محرم ١٤٠٥هـ / سبتمبر ١٩٨٤م) : ٣٦ .

(٣) المرجع نفسه، الصفحة نفسها .

(٤) قاسم، الوقف : ٩ .

التثبت من أن العقار المراد وقفه لا خراب فيه وأنه صالح للانتفاع به[١]. كما أنه خلال الاضطرابات التي رافقت ثورة ابن غذاهم ١٢٨١هـ/ ١٨٦٤م [٢] خشي أصحاب الأراضي من مصادرتها فآثروا وقفها، وقد يرغب بعض الناس في تخليد ما يملك في عقبه من بعده لئلا يتم التفريط فيه من قبل الذرية، فيعمد إلى وقفه[٣].

وعلى الرغم من تعدد الأهداف فإن الأوقاف في تونس وخاصة العامة منها تُعد وسيلة من وسائل التكافل الاجتماعي للفوائد التي يجنيها المجتمع بشكل عام من خلال ريع الأماكن الموقوفة[٤]. ومع ذلك فقد تؤدي الأوقاف إلى نتائج عكسية خاصة في حالة الأوقاف الخاصة: ذلك أن حصول بعض الأفراد على دخل دائم ومستمر من الأوقاف المخصصة لهم قد يدفعهم إلى الإحجام عن أية مساهمة إنتاجية في المجتمع نظراً لاعتمادهم على دخل الأوقاف السنوي الذي يحصلون عليه[٥].

وقد تتعرض الأوقاف للإهمال إلى درجة الخراب كما حدث لدار وقف تقع في باب سويقة بتونس العاصمة أهملت إلى درجة أنها «على حالة الخراب جلها ساقط بالفعل لا ينتفع من به للسكن، وهي الآن (١٣٧٧هـ / ١٨٦٠م) مرمى للأزبال»[٦]، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل إن الأوقاف قد فُقدت رسومها، من ذلك رسم هنشير غنيم بضواحي تونس العاصمة [٧]،

(١) ابن أبي الضياف، مصدر سابق: ٣ / ١١٤.
(٢) انظر عن ثورة ابن غذاهم ما ورد في الفصل الأول: ٥٨.
(٣) قاسم، الوقف: ٢١.
(٤) شوقي، مرجع سابق: ٣٧.
(٥) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
(٦) قاسم، أحباس: ٢٤٩.
(٧) ومعناه الأرض الزراعية. انظر:
أمينة الحبشي، أوقاف الحرمين الشريفين والصره في فترة الحماية (١٨٨١هـ / ١٩٥٥م)، من خلال وثائق السلسلة (C) والسلسلة (A) بالأرشيف الوطني التونسي، رسالة غير منشورة موجودة بالأرشيف الوطني التونسي تحت رقم ١٢٩٤، (جامعة الآداب والعلوم الإنسانية، تونس، ١٩٩٣م): ٥٧.

كما قد تتأثر وضعية الأوقاف بنتائج الضعف العام الذي أصاب البلاد التونسية منذ النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي نتيجة الثورات السياسية. مثل ثورة علي بن غذاهم (١٢٨١هـ / ١٨٦٤م)، والكوارث الطبيعية كالقحط والجدب كما حدث عام ١٢٨٥هـ / ١٨٦٨م فازدادت مساحة الأراضي الجرداء من تلك الأوقاف، فأصبحت بدون زراعة، وتعاني من الإهمال[1] .

وقد دفع تردي أوضاع الأوقاف في تونس إلى صدور الأمر العلي في محرم ١٢٩١هـ مارس ١٨٧٤ في عهد المشير محمد الصادق باشا باي بتأسيس جمعية الأوقاف [2].

وكان لكل من الوزير الأكبر خير الدين التونسي، والشيخ محمد بيرم الخامس دور كبير في إنشاء الجمعية المذكورة، وإليهما يعود الفضل في المحافظة على الأوقاف، وحمايتها من جشع الوكلاء وتلاعبهم خصوصاً وأن جمعية الأوقاف قد ركزت على إضعاف سلطة الوكلاء وتلاعبهم [3] .

وحظيت أوقاف الحرمين الشريفين باهتمام خاص من قبل الحكومة التونسية لما لها من أهمية تعكس جانباً مهماً في صلات تونس بالحجاز .

(ب) تنظيم أوقاف الحرمين الشريفين في تونس :

هذه الأوقاف هي التي خصصها أصحابها للتصرف بريعها لخدمة الحرمين الشريفين، والقائمين عليهما، والتصدق على فقرائهما ومجاوريهما [4].

---

(١) قاسم، أحباس : ٢٥٠ .

(٢) صميدة، مرجع سابق : ١٩ .

(٣) انظر أسماء أعضاء مجلس إدارة الجمعية في الملحقات، وثيقة ٩ .

(٤) الحبشي، مرجع سابق : ٥٥ .

وتقع غالبية أوقاف الحرمين الشريفين في البلاد التونسية في المنطقة الشمالية والشمالية الشرقية منها : تونس العاصمة، باجة، ماطر، نابل، كما يوجد جزء منها أيضًا في جزيرتي قرقنة، وجربة [١]، وتنتشر بعض الأوقاف في أنحاء متفرقة من البلاد التونسية [٢] [٣].

وأوقاف الحرمين الشريفين على نوعين: خاصة، وعامة، والأخيرة أكثرها شيوعًا وأهمية، وهي تشمل الهناشير التي تتكون من مجموعة من البساتين ذات الأشجار المثمرة.

وتقع معظم الهناشير عند ضواحي مدينة تونس، وجهة بنزرت، وفي سهول وادي مجردة الوسطى، والسفلى [٤]. كما تحوي أوقاف الحرمين الشريفين العامة الرباع [٥]، وتوجد أغلب الرباع في تونس العاصمة، وخاصة في باب سويقة، وباب الجزيرة وتشمل المنازل، والدكاكين، التجارية، والفنادق، والمخازن، والمطاحن والأفران .

وتتم الاستفادة من الرباع عن طريق الكراء (الإيجار) الذي تحدد قيمته حسب قيمة (الربع)، وموقعه، وأهميته، ونوعية الغرض المراد الاستفادة منه سواء في السكن أم التجارة . وغالبًا ما تستغل الدكاكين لممارسة الحرف الصغيرة كالحلاقة، أو الصناعات اليسيرة كالدباغة [٦].

---

(١) خزينة أملاك الدولة والشؤون القعارية، نسق ميزان (١٣٢١هـ/١٩٠٣م) وسيرمز لها بعد ذلك بـ (خ، أ، د).
(٢) انظر بيان بالأملاك الموقفة على الحرمين عام ١٣٠٣هـ/١٨٨٦م في الملحقات، وثيقة : ١١ .
(٣) أ، و، ت، دفتر برقم ٢٣٢٢، ق : بدون .
(٤) الحبشي، مرجع سابق : ٥٧ .
(٥) جمع ربع بمعنى المبنى .
قاسم، أحباس ٢٤٥ .
(٦) الحبشي، مرجع سابق : ٥٧ .

وكانت الحكومة التونسية قد خصصت إدارة خاصة للإشراف على أوقاف الحرمين الشريفين سميت «الحانوت»، أو «جماعة الحانوت» (١) .

وهذه الإدارة كانت سابقة لإنشاء جمعية الأوقاف، ولم تضم إليها عند إنشاء جمعية الأوقاف . وكان يتولى الأمر في هذه الإدارة وكلاء بينهم الباي ويشرف عليهم الوزير الأكبر في البلاد التونسية بتوجيه من الباي (٢)، ويساعد الوكيل في إدارة شؤون أوقاف الحرمين الشريفين خارج العاصمة تونس نواب يتم تعيينهم في مدن الولاية التي يوجد فيها أوقاف للحرمين الشريفين. كما يساعد الوكيل إدارة مكونة من موظفين كُثُر أبرزهم شهود الوقف، والمشرفون على ضبط المقبوض والمصروف، وشهود عدول، وكُتّاب، ومترجمون، ومهندسون لقياس الأراضي، ومراقبون وغيرهم (٣).

وكان على الوكلاء تقديم دفاتر الحسابات سنويًا للمجلس الشرعي (٤) بالبلاد لإطْلاعه على أوضاع الأوقاف التي يتولون إدارتها (٥) غير أن بعض الوكلاء تهاونوا في مهامهم، فكانوا يبعثون تلك الدفاتر إلى المجلس الشرعي في فترات غير منتظمة، وكانت تلك الدفاتر تحوي في بعض

(١) ويعني الدكان (والحانوت لفظ استخدم بهذا المعنى في تونس) .
ابن منظور، مصدر سابق : ١٣ / ١٥٧ .
(٢) قاسم، الوقف : ٤٨ .
انظر : ٢٠٨ من هذا الفصل .
(٣) أ، و، ت، س . ت ٦٥، م ٧٨١، ق ٥، خطاب من المشير محمد الصادق باشا باي إلى المسؤولين في إدارة أوقاف الحرمين الشريفين في ٦/ ٩/ ١٢٧٧هـ الموافق ١٧/ ٣/ ١٨٦١م ، وأيضًا :
أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨٥، ق ١٦، خطاب من وكيل أوقاف الحرمين الشريفين إلى الوزير الأكبر مصطفى خزنه دار في٢١/ ٤/ ١٢٩٧هـ الموافق ١/ ٤/ ١٨٨٠م) .
(٤) أ، و، ت، س . ج، ك ٢٦، ق ١/ ٥، ميزانية عام ١٣١٨هـ/ ١٩٠٠م .
(٥) ويقصد به المحكمة الشرعية، وفيها يجتمع القضاة من الحنفية والمالكية لتلقي الخصومات، وللتشاور فيما بينهم. السنوسي، مسامرات : ١ / ١٤٩ .

الأحيان معلومات مغلوطة، كما أن بعضهم الآخر قد استغل الأوقاف بطرق غير شرعية فتلاعبوا بها، ودمجوا بعضها في أملاكهم الخاصة، كما باعوا بعضها الآخر لصالحهم [١]. ومع ذلك كان يتجمع في خزينة أوقاف الحرمين في بعض الأعوام مبالغ من المال تكفي للإنفاق في الوجوه المختلفة، وقد تجمَّع مثلاً في عام ١٢٧٧هـ/ ١٨٦٠م مبلغ وقدره مئة وأربعة وعشرون ألفاً واثنا عشر ريالاً وسبع خرارب [٢].

ولتحسين أوضاع مالية أوقاف الحرمين الشريفين طلب رئيس جمعية الأوقاف محمد صفر في عام ١٣١٣هـ/ ١٨٩٥م من الوزير الأكبر محمد العزيز بوعتور[٣] أن تضم خدمة أوقاف «جماعة حانوت الحرمين الشريفين» لرئاسة جمعية الأوقاف. وتمت الموافقة على ذلك، وصدر الأمر بهذا الخصوص بشرط أن تبقى المسائل المالية بعيداً عن تدخل جمعية الأوقاف[٤]. وبذلك ضمت «جماعة الحانوت» إلى إدارة جمعية الأوقاف، وأصبح المسؤول عن أوقاف الحرمين الشريفين وهو الوكيل تحت سلطة رئيس الجمعية، إضافة إلى إشراف الوزير الأكبر على أوقاف الحرمين الشريفين[٥].

وأصبح على الوكيل وهو المكلف بتنظيم العقارات الموقوفة (أي الهناشير والرباع) ورعايتها أن يقدم لجمعية الأوقاف ثلاثة أنواع من الدفاتر: الدفتر

---

(١) الحبشي، مرجع سابق: ٥٧ - ٥٨.
صميدة، مرجع سابق: ١٩.

(٢) أ، و، ت، س. ت، م ٧٨١، ق: ٢٦ بيان بحساب الوكيل محمد الأصرم عن عام ١٢٧٧هـ / ١٨٦٠م.

(٣) أ، و، ت، س، ج، م ٣٠/١، ق: ٥، خطاب من رئيس جمعية الأوقاف إلى الوزير الأكبر محمد العزيز بوعتور في ١/ ٤/ ١٣١٣هـ الموافق ٢١/ ٨/ ١٨٩٥م.

(٤) أ، و، ت، س ج، م ٣٠ / ١، ق: ٧، خطاب من الوزير الأكبر إلى رئيس جمعية الأوقاف في ٨/ ٧/ ١٣١٣هـ الموافق ٢٤/ ١٢/ ١٨٩٥م.

(٥) صميدة، مرجع سابق: ٢٧.

الأول يحمل اسـمه وأسماء الأمـاكن الموقوفة التي يشـرف عليها، والدفـتر الثاني يحـوي الوثائق الإدارية والمراسلات التي تتم بين الوكـيل، وجمعـية الأوقاف. أمـا الدفتـر الثالث ففـيه حصـر لدخل (واردات)، ومصـروفات (نفقات) أوقاف الحرمين الشريفين سنويـًا .

وليس للوكيل حرية التصرف في أيٍّ مبلغ يرد إليه من ريع أوقاف الحرمين الشريفين دون الرجوع إلى جمعيـة الأوقاف باستثناء الحالات الضرورية التي لا يمكن تأجيلها .

كُلِّف قسم المحـاسبة العامـة في جمعيـة الأوقاف بالتثبت من حـسابات الوكيل في الموارد والنفقـات، وحفظ دفاتر الحساب لإعداد الميـزانية العامة، والرفع بشأنها إلى الوزير الأكبر[1]. وعلى الرغم من أن صلاحيات جمعية الأوقاف في الإشراف على وكلاء الحرمين الشريفين تشمل محاسبة الوكيل، إلا أنها لم تكن تملك حق التـصرف في خزينة أوقاف الحـرمين الشريفين، واستمرت الخزينة تحت إشراف الوزير الأكبر بتوجيه من الباي . وانحصرت مهـمة رئيس الجمعـية في الشؤون الماليـة على إرسال دفاتر الحسـابات بعد تدقـيقـها إلى الوزير الأكـبر ليـرفعـها إلى البـاي من أجل أن يطلع عليـها ويقرها[2] .

ولعل الهـدف من إبعاد خزينة أوقـاف الحرمين عن سلطة الجـمعـية هو حرص البـاي على تجنب أي تلاعب قد يحـدث في أموال أوقـاف الحرمين الشريفين، فكانت الأمـوال توضع في صندوق خاص تحت السلطة المبـاشرة للباي[3].

---

(١) الحبشي، مرجع سابق : ٥٧ - ٥٨ .

(٢) أ، و، ت، س : ج، م ١/٣، ق : بدون، خطاب من رئيس جـمعيـة الأوقاف إلى الوزير الأكبر محمد العزيز بوعتور في ٢٦/٨/١٣١١هـ الموافق ٤/٣/١٨٩٤م .

(٣) ابن أبي الضياف، مصدر سابق : ٣ / ١١٣ .

وسعت سلطات الحماية الفرنسية إلى تقليص مسؤوليات رئيس جمعية الأوقاف، وعينت نائبًا فرنسيًّا إلى جواره[١]، وأخذت تعمل من أجل توجيه الجمعية كما تشاء[٢]، كما قامت بإحداث تغييرات في جمعية الأوقاف على جميع المستويات: الإدارية والعقارية، والمالية بهدف خدمة الاستعمار الفرنسي والمستوطنين [٣]، ومن تلك التغييرات التي لها علاقة وثيقة بأوقاف الحرمين الشريفين حرص السلطات الفرنسية على ترجمة الوثائق والمعاملات التي تجري بين إدارة جمعية الأوقاف، ووكلاء الحرمين الشريفين[٤]، كما ألزمت تلك السلطات الشهود الموثقين (العدول) عند كتابة العقود اعتماد التقويمين الهجري والميلادي في حين كان الأمر يقتصر في السابق على التقويم الهجري[٥].

وقد أحدثت السلطات الفرنسية إجراءات أخرى مست شؤون أوقاف الحرمين منها سن قوانين تجعل إنزال (إيجار أبدي) [٦] أوقاف الحرمين وغيرها

(١) القصاب، مرجع سابق : ٣٧٢ .

(٢) أثقلت السلطات الفرنسية كاهل الجمعية بأعباء مالية، وعمدت إلى الاستيلاء على عدد من الأراضي بطرق ملتوية، فخسرت الجمعية الكثير من أراضيها الفلاحية، وأصيبت ميزانيتها بالعجز وتراكمت عليها الديون . وبرز ذلك واضحًا قبيل الحرب العالمية الأولى (١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م)

صميدة، مرجع سابق : ٤٣ .

(٣) المرجع نفسه : ٣٥ .

(٤) انظر مثلاً الوثائق: أ، و ، ت ، س . ت ، ك ٦٥، م ٧٨١، ق : ٨، في ١٣٠١هـ/ ١٨٨٣م وأيضًا :

أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨١، ق ٤٥، في ١٣٠٥هـ/ ١٨٨٧م، وأيضًا :

أ، و، ت، س . ج، م ٣/٣٢، ق ٩، في ١٣١٠هـ/ ١٨٩٢م .

(٥) قاسم، أحباس : ٢٧٠ .

بعد فرض الحماية الفرنسية على تونس أصبح التقويم الميلادي مصاحبًا للتقويم الهجري في جميع المعاملات الرسمية .

(٦) المرجع نفسه، الصفحة نفسها .

في متناول الفرنسيين والمستوطنين وغيرهم من الأجانب، وهكذا أخذت وكالة أوقاف الحرمين تبرم العقود مع المستوطنين تماماً كما كانت تفعل مع التونسيين [١]، وكان الاختلاف الوحيد أن كتابة العقود مع غير العرب كانت تجري بالفرنسية مع ترجمة لها باللغة العربية [٢] .

(ج) موارد أوقاف الحرمين الشريفين :

كانت الأراضي الزراعية (الفلاحية) الموقوفة على الحرمين الشريفين تعدُّ من أهم أوقاف الحرمين الشريفين لأنها كانت تضم مساحات كبيرة من الأراضي الصالحة للزراعة الواقعة في أخصب المناطق في البلاد التونسية[٣].

وعمدت الحكومة التونسية إلى استثمار تلك الأراضي والاستفادة منها وذلك باستخدام التقنيات الحديثة في استصلاحها وتوفير أجود البذور لها. ولذا يمكن عد محصولات (الفلاحة) من بين موارد أوقاف الحرمين الشريفين[٤].

وكانت الأوقاف قد حققت موارد أخرى منها الضرائب التي كانت تفرض على مستغلي أراضي تلك الأوقاف ومبانيها . وكان من جملة (الموارد) أموال المعاوضة كأن يعوض الوقف بآخر على أن تزيد قيمة التعويض على قيمة العقار الموقوف بنسبة العشر على الأقل[٥] .

أما أهم موارد الأوقاف فهي تأجير الأراضي الزراعية أو المباني، والتأجير نوعان الأول ما يعرف بـ «الكراء»، وهو تأجير الوقف لمدة معينة تتراوح بين

---

(١) المرجع نفسه، الصفحة نفسها .
(٢) خ، أ، د، كرتون ١، في ١٣١٠هـ/ ١٨٩٢م .
(٣) انظر خريطة مواقع معظم الهناشير (الأراضي الزراعية) الموقوفه على الحرمين الشريفين في الملحقات الخريطة : ٧ .
(٤) الحبشي، مرجع سابق : ٥٨ .
(٥) قاسم، أحباس : ٢٦٦ .

عام وأربعة أعوام[١]، والثاني ما يعرف بـ «الإنزال»، وهو إيجار الوقف مدى الحياة [٢]، وبمبلغ ثابت (شهري أو سنوي) لا يتغير حتى لو تغيرت الأسعار أو تبدلت العملة بشرط «أن يكون كراء العقار ليس دون قيمة المثل حين العقد» [٣] .

وكانت قيمة الإيجار تتبع جودة المحصولات وكثرتها في تلك الأراضي، ومن أهم الأراضي التي جرى تأجيرها «هنشير الوادي» [٤]، و «هنشير عُميرة» [٥]. وغالبًا ما يقوم رجال الدولة وموظفوها باستئجار أراضي أوقاف الحرمين الشريفين ولا سيما الخصبة منها، ومن ذلك أن الوزير الأكبر مصطفى خزنة دار استأجر من وكيل أوقاف الحرمين الشريفين عام ١٢٥٨هـ/ ١٨٤٢م هنشير «القنوبل» قرب باب سعدون أحد أحياء العاصمة التونسية[٦] .

وكان من بين المباني السكنية التابعة لأوقاف الحرمين (الرباع) ما عرف باسم «الحوانيت»، ويُقصد بها المحلات التجارية [٧]، كذلك ما سمي

---

(١) المرجع نفسه : ٢٥٤ .

(٢) ويمكن أن يورّث الإنزال من ذلك الدار التي ورثتها منانة بنت حمدة عن زوجها، انظر : أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨١، ق : ٤١، خطاب من منانة إلى الوزير الأكبر محمد العزيز بوعتور في ١٥/ ١٠/ ١٣١٢هـ الموافق ١٠/ ٤/ ١٨٩٥م، وأيضًا عن توريث الإنزال . مزالي، مرجع سابق : ١٢٧ .

(٣) قاسم، مرجع سابق : ٢٦٦ .

(٤) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨١، ق : بدون، رسالة من الوزير الأكبر إلى وكيل أوقاف الحرمين الشريفين في ٩/ ٨/ ١٣٠٠هـ الموافق ١٤/ ٦/ ١٨٨٣م .

(٥) أ، و، ت، س : ج، ك ٣٠، م ١/ ١، ق : ١٨٦، بيان بالأملاك المحبوسة على الحرمين الشريفين.

(٦) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨١، ق : بدون، خطاب من وكيل الحرمين الشريفين إلى الوزير الأكبر في ١٤/ ٥/ ١٢٦١هـ الموافق ٢٠/ ٥/ ١٨٤٥م .

(٧) خ، أ، د، ك ١، ق : بدون، رسم ثلاثة حوانيت في عام ١٢٩٨هـ/ ١٨٨١م

«الفنادق» وتحوي غرفًا تتخذ إما للسكنى، أو للصناعة [١]، ومثال ذلك تخصيص فنادق وقف على الحرمين لصناعة الحرير[٢]، وكذلك تخصيص بعض المطاحن وقفًا على الحرمين مثل الطاحونة الموجودة قرب جامع بوبابين بموقع الكتانية في تونس العاصمة وكانت تؤجر شهريًا، وتضاف أجرتها إلى ريع أوقاف الحرمين الشريفين[٣] .

ويمكن الإشارة إلى مصدر آخر لموارد أوقاف الحرمين الشريفين هو تأجير بعض المنازل التي كانت سابقًا تعطى بالمجان، غير أنه منذ عام ١٣٢٠هـ/ ١٩٠٢م أصبحت تؤجر على الوافدين إلى تونس من أهالي الحرمين الشريفين [٤] .

(د) نفقات أوقاف الحرمين الشريفين :

اهتمت الحكومة التونسية بأوقاف الحرمين الشريفين نظرًا لما لها من مردود جيد على الوضع الاقتصادي للبلاد التونسية، هذا بالإضافة إلى دعمها صلات تونس بالحجاز . وكان يخصص جزء من ريع أوقاف الحرمين الشريفين للإشراف على الأوقاف ورعايتها وإصلاح ما أصابه الخراب منها[٥]، كما يصرف جزء آخر في تجهيز الحج [٦]. ويجري تخصيص الجزء الأخير للأعمال الخيرية الخاصة بأهالي الحرمين الشريفين، وكان هذا الجزء

---

(١) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٩١ مكرر، ق : بدون، رسم فندق في الوطن القبلي بتاريخ ١٣٣١هـ/ ١٩١٣م .

(٢) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨٥، ق : بيروت، خطاب من وكيل أوقاف الحرمين إلى الوزير الأكبر في ٢٥/ ٥/ ١٢٧٧هـ الموافق ٨/ ١٢/ ١٨٦٠م .

(٣) خ، أ، د، ك ١ ، عام ١٢٥٨هـ/ ١٨٤٢م .

(٤) أ، و، ت، س ج، ك ٣٢، م ١/ ٢، ق : ٤٢، خطاب من وكيل التونسيين بمكة وهو عبدالرحمن الزمزمي إلى الكاتب العام بالبلاد التونسية في (٦/ ٨/ ١٣٢٢ هـ- ١٥/ ١٠/ ١٩٠٤م) .

(٥) الحبشي، مرجع سابق : ٥٩ .

(٦) صميدة، مرجع سابق : ١٧ .

يوزع على المستحقين من جماعة الحرمين الشريفين سواء في تونس أم في الحجاز، وكانت حصة الحجاز من ريع أوقاف الحرمين تسلم إلى الباي، وتعرف بـ «الصرة» [١]. ويتم توزيعها بالحجاز غالبًا في فترة الحج [٢].

أما حصة تونس من الريع فكانت تصرف إعانةً لجماعة الحرمين الشريفين من الوافدين على تونس، أو المقيمين فيها[٣]. فقد كان يفد إلى تونس زائرون من مكة والمدينة تخصص لهم مبالغ معينة من خزينة الأوقاف، كما أن منهم من يحمل توصيات من ولاة الحجاز، أو كبار شخصياتها، وفيها تعريف بهم وبصفاتهم الحميدة، ومنزلتهم الاجتماعية والعلمية، كالأعيان، والعلماء، وطلبة العلم، وتحث هذه التوصيات المشرفين على أوقاف الحرمين الشريفين بإعانة حامليها.

أما الذين يستقرون في تونس من أهالي الحرمين الشريفين فقد كانت تخصص لهم كذلك مبالغ معينة تدفع لهم شهريًا من ريع أوقاف الحرمين الشريفين لإعانتهم على العيش في تونس[٤]. والمتبقي في خزينة أوقاف الحرمين الشريفين بعد صرف المبالغ المعتادة كان المسؤولون في إدارة أوقاف الحرمين الشريفين يصرفونه في الوجوه التي كانوا يرون أنها مناسبة لتأدية واجبهم تجاه أوقاف الحرمين الشريفين. ويمكن إيراد مثال على وجوه صرف المبلغ المتجمع في خزينة أوقاف الحرمين الشريفين جرى عام ١٣٠٨هـ/ ١٨٩١م، فقد خصص من أصل ما تجمع من الدخل في ذلك العام، وهو مئة وثمانية عشر ألفًا وخمس مئة فرنك: عشرون ألفاً للاهتمام بأوقاف الحرمين الشريفين، والإشراف عليها وترميم ما تهدم منها

---

(١) سيرد تعريفها في الجزء الخاص بالصرة : ٢٢٧ .

(٢) صميدة، مرجع سابق : ١٧ .

(٣) انظر الفصل الرابع : ٢٧٠- ٢٧٣ .

(٤) قاسم، الوقف : ٤٨ .

تحت بند يسمى «أداء عقارات الوقف»، كما خصص أربعة وخمسون ألفًا لصرة الحرمين الشريفين ويشمل هذا المبلغ مرتب حامل الصرة وقدره أربعة آلاف فرنك[١] [٢].

وقد أودع ما تبقى من المبلغ وهو «أربعة وأربعون ألفًا وخمس مئة فرنك» في خزينة أوقاف الحرمين الشريفين[٣] كي يُصرف إعانات لأهالي الحرمين، وكذلك مرتبات للموظفين القائمين على إدارة أوقاف الحرمين الشريفين[٤]، ومنهم الوكيل، ونائبه، وشهود الوقف وغيرهم. وكانت تلك المرتبات تقتطع مبلغًا لابأس به من ريع أوقاف الحرمين الشريفين؛ فمثلاً بلغ مرتب الوكيل في عام ١٢٧٧هـ/ ١٨٦١م، وهو محمد الأصرم خمس مئة ريال تونسي شهريًا.

أما النائب فقد كان مرتبه ثلاث مئة ريال في العام نفسه. أما شهود الوقف فقد خصص لهم ستون ريالاً شهريًا عام ١٢٧٧هـ/ ١٨٦١م [٥] [٦].

(هـ) المشكلات المتعلقة بأوقاف الحرمين الشريفين:

واجهت الوزارة الكبرى بصفتها الجهة العليا المنوط بها الإشراف على إدارة

---

(١) انظر واردت أوقاف الحرمين الشريفين ونفقاتها في بعض المناطق في عامي ١٣٢١هـ/ ١٩٠٣م-١٩٢٥هـ/ ١٩٠٧م في الملحقات، جدول (٤).

(٢) أ، و، ت، س. ت ٦٥، م ٧٨٥، ق : بدون، المنتفعون بريع أوقاف الحرمين، (بدون تاريخ).

(٣) أ، و، ت، س : ج، ك ٣٢، م ١/ ٦، ق ١٠١، خطاب وكيل أوقاف الحرمين محمد صفر إلى الوزير الأكبر محمد العزيز بوعتور في ١٣/ ٩/ ١٣٠٩هـ الموافق ١٠/ ٤/ ١٨٩٢م.

(٤) انظر مرتبات بعض الموظفين في ادارة أوقاف الحرمين الشريفين لعامي ١٢٧٧هـ/ ١٨٦١م و١٢٩١هـ/ ١٨٧٤م لشهري جمادى الأولى وذي القعدة في الملحقات، جدول: ٥.

(٥) انظر مرتبات بعض الموظفين في إدارة جمعية أوقاف الحرمين الشريفين في تونس لعامي ١٢٧٧هـ/ ١٨٦١م، و ١٢٩١هـ/ ١٨٧٤م في الملحقات، الجدول: ٥.

(٦) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨١، ق : ٢٠، قرار صدر من المشير محمد الصادق باشا باي في ٩/ ٩/ ١٢٧٧هـ الموافق ٢٠/ ٣/ ١٨٦١م.

أوقاف الحرمين الشريفين بعض المشكلات التي كانت تؤثر في سير العمل بأوقاف الحرمين الشريفين من جهة، وفي واردات خزينة أوقاف الحرمين الشريفين من جهة أخرى .

وكان من أبرز تلك المشكلات عدم الثقة في أمانة مسؤولي تلك الأوقاف، وخاصة الوكلاء منهم. مثال ذلك ما جاء في خطاب الوزير الأكبر مصطفى خزنة دار في عام ١٢٧٧هـ/ ١٨٦١م إلى وكيل أوقاف الحرمين الشريفين ويدعى محمد الأصرم أوضح فيه الوزير وجود مبالغ سجلها الوكيل على أنها صرفت لإدارة مال أوقاف الحرمين مع أنه - كما تبين للوزير - لم تسلم للإدارة وما زالت بيد الوكيل "، وقد بقيت عندكم مع أنها دخلت في الحسابات المتقدمة المراد أنكم توجههم (كذا) لمحل وزارة المال " [١] .

ومثال آخر ما ورد في رسالة المشير محمد الصادق باشا باي في ١٢٨٨هـ/ ١٨٧٢م إلى وكيل أوقاف الحرمين الشريفين ويدعى حسونة المتالي يطلب منه تسديد مبلغ وقدره مئتان وأحد عشر ريالاً ونصف كان قد استلمها من أجرة غلة الزيتون في إحدى الأراضي الزراعية لأوقاف الحرمين الشريفين [٢].

ومثال أخير ما ورد في خطاب وكيل أوقاف الحرمين الشريفين محمد صفر عام ١٢٩٨هـ/ ١٨٨١م إلى الوزير الأكبر مصطفى بن إسماعيل يذكر فيه أن وكيل أوقاف الحرمين الشريفين السابق وهو محمد العربي زروق كان قد تلاعب بما تحت يده من أموال قبضها من أوقاف الحرمين الشريفين

(١) أ، و، ت، دفتر ٢٣٢٣، ق : بدون، في رجب ١٢٧٧هـ / يناير ١٨٦١م .

(٢) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٨٧١، ق : بدون، في ٢/ ٣/ ١٢٨٨هـ الموافق ٢١/ ٥/ ١٨٧١م.

فصرف منها ما صرف، واحتفظ بالباقي دون أن يوفي مرتبات الموظفين، ومرتبات جماعة أهالي الحرمين الشريفين، وقد قبض دراهم بنفسه لم يطلع عليها العدول (الشهود والموثقون)، ولم تسطر بأزمة الحانوت وغاية ما أمكن أنا لخصنا حسابه على سبيل التقريب عن الأزمة " [١]، وقدر الوكيل محمد صفر ما بقي لدى محمد العربي زروق من مبالغ حسبما ورد في أزمة الحانوت، فكانت تسعة وعشرين ألفًا ومئتين وخمسة وخمسين ريالاً ونصف وعشرة نواصر ونصف[٢].

وحادثة التلاعب هذه تشبه ما ارتكبه وكيل أوقاف الحرمين الشريفين محمد بن عاشور في عام ١٣٠٩هـ/ ١٨٩٢م إذ بقيت في ذمته مبالغ لم يسددها لجمعية الأوقاف، ومقدارها ثمانية وستون ألفًا وسبع مئة وواحد وتسعون ريالاً وثمانية وسبعون خروبة، وعُرض هذا الأمر على الحكومة التونسية . وبقيت قضية بن عاشور قائمة إلى أن قدّم بعد ذلك ١٣١٦هـ/ ١٨٩٨م إلى جمعية الأوقاف وصلاً بمبلغ ألفي ريال فقط [٣].

وبالإضافة إلى تلاعب الوكلاء في أموال أوقاف الحرمين الشريفين كان نواب الوقف يقومون بتلاعب مشابه؛ مثال ذلك ما ورد في خطاب وكيل أوقاف الحرمين الشريفين محمد صفر في عام ١٣٠٣هـ/ ١٨٨٦م إلى الوزير الأكبر محمد العزيز بوعتور يخبره أن ثمانية من نواب أوقاف الحرمين في بعض مدن البلاد التونسية مثل نابل، و الحمامات، وتوزر وغيرها لم يحاسبوا إدارة أموال الوقف مدة ولايتهم، كما أن بعضهم لم يحاسب تلك

(١) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨٥، ق : بدون، في ٢/ ٧/ ١٢٩٨هـ الموافق ٣٠/ ٥/ ١٨٨١م .

(٢) الوثيقة نفسها .

(٣) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨٩، ق : بدون، تقرير كتبه مندوب جمعية الأوقاف بخصوص قضية ابن عاشور، وقد ورد إلى الجمعية في عام ١٢٩٨هـ/ ١٨٨١م ولم يذكر فيه من الذي قدم الوصل .

الإدارة مدة عامين أو أكثر .

وذكر محمد صفر في خطابه [١] «وقد كاتبتهم المرة بعد المرة في قدومهم للحساب ولم يأتوا، وبمقتضاه فالمرغوب من جناب السيادة صدور الإذن بإحضار من ذكر لعمل حساب الوقف لنهاية عام ١٣٠٣هـ ١٨٨٦م التاريخ والنظر بما علم لكم ودمتم في أمن الله محفوظين بعين عنايته والسلام. .».

ومثال آخر ما ورد في خطاب الوزارة الكبرى إلى وكيل أوقاف الحرمين الشريفين في عام ١٣٠٦هـ/ ١٨٨٩م طلبًا للتثبت من صحة أقوال أشخاص ثلاثة كانوا قد استأجروا أماكن في تونس العاصمة من وقف الحرمين الشريفين، وسددوا ما عليهم من الأجرة، «ولم يأخذوا توصيلاً والآن قام عليهم نائبكم مطالبًا لهم بجميع الكراء عن العامين المذكورين، وأنكرهم في الخلاص. فالمراد التعريف بحقيقة النازلة، وما سبب السكوت عنهم إبان الكراء إلى الآن . . . » [٢] .

إلا أن الشكاوى التي كانت ترد إلى الوزير الأكبر بشأن التلاعب بأموال الحرمين الشريفين لم تكن تعني أن الوزير الأكبر نفسه كان بعيدًا عن الشبهة . ظهر هذا مثلاً حين تمت محاسبة وكيل أوقاف الحرمين الشريفين حسونة المتالي عن عام ١٢٧٨هـ/ ١٨٦١م، وقد تبين [٣] «أنه سجل في ١٢٧٨هـ/ ١٨٦١م أن الوزير الأكبر اتصل بـ (١٢٠ ٨٠٠ ,) منها ١٠٠ ألف لمرة (كذا) الوزير» .

(١) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨١، ق ٣٤، خطاب بتاريخ ١٦/ ٦/ ١٣٠٣هـ الموافق ٢١/ ٣/ ١٨٨٦م .

(٢) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨١، ق ٣٩، في ١٨/ ١٢/ ١٣٠٦هـ الموافق ١٥/ ٨/ ١٨٨٩م .

(٣) أ، و، ت، دفتر ٢٣٢٣، ق : بدون، عام ١٢٧٨هـ/ ١٨٦١م .

وإضافة للمشكلات المتعلقة بالتلاعب في أموال الوقف تعددت الشكاوى المتعلقة بتهاون بعض المشرفين على أوقاف الحرمين الشريفين في مسألة تنظيم دفاتر تلك الأوقاف، ومثال ذلك الخطاب الذي ورد إلى الوزير الأكبر محمد العزيز بوعتور في ١٢٩٨هـ/ ١٨٨١م من محمد صفر وكيل أوقاف الحرمين الشريفين جاء فيه[1]: «فالذي تعلم السيادة أنني لما باشرت خدمة أوقاف الحرمين الشريفين وجدت اعتماد العدول فيها على أزمة الأكريه (عقود الإيجار) وأزمة بيوع الغلة (عقود البيع) ورسوم قديمة بالية، ولم أجد دفترًا حاويًا لجميع الربع والعقار لبيان الأسماء والأماكن والأنواع، وبيان ما هو بالحاضرة وما هو بخارجها مع أن ذلك من ضروريات هذه الخدمة، فظهر لي أن من الأكيد ضبط جميع الأوقاف داخل الحاضرة وخارجها بدفتر يُبيَّن به أسماؤها، وحدودها، وأماكنها، وأنواعها بحيث يكون حاصرًا لها على الوجه، ويكون حجة لها في الحال والاستقبال . وبناءً على ذلك أعلمنا جنابكم ليصدر الإذن في إتمامه على الوجه المذكور لنا وللشيخ القاضي بالحاضرة في إرسال مراسلات للنواب الشرعية بالخارج في تحرير ما بأعمالهم من أوقاف لبيان أسمائها وحدودها وأماكنها وعددها» .

وواجهت إدارة الأوقاف مشكلة أخرى هي إهمال بعض موظفي الأوقاف في تأدية مهامهم على الوجه الأكمل، وهذا أمر كان يدفع إدارة الأوقاف إلى اتخاذ الإجراءات اللازمة بحق أولئك الموظفين قد تصل إلى الفصل من الخدمة. ومثال ذلك ما لحظه وكيل أوقاف الحرمين الشريفين محمد صفر في عام ١٣٠٠هـ / ١٨٨٣م من تهرب بعض عدول الوقف عن تأدية مهامهم الرسمية الموكلة إليهم، وعدم حضورهم إلى مقر الإدارة يومياً بسبب كثرة أشغالهم . ودفع هذا محمد صفر وكيل أوقاف الحرمين الشريفين إلى رفع

(١) أ، و، ت، س.ت، ك ٦٥، م ٧٨٥، ق : بدون، بتاريخ ٥/٤/١٢٩٩هـ الموافق ٢٣/٢/١٨٨٢م .

خطاب [1] إلى الوزير الأكبر محمد العزيز بوعتور في ٢/ ٤/ ١٣٠٠هـ الموافق ٩/ ٢/ ١٨٨٣م يرى فيه زيادة مرتبات الملتزمين منهم بالحضور «فالمطلوب من رفيع جنابكم إصدار الإذن لنا في زيادة ريالين يومياً[2] في مرتب كل واحد من الثلاثة المذكورين أعلاه، والنظر الأعلى لكم والسلام». وكان هدف الوكيل من ذلك الطلب هو الالتزام بالعمل الموكل إليهم .

وواجهت المسؤولين عن إدارة أوقاف الحرمين الشريفين بالإضافة إلى ما سبق مشكلات خاصة بالمنازعات على أحقية بعض الأراضي التابعة لتلك الأوقاف، وأدت هذه المنازعات إلى عرقلة تأجير بعض الأراضي لحساب أوقاف الحرمين الشريفين[3] وكانت مثل هذه القضايا ترسل إلى الوزير الأكبر للنظر فيها[4]، كما أن قضايا التزوير في الأوراق الرسمية الخاصة بأوقاف الحرمين الشريفين كانت تعد من المشكلات المتعلقة بأوقاف الحرمين الشريفين، ومثال ذلك ما ورد في خطاب وكيل أوقاف الحرمين الشريفين محمد العربي زروق إلى الوزير الأكبر مصطفى خزنة دار في ٢١/ ٤/ ١٢٩٧هـ الموافق ١/ ٤/ ١٨٨٠م بشأن التحقيق فيما نسب إلى وكيلين سابقين للوقف هما (أحمد برناز، ومحمد الكامل) عن تزييف أوراق تتعلق بثمن هنشير (لم يرد ذكرالموقع) اشتُري معاوضة، وتبين وجود اختلاف في المبلغ بين تذكرتين قدمتا إلى جمعية الأوقاف بخصوص بيع الهنشير فبان

---

(١) أ، و، ت، س . ت، ك٦٥، م ٧٨٥، ق : بدون، في ٢/ ٤/ ١٣٠٠هـ الموافق ٩/ ٢/ ١٨٨٣م .

(٢) كان المرتب المخصص لكل واحد منهم ثلاثة ريالات يوميًا . الوثيقة نفسها .

(٣) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨٥، ق ٢٢، خطاب من وكيل الحرمين محمد صفر إلى الوزير الأكبر مصطفى خزنة دار في ٣/ ٩/ ١٢٩٨هـ الموافق ٢٩/ ٧/ ١٨٨١م .

(٤) انظر الوثيقة نفسها .

بالكشف أنهما مزيفة من قبل سبق من الوكلاء[١] .

والأمثلة كثيرة على المشكلات المتعلقة بتحصيل إيجارات المباني والأراضي التابعة لأوقاف الحرمين الشريفين التي كان على القائمين على إدارة تلك الأوقاف معالجتها، من تلك الأمثلة ما ورد في خطاب [٢] من مصطفى الرفاعي شيخ المكاوية (وكيل جماعة الحرمين في تونس) إلى الوزير الأكبر خير الدين في ١٢٩٣هـ/ ١٨٧٦م يخبره فيه بأنه كان قد استأجر داراً من وقف الحرمين الشريفين غير أنه لم يتمكن من تسديد المبلغ كاملاً،وهو ثلاث مئة ريال «وقد أخرجوني من الدار المذكورة والآن يريدون أن يوقفوا ويعرقلوا راتبي . . ، والمرجو من عميم مراحمكم بأن يمهلوني على مطلوب من عليّ نظركم البهي بإعطائي داراً من وقف الحرمين نستتر بها أنا وعيالي وأجركم على الله . . » .

وبسبب تكرار المسائل المعروضة على إدارة الحرمين الشريفين بشأن الإيجارات عمدت الوزارة الكبرى إلى توجيه خطاب إلى قيّاد (عمال أو نوّاب) بعض المدن في تونس (منها باجة، وتبرسق) في ٥/ ١٠/ ١٣٠٠هـ الموافق ٨/ ٨/ ١٨٨٣م، تطلب منهم مساندة وكيل الوقف في استخلاص أجرة أوقاف الحرمين الشريفين في تلك الجهات؛ لأن بعض المستأجرين كان يماطل في دفع ما عليه من أجرة. وأوصت الوزارة في خطابها [٣] إلى قايد (عامل) باجة «فالعمل أن تجتهد معه في خلاص ذلك، ومن تلدد(ماطل) في

---

(١) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨٥، ق ١٦، خطاب من وكيل أوقاف الحرمين إلى الوزير الأكبر في ٢١/ ٤/ ١٢٩٧هـ الموافق ١/ ٤/ ١٨٨٠م .

(٢) أ، و ت، س . ت ٥٦، م ٧٨٩، ق ١٣، خطاب صدر في ٢٤/ ١١/ ١٢٩٣هـ الموافق ١٠/ ١٢/ ١٨٧٦م .

(٣) أ، و، ت، س. ت، ك ٥٦، م ٧٨١، ق:٣٢،خطاب صدر في ١٥/ ١٠/ ١٣٠٠هـ الموافق ٨/ ٨/ ١٨٨٣م .

دفع ما عليه تعرقل عليه ما عنده من النعمة بهناشير الوقف حتى يخلص مع الوقف في كرا ما ذكر والسلام» .

وكانت تصل المسؤولين عن إدارة أوقاف الحرمين وعلى رأسهم الوزير الأكبر خطابات ترجو تخفيض مقدار الأجرة المتعين عليهم دفعها لقاء استئجار عقارات من وقف الحرمين الشريفين، من ذلك مثلاً الطلب(١) الذي تقدمت به منانة بنت حمدة بندرلي في ١٣١٢هـ / ١٨٩٤م إلى الوزير الأكبر بشأن تخفيض أجرة «الإنزال» لفقر حالها. على أنه لو ثبت إعسار المستأجر فإن الأمر كان يعرض على الباي للنظر فيه، وقد يصدر الباي أمره بإعفاء المستأجر من دفع جميع المبلغ المطلوب منه. ومثال ذلك الخطاب(٢) الموجه من الوزارة الكبرى إلى وكيل أوقاف الحرمين الشريفين في عام ١٣٠١هـ/ ١٨٨٤م بشأن عبدالجليل بن عياد المستأجر لهنشير الغيبة (في ضواحي العاصمة تونس) منذ عام ١٢٩٨هـ/ ١٨٨١م، فقد كان قد ترتب على هذا المستأجر دفع مبلغ وقدره أحد عشر ألفًا وأربع مئة وخمسة وسبعون ريالاً عن ثلاثة أعوام. وصدر الإذن العلي بالموافقة على إعفائه من قسم من هذا المبلغ وقدره ستة آلاف وأربع مئة وخمسة وسبعون ريالاً على أن يدفع خمسة آلاف ريال فقط. والملحوظ أن الوكلاء ومن بينهم وكلاء أوقاف الحرمين الشريفين كانوا يحرصون على زيادة موارد الأوقاف المالية في حين أن المستأجرين يعملون على إنقاصها، وأدى هذا الخلاف بين الطرفين إلى سعي المستأجرين لمغالطة الوكلاء حتى ينقصوا من المبالغ المقررة (٣) .

(١) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨١، ق : ٤١، خطاب صدر في ١٥/ ١٠/ ١٣١٢هـ- ١٠/ ٤/ ١٨٩٥م.

(٢) أ ،و، ت، س. ت ٦٥، م ٧٨١، ق : ٨، خطاب صدر في ٧/ ٨/ ١٣٠١هـ الموافق ١/ ٦/ ١٨٨٤م.

(٣) قاسم، أحباس: ٢٦٥ .

صدر في ٢١/ ١٠/ ١٣٧٥هـ الموافق ٣١/ ٥/ ١٩٥٦م قرار يقضي بإلغاء نظام الأوقاف=

(و) الأوقاف التونسية في الحجاز :

من المعروف أن أراضي الحرمين الشريفين تضم مجموعة من الأملاك الموقوفة على الحرمين من مختلف أنحاء العالم الإسلامي، وتلك الأملاك منها ما هو عام مثل أوقاف الحرمين الشريفين، وأوقاف المساجد، وأوقاف المؤذنين . ومنها ما هو خاص مثل الأوقاف الخيرية، أو العائلية، أو أوقاف الجنسيات[(١)] .

وجرت العادة أن يقوم بعض الحجاج القادمين إلى الحجاز بتخصيص جزء من المبالغ الكثيرة التي يحملونها لشراء عقارات توقف على الحرمين الشريفين، أو على شيء من الخدمات الموجودة في الحجاز، ويدخل هذا في نطاق الأوقاف العامة .

أما ما يدخل في نطاق الأوقاف الخاصة في الحجاز فهي الأوقاف التي يخصصها أصحابها لذوي الحاجات إذ كان بعض المجاورين يشترون بأموالهم عقارًا يسكنون فيه، ثم يوقفونه بعد وفاتهم على الفقراء، وهذا يعرف بالوقف الخيري .

ويدخل ضمن نطاق الأوقاف الخاصة أيضًا تلك الأوقاف العائلية التي يوقفها شخص ما في ذريته بشروط معينة منها أن يؤول الوقف بعد انقراض ذرية الموقف مثلاً إلى أوقاف أحد الحرمين الشريفين .

أما أوقاف الجنسيات - وتعد أوقافًا خاصة - فهي الأوقاف التي يعود ريعها لفائدة جنسية معينة أو منطقة معينة مثل أوقاف الحضارم، أو أوقاف

= العامة، وشمل هذا القرار أوقاف الحرمين الشريفين العامة، ومن ثم تم التوقف عن إرسال مبلغ الصرة إلى الحجاز منذ ذلك الوقت وبلغ آخر مبلغ للصرة (مليون فرنك) . انظر : الحبشي، مرجع سابق : ٦٨ .

(١) ابن سلم، مرجع سابق : ٣٦ .

المغاربة[١] وهم من شمال أفريقيا من ليبيا، وتونس، والجزائر، والمغرب الأقصى[٢] .

وبالإضافة إلى ذلك يوجد في الحجاز - في تلك الفترة - أوقاف على الزوايا. ومن أمثلة ذلك رباط وزاوية عبد القادر الجيلاني في مكة المكرمة، ويتكون الرباط من ست عشرة خلوة، منها ثماني خلاوي خَرِبة. والناظر عليهما شخص من تونس يدعى عبد الرحمن رجب صدقة المغربي التونسي[٣] .

وتعرف إدارة الأوقاف في المدينتين المقدستين في العهد العثماني باسم الخزينة الجليلة، وتوجد في مكة والمدينة ومسؤوليتها الإشراف على الأوقاف العامة، فهي التي تتكفل بتلك الأوقاف، وتصرف ريعها على شؤون الحرمين الشريفين، كما أن من مسؤولياتها الإشراف على إدارة الأوقاف الخاصة ومتابعة نظارها (وكلائها) .

وكان جزء من ريع الأوقاف الخاصة يصرف لترميم تلك الأوقاف، أما الباقي فيقتطع منه مبلغ في حدود ١٠٪، ثم تنفذ شروط الوقف العامة حسب وصية الموقف [٤].

---

(١) المرجع نفسه : ٣٦ - ٣٨ .

(2) A.N.T.S: A, Car 279 . bis, Dos 1,

تقرير صدر من مصطفى إسكندراني من المدينة المنورة إلى الكاتب العام للحكومة التونسية في ٣٠/٣/١٣٣٧هـ الموافق ٢٢/١/١٩١٦م .

(٣) والرباط في الأصل كان ينشأ على حدود الدولة الإسلامية يقيم فيه المرابطون على الثغور الإسلامية للدفاع عن بلاد المسلمين . ويبدو أن هذا المعنى أخذ من أربطة الحدود، وأطلق على الأماكن التي تبنى ليسكن فيها بعض المهاجرين المنقطعين في الحرمين للمجاورة، وبعض الأربطة يطلق عليها اسم مدرسة، وهذه الأربطة يقوم بإنشائها كثير من الموسرين ابتغاء الأجر من الله وهي من الصدقات الجارية .

ابن سلم، مرجع سابق : ٣٩ - ٤٠ .

(٤) شوقي، مرجع سابق : ٤١ .

ويبدو أنه من المتعذر رصد أعداد الأوقاف التونسية في الحجاز، لأن تلك الأوقاف تقع ضمن الأوقاف المغاربية بشكل عام، ولا يمكن فصلها عنها، ولكن يُستدل من تقرير صدر من دائرة الكتابة العامة بالحكومة التونسية [١] في عام ١٣٣٣هـ/ ١٩١٤م أن أعداد الأوقاف التونسية الخاصة في الحجاز كانت الأقل، فقد كان للمراكشيين (المغرب الأقصى) ست بنايات خيرية، وكان للجزائريين خمسة أربطة خيرية، بينما لم يشر التقرير إلا إلى بنايتين للتونسيين في الحجاز.

وترد إشارات متعددة عن الدور الموقوفة لصالح المغاربة بشكل عام (ومن بينهم التونسيون) في كل من مكة المكرمة والمدينة المنورة، ففي مكة وجدت دار عرفت بـ «دار سيدنا عثمان رضي الله عنه» كانت ملكًا للخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه (٢٣-٣٢هـ/ ٦٤٤-٦٥٣م) وقد حصل عليها سلطان المغرب الأقصى المولى سليمان بن محمد (١٢٠٦ - ١٢٣٨هـ / ١٧٩٢- ١٨٢٣م) معاوضة، وأوقفها على المغاربة المجاورين في مكة المكرمة . وكانت الدار تتكون من ثمانية وخمسين غرفة موزعة على طابق أرضي وطابق علوي، وبناؤها قديم جدًا وأسقفها من الخشب وسعف النخيل. وكان يوجد في هذه الدار بئر اشتهرت بأن المحمومين يغتسلون بمائها للاستشفاء، وجرت العادة منذ ذلك الوقت أن يقصد الدار طوال السنة وخاصة في موسم الحج عدد غفير من المرضى وغيرهم لشراء بعض من ماء البئر لقاء مبلغ زهيد .

وكان وكيل الدار يقوم بجمع المبالغ المستحصلة، ويطرح منها ما يخص الصيانة، ثم يوزع الباقي على سكان الدار الفقراء، ولم يكن للحجاج

---

(1) A.N.T.S: A, Car 279 . bis, Dos 1,

تقرير صدر عن دائرة الكتابة العامة للحكومة التونسية، قسم الدولة، بتاريخ ١٣٣٣هـ/ ١٩١٤م .

المغاربة علاقة بهـذه الدار إلا أنه غالبًا ما كان شاغلو الدار يتـركون غرفهم خلال موسم الحج لفائدة الحجاج بهدف تحقيق الكسب، ويختار الوكيل عادة من بين سكان الدار، ثم تقر إدارة الأوقاف هذا الاختيار، ولم يكن لشاغلي الدار عائلات في مكة [١] .

ومن أمثلة الدور الموقوفة لصـالح المغاربة بشكل عام في المدينة المنورة دار أوقفها أحد الهنود، هذا إضافة إلى أوقاف أخرى لصالح فقراء المغاربة كانت إيرادتها توزع سنويًّا بينهم [٢]، كما وجد في المدينة أوقاف عرفت بـ «أربطة المغاربة» [٣] .

وهناك بعض الأمثلة القليلة عن أوقاف التونسـيين على وجه التحديد في كل من مكة والمدينة، منها مدرسة (رباط) في مكة، بناها تونسي من جزيرة جربة يدعى الحاج علي دقـروق، أوقفها على المجاورين الـتونسيين في مكة وتضم المدرسة أماكن لسكنى هؤلاء[٤].

وكذلك اشترت أميرة من العائلة المالكة في تونس هي والدة الباي الناصر بن محمد (١٣٢٤- ١٣٤٠هـ/ ١٩٠٦ - ١٩٢٢م) مـوضعًا في مكة عبارة عن سبـيل ماء يقع قـرب الحرم المكي ليـشرب ويتوضـأ منه المحتـاجون من الحجاج التونسيين وغيرهم [٥].

---

(1) A.N.T.S: A, Car 269 . bis, Dos 1,

تقـرير قدمـه العـربي بسـيس إلى الكتـابة العامـة للحكومـة التـونسيـة، قـسم الدولة، في ٢٢/ ١/ ١٩١٦م الموافق ٣٠/ ٣/ ١٣٣٧هـ .

(٢) الوثيقة نفسها .

(٣) ابن سلم، مرجع سابق : ٤٠ .

(4) A.N.T.S: A, Car 279 1. bis, Dos 1,

تقرير صدر من الكتابة العامة، قسم الدولة، في ١٣٣٢هـ / ١٩١٤م .

(٥) الوثيقة نفسها .

ومن العائلات التونسية التي كانت لها دُور موقوفة في المدينة المنورة «آل التاجوري»، وقد اشترى أحد أفرادها داراً بـ «المناخة السلطانية» في المدينة المنورة مع نخل ملحق بها، وأوقفهما على أولاده، ثم من بعدهم على أفراد طائفة المغاربة القاطنين بالمدينة المنورة [١]، وكذلك قام عبدالرحمن المغيربي من القيروان بإنشاء مدرسة في المدينة المنورة لفقراء الطلبة وتحوي مقراً لسكنى المحتاجين منهم [٢] .

وهكذا فإن التونسيين لم يقتصروا على وقف الأملاك لصالح أهالي الحرمين الشريفين في تونس نفسها، بل قاموا أيضاً بوقف عدد من الأملاك في الحجاز .

ويشير هذا إلى عمق الروح الإسلامية في نفوسهم، وحبهم لعمل الخير رغبة في نيل الثواب من الله، وهي أمور تعزز روح التعاون والتكاتف بين المسلمين كافة .

ولا شك أن وجود هذه الأملاك التونسية (المغاربية بوجه عام) الموقوفة في الحجاز كان عاملاً مهماً في إثراء صلات تونس بالحجاز .

رابعاً - الصُّرة ودورها في دعم الصلات بين البلدين :

(أ) تعريف الصرة :

تعرّف الصره لغوياً بأنها «شَرْجُ (كيس) الدراهم والدنانير، وقد صرها صراً. غيره: الصرة صرة الدراهم وغيرها . . وصررت الصرة : شددتها»[٣] .

(١) عبدالرحمن الأنصاري، تحفة المحبين والأصحاب في معرفة ما للمدنيين من الأنساب، تحقيق محمد العروسي المطوي، (المطبعة العتيقة، تونس ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م) : ١٣١ .

(٢) الجودي، مصدر سابق : ١٥ .

(٣) ابن منظور، مصدر سابق : ٤ / ٤٥٢ .

والمقصود بها هنا ما أورده ابن الخوجة [١] من أن الصرة في عرف المشارقة عبارة عن مال يتجمع من التجارة ونحوها بين شريكين يوجّه منه أحدهما للآخر، فيعبر عنه تارة بالصرة، وتارة بالأمانة .

ولما كان هذا الاستعمال مما اعتاده أهل المشرق كانت تسمية المال الموجه باسم صرة من تونس للحجاز بمناسبة وقفة كل عام (أي وقفة عرفة) لأهالي الحرمين الشريفين اعتباراً لذلك العرف بالمشرق، وغلب عليه هذا الاستعمال بالديار التونسية حتى صار لا يطلق إلا عليه. وإرسال الصرة لم يكن أمراً خاصاً بالبلاد التونسية فقط، وإنما كانت تقوم به بعض البلاد الإسلامية الأخرى وعلى رأسها الدولة العثمانية[٢]، ومصر[٣].

(ب) لمحة تاريخية :

يعود تاريخ إرسال الصرة في تونس إلى عهد الدولة الحفصية (٦٢٥ -

(١) مرجع سابق : ٢٥٩ .

(٢) كان أول من أرسل صرة النقود إلى الحرمين الشريفين المقتدر بالله العباسي سنة ٣٢٠هـ/ ٩٣٢م، ثم تبعه الخلفاء بعد ذلك . إلا أن أول صرّ منظم جُهز من الدولة العثمانية إلى مكة هو ما أرسله السلطان العثماني محمد الأول عام ٨٢٤هـ / ١٤٢١م، وسميت بالصدقة الرومية ثم الهمايونية وكانت ترسل مع ركب المحمل الشامي ويجرى تسليمها لأمين الصرة بحضور السلطان العثماني، وقدرت عام ١٣٠١هـ/ ١٨٨٣م بواحد وثلاثين ألفاً وخمس مئة واثنين من القروش العثمانية، وهي تحوي المخصص السنوي لأمير مكة إلى جانب الصدقات التي تُجرى لفقراء الحرمين الشريفين ومجاوريهما .
سالنامة الحجاز بالعربية، عام ١٣٠١هـ : ١٠٩، وأيضاً :
غازي، مصدر سابق : ٢ / ٣٦، وأيضاً :
السباعي، مرجع سابق : ١ / ٢٩٩ .

(٣) كانت الصرة المصرية ترسل مع المحمل المصري الذي بدأ إرساله منذ عهد شجرة الدر عام ٦٤٨ هـ. وقدرت صرة مصر عام ١٣١٨هـ / ١٩٠٠م بثمانية عشر ألفاً وثمان مئة وثلاثة وتسعين جنيهاً مصرياً ومئتين واثنين وستين مليماً وربع (ففي حين كان الجنيه العثماني يعادل في العام نفسه مئة وثمانية وأربعين قرشاً كان الجنيه المصري يقدر بمئة وتسعة وستين قرشاً عثمانياً) .
رفعت، مصدر سابق : ١ / ٦، ٢٠٧ .

٩٤١هـ/ ١٢٢٧-١٥٣٤م)، وكانت إحدى مآثر السلطان أبي فارس الحفصي (٧٩٦- ٨٣٧ هـ/ ١٣٩٣-١٤٣٤م) إرسال صدقات سنوية لأهالي الحرمين الشريفين [1]، وسارت الأسرة المرادية (٩٨١-١١١٧هـ/ ١٥٧٣-١٧٠٥م) خلال العهد العثماني سيرة الحفصيين في هذا الشأن، ويذكر عن ثاني ولاة البيت المرادي حمودة باشا (١٠٤١ - ١٠٧٦هـ / ١٦٣١ - ١٦٦٦م) أنه اهتم بإرسال الصرة إلى الحرمين الشريفين .

واستمر الأمر كذلك في عهد الأسرة الحسينية، وعرف عن الباي حمودة باشا الحسيني (١١٩٧- ١٢٣٠هـ/ ١٧٨٢ - ١٨١٤م) اهتمامه الخاص بإرسال الصرة، وأشار إلى ذلك ابن أبي الضياف بقوله[2] : «ومن مآثره (أي حمودة باشا) احترام الأحباس مطلقًا لا سيما أحباس الحرمين الشريفين، فقد كان يؤتى له بفاضل دخلها، وله صندوق معدّ له في محل على حده يباشر وضع المال فيه، وإخراجه منه بنفسه، ويراه خدمة لحرم الله ورسوله، ولمفتاح هذا الصندوق ظرف أخضر . واتفق أن لزم الوزير صرف مال، ولم يكن حاضراً عنده، فقال للباي : «نتسلفه من صندوق الحرمين ونرده إليك بعد عشرة أيام» فاقشعر بدنه وقال له : «سألتك بالله أن تزيل هذا الخاطر من فكرك، وتَرْكُ هذه المصلحة الضرورية التي أقدمتك على طلب السلف من مال الحرمين أهون عليّ» .

وعُني الباي محمود باشا (١٢٣٠-١٢٣٩هـ/ ١٨١٤-١٨٢٤م) بإرسال الصرة إلى الحجاز [3]، واقتفى ابنه الباي حسين باشا (١٢٣٩-

(١) ابن أبي الضياف، مصدر سابق : ٢ / ٤٣ .
(٢) المصدر نفسه، جـ ٣ / ١١٣ .
(٣) أ، و، ت، س .ت، ك ٦٥، م ٧٨٦، ق : بدون، إقرار بوصول صرة عام ١٢٣٤هـ/ ١٨١٩م.

١٢٥١هـ/ ١٨٢٤- ١٨٣٥م) أثر والده بإرسال الصرة إلى الحجاز [١]، وكذلك فعل المشير أحمد باشا باي (١٢٥٣-١٢٧١هـ/ ١٨٣٧-١٨٥٥م)[٢].

(ج) مقدار الصرة :

كان مبلغ الصرة في الفترة موضوع الدراسة يأتي من عائدات أوقاف الحرمين الشريفين، ولذا كان يرتفع وينخفض حسب حجم تلك العائدات وتبعًا لظروف البلاد الاقتصادية .

وقد ارتفع مبلغ الصرة في عهد الباي حمودة باشا نظرًا لازدهار أحوال البلاد الاقتصادية ؛ فبلغ عام ١٢١٩هـ / ١٨٠٤م خمسة عشر ألفًا وخمس مئة محبوب[٣] [٤]، بينما انخفض في عهد الباي محمود باشا بحيث لم يتجاوز مبلغ صرة عام ١٢٣٤هـ/ ١٨١٩م ثلاثة آلاف وأربع مئة وستة وسبعين محبوبًا [٥]. وحين أصبحت الصرة ترسل بعد ذلك بالريال الفضي بلغت صرة عام ١٢٥٣هـ / ١٨٣٧م عشرة آلاف ريال شينكو[٦] وصرة عامي ١٢٦٦هـ / ١٨٥٠م و ١٢٦٧هـ / ١٨٥١م [٧] خمسة آلاف ريال شينكو،

(١) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨٧، ق : بدون، إقرار بوصول صرة عام ١٢٤١هـ/ ١٨٢٦م.

(٢) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨٧، ق : ٢٦، خطاب من محمد درويش نقيب الأشراف في المدينة إلى الباي أحمد باشا في ١٧/ ١/ ١٢٥٤هـ الموافق ١١/ ٤/ ١٨٣٨م .

(٣) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨٦، ق : بدون، خطاب من الحاج سعيد بمكة إلى الباي حمودة باشا في ٦/ ٦/ ١٢١٩هـ الموافق ١٣/ ٩/ ١٨٠٤م .

(٤) انظر ص ١٩١-١٩٣ من هذا الفصل فيما يختص بالعملات النقدية في تونس .

(٥) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨٦، قائمة بأسماء المستحقين لمبلغ الصرة، وعليها ختم الباي محمود باشا في ١٢٣٥هـ / ١٨٢٠م .

(٦) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨٧، ق : ٢٦، خطاب من محمد درويش إلى الباي أحمد باشا في ١٧/ ١/ ١٢٥٤هـ الموافق ١١/ ٤/ ١٨٣٨م .

(٧) أ، و، ت، دفتر ٢٣٢٤، ق : ٩، دفتر صرة عام ١٢٦٦هـ / ١٨٥٠م .

وانخفضت قيمة الصرة عام ١٢٦٩هـ / ١٨٥٣م إلى أربعة آلاف وتسع مئة وستين ريالاً[١].

وقد تحدد مبلغ الصرة بعد تأسيس جمعية الأوقاف عام ١٢٩١هـ / ١٨٧٤م. فقد اقترح خير الدين التونسي على المشير محمد الصادق باشا باي أن يكون مبلغ الصرة حسب متوسط واردات أوقاف الحرمين الشريفين في تونس، ولقي هذا الاقتراح استجابة من المشير، وتم تحديد المبلغ [٢] بـ ألفين وخمس مئة لويز بنتو[٣]، وحينما ألغيت العملات الأجنبية من تونس قُدّر مبلغ الصرة بخمسين ألف فرنك [٤].

ولم يكن توزيع مبلغ الصرة على أهالي الحرمين (مكة والمدينة) ومجاوريهما يسير على نحو ثابت ؛ إذ قد يرسل في بعض الأعوام لسكان مكة فقط، كما قد يرسل لسكان المدينة وحدهم في أعوام أخرى، ومثال ذلك أن مقدار الصرة في الأعوام ١٢٢٤هـ/ ١٨٠٩م [٥]، ١٢٦٦هـ/ ١٨٥٠م [٦]، ١٢٦٧هـ/ ١٨٥١م [٧] أرسل لسكان مكة المكرمة، هذا في حين أرسل مقدار الصرة في عامي ١٢٥٣هـ/ ١٨٣٧م[٨]

(١) أ، و، ت، دفتر ٢٣٢٤، ق : ١١، دفتر صرة عام ١٢٦٧هـ / ١٨٥١م .
(٢) أ، و، ت، دفتر ٢٣٢٤، ق : ٤، دفتر صرة عام ١٢٦٩هـ / ١٨٥٣م .
(٣) ابن الخوجة، مرجع سابق : ٢٦٣ .
(٤) أ، و، ت، س :ح، ك ٣٢، م ١/ ٧، ق : ٨، خطاب من الوزير الأكبر إلي وكيل أوقاف الحرمين في ٣/ ٨/ ١٣١٢هـ الموافق ٢٩/ ١/ ١٨٩٥م .
(٥) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨٧، ق : بدون، إقرار صادر من محكمة مكة المكرمة باستلام صرة عام ١٢٢٥هـ/ ١٨١٠م .
(٦) أ، و، ت، دفتر ٢٣٢٤، ق : ٩، دفتر صرة ١٢٦٦هـ/ ١٨٥٠م .
(٧) أ، و، ت، دفتر ٢٣٢٤، ق ١١، دفتر صرة ١٢٦٧هـ/ ١٨٥١م .
(٨) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨٧، ق : ٢٦، خطاب من محمد درويش إلى الباي أحمد باشا في ١٧/ ١/ ١٢٥٤هـ الموافق ١١/ ٤/ ١٨٣٨م .

١٢٦٢هـ/ ١٨٤٦م [١] لسكان المدينة المنورة، وحتى في الأعوام التي كان مبلغ الصرة يرسل إلى المدينتين معًا لم يكن يقسم بالتساوي بينهما ومثال ذلك صرة عام ١٢٣٠هـ/ ١٨١٤م فقد خصص منها لمكة المكرمة سبعة آلاف وأربع مئة وثمانون محبوباً وللمدينة المنورة ثمانية آلاف وخمسة عشر محبوباً [٢].

وقد يعود هذا التفاوت إلى كثرة الزوايا والأربطة في المدينة مقارنة بمكة، كما أن أسماء المستحقين لمبلغ الصرة في المدينة المنورة كانوا أكثر منهم في مكة المكرمة ومن ذلك مثلاً صرة عام ١٢٦٩هـ / ١٨٥٣م [٣]، وقد ظل الأمر كذلك إلى أن تم تحديد مبلغ الصرة عام ١٢٩١هـ/ ١٨٧٤م فأصبح المبلغ يقسم مناصفة بين مكة والمدينة [٤] وتساوت حصة كل منهما في مبلغ الصرة .

(د) تجهيز الصرة :

كان الأمر بتجهيز المبلغ المحدد للصرة يصدر من الباي، ويبلغه الوزير الأكبر بخطاب إلى وكيل أوقاف الحرمين الشريفين في تونس[٥]، وكان المبلغ يوضع في صندوق واحد إذا كان سيرسل لأحد الحرمين الشريفين. أما إذا كان سيُقسم بين أهالي مكة المكرمة، وأهالي المدينة المنورة فقد كانت صرة

(١) أ، و، ت، دفتر ٢٣٢٤، ق : بدون، دفتر صرة ١٢٦٢هـ/ ١٨٤٦م .

(٢) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨٦، ق : بدون، قوائم المنتفعين بالصرة من سكان المدينتين في عام١٢٣٠هـ / ١٨١٤م .

(٣) أ، و، ت، دفتر ٢٣٢٤، ق : ٨، دفتر صرة عام ١٢٦٩هـ/ ١٨٥٣م، وأيضًا :
أ، و، ت، س . ت ٦٥، ٧٦٨، ق ١٢-٢٠، قائمة بأسماء المنتفعين بصرة عام ١٢٧٣هـ/ ١٨٥٦م في المدينة المنورة .

(٤) ابن الخوجة، مرجع سابق : ٢٦٣ .

(٥) أ، و، ت، س ج، ك ٣٢، م ٧/١، ق : ٨، خطاب صدر في ١٣١٢/٨/٣هـ الموافق ١٨٩٥/١/٢٩م .

كل منهما توضع في صندوق خاص ليتم تسليمها للشخص المعين بحملها[١].

وكان مبلغ الصرة يرفق بدفتر يحوي مقدمة عن مقدار الصرة في ذلك العام، واسم حاملها، وتاريخ حمله لها، واسم الباي الذي صدرت في عهده . وقد جاء مثلاً في مقدمة دفتر صرة عام ١٢٦٧هـ/ ١٨٥١م [٢]: «هذا دفتر مبارك إن شاء الله تعالى يتضمن توزيع الصرة الواردة من مدينة تونس الخضراء [٣] لأهالي مكة المشرفة من عهدة مجريها حضرة سعادة فخر الوزراء العظام ذوي المجد والاحترام، حضرة المشير أفندينا أحمد باشا بلغه الله من خيري الدارين ما شاء إنه على ذلك قدير وبالإجابة جدير، وذلك وصَلت صُحبة فخر الأماجد الكرام ذوي الفضل والاحترام حضرة مولانا العالم العلامة السيد محمد النيفر مفتي مدينة تونس حالاً نفع الله بحياته آمين بتاريخ شهر ذي القعدة الحرام من شهور عام مئتين وسبعة وستين وألف (١٨٥١م)» .

وقد ترد مقدمة دفتر الصرة بشكل أكثر اختصاراً كما في دفتر عام ١٢٧٢هـ/ ١٨٥٦م، وجاء فيه [٤] : «هذا دفتر مبارك إن شاء الله تعالى يتضمن بيان المنصرف بتوزيع الصدقة الواردة من مدينة تونس من حضرة الوزراء الفخام ذوي الاحتشام، سعادة المشير أفندينا محمد باشا بلغه الله من خير الدارين ما شاء». وغالبًا ما يلي المقدمة أسماء المنتفعين بالصرة

---

(١) أ، و، ت، س ج، ك ٣٢، م ١/ ٨، ق ١٨، خطاب من الوزير الأكبر محمد العزيز بوعتور إلى الشيخ عبدالجليل برادة في ٣٠/ ١٠/ ١٣١٣هـ الموافق ١٣/ ٤/ ١٨٩٦م .

(٢) أ، و، ت، دفتر ٢٣٢٤، ق : ١٠، دفتر صرة عام ١٢٦٧هـ/ ١٨٥١م .

(٣) جرى تغيير هذا الاسم في الدفاتر في عهد الحماية الفرنسية على تونس ١٢٩٨هـ/ ١٨٨١م، وأصبحت تكتب في الدفاتر بدلاً منها عبارة «تونس المحمية» انظر مثلاً :
أ، و، ت، س : ج، ك ٣٢، م١/ ١، ق : ١، عام ١٣٠٩هـ / ١٨٩٢م .

(٤) أ، و، ت، دفتر ٢٣٢٤، ق : بدون، دفتر صرة عام ١٢٧٢هـ/ ١٨٥٦م .

والمبلغ المخصص لهم [١] إلا أن بعض الدفاتر قد تذكر فئات المنتفعين بالصرة دون تحديد أسمائهم [٢].

(هـ) حامل الصرة :

بعد تجهيز مبلغ الصرة يتم اختيار من هو أهل لحمل هذا المبلغ، فقد يكون حامل الصرة من العلماء البارزين كما حدث حين كُلِّف الشيخ محمد النيفر مفتي البلاد التونسية بحمل الصرة عام ١٢٧٢هـ/١٨٥٦م [٣]، وحملها الشيخ أحمد زروق وهو من علماء تونس عام ١٢٩٧هـ/ ١٨٨٠م [٤]، كما اختير الشيخ المدرس أحمد جمال الدين لحملها عام ١٣٠٢هـ/ ١٨٨٥م [٥]، وقد توكل مهمة حمل الصرة إلى أحد تجار البلاد المشهورين بالنزاهة، ومثال ذلك عام ١٢٥٥هـ/ ١٨٣٩م حين حمل الصرة أحد التجار وهو أبو عبد الله محمد بن الأمين [٦]. وقد يُكلف شخصان بحمل الصرة كما جرى عام ١٣١٣هـ / ١٨٩٦م حين حمل الصرة وكيل التونسيين بمكة المكرمة وهو عبدالرحمن برهان الزمزمي، والحاج مصطفى ولد سيتي بركة من تونس [٧]. وقد يكلف أحد وكلاء

(١) من ذلك مثلاً دفتر صرة عام ١٢٦٢هـ/١٨٤٦م .
أ، و، ت، دفتر ٢٣٢٤، ق : بدون، دفتر صرة عام ١٢٦٢هـ/١٨٤٦م .

(٢) كما في دفتر صرة عام ١٢٦٩هـ / ١٨٥٣م .
أ، و، ت، دفتر ٢٣٢٤، ق ٤، دفتر صرة عام ١٢٦٩هـ/١٨٥٣م .

(٣) أ، و، ت، دفتر ٢٣٢٤، ق : بدون، دفتر صرة عام ١٢٧٢هـ/١٨٥٦م .

(٤) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨٠، ق : ٥، خطاب من وكيل التونسيين بالمدينة إلى الوزير الأكبر في ٢١/ ١/ ١٢٩٧هـ الموافق ٣/ ١/ ١٨٨٠م .

(٥) ابن الخوجة، مرجع سابق : ٢٦١ .

(٦) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨٧، ق : ٣٠، رسالة باللغة التركية من عثمان باشا (شيخ الحرم النبوي) إلى والي تونس المشير أحمد باشا باي في ٥/ ٢/ ١٢٥٦هـ الموافق ٧/ ٤/ ١٨٤٠م .

(٧) أ، و، ت، س : ج، ك ٣٢، م ١/ ٨، ق : ١٨، خطاب من الوزير الأكبر الى الشيخ عبدالجليل برادة في ٣٠/ ١٠/ ١٣١٣هـ الموافق ١٣/ ٤/ ١٨٩٦م .

تونس في الحجاز بمهمة التوجه إلى تونس لحمل الصرة والعودة بها ليتولى هو بنفسه توزيعها[١]، وكان من أبرز هؤلاء الوكلاء عبدالرحمن الزمزمي وكيل التونسيين في مكة المكرمة[٢].

ومع أن الباي هو الذي كان يتولى عادة مهمة اختيار حامل الصرة إلا أنه كانت ترد طلبات إلى الباي يبدي فيها بعض الأشخاص رغبتهم في حمل الصرة؛ فقد طلب عمر ابن أبي بكر في عام ١٣٠٨هـ/ ١٨٩٠-١٨٩١م من الباي أن توكل إليه هذه المهمة[٣]، كما طلب أحمد أديب في عام ١٣١٠هـ/ ١٨٩٣م أن يسمح له بحمل الصرة خصوصاً وأنه أصلاً سوف يتوجه إلى الحرمين الشريفين[٤]، وغالبًا ما يكون طالبو حمل الصرة أهلاً للثقة فيعهد بها إليهم كما حدث مع عمر بن أبي بكر[٥]، إلا أن عددًا منهم كان يفرط في حمل الأمانة وفي الثقة التي منحت لهم، ومن هؤلاء محمد الغربي الذي حمل صرة عام ١٢٥٤هـ/ ١٨٣٨م وأجرى تعديلاً في دفتر الصرة بحيث خصص بعض المبالغ لمعارفه وحرم بعض المستحقين لها[٦]. كما أن الذي حمل مبلغ الصرة المخصص لأهالي المدينة المنورة عام

---

(١) انظر : ٢٩١

(٢) أ، و، ت، س : ج، ك ٣٢، م ٨/١، ق ١١، خطاب من عبدالرحمن الزمزمي وكيل التونسيين بمكة إلى الوزير الأكبر محمد العزيز بوعتور في ٤/ ٦/ ١٣١٤هـ الموافق ٩/ ١١/ ١٨٩٦م.

(٣) أ، و، ت، س ج، ك ٣٢، م ٢/١، ق : بدون، خطاب من عمر بن أبي بكر إلى الباي علي باشا في ربيع الآخر ١٣٠٨هـ/ نوفمبر ١٨٩٠م .

(٤) أ، و، ت، س ح، ك ٣٢، م ٤/١، ق : ٩، خطاب من أحمد أديب الشاهد بإدارة أوقاف الحرمين الشريفين بالحاضرة إلى الوزير الأكبر محمد العزيز بوعتور في ٢٤/ ٧/ ١٣١٠هـ الموافق ١٠/ ٢/ ١٨٩٣م .

(٥) أ، و، ت، س ج، ك ٣٢، م ٢/١، خطاب من الوزير الأكبر محمد العزيز بوعتور إلى محمد صفر وكيل أوقاف الحرمين الشريفين في ٢٣/ ١٠/ ١٣٠٨ه الموافق ٣١/ ٥/ ١٨٩١م.

(٦) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨٧، ق : ٢٦، خطاب من محمد درويش إلى الباي أحمد في ١٧/ ١/ ١٢٥٤هـ الموافق ١١/ ٤/ ١٨٣٨م .

١٣١٠هـ/ ١٨٩٣م وهو أحمد أديب [(١)] قد قام باقتطاع مئتين وخمسين (لويز بنتو) ذهباً من أصل المبلغ المقرر وهو ألف ومئتين وخمسين لويز بنتو. وحينما استفسر أمير مكة عون الرفيق عن الأمر ادعى أحمد أديب أنه قد أخذ المبلغ حوالة على المدينة المنورة، وأنه سوف يتوجه إلى هناك لاستلام المبلغ ولكنه عاد إلى تونس عن طريق ينبع هارباً بقيمة المبلغ الذي ادعى أنه حوالة [(٢)].

وكان حامل الصرة يتلقى من الحكومة التونسية مبلغاً من المال لقاء حمله لها، ولم يكن ذلك المبلغ ثابتاً، ومثال ذلك أن حامل الصرة عام ١٣٠٠هـ/ ١٨٨٣م، وهو محمد داغستاني تلقى مبلغ ألفين وعشرة ريالات لقاء حمله للصرة [(٣)]. بينما دفُع لحاملها عام ١٣٠١هـ/ ١٨٨٤م وهو مصطفى عنون مبلغ وقدره ثلاثة آلاف ريال [(٤)]. ولو حمل الصرة شخصان كان المبلغ المقرر لقاء الحمل يقسم بين الاثنين كما حصل في عام ١٣١٠هـ/ ١٨٩٣م [(٥)]. ومما يجدر ذكره أنه حينما أُلغي التعامل بالريالات

---

(١) كان عبدالرحمن برهان الزمزمي قد كُلّف بحمل الصرة، وقد اختص عبدالرحمن بحمل الصرة إلى مكة بينما كلف أحمد أديب بإيصال صرة المدينة المنورة إلى وكيل التونسيين فيها.
أ، و، ت، س ج، ك ٣٢، م ٣/١، ق : ٤، خطاب من وكيل التونسيين بمكة إلى الوزير الأكبر في ١٣١١/٢/٣هـ الموافق ١٨٩٣/٨/١٥م.

(٢) أ، و، ت، س : ج، ك ٣٢، م ٣/١، ق : ٤، خطاب من عبدالرحمن الزمزمي إلى الوزير الأكبر محمد العزيز بوعتور في ١٣١١/٢/٣هـ الموافق ١٨٩٣/٨/١٥م، وأيضاً :
أ، و، ت، س : ج، ك ٣٢، م ٤/١، ق ٢٧، خطاب من أمير مكة عون الرفيق إلى الوزير الأكبر في ١٣١١/٦/١٩هـ الموافق ١٨٩٣/١٢/٢٧م.

(٣) أ، و، ت، س : ج، ك ٣٢، م ١/١، ق : ٦٤، جملة مصروفات السيد محمد الداغستاني في ١٣٠٠/١١/١٢ هـ الموافق ١٨٨٣/١٠/١٢م.

(٤) أ، و، ت، س : ج، ك ٢٣، م ١/١، خطاب من الوزير الأكبر محمد العزيز بوعتور إلى وكيل أوقاف الحرمين محمد صفر في ١٣٠١/١٠/٢٢هـ الموافق ١٨٨٤/٨/١٤م.

(٥) أ، و، ت، س : ج، ك ٣٢، م ٣/١، ق : ٧، ٢٢، إذن بالدفع من إدارة أوقاف الحرمين في ١٣١٠/٨/٢١هـ الموافق ١٨٩٣/٢/٢٤م.

التونسية عام ١٣٠٩هـ/ ١٨٩١م أصبح يدفع لحامل الصرة على أساس الفرنك، وقرر المبلغ المدفوع لحامل الصرة بثلاثة آلاف فرنك[١]، وحينما تغيرت طريقة إرسال الصرة عام ١٣١٢هـ/ ١٨٩٥م قلّص المبلغ إلى النصف فأصبح يدفع لحاملها سبع مئة وخمسين فرنكًا، ولو حمل الصرة اثنان قسم المبلغ بينهما مناصفة [٢].

وكان حامل الصرة يتولى بالإضافة إلى حمل المبلغ المقرر لها حمل هدايا شخصية لأمير مكة، ويذكر أن المشير محمد الصادق باي في عام ١٢٩٦هـ/ ١٨٧٩م، أرسل هدية إلى أمير مكة عبارة عن «نيشان» [٣] مع حامل الصرة أحمد زروق [٤] . كما أن الشيخ أحمد جمال الدين الذي حمل صرة عام ١٣٠٢هـ/ ١٨٨٥م أهدى أمير مكة عون الرفيق كتابه المسمى

---

(١) أ، و، ت، س : ج، ك ٣٢، م ١/ ٣، ق : ٣، إذن بالدفع من إدارة الأوقاف في ٢١/ ٨/ ١٣١٠هـ الموافق ٢٤/ ٢/ ١٨٩٣م .

(٢) أ، و، ت، س . ج، ك ٣٢، م ١/ ٧، ق : ٣، إقرار من عبدالرحمن الزمزمي بتسلم مبلغ الصرة في ٢٩/ ٧/ ١٣١٣هـ الموافق ١٤/ ١/ ١٨٩٦م .

(٣) لفظة فارسية تعني علامة، وهو وسام افتخاري ظهر في الدول الأوربية منذ القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي، وأصبح في القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي لكل دولة أوربية نيشان أو اثنان أو أكثر، وكان من أعرق تلك الدول في هذا النظام هي فرنسا، وقد ظهر في عهد الدولة العثمانية في عهد السلطان محمود الثاني (١٢٢٣-١٢٥٥هـ/ ١٨٠٨-١٨٣٩م) من ضمن التنظيمات التي أدخلت على الدولة في نهاية حكمه .
وقد اقتبس الباي مصطفى هذا النظام من الدولة العثمانية وأصبح لتونس نيشان أسماه نيشان الافتخار منذ عام ١٢٥٢هـ/ ١٨٣٦م وكان شكله بيضاويًا تعلوه نجمة هلال وبوسطه نُقش اسم الباي على حجر من الألماس، وكانت هناك نياشين تُهدى للوجهاء والأعيان وكبار موظفي الولاية، وتنقش أسماؤهم على حجر من الياقوت أو الفضة حسب مكانة الشخص، وكانت تصنع في تونس .
ابن الخوجة، مرجع سابق : ٩٨ - ١٠٢ .

(٤) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٩٠، خطاب من المشير محمد الصادق باشا باي إلى أمير مكة الشريف حسين بن محمد بن عون في ٢٦/ ١٢/ ١٢٩٦هـ الموافق١١/ ١٢/ ١٨٧٩م.

«مناهج التعريف بأصول التكليف» [١] .

وقد يكلف حامل الصرة من قبل الباي بالحج نيابة عنه خاصة إذا كان حامل الصرة أحد العلماء، ومن أمثلة ذلك أن الباي علي بن حسين باشا (١٢٩٩-١٣٢٠هـ/ ١٨٨٢-١٩٠٢م) كلف الشيخ أحمد جمال الدين، وهو أحد فقهاء تونس بالحج نيابة عنه عام ١٣٠٢هـ/ ١٨٨٥م [٢] .

وعمدت السلطات الفرنسية بعد فرض الحماية إلى التدخل باختيار حامل الصرة، وذلك للاستفادة من منصبه لخدمة مصالحها ليس في تونس وحدها، وإنما في الحجاز أيضًا فمثلاً طلب المقيم العام الفرنسي في تونس روفيي شارل (Rouvie Sharl) (١٣١٠-١٣١٢هـ/ ١٨٩٢-١٨٩٤م) في عام ١٣١٠هـ/ ١٨٩٣م من وزير خارجية فرنسا ريبوت (Ribot) احتفاظ عبدالرحمن برهان الزمزمي بمهامه الخاصة بحمل الصرة وتوزيعها والإشراف على التونسيين في الحجاز . وبرأي روفيي شارل أن ذلك أكسب عبدالرحمن برهان العديد من العلاقات التي منحته نوعًا من التأثير في مكة بشكل يُمكّن من خدمة المصالح الفرنسية في الحجاز [٣] .

ولحظ أن المقيم العام الفرنسي في تونس كان غالبًا ما يبعث بخطابات توصية إلى القنصل الفرنسي في جدة تتعلق بأحد المكلفين بحمل الصرة. ومثال ذلك حين بعث المقيم العام الفرنسي بتونس ماسيكو (Massicautt) إلى قنصل فرنسا بجدة غيو (Guiot) في عام ١٣٠٧هـ/ ١٨٩٠م يوصي

---

(١) ابن الخوجة، مرجع سابق : ٢٦١ .
(٢) المرجع نفسه : ٢٦٧ .
(3) A.Q.D.N .S : T188 -1919, Car 128 . Dos 3, F69 (B: 46)
خطاب من المقيم العام الفرنسي بتونس إلى وزير الخارجية الفرنسية في ٢٢/٦/١٣٠٩هـ الموافق ٢٢/١/١٨٩٢م

بالشيخ بن عيسى حامل صرة ذلك العام من أجل تسهيل مهمته [١]، وردّ قنصل فرنسا بخطاب إلى المقيم العام يذكر فيه وصول الشيخ ابن عيسى ويضيف [٢] : «لقد سعدت بالتعرف على هذا الرجل الذي أبدى مشاعر موالية جدًا لفرنسا».

(و) طريقة إيصال الصرة إلى الحجاز :

بعد أن يتم اختيار حامل الصرة يُحدَّد موعد لتسليمه إياها وسط أجواء احتفالية احتفاءً بالصرة، وأشار ابن الخوجة [٣] إلى ذلك بقوله: «ومن عناية الملوك الحسينيين بأمرها (أي : الصرة) أن يعقدوا لها موكبًا فخمًا يحضره سمو الباي، وآل بيته، والوزراء، ورجال الدائرة الملكية، وكبار متوظفي الأوقاف، وفي ضمنهم وكيل الحرمين الشريفين وبيده صندوق المال المقصود توجيهه للحجاز فيأذن الباي بإحضار الرسول المكلف بتبليغ الأمانة، ويدفعها له بنفسه..».

وكان حامل الصرة يتوجه إلى الحجاز عن طريق مصر[٤]، وقد حرص بعض البايات على تأمين وسائل المواصلات لحاملي الصرة من تونس الى أن يصلوا إلى جدة. ومن ذلك أن المشير محمد باي خصص في عام ١٢٧١هـ / ١٨٥٥م شقفاً [٥] حربياً لحمل الصرة، وسمح لمن يرغب من التونسيين

---

(1) A.N.T.S. C, Car 32 . Dos 1 , F I.
خطاب من القنصل الفرنسي بجدة إلى المقيم العام الفرنسي في تونس في ١٧/٤/١٣٠٨هـ الموافق ٢٩/١١/١٨٩٠م.

(2) Ibid.

(٣) مرجع سابق : ٢٦٣ .

(٤) أ، و، ت، س : ج، ك ٣٢ م ١١/٨، ق : ١١، خطاب من وكيل التونسيين بمكة عبدالرحمن الزمزمي إلى الوزير الأكبر محمد العزيز بوعتور في ٤/٦/١٣١٤هـ الموافق ٩/١١/١٨٩٦م.

(٥) لفظة عامية (في تونس) تعني السفينة، وربما تكون مأخوذة من لفظة (Esquif) الفرنسية . ابن أبي الضياف، مصدر سابق : ٥ / ١٨١، هامش رقم : ٦ .

بالحج بركوبه مجاناً " [١].

وحينما كان حامل الصرة يصل إلى جدة يكون بانتظاره حرس خاص تحت تبعية شريف مكة، فيتجه بصحبة تلك الحراسة إلى مكة ليسلم الصرة للشريف [٢] ومعها خطاب من الباي [٣]، أو الوزير الأكبر بتكليف من الباي [٤]، وغالباً ما كان أمير مكة بعد استلام الصرة يسلم حصة أهالي مكة لوكيل التونسيين في مكة، ويعهد لحامل الصرة نفسه بالتوجه إلى المدينة المنورة لتسليم حصة أهلها إلى وكيل التونسيين فيها[٥]. وفي بعض الأحيان كان يعهد لأمير الركب الشامي بتسليم صرة تونس لوكيل التونسيين في المدينة المنورة [٦].

ومنذ عام ١٣١٢هـ/ ١٨٩٥م، أُلغيت المراسم التي كانت تتبع في تسليم الصرة لحاملها فأصبحت ترسل بحوالة بريدية [٧] عن طريق حامل الصرة فيكلفه الباي بإرسالها من تونس إلى الإسكندرية، ومنها إلى جدة [٨]. وكان

---

(١) المصدر نفسه، جـ ٤ : ٢٢٤ .

(٢) أ، و، ت، س : ج، ك ٣٢، م ١/٨، ق : ١١، خطاب من عبد الرحمن الزمزمي إلى الوزير الأكبر محمد العزيز بوعتور في ٤/٦/١٣١٤هـ الموافق ٩/١١/١٨٩٦م.

(٣) أ، و، ت، س . ت ٦٥، م ٧٨٧، ق : ٣٠، خطاب باللغة التركية من عثمان باشا شيخ الحرم النبوي الشريف إلي والي تونس المشير أحمد باشا باي في ٥/٢/١٢٥٦هـ الموافق ٧/٤/١٨٤٠م .

(٤) أ، و، ت، س : ج، ك ٣٢، م ١/٦، ق : بدون، خطاب من أمير مكة المكرمة الشريف عون الرفيق إلى الوزير الأكبر محمد العزيز بوعتور في ١٥/١٢/١٣٠٩هـ الموافق ١٠/٧/١٨٩٢م.

(٥) الوثيقة نفسها .

(٦) أ، و، ت، س : ج، ك ٣٢، م ١/٣، ق : ٤، خطاب من عبدالرحمن الزمزمي إلى الوزير الأكبر محمد العزيز في ٣/٢/١٣١١هـ الموافق ١٥/٨/١٨٩٣م.

(٧) الحبشي، مرجع سابق : ٦٢ .

(٨) أ، و، ت، س : ج، ك ٣٢، م ١/٣، ق : ١١، خطاب من الوزير الأكبر إلى رئيس جمعية الأوقاف في ٥/٢/١٣١٥هـ الموافق ٢٧/٣/١٨٩٨م.

حامل الصرة يتسلم الحوالة في جدة بموجب إيصال الاستلام الذي أخذه من بريد تونس حينما سلم الصرة له [١] .

ومنذ عام ١٣١٥هـ/ ١٨٩٨م أخذت جمعية الأوقاف مهمة تسلم مبلغ الصرة من الباي ثم تسليمه إلى إدارة البريد في تونس، وهي التي تتولى بدورها إرساله إلى جدة. وتأخذ الجمعية من إدارة البريد وصلاً بالاستلام مسجلاً عليه اسم حامل الصرة الذي اقتصر دوره على تَسلّم الإيصال، ومن ثم يتسلم مبلغ الصرة من إدارة البريد في جدة بعد التأكد من شخصيته [٢] .

وقد أخذت السلطات الفرنسية في مطلع القرن الرابع عشر الهجري / العشرين الميلادي بالتدخل ليس فقط في اختيار حامل الصرة، بل في استلام الصرة عن طريق القنصل الفرنسي في جدة، وكان هدفها الإشراف على إيصال الأموال المخصصة للحرمين الشريفين دعماً لمصالحها في الحجاز، ورغبة منها في توطيد العلاقات مع أمير مكة الذي يتسلم مبلغ الصرة، ومثال ذلك أن المقيم العام الفرنسي في تونس بيشون (Pichon) (١٣١٨- ١٣٢٥هـ / ١٩٠١- ١٩٠٧م) بعث بخطاب إلى وزير الخارجية الفرنسية ديلكاسيه (Delcasse) في ١٥/ ٩/ ١٣٢١هـ الموافق ٤/ ١٢/ ١٩٠٣م يقول فيه[٣]: «إنني أتساءل ما إذا كان من الممكن أن يتم تسليم الصرة بواسطة قنصليتنا بجدة ؟ وهكذا فإننا لا نتفادى فقط ما تسببه (أي: الصرة) للإدارة من ضيق، وإنما أيضاً قد يكون لهذا الإجراء ميزة أخرى إذ نثبّت

---

(١) أ، و، ت، س : ج، ك ٣٢، م ١/ ٨، ق : بدون، صرة عام ١٣١٣هـ / ١٨٩٥م.

(٢) أ، و، ت، س : ج، ك ٣٢، م ١/ ٣، ق : ١١، خطاب من الوزير الأكبر إلى رئيس جمعية الأوقاف في ٥/ ٢/ ١٣١٥هـ الموافق ٢٧/ ٣/ ١٨٩٨م.

(3) A.Q.D.N .S : T1882 -1919, Car 129 . Dos 1, F 50 (B: 41)

خطاب من المقيم العام بتونس إلى وزير الخارجية الفرنسية في ١٥/ ٩/ ١٣٢١هـ الموافق ٤/ ١٢/ ١٩٠٣م.

في نظر شريف مكة وضعيتنا بالبلاد التونسية، وفي نفس الوقت تسنح المناسبة لوكيلنا ليتصل مباشرة بسلطات المدينتين المقدستين"، وأضاف قائلاً : " واقتراح التعديل هذا يمكننا تسويغه بعلة اقتصادية» (١).

وطلب وزير الخارجية من القائم بالأعمال في السفارة الفرنسية في إستانبول بحث هذا الموضوع مع قنصل فرنسا بجدة، وهو دوبياف (Dubief)، وجاء في رد السفارة الفرنسية في إستانبول في ٣٠/ ١١/ ١٣٢١هـ الموافق ١٦/ ٢/ ١٩٠٤م ما يفيد(٢) «أن هذا الحل (أي إرسال الصرة عن طريق القنصل في جدة) له مزايا عدة من وجهة نظر القنصل، فمن الناحية السياسية فإن إقامة علاقات منتظمة مع شريف مكة الذي يتمتع بتأثير مهم جداً في العالم الإسلامي، لا يمكن إلا أن يرفع من سمعة فرنسا إثر ما لحق بها في الجزيرة العربية نتيجة الغياب شبه التام للحجاج الجزائريين والتونسيين، وعلى الرغم من أن السلطات العثمانية تعارض قيام علاقات منتظمة بين القنصليات الأوربية في جدة وبين الشريف، إلا أنها قد أقامت مثل هذه العلاقات بين الشريف وقنصلي إنجلترا وروسيا اللذين تمكنا من التعامل معه بصفة مباشرة حول مختلف القضايا، من ثم فإن اتباع هذا المثال يبدو أنه ذو فائدة لا ريب فيها».

وأصبحت عملية إرسال الصرة منذ عام ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م تتم عن طريق البنك، فكان المقيم العام في تونس يبعث سند قبض إلى قنصل فرنسا في جدة التي كانت تُرسل الصرة إليها، ويقوم قنصل فرنسا في جدة حين تصل

---

(1) Ibid.

(2) A.Q.D.N .S : T1882 -1919, Car 129 . Dos 1, F 52 (B: 41)

خطاب من المكلف بالشؤون الفرنسية بإستانبول إلى وزير الشؤون الخارجية في ٣٠/ ١١/ ١٣٢١هـ الموافق ١٦/ ٢/ ١٩٠٤م.

الصرة بـإعلام أميـر مكة بذلك[١]، فيـتولى الأمـير إرســال من يثق به مع حراسه [٢] لتسلم الصرة مقابل وصل استلام يُقدم للقنصل [٣].

وعلى الرغم من أن هذه الطريقـة كانت تجنب الحكومـة التونسـية بعض الحرج الذي قد تواجهه في مسـألة اختيار حامل الصرة [٤]، وتحد أيضًا من المصروفات التي تنفقها على مسـألة إرسال الصرة، إضافة إلى أنها تقلل من المخاطر التي تصاحب حمل الصرة، إلا أن ما هدفت إليه السلطات الفرنسية من هذه الطريقة هو تحقيق مصالحها في الأساس .

والملحوظ أن شريف مكة علي بن عبدالله (١٣٢٣- ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٥ - ١٩٠٨م) بعد أن أصبحت الصرة ترسل عن طريق قنصل فرنسا في جدة قام بالطلب لأول مرة من باي تونس الاستفادة من مبلغ الصرة دون ضرورة إلى توزيعه، وقد علق القـنصل على ذلك الطلب في خطاب إلى وزير الشؤون الخارجية الفرنسية قائلاً [٥] : «ومع ذلك سيلحظ سيادتكم أن الصرة المعنية توزع حتى الآن بـين كبار الشـخصـيات الدينيـة الثرية التي من المؤكـد أنها

---

(1) A.Q.D.N .S : T1882 -1919, Car 129 . Dos 1, F 140 (B: 41)
خطاب من قنـصل فـرنسـا بجـدة إلى وزيـر الشـؤون الخـارجـيـة بـباريـس في رمـضـان ١٣٢٣هـ/ نوفمبر ١٩٠٥م .

(٢) أ، و، ت، س . ج، م ٣٢ -٢/٦، ق ١٣، خطاب من الوزير الأكبر محمد الجلولي إلى أمير مكة المكرمة الشريف علي بن عبدالله في ١٣٢٥هـ/ ١٩٠٧م.

(3) A.Q.D.N .S : T1882 -1919, Car 129 . Dos 1, F 140 (B: 41)
خطاب من قنصـل فرنـسا بـجدة إلى وزيـر الشـؤون الخارجـيـة الفـرنسـيـة في رمـضـان ١٣٢٣هـ/ نوفمبر ١٩٠٥م.

(4) A.Q.D.(N .S : T1882 -1919) S: A, Car 129 . Dos 1, F 50 (B: 41)
خطاب من المقـيم العـام بتـونس إلى وزير الشـؤون الخارجـيـة في ١٥/ ٩/ ١٣٢١هـ الموافق ٤/ ١٢/ ١٩٠٣م.

(5) A.Q.D.N .S : T1882 -1919, Car 129 . Dos 1, F 140 (B: 41)
خطاب من قنصـل فرنـسا بـجدة إلى وزيـر الشـؤون الخارجـيـة الفـرنسـيـة في رمـضـان ١٣٢٣هـ/ نوفمبر ١٩٠٥م.

ليست في حاجة إلى هذا النصيب، بينما لا يوجد في الحجاز أي مستشفى لقبول الفقراء من الحجاج التونسيين»، ولم يكن لخطاب أمير مكة تأثير في مسألة توزيع الصرة، فقد استمر باي تونس بإرسال الصرة، وتوزيعها وفقًا لما جرت عليه العادة في الأعوام السابقة [١] .

(ز) توزيع الصرة على المنتفعين بها :

كانت عملية توزيع الصرة تعهد إلى وكيل التونسيين في كل من مكة المكرمة والمدينة المنورة على أن يشرف حامل الصرة على التوزيع، وتوضع أختام أبرز المنتفعين بالصرة في نهاية الدفتر إثباتًا لتسلمهم المبلغ ويعود حامل الصرة بالدفتر إلى الباي ليتأكد من توزيع الصرة حسبما جاء في الدفتر [٢].

ويصعب تحديد أعداد المستفيدين من الصرة في الحجاز لأنه غالبًا ما يشار إلى المستفيدين في الوثائق التي تم الاطلاع عليها على شكل فئات دون ذكر لعدد كل فئة منها. الأمر الذي يحول دون تقديم أرقام محددة عن أعدادهم، ومع ذلك فقد ورد في بعض الأعوام ذكر لأسماء الأهالي والمجاورين، مثال على ذلك دفتر صرة عام ١٢٦١هـ/ ١٨٤٥م[٣] المخصص للمستفيدين من الصرة من أهالي المدينة المنورة ومجاوريها وعددهم حوالي ألف وثمان مئة واثنين وأربعين، كذلك دفتر صرة عام ١٢٧٨هـ/ ١٨٦٢م[٤] لأهالي مكة المكرمة وعددهم سبع مئة شخص من أهالٍ ومجاورين يضاف

---

(١) أ، و، ت، س : ج، ك ٣٢، م ٦/١، ق : ١٤، خطاب من الوزير الأكبر إلى أمير مكة في ١١/١١/١٣٢٣هـ الموافق ٧/ ١/ ١٩٠٦م.

(٢) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨٧، ق : بدون، خطاب من أحمد بن محمد الشيبي إلى المشير أحمد باشا باي في ١/ ١/ ١٢٦٩هـ الموافق ١٤/ ١١/ ١٨٥٢م.

(٣) أ، و، ت، دفتر ٢٣٢٤، ق : ١ - ٨ .

(٤) أ، و، ت، دفتر ٢٣٢٤، ق ١ - ١٣ .

إلى هذه الأعـداد في كل من مكة والمدينـة عدد من الأشـراف إلى جـانب المفـتين والعلماء، والخطـباء، ومـعلمي الصبـيـان، والقائمين على شـؤون الحرمين، وعلى الزوايا، والأربطة، وبقية المساجد في الحرمين [١] .

وكان المنتفـعون بالصرة يتألفـون من فئات عدة منهم الأشـراف القائمون على شؤون الحـرمين الشريفين بدءًا بشـيوخ الحـرمين وانتهاءً بخـدامهـما، والمشرفين على الزوايا والمؤسسات العلمية في كل من مكة والمدينة، وبعض فقراء الحرمين الشريفين ومجاوريهما [٢].

ويلحظ أن المبلغ المخـصص للأفراد كـان يختـلف تبعًا لمكانة الشـخص فمثلاً في عام ١٢٦٨هـ/ ١٨٥٢م بلغت حـصة شيخ الخطباء، ونائب الحرم عشـرين ريالاً لكل واحد منهـما، بينمـا وزع على الفقـراء والمجاورين من ريالين إلى أربعـة ريالات للشـخص الواحـد[٣]. وغـالبًا مـا يكون المبلغ المخصص للشخص ثابتـًا في أغلب الأعوام، فنائـب الحرم مثلاً تقاضى في عام ١٢٦١هـ/ ١٨٤٥م عشرين ريالاً [٤]، كما تقاضي القـدْر نفسه في عام ١٢٦٨هـ/ ١٨٥٢م[٥]، وكذلك عام ١٢٧٢هـ / ١٨٥٦م[٦].

وأحيانـًا كان بعض الأشخاص يبعـثون برسائل إلى الباي تؤكد له وصول

(١) الوثيقة نفسها، وأيضًا :
أ، و، ت، دفـتر رقم ٢٣٢٤، ق : ١ - ١٢، صـرة عـام ١٢٦٩هـ/ ١٨٥٣م لأهالي المدينة المنورة .

(٢) أ، و، ت، دفتر ٢٣٢٤، ق : بدون، صرة عام ١٢٦٢هـ / ١٨٤٦م.

(٣) انظر توزيع صرة عام ١٢٦١هـ/ ١٨٤٥م على سكان المدينة المنورة في الملحقات، إحصاء ٨. وكذلك:
توزيع صرة عام ١٢٧٨هـ/ ١٨٦٢م على سكان مكة المكرمة في الملحقات، إحصاء ٩ .

(٤) أ، و، ت، دفتر ٢٣٢٤، ق : بدون، صرة عام ١٢٦٨هـ/ ١٨٥٢م.

(٥) أ، و، ت، دفتر ٢٣٢٤، ق : بدون، صرة عام ١٨٦٨هـ/ ١٨٥٢م.

(٦) أ، و، ت، دفتر ٢٣٢٤، ق : بدون، صرة عام ١٢٧٢هـ/ ١٨٥٦م.

صرة تونس وتوزيعها على مستحقيها . ومثال ذلك رسالة بعث بها عدد من المتنفعين بالصرة من أهالي المدينة المنورة إلى المشير أحمد باشا في ١٠/ ٢/ ١٢٥٦هـ الموافق ١٢/ ٤/ ١٨٤٠م[1]، ذكروا فيها «فالذي ينهي إليكم أدام الله نعمه عليكم أنه في أبرك وقت . . وصل إلينا مشرفكم . . صحبة المكرم المحترم عمدتكم سي محمد بن الأمين . . ووصلت صحبته خمسة آلاف ريال فرانسية من أوقاف المدينة المنورة النبوية، فحالما وصل إلينا كتابكم الكريم . . ابتهلنا إليه سبحانه أن يصلح لنا ولكم الحال». وكذلك كانت رسائل بعض المتنفعين بالصرة تبعث إلى الوزير الأكبر إشعاراً منهم بأهمية الصرة بالنسبة لهم، وتقديراً منهم لولاية تونس على ما تقدمه لأجلهم، ومن ذلك رسالة بعث بها عبدالله الشيبي إلى الوزير الأكبر خير الدين باشا في ٢٢/ ١٢/ ١٢٩٢هـ الموافق ١٨/ ١/ ١٨٧٦م جاء فيها [2]: «وبعد إبلاغ ما يجب من التسليمات المكيات، وإبداء ما يليق من ثناء النفحات المسكيات . . قد وصل في هذا العام المكرم السيد حسن حيدر اللوي بالصرة، ودعا لكم في الأماكن المشرفة، ونحن لكم من الداعين في كل وقت وحين . . ».

ومع أن المراسلات كانت تؤكد وصول الصرة إلى الحرمين الشريفين، وتوزيعها على مستحقيها، إلا أن ذلك لم يمنع من وقوع بعض المشكلات التي تحول دون انتفاع هؤلاء بمبلغ الصرة . ومن هذه المشكلات أن تؤول مبالغ الصرة إلى غير مستحقيها، ولا يأخذ أصحابها إلا القليل بسبب

---

(١) أ، و، ت، س . ت ٦٥، م ٧٨٧، ق : بدون، خطاب صدر في ١٠/ ٢/ ١٢٥٦هـ الموافق ١٢/ ٤/ ١٨٤٠م.

(٢) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨٩، ق : ١٦، خطاب صدر في ٢٢/ ١٢/ ١٢٩٢هـ الموافق ١٨/ ١/ ١٨٧٦م.

التهـديد بالقوة كمـا حدث خلال حكـم محمـد علي للحجاز، «واسـتأثر عسكره بالكثير من مبالغ الصرة، ولم يبقوا لأصحابها إلا القليل» [(١)].

وقد يتـعرض بعض المتفـعين بالصرة إلى إنقاص المـبلغ المخصص لهم، ومثال ذلك مـا حدث لعائلة الكافي، فقـد كان خُصص لها مـبلغ خمسين ريالاً، ولكن بعد وفـاة والدهم أصبـحت هذه العائلة تتـسلم أربعة ريالات فقط [(٢)].

هذا بالإضـافة إلى أن بعض المـنتفـعين قد تُلـغى أسمـاؤهم لأسبـاب عديدة، فـقد بعثت عـائلة الجيلاني في عـام ١٢٥٨هـ/ ١٨٤٢م رسالة إلى المشير أحمد باشا باي للاستفسار عن سبب استبعاد أسماء بعض أفرادها من الدفتر المدرج به أسـماء المستحـقين لصرة عام ١٢٥٧هـ/ ١٨٤١م، ورجت العائلة المشيـر أحمد باشا باي إعـادة إدراج تلك الأسماء[(٣)]، وحدث الأمر نفسه مع آل شـيـبـي الذين بعثوا بخطاب إلى المشير أحمد باشا باي في عام ١٢٦٩هـ/ ١٨٥٢-١٨٥٣م للاسـتفسـار عن سبب اسـتبـعاد بعض أسـماء عائلتهم من الدفتر، ورجوا أن يفرد لأسماء آل شيـبـي دفتر خاص مع صرة خاصة بهم [(٤)].

---

(١) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨٧، ق : بدون، خطاب من أحـد الفـراشين بالحـرم النبوي (لم يشر لاسمه) إلى الباي حسين باشا في ١/ ٢/ ١٢٥٣هـ الموافق ١/ ٥/ ١٨٣٧م.

(٢) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨٨، ق : ١، خطاب من حـسينة بنت صـالح الكافي إلى المشير أحمد باشا باي في ٢٦ / ١/ ١٢٦١هـ الموافق ١٥/ ٢/ ١٨٤٤م.

(٣) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨٨، ق : ٢٩، خطاب من طاهر حـسين الجيـلاني إلى المشير أحمد باشا باي في ٢٥/ ٢/ ١٢٥٨هـ الموافق ٦/ ٤/ ١٨٤٢م.

(٤) أ، و، ت، س، ت، ك ٦٥، م ٧٨٨، ق : بدون، خطاب من أحمد بن محـمد الشيـبـي إلى المشير أحمد باشا باي في ١/ ١/ ١٢٦٩هـ الموافق ١٤/ ١٠/ ١٨٥٢م.

وعلاوة على ذلك فقد تنقطع الصرة عن الحجاز في بعض السنوات [١]، ويعود هذا الانقطاع إلى ظروف عدم الاستقرار السياسي والاقتصادي في تونس التي تعطل الاستفادة من ريع أوقاف الحرمين الشريفين في تونس ومن ثم تأمين مبلغ الصرة .

ومن أبرز الأمثلة على ذلك تأثير ثورة ابن غذاهم عام ١٢٨١هـ/ ١٨٦٤م في عدم توفير أموال من ريع أوقاف الحرمين الشريفين [٢] تكفي لإرسالها على شكل صرة، وحدث الأمر نفسه نتيجة للجفاف الذي تعرضت له البلاد التونسية في بعض الأعوام[٣]، ونتيجة للأزمات المالية التي واجهتها، والتي انتهت بوقوعها في الديون[٤].

وحرص بعض المنتفعين بالصرة في رسائلهم إلى تونس حين انقطاع الصرة على تذكير المسؤولين بحاجتهم إلى مال الصرة، ومن الأمثلة على ذلك رسالة حسين محمد الجيلاني من مكة المكرمة في عام ١٢٢٦هـ/ ١٨١١-١٨١٢م إلى الوزير التونسي يوسف صاحب الطابع يرجوه أن يذكر الباي حمودة باشا بإرسال مبلغ الصرة لأنهم في حاجة إليه [٥] .

---

(١) قد تنقطع لمدة عامين أو أربعة أعوام .
أ، و، ت، س ج، ك ٢٣، م ٦/١، ق : ٩، خطاب من البشير جعفر رئيس جمعية الأوقاف إلى الوزير الأكبر محمد الجلولي في ٢٣/٨/١٣٢٥هـ الموافق ١/١١/١٩٠٧م، بخصوص انقطاعها لمدة عامين. وأيضًا:
أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٢٧، ق : ٧، خطاب من أمير مكة إلى باي تونس في ٢٢/٢/١٢٧٧هـ الموافق ٨/٩/ ١٨٦٠م، بخصوص انقطاعها لمدة أربعة أعوام .
(٢) انظر : ٢٠٥ من هذا الفصل .
(٣) انظر : ٢٠٥ من هذا الفصل .
(٤) انظر الفصل الأول : ٥٨ .
(٥) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨٧، ق : بدون، خطاب من حسين الجيلاني إلى الوزير يوسف في ٢٥/١٢/١٢٢٦هـ الموافق ٩/١/١٨١٢م.

وكان يعزز موقف المنتفعين بالصرة تلك الرسائل التي كان يبعثها بها أمراء مكة إلى ولاة تونس لإشعارهم بأهمية مال الصـرة بالنسبة للمنتفعين بها في الحجاز، ومن ذلك الخطاب [1] الذي وجهه أميـر مكة الشريف عبدالله بن محـمد في عـام ١٢٧٧هـ-١٨٦٠/م إلى المشيـر محـمد الصادق بـاشا باي بخصوص انقطاع الصرة عن الحجاز منذ أربعة أعوام، وكذلك الرسالة التي بعثـها أمير مكة عـون الرفيق في عام ١٣١٩هـ١٩٠١/م إلى الوزير الأكـبر مـحـمـد العـزيز بوعـتـور يـذكـر فـيـهـا عـدم وصـول صـرة عـام ١٣١٧هـ/ ١٨٩٩م[2].

وعلى الرغم من انقطـاع الصرة في بعـض الأعوام كـان بعض البـايات يحرصـون على إرسال المتأخر من مـبالغ الصرة حين تتهـيأ الظروف لذلك أرسلت صرة عام ١٣٢٢هـ/ ١٩٠٤م بعد عام واحد[3]، وجرى إرسال صرة عامي ١٣٢٤هـ / ١٩٠٦م، و١٣٢٥هـ/١٩٠٧م معًا [4].

وبوجه عـام كانت للصرة مكانة خـاصة في تونس، وبين حكامـها على وجه الخصـوص الذين حرصوا على تحصـيل مبلغها، وإرسـاله إلى الحجاز قدر المستطـاع، كما أن أمراء مكة من جانـبهم حرصوا على إشعـار البايات بأهمية ما تقدمه تونس لخدمـة المحتاجين في منطقة الحرمين الشريفين، وفي

(١) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٧٩، ق : ٧، خطاب من أميـر مكة إلى المشير محـمد الصادق باشا باي في ٢٢/ ٢/ ١٢٧٧هـ الموافق ٨/ ٩/ ١٨٦٠م.

(٢) أ، و، ت، س أ، ك ٢٧٦ مكرر، م ١، ق : بدون، خطاب من أمـيـر مكة عون الرفـيق إلى الوزير الأكبر محمد العزيز بوعتور في ٢١/ ٧/ ١٣١٩هـ الموافق ٢/ ١١/ ١٩٠١م.

(٣) أ، و، ت، س : ج، ك ٣٢، م١/ ٤، ق : ٢٠، خطاب من أمير مكة عـلي بن عبـدالله إلى الوزير الأكبر محمد العزيز بوعتور في ١٦/ ١/ ١٣٢٤هـ الموافق ١٠/ ٣/ ١٩٠٦م.

(٤) أ، و، ت، س : ج، ك ٣٢، م ٦/١، ق : ١٤، وصل من أمـيـر مكة المكرمـة علي بن عبدالله في ٢٤/ ١١/ ١٣٢٥هـ الموافق ٢٨/ ١٢/ ١٩٠٧م .

هذا دلالةٌ على ما يجمع المسلمين في تونس والحجاز من وشائج التقارب والتكافل مما دعم الروابط بينهما[1].

(١) صدر في ٢١/ ١٠/ ١٣٧٥هـ الموافق ٣١/ ٥/ ١٩٥٦م قرار يقضي بإلغاء نظم الأوقاف العامة، وشمل هذا القرار أوقاف الحرمين الشريفين العامة، ومن ثم تم التوقف عن إرسال مبلغ الصرة إلى الحجاز منذ ذلك الوقت وبلغ آخر مبلغ للصرة (مليون فرك) انظر : الحبشي، مرجع سابق : ٦٨ .

الفصل الرابع

الجوانب الاجتماعية

أولاً - السمات الاجتماعية في تونس والحجاز.

ثانياً- جماعة الحرمين الشريفين في تونس.

ثالثاً- المجاورون التونسيون في الحجاز.

رابعاً- المصاعب التي كان يواجهها الحجاج التونسيون.



أولاً- السمات الاجتماعية في تونس والحجاز :

(أ) في تـونـــس :

انعكس مــوقع البـلاد التونـسيـة وتاريخـها السـيـاسي على أوضـاعهـا الاجتمـاعية، وعلى تركيـبها السكاني . وكان سكان تونس الـبالغ عددهم نحو مـليون ونصف نسـمة [1] في النصف الثـاني من القرن الثـالث عشـر الهجري / التاسع عشر الميلادي يتألفون من عناصر كثيرة، أجملهم بيرم[2] بقوله: «إن الأهالي ينقسمون إلى عدة أقسام فالأول : الأصليون من البربر، والثاني : العرب، وهم الذين قدموا عند الفتح ثم بعده على أجيال عديدة، والثالث : الأندلسيون، وهم الذين قدموا عند اسـتيلاء الأسبنيول (الأسبان) على بلادهم، والرابـع : التـرك، وهم الذين وردوا عند الاسـتـيـلاء على تونس، ثم من ورد منهم بعد ذلك، والخامس : السودان وهم الذين جُلبوا من دواخل أفريقيا لبيعهم».

ويدين غالـبية سكان تونس بالإسـلام، وقد وجـد في البلاد في الفـترة موضـوع الدراسة نحـو ستين ألفـًا من اليـهود، وأربعين ألفـًا من الـنصارى (الأجانب) [3] .

وكان أغلب اليـهود يقيـمون في العاصمـة، والبقيـة متفرقـون في أنحاء البلاد، ويعود وجود اليهود في تونس إلى زمن بعيد، وربما قدم بعضهم مع الفينيقيين، إلا أن أغلبهم قدم من أسـبانيا، أو البرتغال إثر الاضطهاد الديني في مطلع العصور الحديثة، كما أن بعض اليهود قد حلّوا بتونس قادمين من

---

(١) انظر الفصل الأول : ٢٧ .
(٢) مصدر سابق : ٢ / ١١٩ .
(٣) المصدر نفسه : ١ / ١٢٦ .

إيطاليا بهدف التجارة [١]. ويعود نصارى تونس في أصولهم إلى الدول الأوربية مثل إيطاليا، وفرنسا [٢]، وقد تزايدت أعداد الأوربيين من إيطاليين، وفرنسيين، ومالطيين منذ فرض الحماية الفرنسية على البلاد إذ بعد أن كان عدد الأوربيين في تونس عام ١٢٩٨/ ١٨٨١م لا يتجاوز عشرين ألفًا، ارتفع إلى حوالي مئة وأحد عشر ألفًا عام ١٣١٩هـ/ ١٩٠١م، وبلغ مئة وتسعة وأربعين الفًا عام ١٣٢٩هـ/ ١٩١١م [٣].

وغالبية المسلمين سُنَّة على مذهب الإمام مالك، وقليل منهم على مذهب أبي حنيفة، وتوجد قلة من المعتزلة يقيم أفرادها في الغالب في جزيرة جربة [٤]، وقد أشير سابقًا [٥] إلى انتشار الطرق الصوفية في تونس وهي: الشاذلية، والنقشبندية، والقادرية، والرحمانية، والتيجانية، والسنوسية.

ولغة سكان تونس العربية، وقد دخلت فيها كلمات بربرية كثيرة، كما دخلت فيها ألفاظ من لغات أخرى كالتركية والإيطالية[٦]. وأصبحت اللغة الفرنسية على رأس اللغات الأجنبية المتداولة في البلاد بعد فرض الحماية الفرنسية على تونس عام ١٢٩٨/ ١٨٨١م [٧].

وكان المجتمع التونسي في تلك الفترة يتكون من فئات عدة، تقع في قمة الهرم الاجتماعي فئة الولاة والأعيان وذوو المناصب المهمة في الدولة وغالبية

(١) خيرية، قاسمية وعلي إبراهيم عبده، يهود البلاد العربية. (مركز الأبحاث الفلسطيني، بيروت، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م): ٢٢٧ .

(٢) بيرم، مصدر سابق : ٢ / ١١٥ .

(٣) القصاب، مرجع سابق : ١٨٦، ٢٧٥.

(٤) بيرم، مصدر سابق : ٢/ ١١٥ .

(٥) انظر الفصل الثاني : ٨٨ - ٨٩ .

(٦) المصدر نفسه، الجزء نفسه : ١٤٤ .

(٧) القصاب، مرجع سابق : ٢٩٣ - ٢٩٤ .

هؤلاء من الأتراك [١]، بينما يشكل الأهالي الفئة الثانية، وينقسمون إلى حضر وبدو وهم من عناصر مختلفة، أما اليهود فهم الفئة الثالثة [٢]، وعلى الرغم من قلة عددهم فقد كانوا يحتلون مكانة بارزة في تونس، فشغل بعضهم مناصب جيدة في الولاية كما شاركوا في الصناعة والتجارة، وتمتعوا بالحرية الدينية [٣]. ويشغل الأوربيون النصارى الفئة الرابعة وكانت أعدادهم - كما ذكر سابقاً - قد ازدادت بعد فرض الحماية الفرنسية على تونس عام ١٢٩٨هـ/ ١٨٨١م كما ازدادت مكانتهم الاجتماعية، وعاشوا حياة رفاهية في أحياء خاصة بهم [٤].

وكانت الزراعة (الفلاحة) أهم مورد لعيش أهالي تونس في النصف الثاني من القرن الثالث عشر / التاسع عشر الميلادي [٥]، وعمل بعضهم في الصناعات الحرفية مثل صناعة (الشاشية) والأحذية. هذا إلى جانب اهتمامهم بالنقش والزخرفة. وشغل بعضهم وظائف في الولاية، وتقاضوا مرتباتهم من خزينة البلاد [٦]. والجدير بالذكر أن اليهود والأوربيين النصارى قد احتكروا شؤون التجارة [٧].

ومع أن الطبقة الوسطى في المدن والقرى التونسية ظلت هي الغالبية العظمى في المجتمع، إلا أن الملحوظ أن الفقر قد أخذ ينتشر بين طبقات الشعب التونسي بعد فرض الحماية بسبب سياسة فرنسا التمييزية لصالح الأوربيين. هذا بالإضافة إلى سوء العوامل الطبيعية التي كانت تتعرض لها

---

(١) بيرم، مصدر سابق : ٢ / ١٣٣ .
(٢) ثامر، مرجع سابق : ٣٤ .
(٣) قاسمية، مرجع سابق : ٢٢٧ - ٢٣١ .
(٤) القاسمي، المرجع السابق، ص ٢٥ .
(٥) ثامر، مرجع سابق : ٣٤ .
(٦) بيرم، مصدر سابق :٢ / ١١٠ - ١٢٠ .
(٧) انظر الفصل الثالث : ١٧٦ .

البلاد التونسية في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي، فَتُحْدث جفافًا وقحطًا يلحق الضرر بغالبية السكان المعتمدة على الزراعة (الفلاحة) في معاشها[١]. وأدى ذلك إلى الإضرار بالطبقة الوسطى، وتزايد أعداد الطبقة الصغيرة من الشعب التونسي بشكل واضح[٢].

(ب) في الحجاز :

يتميز إقليم الحجاز عن غيره من أقاليم العالم الإسلامي بتنوع تركيبته الاجتماعية إذ تكثر في مدنه الرئيسة مثل: مكة، والمدينة، وجدة أعداد الوافدين من العرب، وغير العرب الذين استقروا في تلك المدن نظرًا لمركزها الديني والتجاري [٣]، وكانت أعداد هؤلاء تزداد على مر العصور الإسلامية زيادة كبيرة [٤]، ففي مكة مثلاً قدر البتنوني[٥] عدد المسلمين فيها من غير العرب من البخاريين، والهنود، والجاويين في بداية القرن الرابع الهجري / العشرين ميلادي بـ «سبعة وخمسين ألفًا» من مجموع يبلغ حوالي «مئة وخمسين ألفًا» من الأهالي و«خمسة وعشرين ألفًا» من البدو، والبقية من العرب والمسلمين الذين قدموا من الأقطار العربية كالمغاربة الذين قدر البتنوني[٦] أيضًا أعدادهم في مكة في الفترة نفسها بخمسة آلاف شخص، ومما يجدر ذكره وجود عدد من النصارى في جدة من الإنجليز، والفرنسيين، والإيطاليين[٧] وقدّر البتنوني[٨] أعدادهم بـ «مئة أو

(١) القاسمي، مرجع سابق : ٢٥ - ٢٧ .
(٢) ثامر، مرجع سابق : ٣٤ .
(٣) البتنوني، مصدر سابق : ٤٠ .
(٤) انظر : ٢٨٦ من هذا الفصل .
(٥) المصدر نفسه، الصفحة نفسها .
(٦) المصدر نفسه : ٤١ .
(٧) الفوزان، مرجع سابق : ٢٤١ .
(٨) مصدر سابق : ٩ .

يزيدون قليلاً»، وهؤلاء قدموا إلى جدة بدافع مصالحهم التجارية، أو السياسية[١]. هذا في حين يحظر على غير المسلمين[٢] دخول مكة والمدينة[٣].

وغالبية سكان الحجاز الذين لم تتجاوز أعدادهم المليون نسمة سُنة يتبعون المذهب الشافعي، وتتبع بعض القبائل [٤] المذهب الحنفي . كما ينتشر التشيع بين النخاولة [٥] الذين يشكلون الطبقة المزارعة في المدينة [٦] .

أما الوافدون من المسلمين فتتعدد انتماءاتهم المذهبية، إلا أن المذهب الحنفيَّ هو الأكثر انتشاراً بينهم [٧]، والملحوظ انتشار المذهب المالكي بين

---

(١) الفوزان، مرجع سابق : ٢٤١ .

(٢) ذكر البتنوني (مصدر سابق : ٤٦) قوله : «أهل مكة كلهم مسلمون ولا يدخلها غير مسلم من السنة التاسعة للهجرة التي نزلت فيها الآية الشريفة :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ﴾وأضاف (المصدر نفسه، ص ٤٧): أما أفراد الفرنجة الذين قصدوا مكة والمدينة في أزمنة مختلفة، وكتبوا عنها ما كتبوا . . إنما كانوا يتزيون بزي المسلمين . . ويدعون أنهم على الدين وخص بالذكر منهم بروكهارت السويسري، وبورتون الإنجليزي» كما يقول حافظ وهبة (مرجع سابق : ٢٦) : لقد جرى العُرف على ألا يدخل البلدين المقدسين مكة والمدينة غير المسلمين، ومنشأ هذا ما روي عن ابن عباس أنه سمع رسول الله ﷺ يقول في مرض موته : أخرجوا المشركين من جزيرة العرب . . وأن ابن عمر قال : «إن عمر أجلى اليهود والنصارى من أرض الحجاز . . » .

(٣) بيرم، مصدر سابق : ٥ / ١٧ .

(٤) انظر التمهيد : ٣٦ .

من تلك القبائل قبيلة حرب وهي من القبائل القحطانية . وتمتد مساكنها من جنوبي ينبع حتى القنفذة على محاذاة ساحل البحر الأحمر، وحول المنطقة الجبلية الممتدة من المدينة إلى مكة كما تمتد مساكنهم أيضاً شرقاً إلى داخل نجد .

AL Amr, op.cit, p .19.

حمد بن إبراهيم الحقيل، كنز الإنسان ومجمع الآداب، (مطابع الجاسر، الرياض، ١٤١٣هـ

(٥) مفردها نخولي والواحد منهم يعمل فلاح نخيل .

(6) Reichard Burton , personl Narrative of A Pilgrimage to Al- Mediah and Meccah, Dover publications, lnc. NewYork, 1384 /1964) Vol 2,p.5.

(7) Ibid, P : 6 Also .

AL Amr, op.cit, p .19.

الوافدين إلى المدينة، وخاصة المغاربة منهم [١]، وأشير سابقًا إلى انتشار الطرق الصوفية في الحجاز، وخاصة في مكة بين قبائل البدو ومن تلك الطرق السنوسية، إضافة إلى الطرق الأخرى كالنقشبندية، والقادرية، وغيرهما. وقد يعود السبب في انتشار تلك الطرق بين البدو إلى قلة اهتمامهم البدو بتعلم العلوم الدينية على أصولها الصحيحة، مما أتاح لأصحاب الطرق الصوفية البيئة المناسبة لنشر تلك الطرق.

ولغة الحجاز هي العربية، وقد دخلت فيها بعض الألفاظ الأعجمية بسبب محاولة الوافدين إلى الحجاز من المسلمين غير العرب تعلم اللغة العربية [٢] وما نتج عن ذلك من تحريف للألفاظ العربية [٣].

أما أهل البادية فقد حافظوا على لغتهم عربية صرفة [٤]، وإن كانت تختلف في لفظها باختلاف القبائل [٥]. وزاد انتشار اللغة التركية في الحجاز في أوائل القرن الرابع عشر الهجري / العشرين الميلادي بصورة أكثر مما كانت عليه في السابق بسبب التدريس باللغة التركية في المدارس الحكومية[٦].

ويمكن أن يميز في المجتمع الحجازي أربع فئات تتكون الفئة الأولى من الأشراف في الحجاز بما فيهم أمراء مكة المكرمة. هذا بالإضافة إلى العلماء

(1) Burton, op.cit. p Vol 2,p 6.

(٢) بيرم، مصدر سابق: ٥/ ١٧.
بيرم، مصدر سابق: ٢ / ٣٠.
(٣) مثل تحريف «هذا حق فلان» إلى «هذا حقون فلان».
البتنوني، مصدر سابق: ٤٢.
(٤) المصدر نفسه: ٤٢.
(٥) مثل قلب الكاف سين كقول «سبد» بدلاً من «كبد».
المصدر نفسه: ٤٥.
(٦) الفوزان، مرجع سابق: ٢٣٨.

والأعيان من الأغنياء والتجار وذوي المناصب المهمة في الولاية، ويلي هؤلاء جميعاً الفئة الثانية من الأهالي وهم في مكة من يعودون بنسبهم إلى بطون قريش التي بقيت فيها بعد انتقال الخلافة الإسلامية إلى دمشق، ثم بغداد[١]، يضاف إليهم بعض القبائل البدوية التي استقرت في المنطقة [٢] . أما أهالي المدينة فهم من يعودون بنسبهم إلى بعض العائلات من الأنصار[٣] بالإضافة إلى بعض القبائل البدوية [٤]. ويعد المجاورون [٥] في الحرمين الشريفين الفئة الثالثة، ويتكون المجاورون من مسلمين عرب قدموا من المناطق العربية الإسلامية القريبة مثل مصر، والشام، واليمن، وشمال أفريقيا، وغيرها، أو من مسلمين من غير العرب الذين قدموا من مختلف أنحاء العالم الإسلامي كالبخاريين والجاويين والهنود[٦]. ويمكن اعتبار أغوات[٧] الحرمين الشريفين الذين يقومون بخدمة الحرمين الشريفين هم الفئة الرابعة [٨] .

ومصادر العيش لسكان الحجاز عديدة ولكن أهمها الحج، إذ إن كثيراً من

(١) باقاسي، مرجع سابق : ٨١ .
(٢) مثل : الجحادلة، وعتيبة، وغامد، وغيرهم .
الفوزان، مرجع سابق : ٢٤٠ .

(3) Burton, op, cit, vol, P.5.

(٤) مثل قبيلة حرب، وجهينة .
ابن نعمان، مصدر سابق : ٤٢، وأيضاً :
الفوزان، مرجع سابق : ٢٤٠ .
(٥) انظر تعريف المجاورة : ٢٨٤ من هذا الفصل .
(٦) المرجع نفسه، الصفحة نفسها .
(٧) جمع آغا والمقصود بهم خدام الحرمين الشريفين ويكونون عادة من الخصيان، وأول من استخدمهم في الحرمين السلطان صلاح الدين الأيوبي عام ٥٦٨هـ/ ١١٧٢م وقبل ذلك الوقت كان أمراء مكة المكرمة والمدينة وولاتها ومن جاور من الحجاج يقومون بخدمة الحرمين وهم المسؤولون عن نظافتهما.
الأنصاري، مصدر سابق : ٥٣ - ٥٤ .
(٨) باقاسي، مرجع سابق : ٨١

سكان المدينتين المقدستين يعتمدون بشكل رئيس على موارد موسم الحج خلال عملهم مطوفين، أو مزورين، أو جمالين، أو ما شابه ذلك [١] هذا بالإضافة إلى ما يتم في هذا الموسم من التبادل التجاري [٢].

وتعد المعونات المالية التي كانت تقدمها بعض الحكومات الإسلامية للحجاز مثل الدولة العثمانية، ومصر، وتونس[٣] من الموارد المهمة التي يترقبها سكان المدينتين المقدستين، كما تشكل الصدقات الدينية التي يمنحها الموسرون جزءًا من دخل الفقراء أو المتسولين مثل سكان المدينتين [٤]، كما أن وجود بعض الأربطة الموقوفة على حجاج مكة والمدينة، أو فقراء الحرمين، أو مجاوريهم قد أضاف موردًا آخر للدخل [٥] .

ولا يمكن إغفال مصادر أخرى للعيش في الحجاز منها عمل بعض سكان الحجاز بالزراعة والصناعة والتجارة، وعمل أهل البادية بالرعي وتربية الماشية، وكذلك الرواتب الشهرية التي يتقاضاها الموظفون من صندوق الولاية الحجازية [٦] .

ويختلف المستوى المعيشي بين سكان الحجاز وفقًا لانتماءاتهم الفئوية أو الطبقية؛ فالطبقة الغنية في الحجاز هم من الولاة، والأمراء، والأشراف،

---

(1) ALmr, op. Cit, P.19.

(٢) انظر الفصل الثالث : ١٧٤-١٧٩ .

(٣) انظر الفصل الثالث : ٢٢٨ .

(٤) هورخرونيه، مصدر سابق :٢ / ٥٤ .
انظر الفصل الثالث .

(٥) عبداللطيف بن دهيش، الحياة الاجتماعية في مكة المكرمة منذ مطلع القرن العشرين حتى قيام الحرب العالمية الأولى (١٩٠٠-١٩١م)، بحث في كتاب الحياة الاجتماعية في الولايات العربية أثناء العهد العثماني جمع وتقديم د. عبدالجليل التميمي، (مركز الدراسات والبحوث العثمانية والمريسيكية والتوثيق والمعلومات، زغوان (تونس)، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م)، ص ١٨٩ .

(٦) الفوزان، مرجع سابق : ٢٤٩ - ٢٥٠ .

والأعيان يعيشون حياتهم بيسر وبذخ، في حين أن المستوى المعيشي للأهالي من الموظفين، والفقهاء، والحرفيين، وأغلب المطوفين والمزورين يعد متوسطًا .

أما الفقراء من الأهالي والمجاورين والأغوات وغيرهم فهم قسمان : الأول الذين يعملون ويكسبون ما يقيتهم، والآخر الذين يعتمدون في عيشهم على ما يصلهم من مساعدات من أوقاف، أو صدقات، ونحوها، وهم يعيشون في حالة البطالة .

ومن الملحوظ أن تونس والحجاز بحكم انتمائهما للعقيدة الإسلامية، وللحضارة الإسلامية، وبحكم تبعيتهما للدولة العثمانية دولة الخلافة الإسلامية في معظم الفترة موضوع الدراسة قد اكتسبتا سمات اجتماعية متقاربة، وبوجه عام فإن المجتمعين الأسريين في تونس والحجاز يتشابهان كثيرًا من ناحية العادات والتقاليد المستمدة من الشريعة الإسلامية كالزواج والطلاق وما شابه ذلك، وكذلك الاهتمام ببعض المناسبات الاجتماعية كاحتفالات الزواج، وميلاد الأطفال، وختم القرآن، وكذلك المناسبات الدينية كالأعياد على الرغم من اختلاف طرق التعبير عنها [1] .

ولكن وجد بعض الاختلاف الناجم عن اختلاف موقع البلدين الجغرافي، واختلاف الظروف التاريخية التي مرت عليهما، ذلك أن تأثير موقع تونس الجغرافي كان ملحوظًا في انفتاح المجتمع الإسلامي فيه على الحضارة الأوربية الغربية، ووفود العديد من الأوربيين إليه . هذا في حين لم يتعرض الحجاز لانفتاح مماثل على العالم الغربي، ولكن بالمقابل جرى انفتاح على العالم الإسلامي، وبشكل خاص من خلال المسلمين الوافدين من أنحاء

---

(١) انظر، بيرم، مصدر سابق، جـ ٢ : ١٣٩ - ١٤٤ وأيضًا : الفوزان، مرجع سابق : ٢٤٦ - ٢٤٩ .

العالم الإسلامي إلى الحجاز نظراً لأهميته الدينية. ولم يمنع هذا من وجود قلة من النصارى (الأوربيين) في جدة بسبب موقعها التجاري، وعلاقاتها التجارية مع الدول الأوربية [١]، وكان للظروف التاريخية انعكاسات مختلفة في كلا البلدين، وقد حدث هذا بشكل واضح بعد أن تعرضت تونس لفرض الحماية الفرنسية عليها، ومع أن هذا الحدث زاد المجتمع التونسي تمسكاً بعاداته وتقاليده على أنها نوع من الرفض للحماية، إلا أنه لم يمنع قلة من أفراد المجتمع التونسي من التأثر بالحضارة الغربية ومحاولة تقليدها[٢].

ولا بد من الإشارة إلى أن انتماء البلدين خلال تلك الفترة للحكم العثماني قد صبغهما ببعض الصفات المشتركة، كاتخاذ المذهب الحنفي مذهباً رسمياً للدولة، وكذلك التشابه في زي العلماء الأحناف، وموظفي الدولة [٣]. كما تماثلت سياسة الدولة العثمانية في كلا البلدين في نواحي التعليم، والصحة، وخاصة أن الدولة العثمانية لم تولِ هذه النواحي في الولايتين اهتماماً واضحاً [٤]، كذلك فإن احتكاك شعب البلدين مع السلطة الحاكمة فيهما ومع العنصر التركي الذي قدم إلى البلدين بعد استتباب الحكم العثماني فيهما كان له تأثيره في كلا البلدين [٥]، فقد دخلت بعض الألفاظ

---

(١) ابن دهيش، مرجع سابق : ١٩٠ - ١٩١ .
انظر الفصل الثالث، ص ١٧٢ .

(2) Carmel Sammut, I,mperialisme Capitaliste Francais Et le Nationalisme tunisien.
(1881-1914) (publisud, Paris, 1983) P186-187)

(٣) بيرم، مصدر سابق :٢ / ١٣٥ - ١٣٨ وأيضاً .
السباعي، مرجع سابق : ٥٧١ - ٥٧٢ .

(٤) بيرم، مصدر سابق :ـ ٢ / ١٢٦ : ٥ / ٢٤، وأيضاً :
الإمام، مرجع سابق : ٣١٠ - ٣١١ وأيضاً .
الفوزان، مرجع سابق : ٢٣٦ .

(٥) الصباغ، مرجع سابق : ١٩٢ .

التركية إلى اللغة العربية [١]، وتأثر مجتمع البلدين ببعض العادات التركية في الملبس والمأكل [٢] على سبيل المثال، ولكن هذه التأثيرات بوجه عام لم تغيّر كثيراً من عادات المجتمعين وتقاليدهما أو تحاول اختراق عمقهما، ذلك أن الوجود العثماني في كلا البلدين ظل سطحياً، ولم يُحدِث تغيراً واضحاً في السمات العامة لمجتمعيهما.

ثانياً- جماعة الحرمين الشريفين في تونس " المكاويون " :

(أ) تعريف المكاويين :

وهم الفئات التي وفدت إلى العاصمة التونسية من مكة والمدينة، وغالباً ما كان التونسيون يطلقون تسمية (المكاويين) على القادمين من الحجاز من المكيين والمدنيين معاً [٣] . إلا أن هؤلاء كانوا يطلقون على أنفسهم «جماعة الحرمين الشريفين»، ويظهر ذلك من خلال المراسلات التي كانوا يرسلونها

---

(١) من الأمثلة على تأثر التونسيين باللغة التركية استخدامهم النسبة كما في اللفظ التركي : قهوجي، حمامجي وغير ذلك وهو ما يتلفظ به أهل الحجاز أيضاً، كما أن كلمة خواجة التي تستخدم في الحجاز وتطلق على المعلم هي كلمة تركية، كما تُستخدم كلمة «سكتر» وهي تركية بمعنى اخرج أو اذهب.
بيرم، مصدر سابق : ٢ / ١٤٤، وأيضاً :
زيدان، مرجع سابق : ١٣٧، وأيضاً :
الفوزان، مرجع سابق : ٢٣٨ .

(٢) من الأمثلة في تونس لبس الأشراف العمامة الخضراء تميزاً لهم عن غيرهم وتعظيماً لقدرهم، ومن الأمثلة في الحجاز الأخذ من الأتراك طريقة عمل بعض المشويات والحلويات مثل المهلبية وحلاوة الحلقوم.
ابن الخوجة، مرجع سابق : ٢٢٩ - ٢٣٠، وأيضاً :
مغربي، مرجع سابق : ٢٢٣ . وأيضاً :
ابن سلم، مرجع سابق : ٧٤ .

(٣) أحمد قاسم، مدينة تونس في العهد العثماني من خلال الوثائق، (المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، تونس (زغوان)، ع ٩و ١٠، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م)، ص ٣٠٢ .
ومما يجدر ذكره أن هذا الأمر لم يكن متفقاً عليه في الوثائق المتوافرة، ففي حين تُطلق =

إلى المسؤولين في تونس المتعلقة بأوضاعهم المعيشية[١] .

وكان عدد من جماعة الحرمين الشريفين يذهبون إلى تونس لأغراض متعددة؛ فمنهم من يذهب للسياحة كما فعل عيدروس السقاف [٢]، وأبو بكر بن درويش حلاب[٣]، ومحمد الجني [٤]، ومنهم من يذهب للحصول على جراية من الحكومة التونسية [٥]، والجراية هي المبلغ المالي المحدد من قبل الباي لمنحه للمقيمين والوافدين من جماعة الحرمين الشريفين على تونس، ويقتطع من واردات الأوقاف،إلا أن قسمًا من أهالي الحرمين الشريفين كان يستقر بتونس لفترات طويلة ليس فقط بهدف الحصول على

= التسمية في بعض الوثائق على المكيين والمدنيين يحدث أن يُمَيَّز بينهما في وثائق أخرى . انظر مثلاً :

أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨٩، ق : ٥٣، خطاب من مصطفى الرفاعي شيخ المكاوية إلى الوزير خير الدين باشا في ٧/ ٦/ ١٢٨٩هـ الموافق ١١/ ٨/ ١٨٧٢م . وأيضًا :

أ، و، ت، س : ج، ك ٣١، م ١/ ٥، ق : ٤، خطاب من أحمد العبداوي شيخ المكيين والمدنيين إلى الوزير الأكبر محمد العزيز بوعتور في ٢٦/ ١٢/ ١٣١١هـ الموافق ١٠/ ٧/ ١٨٩٣م .

(١) أ، و، ت، س ج، ك ٣٠، م ١/ ٢، خطاب من جماعة الحرمين المقيمين بالحاضرة إلى الوزير الأكبر محمد العزيز بوعتور في ١١/ ٤/ ١٣٠٨هـ الموافق ٢٣/ ١١/ ١٨٩٠م، وأيضًا :

أ، و، ت، س، ج، ك ٣٠، م ١/ ٢، ق ٣٩، خطاب من جماعة الحرمين الشريفين حاضرة تونس إلى الوزير الأكبر في ١٦/ ١/ ١٣٢٧هـ الموافق ٢٧/ ١/ ١٩٠٩م.

(٢) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨٣، ق : ٢، خطاب من أمير مكة الشريف عون الرفيق إلى الوزير الأكبر محمد العزيز بوعتور في ٢٥/ ٧/ ١٣٠٤هـ الموافق ١٨/ ٤/ ١٨٨٧م .

(٣) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨٣، ق : ١٤، خطاب من أمير مكة الشريف عون الرفيق إلى الوزير الأكبر محمد العزيز بوعتور في ٢/ ٤/ ١٣١٣هـ الموافق ٢١/ ٩/ ١٨٩٥م .

(4)A.N.T,s.c,car29, Dos1.

مذكرة صدرت من الكتابة العامة للحكومة التونسية بخصوص شخص يدعى محمد الجني (بدون تاريخ) .

(٥) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٦٩، ق : بدون، خطاب من أمير مكة الشريف عبدالله ابن محمد إلى المشير محمد الصادق باشا باي في ٢٩/ ٤/ ١٢٨٥هـ الموافق ١٨/ ٨/ ١٨٩٨م

الإعانة المالية المخصصة للوافدين [١]، بل بسبب المكانة الاجتماعية التي كان يحظى بها هؤلاء في المجتمع التونسي لكونهم من أهالي الأماكن المقدسة، ولأن غالبيتهم - كما يدّعون - يتصل نسبهم بنسب الرسول ﷺ حتى أصبح لقب «الأشراف» يطلق على كل من قدم من تلك الأماكن حتى وإن لم يكن منهم .

ومن أجل التثبت من انتساب القادمين من الأماكن المقدسة إلى الرسول ﷺ كانت الوزارة الكبرى في تونس تؤكد على وجوب إبراز شجرة العائلة للمختص بهذا الشأن في تونس، وهو «نقيب الأشراف» الذي يتأكد من صحة النسب، ويطبع ختمه على الوثيقة[٢].

ولم تتوافر إحصاءات رسمية كاملة في تلك الفترة حول أعداد جماعة الحرمين الشريفين في تونس، وقد تبين أن عددهم تراوح بين ثمانية عشر شخصًا في ربيع الآخر ١٢٨٩هـ/ يونيه ١٨٧٢م [٣] وتسعة وسبعين شخصًا في ذي القعدة / ١٢٩٧هـ/ أكتوبر ١٨٨٠م [٤] [٥] . وتقلص العدد تدريجيًا بعد عام ١٣٠٣هـ/ ١٨٨٦م، فبلغ في جمادى الأولى

---

(١) قاسم، مدينة تونس، ص ٣٠٢.

(٢) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨٦، ق : بدون، خطاب من صالح محمد شبيل الشريف الى الوزير الأكبر محمد العزيز بوعتور في ١٣٢٢/٨/٢٨هـ الموافق ١٦/ ١٠/ ١٩٠٦م.

(٣) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨٣، قائمة : ٩٥، بيان بأسماء المكاوية في ربيع الآخر ١٢٨٩هـ/ يونيه ١٨٧٢م.

(٤) انظر مقارنة بين أعداد جماعة الحرمين الشريفين في تونس لشهري جمادى الأولى وذي القعدة في الفترة ١٢٩٢-١٢٩٩هـ/ ١٨٧٥-١٨٨٢م في الملحقات إحصاء ٦ .

(٥) أ، و، ت، س . ت، ك ٥٦، م ٧٨٣، قائمة : ٥٢، بيان بأسماء المكاوية في ذي القعدة ١٢٩٧هـ/ اكتوبر ١٨٨٠م .

١٣٠٣هـ/ فبراير ١٨٨٦م اثنين وخمسين شخصاً [١]، ثم تناقص إلى تسعة وعشرين شخصاً في عام ١٣٠٧هـ/ ١٨٩٠م[٢]، وبلغ عددهم سبعة عشر شخصاً في عام ١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م[٣]، ولعل السبب في ذلك التراجع يعود إلى :

أولاً: ما تبع فرض الحماية الفرنسية على البلاد من اضطراب في الأحوال السياسية، مما أدى إلى خروج عدد من التونسيين من بلادهم، والتجاء بعضهم إلى الحرمين الشريفين[٤]، وربما قلل هذا من توجه جماعة الحرمين الشريفين إلى تونس.

ثانياً: صدور قرار في تونس في شعبان ١٣٠٣هـ/ مايو ١٨٨٦م ينص على وقف الإعانة عن الوافد إذا تجاوزت مدة بقائه في تونس عاماً واحداً[٥]، ويشير إلى ذلك الخطاب الموجه من حسن أبي بكر من (المكاوية) إلى الوزير الأكبر محمد العزيز بوعتور في ذي الحجة ١٣٢٠هـ / مارس ١٩٠٣م، والذي ورد فيه [٦] : «إننا أساساً من أهل بيت الله فقراء غرباء خرجنا من بلادنا لطلب ما نستعين به على إقامة الأهل قصدنا مدينة تونس

(١) أ، و، ت، س : ج، ك : ٣٠، م ١/ ٣، ق : ٤٢، قائمة بأسماء المكاوية في جمادى الأولى ١٣٠٣هـ/ فبراير١٨٨٦م.

(٢) أ، و، ت، س : ج، ك ٣٠، م ١/ ٢، ق : بدون، قائمة بأسماء المكاوية في عام ١٣٠٧هـ/ ١٨٩٠م.

(٣) أ، و، ت، س : ج، ك ٣٠، م ١/ ١، ق : بدون، قائمة بأسماء المكاوية في عام ١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م.

(٤) أ، و، ت، س : ج، ك ٣١، م ١/ ٥، ق: ١٨، خطاب من أحمد بن علي إلى الوزير الأكبر محمد العزيز بوعتور (بدون تاريخ) .

(٥) أ، و، ت، س : ج، ك ٣٠، م ١/ ٢، ق ١٥ : خطاب من رئيس جمعية الأوقاف إلى الوزير الأكبر محمد العزيز بوعتور في ٢٨/ ٨/ ١٣٠٦هـ الموافق ٢٩/ ٤/ ١٨٨٩م .

(٦) أ، و، ت، س : ج، ك ٣١، م ١/ ١٢، ق : بدون، خطاب من حسن أبي بكر المكاوية الى الوزير الأمير محمد العزيز بوعتور في ذي الحجة ١٣٢٠هـ/ مارس ١٩٠٣م .

فلما حللنا بها لم نرزق منها إلا بما جرى لنا من حبس الحرمين وانقطع علينا الراتب، وانقطعنا في الغربة عن الأهل والعائلة الصغار، فالمرجو من جزيل فضلكم أن تأذنوا بشيء من حبس الحرمين ليتسنى لنا به الرجوع» .

والملحوظ أن مساندة الولاية التونسية بتأمين أماكن لسكنى المحتاجين من جماعة الحرمين الشريفين قد شجع غيرهم على المطالبة بالسكن المجاني دون أن يكون ذلك من حقهم، ومثال ذلك الطلب الذي تقدم به شيخ المكاوية مصطفى الرفاعي إلى الوزير الأكبر في ٢٤/ ١١/ ١٢٩٢هـ الموافق ٢١/ ١٢/ ١٨٧٥م بخصوص إعطائه دارًا من وقف الحرمين الشريفين ينزل بها دون أجر [١].

(ب) تنظيم شؤون جماعة الحرمين الشريفين والإشراف عليهم :

حينما أسست ادارة جمعية الأوقاف عام ١٢٩١هـ/ ١٨٧٤م أوكل إليها مهمة تصريف شؤون جماعة الحرمين الشريفين ؛ فاصبحت هي التي تتولى تقييد أعداد الجماعة وأسمائهم من المقيمين بتونس المستقرين فيها أو من الوافدين إليها، كما أخذت الجمعية تتكفل بتوفير سكنى بعض الوافدين من جماعة الحرمين الشريفين (وكيل الحكومة التونسية في الحجاز)، أو ممن هم بحاجة إلى السكن من المستقرين من الجماعة خاصة إذا فقدت الأسرة عائلها بسبب الوفاة، وغالبًا ما كان السكن يوفر لهؤلاء في إحدى دور الوقف في تونس [٢]، أو في إحدى الزوايا الموقوفة [٣].

---

(١) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥ / م ٧٨٩، ق : ١٣، خطاب من شيخ المكاوية مصطفى الرفاعي إلى الوزير الأكبر خير الدين في ٢٤/ ١١/ ١٢٩٢هـ الموافق ٢١/ ١٢/ ١٧٨٥م .

(٢) أ، و، ت، س : ج، ك ٣٢، م ٢/ ٤، ق : ١٧، خطاب من عبدالرحمن الزمزمي وكيل التونسيين بمكة إلى روى (Rowa) الكاتب العام بتونس في ٢/ ١١/ ١٣٢٢هـ الموافق ٩/ ١/ ١٩٠٥م.

(٣) أ، و، ت، س : ج، ك ٣٠، م ١/ ١٢، ق : ١٢، خطاب من علي بن مصطفى إلى رئيس جمعية الأوقاف محمد البشير صفر في ٢٠/ ١٢/ ١٣٢٣هـ الموافق ١٤/ ٢/ ١٩٠٦م .

ويتولى مسؤولية الإشراف على شؤون جماعة الحرمين الشريفين في تونس وكيل عنهم يلقب بـ «شيخ المكاوية» [(١)]، وأحيانًا يلقب بـ «شيخ المكيين والمدنيين» [(٢)]، ويجري اختيار الوكيل من قبل رئيس جمعية الأوقاف، ومن ثم يرفع الاسم المختار للوزير الأكبر لأخذ رأيه قبل أن يصدر الباي قرار التصديق على الاختيار، وكان يشترط في الشخص المرشح لهذا المنصب أن تكون سمعته بين أهل الحرمين الشريفين طيبة[(٣)]. وكان أشهر من تولى هذا المنصب في هذه الفترة الشيخ مصطفى الرفاعي الذي شغل منصب «شيخ المكيين والمدنيين» في الفترة (١٢٨٨ - ١٣٠٣هـ/ ١٨٧١-١٨٨٦م)[(٤)]، وكذلك الشيخ أحمد العبداوي (١٣٠٦-١٣٤٠هـ/ ١٨٨٩ - ١٩٢١م) [(٥)] .

وكان من أبرز مهام «شيخ المكيين والمدنيين» إمداد جمعية الأوقاف في تونس بالمعلومات المتعلقة بجماعة الحرمين الشريفين، أو التثبت من كونهم قد قدموا من إحدى المدينتين المقدستين، وفيما إذا كانوا من أهلها الأصليين أو من المجاورين وذلك من أجل التعرف على إمكانية منحهم الإعانات المخصصة لأهالي الحرمين، أو حرمانهم منها[(٦)]، ولهذا فإن عمل الوكيل

---

(١) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨٣، ق : ١٢٩، قائمة بأسماء المكاوية المستحقين لمرتب شهر جمادى الأولى ١٢٩٢هـ/ يونيه ١٨٧٥م .

(٢) أ، و، ت، س : ج، ك ٣١، م ٥/١، ق : ٤، خطاب من أحمد العبداوي شيخ المكيين والمدنيين إلى الوزير الأكبر محمد العزيز بوعتور في ٢٦/ ١٢/ ١٣١١هـ الموافق ١٠/ ٧/ ١٨٩٣م .

(٣) أ، و، ت، س ج، ك ٣٠، م ٥/١، ق : بدون، خطاب من مجموعة من أهالي الحرمين إلى الوزارة الكبرى في ٢٥/ ٨/ ١٣١٢هـ الموافق ٢٠/ ٢/ ١٨٩٥م .

(٤) أ، و، ت، س : ج، ك ٣٠، م ٧٨٣، ق ١٠٣، ١٠٨، إمضاءات لشيخ المكيين حول إعانات المكاوية في الفترة ١٢٨٨-١٣٠٣هـ الموافق١٨٧١-١٨٨٦م .

(٥) أ، و، ت، س : ج، ك ٣٠، م ١/١، ق : بدون، خطاب من محمد بن عاشور رئيس جمعية الأوقاف إلى الوزير الأكبر محمد العزيز بوعتور ١/ ٧/ ١٣٠٦هـ الموافق ٣/ ٣/ ١٨٨٩

(٦) أ، و، ت، س : ج، ك ٣٠، م ١/١، ق : ٤ خطاب من رئيس جمعية الأوقاف إلى الوزير الأكبر محمد الهادي في ٩/ ١/ ١٣٥٦هـ الموافق ٢٢/ ٣/ ١٩٣٧م .

كان يعتـمد على التحري والبحث الدقـيق، وكان لا يتم رفع طلب الإعانة (الجراية) إلا بعد التأكد من أن صاحبها تتوافر فيه الشروط اللازمة.

وكان من مهام الـوكيل أيضـًا مراقبة أحوال المكيين والمدنيين بتـونس فهو الذي يكفل الراغبين بالسفر منهم ويعـرّف بهم حتى تصدر لهم تذكرة الإذن بالسفر، ولو اقـتضى الأمر كان الوكيل يكلف بإحضـار الشخص المكفول. وإضافة إلى ذلك كان الوكيـل يهتم بمن توفي من أهالي الحرمين الشريفين، ويتصل بـأهله في الحرمين لو وجـدوا، أما إذا لم يكن فـإن إدارة بيت مال الوقف في تونس هي التي تبلغ بذلك [١].

وقـد تمتع «شيخ المـكيين والمدنيين» بسلطات واسـعة علـى جمـيع أهالي الحرمين الـشريفين في تونس حـتى بلغت في بعض الأحيـان حد حـرمان بعـضهم من الإعـانة السنوية، وأحـيانـًا اسـتصـدار قرار بطرد آخـرين من البلاد. ومن أجل هذا كان جـماعة الحرمين الشريفين في نزاع متـجدد حول هذا المنصب [٢]، وتعـددت شكاوي جمـاعـة الحرمين الشـريفين إلى إدارة جمـعية الأوقـاف بشأن المظالم التي كانـوا يتعرضـون إليها من قـبل «شيخ المكيين والمدنيين» [٣]، وكانت الإدارة هي الواسطة بين الطرفين.

ومما يجدّر ذكـره أن السلطات الفرنسية عـمدت بعد فرض الحـماية على تونس عـام ١٢٩٨هـ/ ١٨٨١م إلى التـدخل فـي الشـؤون المتـعلقـة بأهالي

(١) أ، و، ت، س ج، ك ٣٠، م ١/ ٢، ق : ٨، خطاب من رئيس جـمعيـة الأوقاف محـمد صفر إلى الوزير الأكبر محمد العزيز بوعتور في ١/ ٧/ ١٣٠٦هـ الموافق ٣١/ ٣/ ١٨٨٩م .

(٢) قاسم، مدينة تونس : ٣٠٢ .

(٣) أ، و، ت، س : ج، ك ٣١، م ١/ ٥، ق ٧٦، خطاب من حـسين بن أحمـد بديري وابن أخيـه إبراهيم إلى الوزير الأكـبر مـحـمـد العـزيز بوعـتـور في ١٥/ ٥/ ١٣٢٤هـ الموافق ٧/ ٧/ ١٩٠٦م . وأيضـًا :

أ، و، ت، س : ج، ك ٣٠، م ١/ ٥، ق : بدون، خطاب من مجموعة من أهالي الحرمين الشريفين إلى الوزارة الكبرى في ٢٥/ ٨/ ١٣١٢هـ الموافق ٢٠/ ٢/ ١٨٩٥م .

الحرمين الشريفين، وحدّت من صلاحية إدارة جمعية الأوقاف بهذه الشؤون. ومن الأدلة على مدى نفوذ السلطات الفرنسية في تونس على جماعة الحرمين الشريفين أسوة بسائر شؤون تونس أن بعضهم أصبح يرسل خطاباته إلى الكاتب العام الفرنسي بدلاً من إرسالها إلى الوزير الأكبر في المسائل المتعلقة بطلب منحة أو ما شابه ذلك [١].

(ج) المسائل المالية لجماعة الحرمين في تونس :

اهتمت البلاد التونسية - خلال الفترة موضوع الدراسة- بالوافدين إليها من جماعة الحرمين الشريفين، وخصصت جزءًا من ريع أوقاف الحرمين للإنفاق منه عليهم، فكانت تصرف لهم إعانات شهرية وتحاول حل مشكلاتهم المالية [٢] .

وكانت جمعية الأوقاف تتولى تسجيل أعداد جماعة الحرمين الشريفين في دفتر خاص يحفظ بمقر خدمة إدارة أوقاف الحرمين، وكانت إعاناتهم تصرف بناءً على ما سُجل في هذا الدفتر من أسماء، وتقيد في هذا الدفتر مرتباتهم الشهرية، وما يستحقونه من إعانة حال سفرهم، ويختم ذلك بختم شيخ المكاوية، وشهادة شاهدين من إدارة الوقف [٣]، ومحاسبة وكيل الحرمين الشريفين [٤].

---

(١) ومن أمثلة ذلك أن شخصًا يدعى مصطفى الشريف قد أرسل إلى الكاتب العام بتونس روى Rowa في عام ١٣١٢هـ-١٨٩٥م يطلب منه إعانة مالية. انظر :
أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨٦، ق : بدون، خطاب صدر من مصطفى الشريف إلى روى Rowa في ٢٩/ ١١/ ١٣١٢هـ الموافق ٢٣/ ٥/ ١٨٩٥م .

(٢) انظر الفصل الثالث : ٢١٤ .

(٣) أ، و، ت، س : ج، ك ٣٠، م ٢/٢، ق ١٥، خطاب من محمد بن عاشور رئيس جمعية الأوقاف إلى الوزير الأكبر محمد العزيز بوعتور في ٢٨/٨/١٣٠٦هـ الموافق ٢٩/ ٤/ ١٨٨٩م.

(٤) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨٣، ق : ٩٣، قائمة بأسماء المكاوية عن شهر جمادى الآخرة ١٢٨٨هـ/ رمضان ١٨٧١م.

ولكي تتجنب جمعية الأوقاف التحـايل ممن لا يستحقون المبالغ المخصصة لجماعة الحرمين الشريفين، فقد وضعت شروطاً كثيرة لصرف الإعانة منها أن يبرز طالب الإعـانة ما يعرف بـ «شـجرة العائلـة»، وهي ورقة توضح نسب طالب الإعانة إذ يجب أن يكون من الأشراف، وترفق هذه الـشجرة إذا كان من الأشراف بشهادة موقَّـعة من رئيس بلدية مكة أو المدينة بشهادة اثنين من الشهود تؤكد صحة نسبه [١]، وإذا لم يتيسر له ذلك فـعليه أن يبرز «شجرة العائلة» لنقيب الأشراف [٢] وإذا لم تتوافر لديه "الشجـرة" فعليه أن يحضر إلى «شيخ المكاوية» شاهدين يؤكدان صحة نسب الشخص طالب الإعانة[٣].

وقد يتـحايل بعضهم على إدارة الأوقـاف بادعاء انتمـائه لأهالي الحرمين الشـريفين، ومـثال ذلك أن أحـد الأشـخاص ذكـر أنه من أهالي الحـرمين الشريفين، وأحضر شاهدين «للشيخ المكاوية» يشهدان أنه من أهالي الحرمين، غير أنه بعد البحث والتحري من جانب «شيخ المكاوية» ثبت لإدارة الأوقاف أنه ليس منهم [٤].

ولهذا فإن جمـعية أوقاف الحرمين لم تكن تكتفي بما يـصلها من شهادات وإنما كانت تحرص على التأكد من استحقاق أهالي الحرمين، وقد تستعين في هذا الشأن بوكيل أوقـاف الحرمين في تونس [٥] . كما كانت إدارة الأوقاف تشترط أن يكون طالب الإعانة من أهالي الحرمين الشريفين نشأة واستقرارًا،

(١) الحبشي، مرجع سابق : ٦٧ .

(٢) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨٦، ق : بدون، خطاب من محمد مخلف إلى الكاتب العام بالمملكة التونسية في ٥/ ٢/ ١٣٢٧هـ الموافق ٦/ ٢ / ١٩٠٩م .

(٣) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨٥، ق : بدون، خطاب من محمد العربي زروق وكيل أوقـاف الحـرمين إلى الوزير الأكـبر مـصطفى بن إسمـاعـيل في ٢٥/ ١٢/ ١٢٩٧هـ الموافق ٢٧/ ١١/ ١٨٨٠م.

(٤) الوثيقة نفسها .

(٥) الوثيقة نفسها .

أو أن يكون من أهالي الحـرمين أصلاً، ولكنه مولـود بتونس[١]، ولا تجوز الإعانة لمن ولد فـي غير منطقـة الحرمين (عدا تونـس)؛ وإن كان أصله من أحداهما [٢] .

كما لا يجوز الإعانة لمـن كانوا مجاورين في مكة والمدينة ممن لم يولدوا بإحداهـما . ولم يكن هذا الشـرط الأخيـر من الشروط المعـمول بهـا قبل الحمايـة، إلا أن الوضع تغير بعد الحـماية فلم يعد يسمح بأخـذ الإعانة لمن كان مجاوراً بإحدى المدينتين ممن لم يولد بإحـداهما إلا في حالات استثنائية بعد أخذ إذن بالصرف من الوزير الأكبر[٣] [٤] ويلحظ أن من استحق صرف المرتب له بأمر من الباي لا يتوجب صرف مرتب لأبنائه أيضـًا، ومثال ذلك ما ورد في خطاب [٥] أرسله وكيل أوقاف الحرمين الشريفين محمد صفر إلى الوزير الأكـبـر مـحــمـد العـزيـز بوعـتـور فـي ٤/ ٩/ ١٢٩٩هـ الموافق ١٩/ ٧/ ١٩٨٢م بشأن مصطفى بن علي المكاوي بأن «الحاج المذكور ليس من أهالي الحرمين وإنما قد جاور بمكة المشرفة مـدة فلا يستحق المرتب غير أنه لما تطارح على المنعم المرحـوم سيدي مصطفى (المقـصود الوزير الأكبـر سابقـًا وهو مصطفى بن إسماعيل، تفضل عليه وأجرى له مرتبـًا مع المكاوية، ولم يقنعه ذلك حتى حسب نفـسه منهم وأراد أن يجري أبناءه كأبنائهم . أعلمنا

(١) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨٣، ق ١٠٢، قائمة من شيخ المكاوية مصطفى الرفاعي بأسماء المستحقين للإعانة عام ١٢٨٩هـ/ ١٨٧٢م .

(٢) مثل علي بن ظافر أصله مدني وولد بطرابلس، انظر :
أ، و، ت، س . ت ك ٦٥، م ٧٨٣، ق ١٠٢، قائمة من شـيخ المكاوية مصطفى الرفاعي بأسماء المكاوية غير المستحقين للإعانة عام ١٢٨٩هـ/ ١٨٧٢م .

(٣) منهم محمد الصالح ولد بتونس، ووالده مغربي مجاور، وأخذ المرتب بأمر من الباي .

(٤) الوثيقة نفسها .

(٥) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨٥، ق : ٢٧، خطاب من محـمد صفر وكـيل أوقاف الحرمين الشريفين إلى الوزير الأكبر محـمد العزيز بوعتور في٤ / ٩ / ١٢٩٩ هـ الموافق١٩ / ٧ / ١٨٨٢م.

جنابكم بذلك ولكم النظر».

وكان لصرف الإعانة تنظيم معين، فهي تصرف شهريًا للمقيمين بتونس، وإذا تغيب أحدهم لضرورة السفر داخل الولاية أو خارجها، فإن الإعانة تقطع عنه مدة تغيبه على أن تعود له عند رجوعه (١). أما من يتوفى فإن الإعانة الممنوحة له كانت توقف عنه(٢).

أما فيما يتعلق بالوافدين على تونس العاصمة (٣) فإن الإعانة كانت تجرى لهم لمدة عام واحد فقط تصرف لهم شهريًا لمدة تسعة أشهر، وتدفع لهم إعانة ثلاثة أشهر الباقية من العام جملة عند رغبتهم في السفر، وتسمى هذه الإعانة «السفرية». وتوقف إعانة الوافد مدة تغيبه خلال العام بسبب السفر داخل البلاد التونسية أو خارجها، ثم تعاد بعد عودته في العام نفسه.

أما لو تغيب في سفرته مدة تزيد على العام فلا يصرف له شيء (٤) إلا بعد مضي ستة أعوام من تاريخ انقطاع الإعانة السابقة عنه، ويستثنى من ذلك وكيل الحرمين الشريفين في الحجاز لكونه دائم التردد على تونس

---

(١) أ، و، ت س . ج، ك ٣٠، م ١/١، ق : بدون، خطاب من الوزارة الكبرى الى وكيل أوقاف الحرمين الشريفين في ٢٣/ ٥/ ١٣٠٨هـ الموافق ٣/ ١/ ١٨٩١م .

(٢) من هؤلاء ابنة محمد بن محمد الشريف (بيه) التي توفي والدها فانقطعت المعونة عنها وعن أسرتها.
أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥ / م ٧٨٦، خطاب من محمد الشريف إلى الوزير الأكبر محمد العزيز بوعتور في ٧/ ٨/ ١٣٢٣هـ الموافق ٦/ ١٠/ ١٩٠٥م.

(٣) خصصت الإعانة للوافدين ابتداءً من عام ١٣٠٣هـ / ١٨٨٥ م أما قبل ذلك التاريخ فلم يرد ما يشير إلى صرفها للوافدين. انظر :
أ، و، ت، س . ج، ك ٣٠، م ١/ ٢، ق : ١٦، خطاب من محمد بن عاشور رئيس جمعية الأوقاف إلى الوزير الأكبر محمد العزيز بوعتور في ٢٥/ ٦/ ١٣٠٧هـ الموافق ١٥/ ٢/ ١٨٩٠م .

(٤) الوثيقة نفسها .

بحكم مهام عمله[١] .

وقد حددت إدارة الأوقاف نظرًا لكثرة طلبات الإعانة المقدمة من الوافدين أعداد من تصرف لهم الإعانة بحيث لا يتجاوز العشرين شخصًا. ولو زاد عدد المتقدمين على ذلك، وكانوا ممن تتوافر فيهم الشروط السابق ذكرها في استحقاق الإعانة فإنهم كانوا يسجلون في قائمة الانتظار إلى أن يتناقص عدد العشرين شخصًا لضرورة ما، وكانت جمعية الأوقاف تحتفظ بسجل يحوي أسماء الوافدين ومن سيخلفونهم [٢].

وقدّر مبلغ الإعانة الذي خصصته جمعية الأوقاف لجماعة الحرمين الشريفين بثلاثين ريالاً شهريًا للمقيمين [٣] وسبعة وعشرين ريالاً شهريًا للوافدين [٤]، ومنذ عام ١٣٠٨هـ / ١٨٩١م أصبح المبلغ المخصص للمقيمين خمسة وأربعين ريالاً، وللوافدين ثلاثين ريالاً [٥]، وقد طالب الوافدون بمساواتهم بالمقيمين، فصدر الأمر العلي في ١٣٠٩هـ/ ١٨٩٢م بإنفاذ ذلك، أي أن الوافدين أخذوا يستلمون خمسة وأربعين ريالاً أسوة

---

(١) أ، و، ت، س : ج، ك ٣٠، م ١/ ٢، ق : بدون، خطاب من الوزارة الكبرى إلى وكيل أوقاف الحرمين الشريفين في ٢٣/ ٥/ ١٣٠٨هـ الموافق ٣/ ١/ ١٨٩١م وأيضًا :
أ، و، ت، س : ج، ك ٣٠، م ١/ ٢، ق : بدون، خطاب من الحاج الطيب المكاوي إلى الباي محمد الناصر باشا في شعبان ١٣٢٦هـ/ سبتمبر ١٩٠٨م .

(٢) أ، و، ت، س : ج، ك ٣٠، م١/ ٢، ق : بدون، خطاب من الوزارة الكبرى إلى وكيل الحرمين الشريفين في ٢٣/ ٥/ ١٣٠٨هـ الموافق ٣/ ١/ ١٨٩١م.

(٣) أ، و، ت، س : ح، ك ٣٠، م ١/ ٢، ق : ١٦، خطاب من محمد بن عاشور رئيس جمعية الأوقاف إلى الوزير الأكبر محمد العزيز بوعتور في ٢٥/ ٦/ ١٣٠٧هـ الموافق ١٥/ ٢/ ١٨٩٠م.

(٤) أ، و، ت، س : ح، ك ٣٠، ١/ ٢، تقرير صدر عن الوزارة الكبرى (بدون تاريخ).

(٥) أ، و، ت، س : ح، ك ٣٠، م ١/ ٢، ق : ٢٦، خطاب من رئيس جمعية الأوقاف إلى الوزير الأكبر في ١٧/ ٩/ ١٣٠٩هـ الموافق ١٤/ ٤/ ١٨٩٢م .

بالمقيمين[١]، وكانت جمعية الأوقاف تمنح زيادة على ذلك مرتب شهر لمن أراد العودة إلى بلاده إعانة له على السفر، كما لم تكن الجمعية تتردد في النظر في الطلبات التي ترفع إليها من بعض المقيمين أو الوافدين من جماعة الحرمين الشريفين الذين يعانون ضيقاً مالياً بسبب المرض أو كبر السن . وغالبًا ما كان يصدر الأمر العلي بصرف ما مقداره مرتب شهر زيادة على المرتب الممنوح لهؤلاء من إدارة الجمعية[٢]، إلا أن صرف تلك المبالغ الزائدة لا يتم إلا في حالة توافرها لدى مالية أوقاف الحرمين الشريفين[٣]. وكانت بعض الطلبات التي توجه إلى الوزير الأكبر بخصوص بعض المنح المالية يسجل عليها كلمة «يحفظ» [٤].

إلا أن تنظيم صرف إعانات جماعة الحرمين الشريفين لم يمنع حدوث استثناءات معينة في صرف الإعانات لعدد من الأشخاص الذين لا تنطبق عليهم الشروط الواردة سابقًا، أو الذين يتعذر منحهم الإعانات لاكتمال العدد المحدد لمن يستحق الإعانة من جماعة الحرمين الشريفين، والأمثلة على

(١) أ، و، ت، س : ح، ك ٣٠، م ١/ ٢، ق : ٢٧، خطاب صدر من الوزارة الكبرى لوكيل أوقاف الحرمين الشريفين في ١٤/ ١٠/ ١٣٠٩هـ الموافق ١١/ ٥/ ١٨٩٢م.

(٢) أ، و، ت، س: ج، ك٣٠، م ١/ ٣، ق : بدون . خطاب صدر من الوزارة الكبرى إلى وكيل أوقاف الحرمين الشريفين في ١٠/ ٨/ ١٣٠٢هـ الموافق ٢٤/ ٥/ ١٨٨٥م. بخصوص شخص يقال له: علي الشريف .

(٣) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨٦، ق : بدون، تعقيب صدر من الوزارة الكبرى على الخطاب الذي ورد إليها في محرم ١٣١٢هـ/ يوليه ١٨٩٤م.

(٤) من أمثلة ذلك خطاب وجهه الحاج أحمد بن علي إلى الوزير الأكبر محمد العزيز بوعتور (بدون تاريخ) بصدد طلب الإعانة التي قطعت عنه بعد الحماية . انظر :
أ، و، ت، س : ج، ك ٣١، م ١/ ٥، ق ١٨، خطاب من الحاج أحمد بن علي إلى الوزير الأكبر محمد العزيز بوعتور (بدون تاريخ) . وأيضًا :
أ، و، ت، س : ج، ك ٣٠، م ١/ ٢، خطاب من جماعة الحرمين الشريفين إلى الوزير الأكبر يوسف جعيط في ١٦/ ١/ ١٣٢٧هـ الموافق ٦/ ٢/ ١٩٠٩م .

تلك الاستثناءات كثيرة منها صدور الموافقة من الوزارة الكبرى عام ١٣٠١هـ/ ١٨٨٤م بصرف خمسة ريالات يوميًّا من أوقاف الحرمين الشريفين لشخص يدعى الشيخ علي الشريف [١].

وقد تصدر استثناءات خاصة لمن له مكانة رفيعة في الحجاز ويفد إلى تونس مثال ذلك ما ورد في الخطاب[٢] الذي أرسله رئيس جمعية الأوقاف محمد صفر إلى الوزير الأكبر محمد العزيز بوعتور في ٩/ ٧/ ١٣١٢هـ الموافق ٥/ ١/ ١٨٩٥م بخصوص طلب إعانة للسيد أحمد المنديلي أحد أعيان مكة المكرمة، وكان قد حضر إلى تونس ومعه ابناه وطلب إعانة (جراية) له أسوة بالوافدين من جماعة الحرمين الشريفين مع أن عدد من يستحق الإعانة كان قد اكتمل عشرين شخصاً.

وقد تقدم رئيس جمعية الأوقاف بطلب من الوزير الأكبر يرجو فيه مراعاة السيد المنديلي والاهتمام به «لأهمية شأن هذا السيد وعلو منزلته». واستجاب الوزيرالأكبر لهذا الطلب، وصدرالأمر العلي في٢٧/ ٩/ ١٣١٢هـ الموافق٢٣/ ٣/ ١٨٩٥م إلى وكيل أوقاف الحرمين الشريفين بدفع مبلغ ألف فرنك شهرياً للأشخاص الثلاثة المشار إليهم مدة أقامتهم، ودفع مبلغ خمس مئة فرنك لهم عند عزمهم على الرجوع إلى مكة المكرمة[٣].

وقد عمدت جمعية الأوقاف إضافة إلى تقديم الإعانات الشهرية لأهالي

---

(١) أ، و، ت، س، ج، ك ٣٠، ١/ ٣، ق : بدون، خطاب من الوزارة الكبرى إلى وكيل أوقاف الحرمين الشريفين في ٢٩/ ٧/ ١٣٠١هـ الموافق ٢٤/ ٥/ ١٨٨٤م بخصوص الشيخ علي الشريف.

(٢) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨٣، ق : ١٢، خطاب من رئيس جمعية الأوقاف محمد صفر إلى الوزير الأكبر محمد العزيز بوعتور في ٩/ ٧/ ١٣١٢هـ الموافق ٥/ ١/ ١٨٩٥م.

(٣) أ، و، ت، س، ت، ك ٦٥، م ٧٨٣، ق ١٠، خطاب صدر من الوزارة الكبرى لوكيل أوقاف الحرمين في ٢٧/ ٩/ ١٣١٢هـ الموافق ٢٣/ ٣/ ١٨٩٥م .

الحرمين الشريفين إلى منح تذاكر سفر مجانية لبعضهم وفقًا لأوامر من الوزارة الكبرى الصادرة بناءً على أمر من الباي، ومثال ذلك منح تذكرة مجانية للسيدة فاطمة خليل إسكندراني[1] وخادمها في ٢٠/ ٧/ ١٣٢١هـ الموافق ١١/ ١٠/ ١٤٠٣هـ[2]، وكذلك منح تذكرة مجانية للسيد محمد صالح الحكمي في ٢٦/ ٧/ ١٣٢١هـ الموافق ١٧/ ١٠/ ١٩٠٣م[3]، ومنح تذكرة أخرى للمدعو زيني برد بن عثمان المكي في ٢٢/ ٨/ ١٣٢١هـ الموافق ١٦/ ١١/ ١٩٠٣م[4]، وكذلك منح تذكرتي سفر لكل من محمد عربي المدني في ١٥/ ٢/ ١٣٢٢هـ الموافق ٤/ ٥/ ١٩٠٤م [5]، وزقزوق المدني في ٢١/ ٢/ ١٣٢٢هـ الموافق ٦/ ٥/ ١٩٠٤م [6] حين رغبا في العودة إلى المدينة المنورة [7] .

ومن ناحية أخرى كانت جمعية الأوقاف تحرص على أن تبقى سمعة أهالي الحرمين الشريفين طيبة في تونس، وكانت تعمد إلى تخفيض مرتب طالب الإعانة إذا أساء السيرة في البلاد، أو أقدم على أعمال تستوجب

(١) هي زوجة وكيل التونسيين بمكة الشيخ عبدالرحمن برهان الزمزمي .
أ، و، ت، س : هـ، ك ٧٥، م ١/ ٦، ق : بدون، خطاب من أحمد العبداوي شيخ المكيين والمدنيين إلى الوزارة الكبرى في ٢٠/ ٧/ ١٣٢١هـ الموافق ١١/ ١٠/ ١٩٠٣م .

(٢) الوثيقة نفسها .

(٣) أ، و، ت، س : هـ، ك ٧٥، م ١/ ٦، ق : بدون، خطاب من أحمد العبداوي شيخ المكيين والمدنيين إلى الوزارة الكبرى في ٢٦/ ٧/ ١٣٢١هـ الموافق ١٧/ ١٠/ ١٩٠٣م .

(٤) أ، و، ت، س : هـ، ك ٧٥، م ١/ ١٦، ق : بدون، خطاب من أحمد العبداوي شيخ المكيين والمدنيين إلى الوزارة الكبرى في ٢٢/ ٨/ ١٣٢١هـ الموافق ١٦/ ١١/ ١٩٠٣م .

(٥) أ، و، ت، س : هـ، ك ٧٥، م ١/ ١٦، ق : بدون، خطاب من أحمد العبداوي شيخ المكيين والمدنيين إلى الوزارة الكبرى في ١٥/ ٢/ ١٣٢٢هـ الموافق ١/ ٥/ ١٩٠٤م .

(٦) أ، و، ت، س : هـ، ك ٧٥، م ١/ ١٦، ق : بدون، خطاب من أحمد العبداوي شيخ المكيين والمدنيين إلى الوزارة الكبرى في ٢١/ ٢/ ١٣٢٢هـ الموافق ٦/ ٥/ ١٩٠٤م .

(٧) الوثيقة نفسها .

سجنه [١]. وقد يقطع عنه المرتب نهائياً إذا ما تمادى في تصرفاته [٢].

(د) المشكلات التي كانت تواجهها جماعة الحرمين الشريفين في تونس :

كانت المشكلات المالية أبرز المصاعب التي واجهتها جماعة الحرمين الشريفين في تونس، ويعود ذلك إلى أن عدداً لا بأس به من هذه الجماعة قد قدموا إلى تونس من أجل الحصول على الإعانة . وعانى بعض منهم خلال وجودهم في تونس من انقطاع الإعانة التي كانت تُجرى لهم مرحلياً. وكانت جمعية الأوقاف تلجأ في بعض الأحيان بسبب نقص إيرادات الأوقاف إلى إيقاف منح الإعانة (الجراية) المعتادة، وكان هذا يضر بوضع جماعة الحرمين الشريفين الاقتصادي، كما يضطر بعضهم إلى العودة إلى بلده .

وكان جزء مهم من المشكلات المالية يتعلق بالشروط التي تنظم مسألة الإعانة لأهالي الحرمين الشريفين كما أشير سابقاً، وكان يُرفض طلب أحدهم لعدم اتفاقه مع الشروط، وبسبب ذلك يواجه مصاعب مالية كبيرة قد تضطره للعودة من حيث أتى، ومن الأمثلة على ذلك خطاب [٣] من أحد المجاورين، وهو أحمد بن علي وجهه إلى الوزير الأكبر محمد العزيز بوعتور يطلب فيه منحه مبلغاً من المال يساعده في العودة إلى بلاده، ويقول: «أنا متندم من الخروج من المدينة، ولو كنت أعرف هذا الأمر - عدم أحقيته للإعانة حسب النظام الذي صدر بعد الحماية فيما يتعلق بالمجاورين-

---

(١) أ، و، ت، س : ج، ك ٣١، م ١ /١، ق : ٤٩، خطاب من الوزارة الكبرى إلى رئيس جمعية الأوقاف في ١٣/ ٢/ ١٣١٨هـ الموافق ١٠/ ٦/ ١٩٠٠م .

(٢) أ، و، ت، س : ج، ك ٣٠، م ٣/١، ت : بدون، خطاب من الوزارة الكبرى إلى وكيل الحرمين الشريفين، في ١٩/ ١/ ١٣١١هـ الموافق ٢٧/ ١١/ ١٨٩٣م .

(٣) أ، و، ت، س : ج، ك ٣١، م ٥/١، ق : ١٨، خطاب من الحاج أحمد بن علي إلى الوزير الأكبر محمد العزيز بوعتور (بدون تاريخ) .

ما كنت أخرج من المدينة أبدًا» .

وتدل بعض الأمثلة على أن أفرادًا من جماعة الحرمين الشريفين الذين يعانون من ضائقة مالية كانوا يلجؤون للاستدانة من أجل العودة إلى بلادهم، وقد يتقدمون بطلب إلى الوزير الأكبر لتسديد ما عليهم من ديون لعدم قدرتهم على السداد مع اضطرارهم للعودة إلى بلادهم في ظل ظروفهم الاقتصادية المتردية .

وحدث هذا الأمرمع سبعة من أهالي الحرمين الشريفين فرفعوا خطاباً[1] في ٨/ ٩/ ١٢٧٧هـ الموافق ١٩/ ٣/ ١٨٦١م بهذا المعنى إلى الوزير الأكبر مصطفى خزنة دار يرجونه وفاء ديون عليهم لأناس من أهل تونس، خاصة وأنهم كانوا مضطرين للعودة إلى بلادهم، ولم يكن لديهم ما يسددون به هذه الديون . ونظرًا لأن جمعية الأوقاف قد واجهت مشكلات متكررة من هذا النوع، وكان بعض من جماعة الحرمين الشريفين يعودون إلى الحجاز دون أن يسددوا ما عليهم من التزامات مالية، فقد جرى التأكيد من الوزارة الكبرى بوجوب تسديد ما عليهم من التزامات مالية قبل سفرهم، أو أخذ ضمان عليهم موقع عليه من شهود من شخص يضمن الالتزام بأداء ما على المسافر من حقوق في حالة عدم عودته [2] .

ويمكن الإشارة إلى مشكلة أخرى واجهت بعض جماعة الحرمين الشريفين في تونس، وهي خروج بعضهم للحج في الفترات التي حظر فيها الذهاب إلى الحج بسبب انتشار وباء الكوليرا، وكان بعض من أهالي الحرمين يتخذ

---

(١) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨٨، ق : ١٤٦، خطاب من محمد عالم المكي وزيد المدني وصالح المدني وآخرين إلى الوزير الأكبر مصطفى خزنة دار في ٨/ ٩/ ١٢٧٧هـ الموافق ١٩/ ٣/ ١٨٦١م .

(٢) أ، و، ت، س : هـ، ك ٧٥، م ١/ ١٦، ق : بدون، خطاب من الوزارة الكبرى إلى عامل باجة "مصطفى فلوز " في ٢٨/ ٩/ ١٣٢٢هـ الموافق٥/ ١٢/ ١٩٠٤م .

ذرائع مختلفة للخروج، فمنهم من يدّعي التجارة ولكنه يتوجه إلى الحجاز[١]، وقد يدّعي حجة أخرى [٢] .

وأخذت السلطة الفرنسية بالتدخل لمراقبة هذه الأمور، والتثبت من صحة أهداف جماعة الحرمين الشريفين في الخروج، ومراقبة من تشك بهم.

ويستدل على ذلك من الخطاب[٣] الذي أرسله ليل (Leal) في ١٢/ ٩/ ١٣٢٦هـ الموافق ٧/ ١٠/ ١٩٠٨م ربما كان واحد من المختصين في دائرة الجوازات إلى أحد المسؤولين في الأمن العام، وهو فلوري (Fleurey) بتكليفه بمراقبة أحد المكيين ويدعى محمد بن عبدالله الصبحي، فقام فلوري (Fleurey) بالمراقبة، وسجل معلوماته وبعثها في رسالة[٤] إلى ليل (Leal) ذكر فيها أن الشخص المذكور يتمتع بسمعة طيبة.

وبوجه عام لقد واجهت جماعة الحرمين الشريفين في تونس معظم المشكلات التي كان يعاني منها سكان البلاد كفرض الضرائب الباهظة، وتردي الأوضاع السياسية، وتعسف السلطات الفرنسية .

(هـ) الأوضاع الاجتماعية لجماعة الحرمين الشريفين :

تألفت جماعة الحرمين الشريفين من طبقات اجتماعية كثيرة على رأسها

---

(١) أ، و، ت، س : هـ، ك ٧٥، م١/ ١٤، ق : بدون، خطاب من علي المرابط عامل القيروان إلى الوزير الأكبر محمد العزيز بوعتور في ٢٢/ ١١/ ١٣٢١هـ الموافق ٨/ ٢/ ١٩٠٤م .

(٢) من ذلك أن المدعو عبدالحميد بن علي القيسي ادعى أن له أخًا مسافرًا وهو يبحث عنه فذهب إلى الإسكندرية ومنها إلى الحجاز، وقد ثبت لدى الحكومة التونسية عدم صحة ادعائه.

(٣) أ، و، ت، س : أ، ك ٢٧٦ مكرر، م ١، ق : بدون، خطاب من محمد البشير صفرى عامل سوسة إلى الوزير الأكبر يوسف جعيط في ٢٩/ ٢/ ١٣٣٠هـ الموافق ١٧/ ٢/ ١٩١٢م .

(4) A.N.T.S: C, Car 29,Dos3.F1,(Leal)

خطاب صدر من فلوري Fleurey إلى ليل في ١٢/ ٩/ ١٣٢٦هـ الموافق ١/ ١٠/ ١٩٠٨م .

أصحـاب النفوذ والمكانة، ومن أبرزهم نقـباء الأشراف الذين تمتـعوا بحظوة ومكانة لدى حكام تونس، كـما كـانت لهم مكانة اجتـماعـية مـتمـيزة في المجتمع، وكانت تصـرف لبعـضهم مخصـصات ماليـة، كما كـان البايات يغدقون عليـهم الهدايا السخية(١).

ويمكن ذكر الشـيخ العربي البـشري (ت ١٣٠٤هـ/ ١٨٨٧م) الذي حظي بمكانة اجتماعية مرموقة، وكان ولاة الأمر في البلاد التونسية يغضون الطرف عنه مراعـاة لمكانته، وهو أول من أجرت له الحكومـة التونسيـة إعانة سنوية زيادة على مخصـصاته لكونه من جماعة أهالي الحـرمين الشريفين، وقدرت الإعانة بثمانية آلاف ريال سنويـّا(٢)، كما أن من تلك الطبقة أيضـًا "شيوخ المكيين والمدنيين " الذين كانت لهم مكانتهم في المجتمع (٣) .

وتلي تلك الطبقة الطـبقةُ المتوسطة التي عمل بعض أفـرادها في الأعمال الحـرة، كمـا عمل بعـضهم الآخـر في وظائف الدولة؛ وخاصـة في إدارة جمعية الأوقاف . ومن أبرز هؤلاء مـحمد مخلف الذي كان يشغل منصب رئيس الجمعـية الخيرية الإسلامـية التابعة لجمعـية الأوقاف (٤)، كما أن من جماعة الحـرمين الشريفين مَنْ تقلد وظائف متواضعة مـثل شهود وقف مثل أحمـد بن الطاهر الناصر (٥)، في حين ظل بعض منهم بدون حرفـة ومثال ذلك ما ورد في وثيقـة رُفعت بأسماء أربعـة عشر نفرًا من جمـاعة الحرمين

(١) ابن الخوجة، مرجع سابق : ١٥٤ - ١٥٥ .

(٢) المرجع نفسه : ١٥٣ .

(٣) انظر : ٢٦٨-٢٦٩ من هذا الفصل .

(٤) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨٦، ق : بدون، خطاب من رئيس الجـمـعيـة الخيـرية الإسلامية بجمعية الأوقاف إلى الكاتب العام بتونس ٥/ ٢/ ١٣٢٧هـ الموافق ٢٥/ ٢/ ١٩٠٩م.

(٥) أ، و، ت، س : ج، ك ٣٠، م ١/ ٣، ق : بدون، خطاب من الوزارة الكبرى الى أحـمد ابن الطاهر الناصر في ٣/ ١/ ١٣٠٧هـ الموافق ٢٩/ ٨/ ١٨٨٩م .

الشريـفين ذكروا [١] : «ليس بأيدينا أدنى حـرفة»، وسـواء كان هذا الأمـر صحـيحـًا أم ادعـاء لاستـجلاب العطف فـإنه مما لا شك فيه أن مـن كانوا ينتمون إلى الأشراف من جماعة الحرمين الشريفين كانوا يترفعون عن العمل في الصنائع والحرف بحجة أنها من الأمور التي تخل بمكانتهم في المجتمع، وبانتسابهم إلى النسب الشريف [٢] .

ولا بد من الإشـارة إلى إسهـام بعض جـماعـة الحـرمين في تونس في النهوض بالمجـتمع، وخاصـة أولئك الذين احتلوا مكانة اجـتماعـية بارزة، منهم العلماء، أو الذين تمتعـوا بوضع اقتصادي جيـد مكنهم من الإقامة في تونس . هذا بالإضافة إلى الذين تقلدوا مـراكز مهمة في البلاد التـونسية، ومن هؤلاء محمـد الشريف الذي كان يشغل منصب مفـتي المالكية والإمام الأكـبـر بجـامع الزيتـونة إضـافة إلى كـونه نقـيب الأشـراف في الفـتـرة (١٣٠٤هـ/ ١٨٨٧م- ١٣٠٧هـ/ ١٨٩٠م) [٣] .

وقد شـارك بعض من جمـاعة الحرمين الشـريفين في الاحتـفالات التي كانت تقام في تونس، ومثال ذلك مشـاركة أحمد أديب في الاحتفال الذي أقيم فـي البلاد عام ١٣٠٧هـ/ ١٨٩٠م لـتهنئة البـاي علي بن حسـين باشا (١٢٩٩ - ١٣٢٠هـ / ١٨٨٢- ١٩٠٢م) بعيد الأضحى المبارك، وقد ألقى أحمد أديب قصيدة أمام الباي بهذه المناسبة [٤] . كما شارك أحمد أديب في عام ١٣٠٨هـ/ ١٨٩١م في الاحـتفال بالمولد الـنبوي الشريف الذي حـضره

---

(١) أ، و، ت، س : ج، ك ٣٠، م ١/٢، ق : ٣٩، خطاب من جماعة الحرمين الشريفين الى الوزير الأكبر يوسف جعيط في ١٦/١/١٣٢٧هـ الموافق ٦/٢/١٩٠٩م.

(٢) أ، و، ت، س : ت ٦٥، م ٧٨٦، ق : بدون، خطاب من صـالح بن مـحـمـد شـبـيل الشريف الوزير الأكبر محمد العزيز بوعتور في ٢٨/٨/١٣٢٤هـ الموافق ١٦/١٠/١٩٠٦م .

(٣) ابن الخوجة، مرجع سابق : ١٥١ - ١٥٢ .

(٤) صحيفة الزهرة، ع ١٣، س ١، في ١٣٠٧هـ / ١٨٩٠م .

الوزير الأكبر وعدد من الوزراء، وألقى أحمد أديب قصيدة بهذه المناسبة(١).

وتماماً كما كان لبعض جماعة الحرمين الشريفين مكانة متميزه في تونس، كانت صلاتهم بأمراء مكة أقوى وأوثق، وأسهم هذا في التقارب بين الولاة في تونس وأمراء مكة. ومثال ذلك أن الشريف عبدالله بن محمد بن عون أرسل في عام ١٢٨٥هـ/١٨٦٨م خطاباً(٢) إلى المشير محمد الصادق باي يوصيه فيها بالسيد إبراهيم من أهالي المدينة المنورة الذي توجه إلى تونس من أجل الحصول على إعانة من الباي، وكذلك أرسل الشريف عون الرفيق في ٢٥/٦/١٢٩٥هـ الموافق ٢٥/٦/١٨٧٨م خطاباً(٣) إلى المشير محمد الصادق باشا يرغب فيه الاهتمام بأحد أُمراء الأشراف، وهو الشريف حامد الذي قام في تلك الفترة بزيارة تونس . وبعث الشريف عون الرفيق نفسه في ٢٥/٧/١٣٠٤هـ الموافق ١٨/٤/١٨٨٧م خطاباً أخر(٤) إلى الوزير الاكبر محمد العزيز بوعتور من أجل الاهتمام بالسيد عيدروس السقاف، وأحد السادة العلويين الذي توجه إلى تونس بقصد السياحة .

وتجاوزت حدود صلات أهالي الحرمين إطار البلدين إلى خارجها . فقد وصل إلى الوزير الأكبر مصطفى بن إسماعيل في ٦/١١/١٢٩٥هـ الموافق ٣١/١٠/١٨٧٨م خطاب(٥) من أحد المسؤولين في الديوان الهمايوني في

---

(١) الصحيفة نفسها، ع ٣٩، س ٢، في ١٣٠٨هـ / ١٨٩١م .

(٢) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٦٩، ق : بدون، خطاب من الشريف عبدالله أمير مكة المكرمة الى المشير حمد الصادق باشا باي في ٢٩/٤/١٢٨٥هـ الموافق ١٨/٨/١٨٦٨م .

(٣) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٢٧، ق : ١٩ خطاب من الشريف عون الرفيق إلى المشير محمد الصادق باشا باي في ٢٥/٦/١٢٩٥هـ الموافق ٢٥/٦/١٨٧٨م .

(٤) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨٣، ق : ٢، خطاب من أمير مكة الشريف عون الرفيق إلى الوزير الأكبر محمد العزيز بوعتور في ٢٥/٧/١٣٠٤هـ الموافق ١٨/٤/١٨٨٧م .

(٥) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨٢، ق ١٥، خطاب من أحمد سيرت إلى الوزير مصطفى بن إسماعيل في ٦/١١/١٢٩٥هـ الموافق ٣١/١٠/١٨٧٨م .

إستانبول ويدعى أحمد سيرت يتضمن توصية بشخصين من أهالي الحرمين الشريفين، وهما عمر أفندي ميمش وابنه محمد «وذلك من أجل رعايتهما والاهتمام بهما» .

ونستطيع القول: إنَّ جماعة الحرمين الشريفين وإن كانوا قلة في تونس إلا أنهم قد أدوا دورهم هناك فكانت لهم مكانتهم المحترمة التي رسَّخها انتماؤهم للحرمين الشريفين اللذين يحتلان مكانة عظيمة في نفوس التونسيين، كغيرهم من سكان البلاد العربية والإسلامية .

ثالثًا- المجاورون التونسيون في الحجاز :

(أ) تعريف الجوار :

كلمة مأخوذة من «جاوره مجاورة وجوارًا» [١]. والجار هو: الذي يجاورك يُقال: «جاوره مجاورة، وجُوارًا بكسر الجيم وضمها والكسر أفصح» [٢].

ويرى بعض علماء اللغة [٣] أن المجاورة تعني «الاعتكاف في المسجد» [٤]، ويستدلون على ذلك بأن الرسول ﷺ كان يجاور بحراء في العشر الأواخر من رمضان[٥]، والمجاورة هنا تعني الاعتكاف .

---

(١) مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي، القاموس المحيط، (المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٣٧٥هـ) : ١ / ٣٩٤.

(٢) الرازي، مصدر سابق، ١١٧ .

(٣) ومنهم :
ابن منظور، مصدر سابق : ٤ / ١٥٦، وأيضًا :
محمد مرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق إبراهيم الترزي، (مطبعة حكومة الكويت، الكويت، ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م) : ١٠/ ٤٨٦، وأيضًا :
الرازي، مصدر سابق : ١١٧ .

(٤) ابن منظور، مصدر سابق : ٤ / ١٥٦ .

(٥) البخاري، مصدر سابق : ١ / ٢٥٤ .

أما المجاورة في مكة والمدينة فيراد بها المقام مطلقاً غير ملتزم بشروط الاعتكاف الشرعي [١] «ولهذا فإن الجوار يعني أيضاً البقاء في مكة المكرمة والمدينة المنورة بجوار الحرمين حسبما يشاء المجاور، ويباشر حياته اليومية العادية دون مانع، وينتهي بخروجه من هاتين المدينتين أو بالوفاة» [٢].

وقد عرفت المجاورة بهذا المصطلح منذ العهد الإسلامي الأول حيث كان المسلمون يجاورون في الحرمين رغبة في العبادة والاعتكاف فيهما، فقد جاور بعض الصحابة في مكة المكرمة ومنهم أبو واقد الحارث بن عوف الليثي الذي جاور بمكة المكرمة مدة عام ومات فيها عام ٦٨هـ/ ٦٨٢م [٣]، كما جاور محمد بن أحمد التونسي ٨١٩هـ/ ١٤١٦م في مكة والمدينة [٤].

غير أن المجاورة لم تنتشر كثيراً في بداية العهد الإسلامي لانشغال المسلمين بالجهاد في سبيل الله، إلا أن ما حل بالمسلمين من خلافات ونزاعات سياسية انتهت في العهد العباسي بالهجوم المغولي على بغداد عام ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م قد أشعر المسلمين في العهد المملوكي (٦٤٨-٩٢٢هـ/ ١٢٥٠-١٥١٧م) بأهمية الرجوع إلى أصول الدين وترك الملذات الدنيوية التي كادت تقضي عليهم . يضاف إلى هذا اهتمام المماليك

---

(١) ابن منظور، مصدر سابق : ٤ / ١٥٦ .

(٢) منى حسن المشاري، المجاورون في مكة والمدينة في العصر المملوكي (٦٤٨ - ٩٩٢هـ/ ١٢٥٠-١٥١٧م)، رسالة ماجستير غير منشورة، (مكتبة جامعة الملك سعود، الرياض، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م) .

(٣) تقي الدين محمد الفاسي، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق محمود الطناحي (مطبعة السنة المحمدية)، القاهرة، ١٣٨٨هـ : ٨ / ١١٠ .

(٤) علي بن داود الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق حسن حبشي، (دار الكتب، القاهرة، ١٣٩٣هـ) : ٢ / ٣٧٧ .

بالحرمين الشريفين [١]، وكذلك حرصهم على إيجاد تقارب بين مصر والحجاز يدل عليه كثرة أعداد المصريين المجاورين في الحجاز؛ إذ كانوا هم الأكثر عددًا بين الفئات الأخرى المجاورة [٢]. وقد كثرت المصطلحات المرادفة لكلمة المجاور في العهد المملوكي، ومن تلك المصطلحات النزيل[٣]، والملتجئ بحرم الله[٤]، وجار الله [٥].

وقد كوّن انتشار المجاورة في العهد المملوكي شريحة من شرائح المجتمع المسلم من المجاورين في أرض الحرمين الشريفين، شجعت على المضي قُدُمًا في المجاورة في العهد التالي (العثماني) لتوافر الراحة والأمن والاستقرار في إقليم الحجاز في وقت أخذت فيه بعض البلاد الإسلامية وخاصة في القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي تعاني من ضيق العيش وتكالب الأعداء .

(ب) دوافع الجوار :

هناك أسباب كثيرة تدفع عددًا من المسلمين ومن بينهم التونسيون للمجاورة، ومن أبرزها أهمية الحرمين الشريفين للمسلمين، ومكانتهما العظيمة لديهم قال تعالى [٦]: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ كما قال تعالى [٧] : ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ . كما روي عن الرسول

(١) المشاري، مرجع سابق : ٣٤ ٦٦ .
(٢) المرجع نفسه، الملحق : ١٥٥ .
(٣) الفاسي، العقد الثمين : ٢ / ١٦ .
(٤) المصدر نفسه، الجزء نفسه : ٣٩٩ .
(٥) عماد الدين إسماعيل أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية المصرية، القاهرة، ١٣٢٥هـ : ٣ / ١٦ .
(٦) سورة آل عمران، آية: ٩٦ .
(٧) سورة البقرة، آية: ١٢٥ .

ﷺ قوله في فضل مكة[١] : «من أدرك رمضان بمكة فصام وقام منه ما تيسر له كتب الله له مئة ألف شهر فيما سواها، وكتب الله له بكل يوم عتق رقبة وكل يوم حملا فرس في سبيل الله، وفي كل يوم حسنة، وفي كل ليلة حسنة» وروي عنه ﷺ قوله في فضل المدينة [٢] : «إن إبراهيم حَرَّم مكة ودعا لأهلها، وإني حرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة، وإني دعوت في صاعها ومدها بمثلي ما دعا به إبراهيم لأهل مكة». كما رُوي عنه ﷺ قوله في فضل الصلاة بالمسجد النبوي الشريف [٣] : «صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة أو كألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا أن يكون المسجد الحرام». وروي عنه ﷺ قوله[٤]: «ما بين منبري وبيتي روضة من رياض الجنة».

ويضاف إلى الدافع الديني للمجاورة الدافع السياسي؛ إذ إن الكثير من المسلمين يلجؤون إلى الحرمين الشريفين رغبة في البعد عن الفتن والخلافات السياسية التي تمر بها بلادهم فيحصلون في الحرمين على الأمن والاستقرار بعيداً عن المشكلات السياسية التي تعصف ببلادهم .

ويذكر أن عدداً من أبناء تونس قد لجؤوا بعد فرض الحماية الفرنسية على البلاد التونسية إلى منطقة الحرمين الشريفين مجاورين حيث يجدون الأمن والاستقرار، وكان منهم الحاج أحمد علي [٥]، كما أن منهم الشيخ محمد

---

(١) سورة البقرة، آية : ١٢٥ .

(٢) أبو عبدالله محمد بن يزيد بن ماجه، سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، (دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط : بدون، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م) : ٢ / ١٠٤١ .

(٣) أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم، صحيح مسلم بشرح النووي، (دار الفكر، لبنان، ط٣، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م) : ٩ / ١٣٤ - ١٣٥ .

(٤) المصدر نفسه، الجزء نفسه : ١٦١ .

(٥) أ، و، ت، س : ج، ك ٣١، م ١/٥، ق ١٨، خطاب من الحاج أحمد بن علي المجاور في المدينة إلى الوزير الأكبر محمد العزيز بوعتور «بدون تاريخ» .

الحبيب الدريوي [١] .

ويعد الدافع الاقتصادي من الدوافع المساعدة على الجوار في الحرمين الشريفين، ذلك أن منطقة الحرمين الشريفين تعدُّ سوقاً تجارياً كبيرًا لوجود أعداد كبيرة من المسلمين القادمين للحج، أو العمرة والزيارة بحيث تصبح التجارة فيها مكسبًا يحقق للتاجر الكثير من الفائدة، كما أن حرص بعض البلاد الإسلامية على إرسال إعانات لفقراء الحرمين ومجاوريه تشكل موردًا من موارد الرزق لهذه الفئات . وكان هذا يشجع عددًا من الطبقات المتوسطة والفقيرة على البقاء فترات مختلفة في جوار الحرمين الشريفين حيث يتوافر لهم السكن في الأربطة الموقوفة على الفقراء إلى جانب الأموال التي تصلهم من الصدقات التي تنفق في منطقة الحرمين الشريفين، والتي تخفف على المجاورين فيهما أعباء المعيشة [٢] .

وهناك دافع آخر من دوافع الجوار هو الدافع العلمي إذ تحظى المدينتان المقدستان بتجمع إسلامي كبير في المواسم الدينية وخصوصاً فترة الحج، حيث يلتقي فيهما عدد كبير من العلماء يتبادلون المناقشات العلمية ويلقون الدروس الدينية، ويقدمون الإجازات العلمية، كما يحصلون هم أيضًا على إجازات من العلماء القادمين إليهما أو المجاورين بهما، ولهذا يحرص الكثير من علماء المسلمين على المجاورة بالحرمين الشريفين لتوافر المناخ العلمي الذي يعمل على إنعاش الحياة العلمية في العالم الإسلامي.

ويشار إلى أنه على الرغم من أهمية المدينتين المقدستين، وكثرة أعداد المجاورين فيهما خلال العهد العثماني، إلا أن التونسيين كانوا يفضلون المجاورة في المدينة المنورة، وقد يعود سبب ذلك إلى انتماء الغالبية منهم

(١) الجودي، مصدر سابق : ١٥ .

(٢) انظر الفصل الثالث : ٢٤٤ .

للمذهب المالكي الذي كان يرى تفضيل المدينة المنورة على مكة المكرمة [١] استنادًا إلى ما ورد عن الرسول ﷺ من أحاديث في فضل المدينة [٢] والدعاء لها بالبركة، يضاف إلى هذا أن عددًا من التونسيين كانوا من أتباع الطرق الصوفية الذين يعتقدون بطلب الشفاعة من الرسول ﷺ حتى بعد وفاته.

وطلب الشفاعة من الأمور التي يوليها المغاربة على وجه العموم اهتمامًا كبيرًا يصل إلى حد الاعتقاد بطلب الإذن منه ﷺ في أي أمر من الأمور الدينية، وانتظار الرد منه ﷺ وقد ظهر ذلك في خطاب [٣] من عقبة التونسي إلى المشير محمد الصادق باشا باي (١٢٧٦-١٢٩٩هـ/ ١٨٥٩-١٨٨٢م)، في ١٠/ ١/ ١٢٨٤هـ الموافق ١٣/ ٥/ ١٨٦٧م يقول فيه: «وقد أردنا التوجه إلى ساحتكم العلية فما حصل لنا الإذن من النبي ﷺ». كما أورد الجودي [٤] في مخطوطته التي روى فيها رحلته إلى الحجاز رواية عن أحد المتصوفة على لسان الإمام مالك ذكر أنه حينما أراد الحج استأذن من النبي ﷺ فسمع الإذن من الروضة الشريفة، وقد شكك الجودي[٥] في صحة نسبة هذه الرواية عن الإمام ابن مالك. وقد يعود سبب تفضيل التونسيين السكنى في المدينة المنورة كون العيش فيها أكثر يسرًا، وهو ما أكدته إحدى

---

(١) الجودي، مصدر سابق: ١٦.

(٢) من ذلك حديث عن عبدالله بن عمر قال: " سمعت رسول الله ﷺ يقول: من صبر على لأوائها (شدتها) وشدتها كنت له شهيدًا أو شفيعًا يوم القيامة ".
مسلم، مصدر سابق، جـ ٩ / ١٥٢.

(٣) أ، و، ت، س. ت، ك ٦٥، م ٧٨٩، ق: بدون، خطاب من عقبة التونسي إلى المشير محمد الصادق باشا باي في ١٠/ ١/ ١٢٨٤هـ الموافق ١٣/ ٥/ ١٢٦٧م.

(٤) مصدر سابق، ص ١٦.

(٥) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
ومن الواضح أن هذه معتقدات دينية باطلة لا علاقة للإمام مالك بها. وقد جرى إيرادها هنا لإبراز مدى ما وصل إليه الفكر الإسلامي من جمود وما تغلغل في العقيدة الإسلامية من معتقدات هدامة.

الوثائق الفرنسية [١] في تقرير لها عن المدينة «العيش فيها أقل غلاءً منه بمكة، كما يتوافر فيها الماء ويستطيع الجميع الحصول عليه بيسر وبمبلغ زهيد».

ولكن وجود عدد كبير من التونسيين المجاورين في المدينة لا ينفي مجاورة عدد آخر منهم في مكة، وخاصة العلماء فقد كانت تتاح لهم فرصة أكبر في مكة للالتقاء بنظرائهم العلماء، وأيضًا لكون مكة مركزًا للحجاج القادمين إليها من جميع أنحاء العالم الإسلامي لأداء هذه الفريضة الإسلامية .

(ج) تنظيم شؤون المجاورين التونسيين في الحجاز :

عاش المجاورون التونسيون في مكة والمدينة في ظل هيئة تونسية يرأسها وكيل التونسيين في كل من مكة والمدينة، وهو الواسطة بين الحكومة التونسية والتونسيين في منطقة الحرمين [٢]. وكانت الحكومة التونسية هي التي تقوم بتعيين الوكلاء . وبعد فرض الحماية الفرنسية على تونس عام ١٩٩٨هـ/ ١٨٨١م تدخل المقيم العام في اختيار الوكلاء [٣] ، وكانت مهمة

---

(1) A,N,T. S,c. car279 bis , Dos1

تقرير صدر من الحكومة التونسية - قسم الدولة - بخصوص مشروع الحكومة الفرنسية لإنشاء مؤسسات في الحجاز، (بدون تاريخ)، ربما كان في بداية القرن الرابع عشر الهجري / العشرين الميلادي .

(٢) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨٠، ق : ٢٣، خطاب من محمد ظافر وكيل المملكة التونسية إلى الوزير الأكبر مصطفى خزنة دار في ٢٩/ ٣/ ١٢٨٩هـ الموافق ٥/ ٦/ ١٨٧٢م .

(٣) كان المقيم العام يثبت من يراه من الوكلاء تبعًا لمصلحة الحماية الفرنسية في تونس، مثال ذلك أن المقيم الفرنسي أقر وكيل التونسيين بمكة عبدالرحمن برهان الزمزمي في منصبه لكونه يحقق مصالح الحماية الفرنسية في الحجاز، فقد كان يعمل تحت رقابة نائب قنصل فرنسا وتوجيهه بجدة. انظر :

A.Q.D,N.S:T 1882-1919,Car127, Dos: 1,F12-13(B46)

خطاب من نائب قنصل فرنسا لوستالو (Lostalot) إلى فرايمي (Freymei) وزير الشؤون الخارجية الفرنسية في ٢/ ١/ ١٣٠٤هـ الموافق ٣٠/ ٩/ ١٨٨٦م .

الهيئة التونسية رعاية المجاورين والحجاج التونسيين، والاهتمام بهم [١]. كما أن من مهامها استقبال الزوار القادمين من تونس، والاهتمام بهم ومساعدتهم في قضاء أمورهم في منطقة الحرمين وحل مشكلاتهم[٢]. ويضاف إلى تلك المهام إيصال الصرة التونسية إلى المسؤولين في مكة والمدينة، والإشراف على توزيع صرة تونس إلى مستحقيها في كلتا المدينتين المقدستين [٣].

وكان من مهام وكيل التونسيين كذلك تبليغ الوزارة التونسية بكل ما يحدث في الحجاز من أمور سواء المتعلقة بالتونسيين أم بالأوضاع العامة في المنطقة، ومن أمثلة ذلك أن وكيل التونسيين في المدينة محمد ظافر المدني بعث في ٢٠/ ٣/ ١٢٩٠هـ الموافق ١٧/ ٥/ ١٨٧٣م خطاباً إلى الوزير الأكبر في تونس مصطفى خزنة دار جاء فيه [٤] : «قافلة بها حجاج عجم من مملكة إيران نُهبت خارج حدود المدينة إلى جهة الشرق، وما زال شيخ الحرم خالد باشا في طلب ما انتهب، وهذه البلدة الطيبة الطاهرة في نعمة شاملة، وأمطاره هاطلة، والأسعار رخية والطرق المهمة مأمونة وهنية . . قدم شيخ الحربية (أي قبيلة بني حرب) حذيفة ابن الشيخ سعد مذعناً إلى الطاعة ومستعطفاً مراحم الدولة العلية أن يردوا عليهم معاشاتهم المقطوعة

---

(١) أ، و، ت، س : ج، ك ٣٠، م ٢/١، ق : ١٦ خطاب من محمد عاشور إلى الوزير الأكبر محمد العزيز بوعتور في ٢٥/٦/١٣٠٧هـ/ ١٥/ ٢/ ١٨٩٠م .

(٢) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨٠، ق : ٢٢ خطاب من حمزة محمد إلى الوزير الأكبر مصطفى خزنة دار في ٢١/ ١/ ١٢٨٩هـ الموافق ٣٠/ ٣/ ١٨٧٢م .

(٣) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨٠، ق : ٥، خطاب من وكيل التونسيين بالمدينة المنورة أحمد ظافر المدني إلى الوزير الأكبر مصطفى بن اسماعيل في ٢١/ ١/ ١٢٩٧هـ الموافق ٣/ ١/ ١٨٨٠م.

(٤) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨٠، ق ١٤، خطاب من وكيل التونسيين في المدينة المنورة محمد ظافر المدني الى الوزير الأكبر مصطفى خزنة دار في ٢٠/ ٣/ ١٢٩٠هـ الموافق ١٧/ ٥/ ١٨٧٣م.

من الخزينة الميرية، وتحمل بتأمين الدرب السلطاني، وكفل في أبناء عمه وقبائله فقبل منه خالد باشا المذكور، ورد عليهم معاشاتهم، ورجع مجبور الخاطر إلى عياله، ولدى وصوله ردوا عرض محضر فيه أنهار مشايخ قبائلهم (كذا) متشكرين من ذلك ومتعهدين بما تعهد به الشيخ حذيفة المذكور وربما سبحانه يجري ألطافه الخفية على هذه الأقطار الحجازية» .

وكان من مهام الوكيل أيضاً إبلاغ الحكومة التونسية بالأحوال الصحية في الحجاز وذلك من أجل اتخاذ الإجراءات الاحترازية فحين ظهر مرض الكوليرا عام ١٢٨٩هـ/ ١٨٧٢م أرسل وكيل التونسيين في المدينة المنورة محمد ظافر المدني خطاباً إلى الوزير الأكبر مصطفى خزنة دار يقول فيه[١]: «يذكر أنه باختلاط الحجوج (كذا) ضربت الكليرة (كذا) في المدينة كم يوم ومات من مات بها، وحصل اللطف لله الحمد».

وكان على وكيل التونسيين إعلام الوزارة الكبرى بأية تغييرات تنظيمية تتعلق بشؤون الحجاج . من ذلك مثلاً خطاب بعثه وكيل التونسيين بالمدينة وهو محمد ظافر المدني إلى الوزير الأكبر مصطفى خزنة دار في ٢٩/ ٣/ ١٢٨٩هـ الموافق ٥/ ٦/ ١٨٧٢م، يخبره بوفاة مزور التونسيين بالمدينة المنورة، وهو درويش حلابة إثر إصابته بمرض الكوليرا ويقول[٢]: «من جملة من مات درويش حلابة والمذكور معلوم أنه مزور أهالي تونس كافة. . فما مول (كذا) العاجز من مقام دولتكم وعالي همتكم ترسلوا لنا أمر. . خطاب إلى أهالي الدولة التونسية أن الزيارة تكون بمعرفة وكيل دولتنا بالمدينة» .

وكانت أوضاع الوكلاء التونسيين المعيشية جيدة، فهم يحصلون على

(١) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨٠، ق ٢٣، خطاب من وكيل التونسيين في المدينة المنورة إلى الوزير الأكبر في ٢٩/ ٤/ ١٢٨٩هـ الموافق ٥/ ٧/ ١٨٧٢م .
(٢) الوثيقة نفسها .

مرتباتهم من الحكومة التونسية لقاء هذه الخدمة [١]، هذا إلى جانب أنهم يحصلون على مرتبات شهرية حينما يذهبون إلى تونس، ويعدون من الوافدين من جماعة أهالي الحرمين الشريفين [٢]. كما أخذ بعضهم بعد فرض الحماية على تونس يحصلون على مبالغ جيدة من القنصلية الفرنسية بجدة لقاء الخدمات التي يقدمها الوكلاء للسلطات الفرنسية. ومثال ذلك المبلغ الذي اقترح نائب قنصل فرنسا لوستالو Lostalot دفعه لعبدالرحمن برهان الزمزمي وكيل التونسيين في مكه عام ١٣٠٤هـ/ ١٨٨٦م ويقدر بثلاثة آلاف فرنك سنوياً مقابل تأدية خدمات للقنصلية الفرنسية في الحجاز[٣].

ومن الأدلة على المكانة الجيدة التي يتمتع بها الوكلاء ما كان يمتلكه محمد ظافر المدني من زوايا وأماكن متعددة في تونس [٤].

(د) الأوضاع الاقتصادية للمجاورين التونسيين في الحجاز :

انعكس الاستقرار السياسي في الحجاز في النصف الثاني من القرن

(١) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨٣، ق ١٣٨، قائمة بأسماء المكاوية المستحقين لمرتب شهر جمادى الأولى ١٢٩٩هـ / إبريل ١٨٨٢م ومن بينهم وكيل التونسيين بمكة عبدالرحمن الزمزمي .

(٢) أ، و، ت، س . ج، ك ٣٠، م ٢/ ١، ق ١٦، خطاب من محمد عاشور رئيس جمعية الأوقاف إلى الوزير الأكبر محمد العزيز بوعتور في ٢٥/ ٦/ ١٣٠٧هـ الموافق ١٥/ ٢/ ١٨٩٠م.

A.Q.D,N.S:T 1882-1919,Car127, Dos: 1,F13-(B46)

خطاب من نائب قنصل فرنسا لوستالو Lostalot إلى فرايمي Freymei وزير الشؤون الخارجية الفرنسية في ٢/ ١/ ١٣٠٤هـ الموافق ٣٠/ ٩/ ١٨٨٦م.

(٣) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨٩، خطاب من وكيل التونسيين بالمدينة محمد ظافر المدني إلى الوزير الأكبر مصطفى خزنة دار في ٢٣/ ٣/ ١٢٩١هـ الموافق ٩/ ٥/ ١٨٧٤م .

ومن تلك الزوايا زوايا في باجة وسوسة وصفافس والقيروان .

(٤) الوثيقة نفسها .

الثالث عشر الهجري التاسع عشر الميلادي بوجه عام على الوضع الاقتصادي، وتأثر بذلك المجاورون عموماً والتونسيون على وجه الخصوص. وكان للتونسيين مساهماتهم في المجال الاقتصادي في منطقة الحرمين، ومع أنه في كثير من الأحيان يصعب تمييز المجاورين التونسيين عن سائر المجاورين المغاربة، إلا أنه بالإمكان التعرف على أوضاع المجاورين التونسيين الاقتصادية من خلال المصادر المتاحة، فقد عمل بعض منهم في المجال التجاري، ومن بينهم المجاور التونسي التاجر سليمان بن أحمد التونسي[١]، كما كان لبعضهم دور في القيام بالأعمال الخيرية في المنطقة كالمساهمة المالية في ترميم عين زبيدة [٢] عام ١٢٩٧هـ/ ١٨٨٠م[٣]، وكذلك الاهتمام بزاوية عبدالقادر الجيلاني ورباطه في مكة [٤].

ومن ناحية أخرى أسهم المجاورون التونسيون بطريقة غير مباشرة في رفع اقتصاد منطقة الحرمين عن طريق الإعانات والصدقات التي كانت ترسلها

---

(١) أ، و، ت، س . هـ، ك ٧٥، م ١٦/١، ق : بدون، خطاب من شيخ المكيين والمدنيين أحمد العبداوي، إلى الوزارة الكبرى في ١١/ ٥/ ١٣٢٢هـ الموافق ٢٤/ ٧/ ١٩٠٤م .

(٢) تنسب هذه العين إلى السيدة زبيدة زوجة الخليفة العباسي هارون الرشيد ١٧٠-١٩٣هـ الموافق ٧٨٦-٨٠٨م وقد أمرت بإنشائها عام ١٩٤هـ/ ٨٠٩ م نظراً لما رأته من قلة الماء في مكة وهي عبارة عن مجرى مائي يخرج من بئر زبيدة عبر قنوات تمتد بطول خمسة وثلاثين كيلو متراً من مكة نحو منى وعرفات حيث أماكن الحج وقد خصصت الدولة العثمانية صندوقاً من صناديق عين زبيدة يُتبرع فيه لإصلاح هذه العين وترميمها خصوصاً من جراء السيول التي كثيراً ما تعبث بها .

غازي، مصدر سابق :٣ / ٣٨٤ - ٣٩٩ . وأيضاً :

البتنوني، مصدر سابق : ٦٤ - ٦٧ . وأيضاً :

كردي، مرجع سابق : ٦ / ٩٢ .

(٣) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥ ق م ٧٩٠، ق ٢٢ خطاب من رئيس مجلس عين زبيدة إلى المشير محمد الصادق باشا في ١٢/ ٦/ ١٢٩٧هـ .

(٤) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨٨، خطاب من عبدالرحمن رجب التونسي إلى المشير أحمد باشا باي في محرم ١٢٦٢هـ/ ١٨٤٦م .

الحكومة التونسية سنويًا إلى الحجاز، ويتم توزيعها في المنطقة . يضاف إلى ذلك كون بعض المجاورين يتلقى رواتب وإعانات من عدد من الوزراء التونسيين، وكان هؤلاء الوزراء أحيانًا يخصصون مبالغ سنوية لأفراد معينين في المدينة المنورة لتكليفهم بالقيام بأعمال دينية ويذكر أن الوزير مصطفى خزنة دار كلف بعض الأشخاص في عام ١٢٧٨هـ/ ١٨٦١م من بينهم درويش حلابة، والطيب بن أحمد بتكوين حزب يسمى حزب الشيخ محمد بن صالح بن ملوكة التونسي في المدينة [١]، ووظيفة أعضائه الصلاة على النبي ﷺ والقراءة وإهداء ثوابهما للشيخ محمد بن صالح بن ملوكة. وقام بمهمة الصلاة حميدة بن زكور [٢] بمرتب مقداره تسعة ريالات (دورو) أجرة على عمله، واشترك معهم في هذا الحزب أشخاص من المجاورين التونسيين منهم محمد الشماع، وعمر جلوي، ومحمد التونسي، ومحمد الكافي علي، ويصرف لهم مبلغ مئتين وثلاثة وخمسين ريالاً سنويًا [٣]، وكان المشير محمد الصادق باشا قد بعث في عام ١٢٨٣هـ/ ١٨٦٦م إلى محمد بن عقبة مبلغ مئة ريال فرانسة صدقة من الصدقات التي تصل إلى المجاورين في المدينة، وقد فرح بها وسدد بعض ديونه [٤].

ولم تقتصر الإعانات السنوية من المسؤولين التونسيين على المبالغ المالية،

---

(١) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨٨، ق : بدون، خطاب من أعضاء الحزب إلى الوزير الأكبر مصطفى خزنة دار في ١١/ ١/ ١٢٧٨هـ الموافق ١٩/ ٧/ ١٨٦١م.

(٢) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨٨، ق : بدون، خطاب من محمد الشماع إلى الوزير الأكبر مصطفى خزنة دار في ١/ ١/ ١٢٧٩هـ الموافق ٢٩/ ٦/ ١٨٦٢م .

(٣) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨٨، ق : بدون، خطاب من أعضاء الحزب إلى الوزير الأكبر مصطفى خزنة دار في ١١/ ١/ ١٢٧٨هـ الموافق ١٩/ ٧/ ١٨٦١م.

(٤) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨٩، ق : بدون، خطاب من محمد عقبة إلى المشير محمد الصادق باشا باي في ١٠/ ١/ ١٢٨٤هـ الموافق ١٣/ ٥/ ١٨٦٧م .

بل كانت تحمل أحياناً أغراضاً شخصية، وهذا ما ورد في خطاب [١] أحد المجاورين التونسيين هو الطيب بن أحمد المغربي الذي طلب من الوزير الأكبر مصطفى خزنة دار في ١/ ١/ ١٢٨٢هـ الموافق ٢٧/ ٥/ ١٨٦٥م «إرسال جبة ملف من عبي جباطة وذلك على حساب التيسر لأن المدينة باردة في وقت الشتاء».

ولا شك أن ورود الإعانات السنوية إلى مجاوري الحرمين بمن فيهم التونسيون مع توافر السكن قد أسهم في التخفيف من الأعباء الاقتصادية التي كان يعاني منها المجاورون بشكل عام، والتونسيون على وجه الخصوص، إلا أن الوضع الاقتصادي للمجاورين التونسيين كان يتأثر تأثراً واضحاً عند توقف الحكومة التونسية عن إرسال الإعانات لسبب ما، ويبدو أن المجاورين كانوا يلجؤون إلى الاستدانة إلى أن يصلهم ما يمكنهم من تسديد ديونهم . وتوضح ذلك المراسلات التي كان المجاورون يرسلونها إلى الوزراء في تونس بخصوص الإعانة السنوية التي كانت ترسل من تونس إلى الحجاز، وقد درج أمراء مكة على إرسال خطابات إلى البايات في تونس حينما تنقطع الإعانة التونسية عن الحجاز، ومن ذلك خطاب أرسله أمير مكة الشريف عبدالله بن محمد (١٢٧٥-١٢٩٤هـ/ ١٨٥٨-١٨٧٧م) إلى المشير محمد الصادق باشا باي تونس (١٢٧٦-١٢٩٨هـ/ ١٨٥٩-١٨٨١م) في ١٢/ ٢/ ١٢٧٧هـ الموافق ٢٩/ ٨/ ١٨٦٠م [٢] موضحاً فيه تضرر المستفيدين من عدم وصول الصرة ومضيفاً «للداعي أنهم قليلو الاكتساب». ويذكر بيرم في هذا الصدد [٣] «فأهالي المدينة إذا فرقت

---

(١) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨٩، ق ٢١ : خطاب من درويش حلابه والطيب بن أحمد المغربي إلى الوزير الأكبر مصطفى خزنة دار في١/ ١/ ١٢٨٢هـ الموافق ٢٧/ ٥/ ١٨٦م.

(٢) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨٩، ق ٧٠، خطاب من أمير مكة الشريف عبدالله بن محمد إلى المشير محمد الصادق باشا باي في ١٢/ ٢/ ١٢٧٧هـ الموافق ٢٩/ ٨/ ١٨٦٠م .

(٣) مصدر سابق : ٥ / ٢٠ .

عليهم تلك الأموال يدفعون منها ما كان عليهم من ديون» .

(هـ) الأوضاع الاجتماعية للمجاورين التونسيين في الحجاز :

ضمت منطقة الحرمين طبقات اجتماعية متعددة من المجاورين التونسيين، وتصدرتها طبقة الأغنياء الذين تمتعوا بمكانة اجتماعية متميزة، ووجدوا على وجه الخصوص في المدينة المنورة التي كانت تضم غالبية المجاورين التونسيين.

وكان من هؤلاء عبدالرحمن المغيربي من القيروان، وكان فقيراً ثم جاور في المدينة، وأصبح من الأغنياء البارزين في بداية القرن الرابع عشر الهجري / العشرين الميلادي[١] .

ويقارب الأغنياء في المكانة الاجتماعية طبقة العلماء الذين تمتعوا بمركز بارز في المجتمعين المكي والمدني، ومنهم الشيخ عمر حمدان الذي كانت له مكانة علمية بارزة، وتتلمذ على يديه الكثير من العلماء الذين برزوا فيما بعد ومنهم محمد إبراهيم الختني[٢] [٣] .

ويلي طبقة الأغنياء الطبقة المتوسطة وينتمي إليها الحرفيون الذين كان لهم إسهام في بعض الصناعات الشائعة مثل صناعة النسيج، وصناعة الأحذية

---

(١) الجودي، مصدر سابق : ١٥ .

(٢) هو محمد إبراهيم الختني المدني الحنفي، ولد عام ١٣١٤هـ/ ١٨٩٦م في بلدة ختن من تركستان الشرقية تلقى العلم على يد عدد من علماء العالم الإسلامي في الهند، والعراق، الشام، وتركيا، وغيرها كما تعلم في الحرمين الشريفين، ثم أصبح مدرساً بالمسجد النبوي واجتمع بعدد من العلماء فيه . تتلمذ على يديه الكثير من طلبة العلم، وله مؤلفات عدة منها «ضرورة الحجاج في المناسك» و «تنقيح النحو» وغيرها، توفي عام ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م . كتبي، مرجع سابق : ١ / ٢٠ - ٢٧ .

(٣) المرجع نفسه، الجزء نفسه : ١٨٠ .

وغيرها[١]. ويُعد المطوفون من الطبقة المتوسطة، وقد توارثوا هذه المهنة أبًا عن جد، ومنهم علي بن حسن صباغ المطوف في مكة المكرمة في مطلع القرن الرابع عشر الهجري / العشرين الميلادي [٢] . وكذلك يمكن يُجعل المزورون في عداد الطبقة المتوسطة، وكان من أبرزهم مزور التونسيين في المدينة في أواخر القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي (توفي ١٢٨٩هـ/ ١٨٧٢م)، وقد أظهرت الوثائق التونسية أنه قد توارث هذه المهنة أبًا عن جد[٣] .

وتلي الطبقتين السابقتين طبقة الفقراء، وهؤلاء ليس لهم دخل ثابت إلا ما يأتيهم من الأوقاف والصدقات «ليس لهم وظيفة إلا العبادات تجاه البيت المعظم في سائر الأوقات» [٤]، غير أن بعضًا منهم قد يعمل في خدمة الحرمين الشريفين، ويعيش من المرتب الضئيل الذي يتقاضاه من جراء هذا العمل، ومن ذلك وظيفة الفراشة [٥]. وكان بعض الوزراء التونسيين يعينون

---

(١) كردي، مرجع سابق : ٢ / ١٢٧ - ١٢٨ .

(٢) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨٠، ق ١٠١، خطاب من علي بن حسن الصباغ إلى الوزير الأكبر محمد الجلولي في ٢٢/ ٣/ ١٣٢٦هـ الموافق ٢٤/ ٤/ ١٩٠٨م ويحوي تعقيباً من الوزارة بهذا الشأن .

(٣) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨٠، ق ٢٣، خطاب من وكيل التونسيين بالمدينة محمد ظافر إلى الوزير الأكبر مصطفى خزنة دار في ٢٩/ ٤/ ١٢٨٩هـ الموافق ٥/ ٧/ ١٨٧٢م .

(٤) أ، و، ت، س، ت، ك ٦٥، م ٧٨٩، ق : ٧، خطاب من أمير مكة الشريف عبدالله بن محمد إلى المشير محمد الصادق باشا باي في ١٢/ ٢/ ١٢٧٧هـ الموافق ٢٩/ ٨/ ١٨٦٠م .

(٥) والمقصود بها تسريج قناديل المسجد الحرام أو المسجد النبوي، ولهذه الوظيفة رئيس يسمى شيخ الفراشين. وهذه الخدمة اقتبسها التونسيون عن ما كان يقوم به السلطان عبدالمجيد ١٢٥٥هـ - ١٢٧٨هـ الموافق ١٨٣٩-١٨٦١م وكبار رجال الدولة فيها منذ عام ١٢٦٧هـ/ ١٨٥٠م فقد كان كل واحد منهم يقيم عنه نائبًا يقوم بوظيفة الفراشة في المسجد الحرام طوال العام، وفي وقت الحج يدفع له مبلغًا معينًا من المال لقاء هذه الخدمة.
أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨٨، ق : بدون، خطاب من أحمد الشيبي فاتح بيت الله الحرام إلى الوزير الأكبر مصطفى خزنة دار في ٢٩/ ١١/ ١٢٦٩هـ الموافق ٢/ ٩/ ١٨٥٣م.

في الحرمين من يقوم بهذا العمل رغبة في خدمة بيت الله طلباً للثواب منه عز وجل، ومن هؤلاء الوزير الأكبر مصطفى خزنة دار الذي عين حمزة محمد حسن المدني في المدينة المنورة نائباً عنه في هذه الخدمة [١] .

واندمج المجاورون التونسيون بجميع طبقاتهم بالأهالي في مكة والمدينة، ونتج عن ذلك تأثيرات متبادلة في مجتمعي المدينتين المقدستين .

والواقع أنه يصعب رصد تأثير المجاورين التونسيين الاجتماعي بمعزل عن التأثير المغاربي بشكل عام، والملحوظ أن هذا التأثير أوضح في المدينة المنورة حيث يوجد المغاربة فيها على نطاق واسع، ويتجلى هذا في كثرة أربطة المغاربة في المدينة [٢].

ويذكر أن وكيل التونسيين في المدينة توجه إلى إستانبول من أجل الحصول على منحة شهرية من الدولة العثمانية لبعض الزوايا الموجودة في المدينة، وقد وافقت الدولة العثمانية على ذلك [٣] .

ومن الأدلة على مدى التأثير المغربي في مجتمعي المدينتين المقدستين تداول الأكلات المغربية وأشهرها الكسكسي[٤]، واستخدام الشاي الأخضر المضاف إليه النعناع المغربي، وهو شراب منتشر في مناطق المغرب العربي[٥].

---

(١) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨٠، ق ٢٢ خطاب من حمزة محمد المدني إلى الوزير الأكبر مصطفى خزنة دار في ٢٨/ ٤/ ١٣٠٦هـ الموافق ١/ ١/ ١٨٨٩م .

(٢) ابن سلم، مرجع سابق : ٤٠ .

(٣) وهو محمد ظافر المدني .
أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، ق : بدون، خطاب من محمد ظافر المدني إلى الوزير الأكبر مصطفى خزنة دار في ١٢/ ٢/ ١٢٨٩هـ الموافق ٢٠/ ٤/ ١٨٧٢م.

(٤) وهو عبارة عن دقيق السميد يطبخ في قدر من البخار وتضاف إليه الخضروات .
ابن سلم، مرجع سابق : ٤٠ .

(٥) المرجع نفسه : ٧٩ .

ومن الجهة المقابلة ظهر تأثير بيئة الحرمين الشريفين في المجاورين التونسيين وفي أبنائهم بشكل خاص، فانتشر الخط المشرقي في كتاباتهم، ويلحظ هذا في خطاب[١] محمد عقبة التونسي المجاور بمكة الذي بعثه إلى الوزير صاحب الطابع في تونس وكتبه بخط مشرقي، واستخدم فيه بعض العبارات الدارجة في الحجاز مثل «حَقة»، وغيرها .

وقد أتاح وجود المجاورين التونسيين في المدينتين المقدستين في الحجاز الفرصة للتمازج مع أبناء المناطق الإسلامية الأخرى الموجودين في الحرمين الشريفين، ومثال ذلك زواج الشيخ عبدالقادر الشلبي[٢] من طرابلس الشام من امرأة من بنات أعيان تونس جاءت مع والدها إلى المدينة المنورة بقصد المجاورة [٣].

ومما يجدر ذكره أن أبناء المجاورين التونسيين وغيرهم قد أصبحوا يمثلون باختلاطهم بسكان الحجاز بما يضم من جنسيات مختلفة صورة للبيئة الحجازية المختلطة [٤]، وارتبط المجاورون التونسيون بأبناء المدينتين المقدستين برباط المودة والعلاقات الحميمة، وحظي بعض المجاورين بعطف أمراء مكة، وهذا ما دفع أولئك إلى التوسط لدى المسؤولين في تونس لصالح

---

(١) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨٩، ق ١٢، خطاب من محمد عقبة التونسي إلى الوزير إسماعيل السني في ١٩/ ١/ ١٢٨٢هـ الموافق ١٣/ ٦/ ١٨٥٦م.

(٢) ولد بطرابلس الشام في ١٢٩٧هـ الموافق ١٨٨٠م، وتعلم فيها، ثم توجه إلى المدينة المنورة من أجل طلب العلم وتعلم هناك على يد عدد من العلماء، شارك في الحرب العالمية الأولى ضد الحلفاء، وتولى إدارة المعارف في المدينة بعد الحرب العالمية الأولى، كما شارك في التدريس بالمسجد النبوي الشريف .

عبدالحق النقشبندي، تراجم علماء المدينة المنورة (الشيخ عبدالقادر الشلبي)، (مجلة المنهل، ع ٤٤، س ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م ٤٣٧ - ٤٤٠ .

(٣) المرجع نفسه : ٤٣٧ .

(٤) الفوزان، مرجع سابق : ٢٤٤ .

المجاورين التونسيين في الحرمين الشريفين، ومن الأمثلة على ذلك خطاب[1] أمير مكة عبدالله بن محمد بن عون (١٢٧٥-١٢٩٤هـ/ ١٨٥٨-١٨٧٧م) إلى المشير محمد الصادق باشا باي بخصوص أحمد الكسراوي، وهو أحد التونسيين جاور بالحجاز لمدة عام بعد تسليمه لصرة تونس عام ١٢٩٠هـ/ ١٨٧٣م . ويبدو أن بقاءه دون أخذ إذن من باي تونس جعل أمير مكة يتوسط لدى الباي للعفو عنه . ومثال آخر هو توسط أمير مكة نفسه عبدالله بن محمد بن عون لدى الوزير الأكبر خير الدين باشا من أجل مجاور تونسي اسمه الحاج حسين كان قد طرد من تونس، ولجأ عام ١٢٩١هـ / ١٢٧٤م إلى أمير مكة، ورجاه في تحرير خطاب يطلب العفو عنه من الوزير الأكبر خير الدين باشا [2]. وقد علق الوزير الأكبر خير الدين على الخطاب [3] بقوله: «إن شفاعة مثل جنابه لا ترد، على أن حسين المذكور إلى الآن لم يصل إلى الحاضرة» ولا تشير الأدلة فيما إذا كان الحاج حسين قد مكث في الحجاز أم أنه عاد إلى تونس .

ويمكن ذكر الشيخ أبي بكر ابن الشيخ درويش حلابة وهو ابن مزوّر التونسيين درويش حلابة الذي توفي عام ١٢٨٩هـ/ ١٨٧٢م، وكان أبو بكر على صلة جيدة بأمير مكة عون الرفيق ١٢٩٨- ١٣٢٣هـ/ ١٨٨١ - ١٩٠٥م. وقد حرر الأخير خطاب[4] توصية له في عام ١٣١٣هـ/ ١٨٩٥م إلى الوزير الأكبر في تونس وهو محمد العزيز بوعتور «ليعامل بما يستحقه

(١) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٢٧، ق : ١٥، خطاب من أمير مكة إلى باي تونس في ١٨/ ١٢/ ١٢٩١هـ الموافق ٢٥/ ١/ ١٨٧٥م .

(٢) أ، و، ت، س، ت، ك ٦٥، م ٧٢٧، ق ١٧، خطاب من أمير مكة الشريف عبدالله بن محمد إلى الوزير الأكبر خير الدين باشا في ٢٢/ ١٢/ ١٢٩١هـ الموافق ٢٩/ ١/ ١٨٧٥م .

(٣) الوثيقة نفسها .

(٤) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨٣، ق ٢ : خطاب من أمير مكة الشريف عون الرفيق إلى الوزير الأكبر محمد العزيز بوعتور في ٢/ ٤/ ١٣١٣هـ الموافق ٢١/ ٩/ ١٨٩٥م.

من الإكرام» ورد الوزير في رسالة تالية له إلى الأمير عون الرفيق مبدياً اهتمامه به ورعايته له[١] .

وكما تمتع المجاورون التونسيون في الحجاز بعطف أمراء مكة، كذلك حظوا برعاية كبار المسؤولين في بلادهم الأصلية، ومنهم أحمد بن محمد بن سلطان وهو من مجاوري مكة المكرمة من التونسيين، وكان على علاقة طيبة بولاة تونس [٢] . ومنهم أيضًا مزور التونسيين بالمدينة المنورة درويش حلابة الذي بعث بخطاب [٣] توصية إلى محمد الصادق باشا باي (١٢٧٦-١٢٩٨هـ/ ١٨٥٩- ١٨٨١م) تتعلق بالسيد محمد أعظم وهو أحد خطباء الحرم النبوي الذي كان متوجهًا إلى تونس.

ومن الأدلة على مكانة المجاورين التونسيين في المجتمع المحلي في المدينتين المقدستين متانة الروابط التي جمعتهم بعلماء مكة والمدينة وأعيانهما، وأخذ هؤلاء بالتوسط للمجاورين لدى المسؤولين في تونس للتوجيه بهم فمحمد مدني شيخ الخطباء والأئمة بالمدينة المنورة توسط لأحد المجاورين التونسيين ويدعى حسن النقلي الذي ترك وطنه واتخذ من المدينة المنورة مقرًا له، فأرسل محمد مدني إلى المشير محمد الصادق باشا باي خطابًا [٤] في ١/ ١/ ١٢٧٤هـ الموافق ١٢/ ٦/ ١٨٥٨م يلتمس فيه مساعدة مالية لهذا المجاور . ويذكر أيضًا أن عبدالله بن محمد الشيبي فاتح بيت الله

(١) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨٣، ق : بدون، خطاب من الوزير الأكبر بوعتور إلى أمير مكة الشريف عون الرفيق في عام ١٣١٣هـ/ ١٨٩٥م .

(٢) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٧٩، ق : ٨، خطاب من أمير مكة الشريف عبدالله بن محمد إلى المشير محمد الصادق باشا باي في ٢٢/ ٢/ ١٢٧٧هـ الموافق ٨/ ٩/ ١٨٦٠م .

(٣) أ، و، ت، س .ت، ك ٦٥، م ٧٨٩، ق : بدون، خطاب من درويش حلابة إلى المشير محمد الصادق باشا باي في ١/ ٧/ ١٢٨١هـ الموافق ٢٩/ ١١/ ١٨٦٤م.

(٤) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨٨، ق : ٥٦، خطاب من محمد المدني شيخ الخطباء والأئمة بالمدينة المنورة إلى المشير محمد باشا باي في ١/ ١/ ١٢٧٤هـ الموافق ١٢/ ٦/ ١٨٥٨م.

الحرام، وهو من أهالي مكة من ذوي النسب الشريف والذي كانت له مكانة جيدة لدى المسؤولين في تونس وعلى رأسهم الوزير الأكبر خير الدين باشا بعث بخطاب إلى الوزير موصيًا بالشيخ مصطفى خليل أحد العلماء التونسيين المجاورين في المدينة قائلاً [١] : «نرجو أن يكون المذكور ملحوظًا بأنظاركم الكاملة».

ويبدو أن الصلات الحسنة التي ربطت بين المجاورين التونسيين وأهالي المدينتين المقدستين التي ربطتهم أيضًا بالمسؤولين في كل من تونس والحجاز كان لها أثرها في التقريب بين الحكام وكبار رجال الدولة في كلا البلدين، فكانوا يتبادلون الرسائل والتهاني التي تحمل معاني الألفة والمودة فيما بينهم في بعض المناسبات، وغالبًا ما كان المجاورون التونسيون يحملون تلك الرسائل . ومن أمثلة ذلك رسالة[٢] بعثها أمير مكة الشريف عبدالله بن محمد إلى المشير محمد الصادق باشا باي في ٢٢/ ٢/ ١٢٧٧هـ الموافق ٨/ ٩/ ١٨٦٠م بصحبة المجاور التونسي أحمد محمد بن سلطان تتضمن التهنئة بولايته الحكم في تونس . وقد بعث الوزير الأكبر مصطفى بن إسماعيل ١٢٩٥-١٢٩٨هـ / ١٨٧٨-١٨٨٢م خطابًا [٣] إلى أمير مكة الشريف عبدالمطلب بن محمد في ١٧/ ١١/ ١٢٩٧هـ الموافق ٢٠/ ١٠/ ١٨٨٠م يهنئه فيه بتقلد الشريف عبدالمطلب منصب إمارة مكة المكرمة للمرة الثانية، وأرسل أمير مكة الشريف عون الرفيق خطابًا[٤]

(١) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨٩، ق ٨٤، خطاب من عبدالله الشيبي فاتح بيت الله إلى الوزيرالأكبر خير الدين باشا في ٩/ ١/ ١٢٩٢هـ الموافق ١٤/ ٢/ ١٨٧٥م .

(٢) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٧٩، ق : ٨، خطاب من أمير مكة الشريف عبدالله بن محمد إلى المشير محمد الصادق باشا باي في ٢٢/ ٢/ ١٢٧٧هـ الموافق ٨/ ٩/ ١٨٦٠م.

(٣) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٢٧، ق : بدون، خطاب شكر من الشريف عبدالمطلب إلى الوزير الأكبر مصطفى إسماعيل، في ١٧/ ١١/ ١٢٩٧هـ الموافق ٢٠/ ١٠/ ١٨٨٠م .

(٤) أ، و، ت، س : ج، ك ٣٢، م ١/ ١، ق : بدون، خطاب من أمير مكة عون الرفيق إلى الباي علي بن حسين في ٨/ ٣/ ١٣٠١هـ الموافق ٦/ ١/ ١٨٨٤م .

إلى البـاي علي بن حـسين باشـا في ٨/ ٣/ ١٣٠١هـ الموافق ٦/ ١/ ١٨٨٤م يهنئه فيه بحلول العام الهجري الجديد .

وتجلت الصلات الودية بين مسؤولي البلـدين في تبادل الهدايا التي كانت كالرسائل يحـملها في الغالب المجاورون التـونسيون . ومثـال ذلك أن أمير مكة عـبدالله بن مـحمد (١٢٧٥-١٢٩٤هـ/ ١٨٥٨-١٨٧٧) قـد بعث في عام ١٢٧٧هـ/ ١٨٦٠ هدية إلى المـشير مـحمد الصـادق باشا باي بصحـبة السيد أحمـد بن محمد بن سلطان مرفقـة بخطاب جاء فيه [١]: «اتباعـًا لما ورد في الحديث الشريف بقوله ﷺ: (تهادوا تحابوا) فأصحبنا السيد أحمد ابن المرحوم محـمد بن سلطان للجناب المستطاب على حسب التبـرك من كسوة الكعبة[٢] المعظمـة زادها الله شرفـًا وتعظيـمـًا قرصين وبقـشة (قطعـة) من قمـاش الهند بموجب بيان طي هذا، فـالمأمول أن تكون محل القـبول والله تعالى يحفظكم ودمتم» .

ومن أطرف الهـدايا التي أرسلهـا الباي علـي بن حسين باشـا (١٢٩٩-١٣٢٠هـ/ ١٨٨٢-١٩٠٢م) هدية إلى أمـيـر مكة عـون الرفـيق (١٢٩٩-

---

(١) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٧٩، ق : ٨، خطاب من أمير مكة الشـريف عبدالله بن محمد إلى المشير محمد الصادق باشا باي في ٢٢/ ٢/ ١٢٧٧هـ الموافق ٨/ ٩/ ١٨٦٠م .

(٢) جرت العـادة أن الكسوة القديمة للكعـبة تهدى أو توزع أو تبـاع فقد كـانت تسلم إلى سادن الكعبـة، وهو فاتح بيت الله الحرام ويوزعـها بالتسـاوي بين آل الشيبي، وحـصته ضـعف ما يحصل عليه أحدهم، فيهدي بعضها ويبيع بعضها الآخر للحجاج . وقد عرف ذلك منذ عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقد روي أنه كان ينزع الكسوة القديمة كل عام، ويوزعها على الحجاج . انظر :

رفعت، مصدر سابق، ١ / ٢٩٦ - ٢٩٧ . وأيضـًا :

كردي، مرجع سابق :٤ / ٢٢٨ .

١٣٢٣هـ/ ١٨٨٢- ١٩٠٥م) وهي عبارة عن «بغلة مسرجة» [١] [٢].

وكان تبادل الهدايا أمرًا شائعًا بين أهالي البلدين، وليس بين رجال الحكم فقط، ذلك أن للهدية قيمتها ومكانتها في نفوس الناس، وقد روي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن الرسول ﷺ أنه قال: «تهادوا تحابوا»[٣]، كما أنها من الأمور الدالة على متانة الصلات بين البلدين، والأمثلة على ذلك كثيرة منها أن عامل مدينة القيروان وهو حسن المرابط أرسل مع الحاج محمد بن عيسى القيرواني في بداية عام ١٢٦٦هـ/١٨٤٩م صندوق شمع ومئة محبوب لأغاوات المدينة [٤]، كما أرسل هدية مماثلة في نهاية العام إلى فاتح بيت الله الحرام وهو أحمد بن محمد الشيبي[٥].

وغالبًا ما حمل التونسيون المجاورون في منطقة الحرمين الشريفين هدايا إلى كبار رجال الحكومة التونسية بغية التقرب إليهم، وكان التمر وخاصة تمر المدينة أبرز الهدايا المرسلة [٦] من الحجاز إلى تونس. وقد بعث [٧] محمد عون التونسي وهو أحد المجاورين التونسيين إلى الوزير إسماعيل السني في تونس في ١٥/ ١/ ١٢٧٧هـ الموافق ٣/ ٨/ ١٨٦٠م علبة تمر مع أحد التونسيين وهو أحمد الكسراوي، كما أرسل عمر عبدالسلام إمام المسجد

(١) يظهر أن البغلة كانت ترسل على سبيل التبرك.

(٢) أ، و، ت، س: ج، ك ٣٢، م ١/١، ق: بدون، خطاب شكر من أمير مكة عون الرفيق إلى الوزير الأكبر محمد العزيز بوعتور في ١٧/ ٣/ ١٣٠١هـ الموافق ١٥/ ١/ ١٨٨٤م.

(٣) الشوكاني، مصدر سابق: ٦ / ١٠٠.

(٤) أ، و، ت، س. ت، ك ٦٥، م ٧٨٨، ق: بدون، خطاب مرفق بالهدية من حسن المرابط إلى محمد عيسى في ٣/ ١/ ١٢٦٦هـ الموافق ١٩/ ١١/ ١٨٤٩م.

(٥) أ، و، ت، س. ت، ك ٦٥، م ٧٨٨، ق: بدون، خطاب مرفق بالهدية من حسن المرابط إلى فاتح بيت الله في ١٥/ ١٢/ ١٢٦٦هـ الموافق ٢٢/ ١٠/ ١٨٥٠م.

(٦) ابن سلم، مرجع سابق: ١٥٤.

(٧) أ، و، ت، س. ت، ك ٦٥، م ٧٨٨، ق: بدون، خطاب من محمد عون إلى الوزير إسماعيل السني في ١٥/ ١/ ١٢٧٧هـ الموافق ٣٠/ ٨/ ١٨٦٠م.

النبوي وخطيبه في ١١/ ١/ ١٢٧٧هـ الموافق ٣٠/ ٧/ ١٨٦٠م إلى الوزير الأكبر مصطفى خزنة دار بعضًا من تمر المدينة[١] .

ونظرًا لاعتقاد المجاورين التونسيين وسواهم بأن إرسال شيء من متعلقات البيت الحرام سوف يجلب الخير والبركة للمرسل له كان بعضهم يرسل قطعة من كسوة[٢] الكعبة - كما ذكر سابقًا - ومنهم من يرسل شيئًا من بخورها[٣] .

وكانت بعض الهدايا التي كانت تحمل شيئًا من متعلقات البيت الحرام ترفق غالبًا بطلب للحصول على خدمة معينة، أو لتقديم الشكر على أداء خدمة ما . مثال ذلك أن حسينة بنت صالح الكافي قد أرسلت إلى باي تونس المشير أحمد باشا باي ١٢٥٣-١٢٧٢هـ / ١٨٣٧-١٨٥٥م في عام ٢٦/ ١٢/ ١٢٦١هـ الموافق ٢٥/ ١٢/ ١٨٤٥م هدية هي عبارة عن سلاحية[٤] ماء زمزم مرفقه بخطاب[٥] تطلب فيه تخصيص مبلغ معين سنويًا من صدقة تونس التي كانت تعطى لوالدها قبل وفاته، ثم قُلّصت.

وبعث أحمد بن محمد الشيبي إلى باي تونس المشير أحمد باشا باي في ١/ ١/ ١٢٦٩هـ الموافق ١٥/ ١٠/ ١٨٥٢م هدية هي عبارة عن «كيس

---

(١) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨٨، ق : بدون، خطاب مرفق بالهدية من عمر عبدالسلام إلى الوزير الأكبر في ١١/ ١/ ١٢٧٧هـ الموافق ٣٠/ ٧/ ١٨٦٠م .

(٢) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨٨، ق : بدون، خطاب من أحمد بن محمد الشيبي إلى المشير أحمد باشا باي في ١/ ١/ ١٢٦٩هـ الموافق ٧/ ٦/ ١٨٥٣م.

(٣) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨٨، ق : بدون، خطاب مرفق بالهدية من أحمد محمد الشيبي إلى الوزير الأكبر مصطفى خزنة دار في ٢٩/ ١١/ ١٢٦٩هـ الموافق ٢/ ٩/ ١٨٥٣م .

(٤) ربما يقصد بها الصفيحة . انظر :
رفعت، مصدر سابق : ١ / ٢٥٩ .

(٥) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨٨، ق ١، خطاب من حسينة بنت صالح الكافي إلى المشير أحمد باشا في ٢٦/ ١٢/ ١٢٦١هـ الموافق ٢٥/ ١٢/ ١٨٤٥م .

مفتاح بيت الله الحرام [١]، وسلاحية مملوءة من ماء زمزم، وقارورة عطر ورد، وقرطاس ند[٢]، وعود[٣] وقطعة من كساء الكعبة المعظم»، وأرفق بالهدية خطابًا يطلب فيه تسجيل أسماء آل الشيبي في دفتر خاص وذِكْر أسمائهم جميعًا من ضمن الأسماء المسجلة في دفتر الصرة .

وقد بعث أحمد بن محمد الشيبي فاتح بيت الله الحرام إلى الوزير الأكبر مصطفى خزنة دار هدية هي عبارة عن قطعة من كساء البيت المعظم وشيء من بخوره مرفقة بخطاب [٤] شكر على إرسال الوزير الأكبر مبلغًا من المال يقدر بخمس مئة ريال دورو.

كما أرسل أخوه عبدالله بن محمد الشيبي إلى الوزير الأكبر خير الدين باشا في ٢٢/ ١٢/ ١٢٩٢هـ الموافق ١٨/ ١/ ١٨٧٦م هدية هي «كيس مفتاح بيت الله» مرفقه بخطاب شكر إلى الوزير لإرساله هدية لعبد الله الشيبي هي عبارة عن بغله، وربما كانت هذه الهدية قد أرسلت إليه بناءً على الخطاب [٥] المرفوع منه لخير الدين باشا عام ١٢٨٦هـ/ ١٨٦٩م المتضمن

---

(١) كان يوضع مع كسوة الكعبة كيس لمفتاح باب الكعبة، وهذا الكيس الغرض منه حفظ المفتاح فيه وهذا المفتاح يكون عند سادن الكعبة وهو ما يسمى بفاتح بيت الله الحرام، وهو عادة ما يكون أكبر بني شيبه سنًا. وهذا الكيس من الحرير (من نوع الأطلس الساسي) مقاسه ذراع وثُمن وتوضع عليه أسلاك فضية ملبسة بالذهب البندقي الأصفر، وتوضع عليه أسلاك فضية ملبسة بالذهب البندقي الأصفر وقد نقش في إحدى جهتيه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ وفي الجهة الأخرى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ .
رفعت، مصدر سابق، جـ ١ : ٢٩٦ - ٣٠٠ .

(٢) هو نوع من الطيب يستخدم عادة لتبخير المكان، وهو طيب غير عربي .
الرازي، مصدر سابق : ٦٥ .

(٣) نوع من الطيب الذي يتبخر به العرب عادة .
المصدر نفسه : ٤٦١ .

(٤) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٨٨٧، ق : بدون، خطاب من أحمد بن محمد الشيبي إلى باي تونس المشير أحمد باشا باي في ١/ ١/ ١٢٦٩هـ الموافق ١٥/ ١٠/ ١٨٥٢م .

(٥) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨٩، ق ٤١، خطاب من عبدالله بن محمد الشيبي إلى الوزير خير الدين في ٢٤/ ٢/ ١٢٨٦هـ الموافق ٤/ ٦/ ١٨٦٩م .

الطلب بإرسال «بغلة من أعز الموجود .. تكون عالية، ورأسها صغير وأذناها صغيرتان، ويداها سخاف، والمقصود أنها نحيفة اليدين مثل رجلي الغزال، ولونها أسود أو أحمر» .

والملحوظ أن كل ما هو خاص بمتعلقات البيت الحرام والأماكن المأثورة فيه كان هدفًا لطلبات أرسلت من تونس إلى المجاورين في الحرمين الشريفين بقصد التبرك . فمثلاً أرسل الوزير خير الدين إلى وكيل التونسيين بمكة وهو محمد ظافر المدني في عام ١٣١٠هـ/ ١٨٩٢م طالبًا منه إرسال جانب من التراب الشهير[١] استعماله للاستشفاء وكذلك قطعة من الحجر المأثور من أجل التيمم للصلاة . وقد نفذّ له ما أراد، وأرسل خطابًا [٢] يخبره بذلك في ٦/٦/ ١٣١٠هـ الموافق ٢٥/ ١٢/ ١٨٩٢م .

وقد عمد بعض مجاوري مكة من غير التونسيين أحيانًا إلى إرسال هدايا من هذا النوع أي من متعلقات البيت الحرام، إلى بعض المسؤولين في تونس من باب التقرب، كما فعل أحمد محمد داغستاني الذي أرسل إلى الوزير

---

(١) يقصد به ما أورده وكيل التونسيين محمد ظافر في خطابه إلى الوزير الأكبر خير الدين باشا في ٣٠/ ٥/ ١٣١٠هـ الموافق ١٩/ ١٢/ ١٨٩٢م (أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨٠، ق ٣٢) وهو قوله : «هذا التراب يسمى تراب الشفا الوارد فيه الحديث الشريف من تراب صهيب الذي يستشفي به أهل المدينة، ويوجد بقربها . ويحضر حَجَرة التيمم من محل مأثور. . من جبل أحد . . والجبل المذكور وردت فيه أحاديث منها: جبل يحبنا ونحبه، ومنها: أحد من جبال الجنة أو كما قال في حقه، ولما أن كان هذا الجبل محبوبًا ومن جبال الجنة فلا بأس بالتبرك بشيء منه».

هذا ما أورده وكيل التونسيين محمد ظافر في خطابه . ومع أنه قد ورد في (مسلم، مصدر سابق : ٩ / ١٦٢) أحاديث صحيحة عن فضل جبل أحد إلا أن ذلك لا يعني جواز التبرك به أو بغيره؛ لأن هذه من الأمور البدعية الدخيلة على العقيدة الإسلامية .

(٢) أ، و، ت، س : ت، ك ٦٥، م ٧٨٠، ق ١٥، خطاب من محمد ظافر وكيل التونسيين بالمدينة إلى الوزير الأكبر خير الدين باشا في ٦/٦/ ١٣١٠هـ الموافق ٢٥/ ١٢/ ١٨٩٢م .

الأكبر خير الدين في ٢٢/ ١٢/ ١٣٩٢هـ الموافق ١٨/ ١/ ١٨٧٦م [١] «حُقّاً من بخورات مكة المشرفة تفضلوا بقبوله» . وقد يُعدّ الحج أو العمرة من الأمور التي كان يهدى ثوابها لبعض الشخصيات المسؤولة رمزًا لتقديم الهدايا، ومثال ذلك أن علي بن صالح الكافي مطوف أهالي تونس عام ١٢٧٣هـ/ ١٨٥٧م قد حج في ذلك العام واعتمر عن المشير محمد باشا باي (١٢٧١-١٢٧٦هـ/ ١٨٥٥-١٨٥٩م) وبعث إليه بخطاب ذكر فيه [٢] «كانت حجة الجمعة وأحرمنا عنكم بالحج، ووقفنا عنكم بجبل عرفات بطريق النيابة عنكم، وقد دعونا لكم لصالح الدعوات في عرفة ومزدلفة ومنى وعند رمي الجمرات، وقد اعتمرنا أيضًا عن سعادتكم . . وأيضًا حررنا لكم حجة شرعية من محكمة المشرفة (كذا) من عند مولانا القاضي الحنفي» .

كذلك فإن عمر عبدالسلام الإمام والخطيب بالمسجد النبوي الشريف بعث[٣] إلى مصطفى خزنة دار في ١١/ ١/ ١٢٧٧هـ الموافق ٣/ ٧/ ١٨٦٠م يبلغه أنه حج عنه هذا العام وليس هذا بتفضل منا عليكم، بل هو شيء قليل جدًا من نعمكم الواصلة إلينا سابقًا كما قيل :

كالبحر يسقيه السحاب وما له *** فضل عليه لأنه من مائه

ونخلص من ذلك إلى أن المجاورين التونسيين في الحجاز كان لهم حضور واضح في المجتمع المكي والمدني، وكانت علاقتهم بالأهالي وبالمسؤولين وغيرهم من المجاورين علاقة طيبة تقوم على التكافل الاجتماعي

---

(١) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨٩، ق ٨٧، خطاب مرفق بالهدية من أحمد محمد داغستاني إلى الوزير الأكبر خير الدين باشا في ٢٢/ ١٢/ ١٢٩٢هـ الموافق ١٨/ ١/ ١٨٧٦م .

(٢) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨٨، ق ٥٣، خطاب من علي الكافي مطوف أهل تونس إلى المشير محمد باشا باي في ٢١/ ١٢/ ١٢٧٣هـ الموافق ١١/ ٨/ ١٨٥٧م .

(٣) أ، و، ت، س . ت، ك ٦٥، م ٧٨٨، ق : بدون، خطاب من عمر عبدالسلام إلى الوزير مصطفى خزنة دار في ١١/ ١/ ١٢٧٧هـ الموافق ٣٠/ ٧/ ١٨٦٠م .

الذي يحثنا عليه ديننا الحنيف.

رابعـًا - المصاعب التي كان يواجهها الحجاج التونسيون في الحجاز :

يشعـر التونسيـون كسائر المـسلمين في العالم بأهميـة الحج لكونه الركن الخـامس من أركـان الإسـلام، ويحـرص بعض منهم عـلى أدائه حـسب الاستطـاعة غيـر أنه كانت تواجـه الحجـاج التونسـيين كغـيرهم مـصاعبُ متعددة[١] كان من أهمها :

(أ) وسيلة السفر ومشاق الطريق :

يستـخدم الحجـاج التونسيـون عادة في رحلتهم إلـى الحج أحد الطريقين البري والبحري، وكلاهما شاق يستـغرق الحاج بموجبهما للوصول إلى مكة مدة تزيد على الشهر في الذهاب، ومثلها في العودة.

وسالك الطريق البري من الحجاج التونسـيين كان يتعرض لمشاق عدة منها وعورة المسالك، وتعرضها للخراب إبان نزول الأمطار الغزيرة التي قد تجرف الأرض، وتدمر الطريق وقد تمحو معالمه [٢] .

أما من يستخدم الطريق البحري من الحـجاج التونسيين فإنهم أيضـًا كانوا يواجهون مشكلات عدة . فالسفن المخصصة لنقل الحجاج ترسو في ميناءين في تونس، مـيناء تونس وميناء حلق الوادي، وتملك تـلك السفن شـركات أوربيـة منها الجـرجـوفيـة "Gergovia" ، واللانغودك "Languedoc" وغالـيا

(١) وردت التفاصيل في موضوع المصـاعب في فترة الحماية بشكل أكثر تركيزًا عمـا سبقها بسبب توافر الوثائق والمعلـومات، وفي رأيي أن الصعـوبات كانت كذلك في الفـترة السابقـة لفرض الحمـاية الفرنسية على تونس، إلا فـيما يتـعلق بتدخل سلطات الحمـاية في تونس بمسألة حج التونسيين .

(٢) الدقن، مرجع سابق : ٥٧ .

"Gallia" وغيرها [١]. وحجم بعض هذه السفن كبير يتسع لما يقرب من ألف وسبع مئة حاج كالجرجوفية، إلا أن حجم بعضها الآخر صغير لا يكفي لما يزيد على ثمان مئة حاج مثل «غاليا».

وقد وضعت السلطات الفرنسية في تونس بعد فرض الحماية عليها عام ١٢٩٨هـ/ ١٨٨١م شروطًا معينة يجب توافرها في السفن المخصصة لنقل الحجاج من أهمها : الالتزام بالعدد المسموح بحمله من الحجاج، والتقيد بخط سير الرحلة، أي من تونس إلى جدة مع التوقف في ينبع، والعودة من جدة مرورًا بينبع ومنها إلى تونس، واشترطت كذلك توافر مطهر في تلك السفن يعمل بواسطة الضغط البخاري، وجهاز رش المبيدات، هذا بالإضافة إلى إلزام كل سفينة بضرورة وجود طبيب منتدب من الهيئة الصحية بتونس ليشرف على تطبيق التعليمات الطبية والصحية، ويعمل على تقديم الخدمات الطبية للمرضى على متن السفينة، كما يراقب الاهتمام بتنظيف السفن يوماً، وغسل السطح ورش المبيدات . وكان من جملة الشروط تخصيص مساحة كافية لكل راكب مع أمتعة سفره الخفيفة، بحيث لا تقل هذه المساحة عن مترين مربعين مع ما يتبعهما من فضاء، ويظل سطح السفينة شاغرًا من الأمتعة ولا يستخدم إلا لتجول المسافرين على أن يخصص مستودع للأمتعة والبضائع التي يحملها الحجاج، ويحظر على المسافرين الإقامة في هذا المستودع . وطُلب من كل سفينة تتولى نقل الحجاج الخضوع عند الانطلاق إلى زيارة يقوم بها المهندسون المختصون بهدف معاينة سلامة هيكلها وجهاز تسييرها .

ويلحظ أن غالبية الشركات التي كانت تتولى نقل الحجاج لم تلتزم

---

(1) A.Q.D.M.S: T1882-1919 car441 Dos2(vol4,F190)(B281)

تقرير من أربعة أجزاء قدمه القنصل الفرنسي بجدة إلى وزارة الشؤون الخارجية الفرنسية في ١٣/ ١٠/ ١٣١٠هـ الموافق ٢٩/ ٤/ ١٨٩٣ بعنوان «الطوائف الدينية - الحج إلى مكة ».

بالشروط المذكـورة آنفاً فكان بعض منهـا يقوم بنقل عدد من الحـجاج يزيد على المسمـوح به، وهو ما كان يسبب ازدحـامـًا يعرّض الحجاج المسـافرين للمـشقـة وكـثرة الأمـراض. ومثـال ذلك: أن الشـركة التـي تدير سفـينة «الجرجوفـية» نقلت عام ١٣١١هـ / ١٨٩٣م ما لا يقل عن ألـف وتسع مئة وثمانية عشر حاجـًا مع أن المسموح به ألف وسبع مئة [١].

بالإضافـة إلى ذلك فإن بعض الشـركات لم تكن تتـقيد بما نـصت عليه الأنظمة بخصوص خط سير الرحلة، ومثال ذلك ما حدث عام ١٣٠٤هـ / ١٨٨٧م حين استأجر الحجاج السـفينة الإنجليزية «كويتور» Quetour من ميناء حلق الوادي بتونس، وكان يفترض أن تتوجه مـباشرة إلى جدة كما وعدهم بذلك قائد السفـينة سميث (Smeath)، إلا أن الباخرة توقـفت ستة أيام في إحدى الموانئ، وعادت وتوقفت أيامـًا أخـرى في بيروت . ورفع الحجاج التـونسـيـون شكوى إلـى القنصل الفـرنسي في بـيـروت، وقـام القنصل باستجواب قائد السفينة لمعرفـة أسباب التوقف، ووعد القنصل الحجاج بأن التوجه فـي المرات القادمة سيكون مـباشرة من جدة . وقد اقـترح القنصل على السلطات الفـرنسـية في بـاريس اتخاذ إجـراءات مـشددة لوضع حـد لمشكلات من هذا القبيل كـأن يُطلب التوقيع مثلاً على عقـود بين الشركات البحرية والحجاج لضمان حقوق الطرفين[٢] .

وكان الحـجاج التونسيـون الذين يرغبون في الـرحلة إلى الحج من ميناء

---

(1) A.Q.D.M.S: T1882-1919 car441 Dos2(vol4,F187)(B281)

تقرير رفع في أربعة أجزاء من القنصل الفـرنسي بجدة غيو Giot إلى وزارة الشؤون الخـارجية الفرنسيـة في ١٣/ ١٠/ ١٣١٠هـ الموافق ٢٩/ ٤/ ١٨٩٣م بعنوان «الطوائف الدينية - الحج إلى مكة» .

(2) A.Q.D.M.S: T1882-1919 car127 Dos3 (p46)

خطاب من قنصل فرنسا ببـيروت إلى وزير الخارجية الفـرنسية في ٢٨/ ١٠/ ١٣٠٣هـ الموافق ٢٩/ ٧/ ١٨٨٦م .

الإسكندرية يواجهون مشكلات عديدة منهـا افتقار بعض السفن التي تقلهم من هناك إلى النظافة مع شدة الزحام فيها [١] .

وحرصت السلـطات الفرنسيـة على تقليص المدة التي يبقـى فيهـا الحاج التونسي في الحجاز؛ ولذلك أصدرت تعليماتها إلى الشركات المختصة بنقل الحجاج بـالتقيد بالمواعـيد التي يحددها قنصل فرنسـا في جدة [٢]، وكانت حجـتها كمـا تدعي «لشراهة أهل الحجـاز والسلطات العثمـانية» [٣]، وقد وجدت تلك السلطات أن تخـفيض مدة الإقامـة لا يثير اعتـراضـًا من قبل الشركات المختصة بل إن ذلك يسعدها [٤] .

(ب) المكوس المفروضة على الحجاج التونسيين :

كـان يتوجب عـلى الحجـاج التـونسيين أسـوة بسـائر الحـجاج تسـديد المكوس[٥] التي كانت تسـتخلص منهم بدءاً من وصولهم إلى جدة فـيقوم كل حاج بدفع ضريبـة تقدر بريالين إلى المصلحة الجمركـية بجدة [٦]، وقد عمدت السلطات الفرنسية بعـد فرض الحماية على تونس إلى التدخل بشأن

---

(١) انظر الفصل الثاني : ١٢٧ .

(2) Zanetti, op.C.T,P.185

(3) A.Q.D.M.S: T1882-1919 car128 Dos2 (vol4,F105-110) (B46)

ملحق رسالة وزارة الداخلية الفرنسية إلى وزارة الشؤون الخارجية في ١٠/٩/ ١٣١٠هـ الموافق ٢٧/٣/١٨٩٣م.

والملحق بعنوان «توجيهات بشأن الحج إلى مكة».

(4) A.Q.D.M.S: T1882-1919 car441 Dos2(vol4,F201) (B281)

تقرير رفع في أربعة أجزاء من القنصل الفـرنسي بجدة غيو Giot إلى وزارة الشؤون الخـارجية الفرنسـية في ١٣/ ١٠/ ١٣١٠هـ الموافق٢٩/ ٤/١٨٩٣م بعنوان «الطوائف الـدينية - الحج إلى مكة» .

(٥) سبقت الإشارة إلى ذلك في الفصل الثالث : ١٨٦ .

(٦) بيرم، مصدر سابق: ٤ / ١٣٦

مبلغ هذه الضـريبة التي كانت تستـخلص في الجمارك، ووجه المقـيم العام الفرنـسي في تونس بول كامـبون Cambon Boul ١٣٩٩-١٣٠٤هـ/ ١٨٨٢-١٨٨٧م تعليـماته إلى القنصـلية الفـرنسيـة بجدة عـام ١٣٠٤هـ/ ١٨٨٦-١٨٨٧م للعمل من أجل تخفيض هذه الضريبة [١]. ويبدو أن القنصل فشل في هذه المهمـة وبعث نائب القنصل الفرنسي في جدة لوسـتالو "Lostalot" رسـالة إلى وزير الشؤون الخـارجـية في باريس فـرايمي "Frayme " يذكر فـيهـا[٢]: «أن أمـر هذه المسـألة ليس بأيدينا، ولي الشـرف بأن أرجـو من معاليكم التـفضل بمعالجتهـا، والنظر هل الأمر يقتضي بأن تمتعـوا التونسيين بالتخفيض المطلوب ؟ أما بالنسبة لي فلا أرى سبباً لأن نراعي التونسيين دون غيرهم» .

ويتوجب على كل حاج تونسي كغيره دفع مبلغ آخر يضاف إلى الضريبة الجمـركية يقـدر بريال تقريبـًا يؤخذ من كل حـاج لقاء ما يعـرف بـ «نظافة أماكن الحج»[٣] هذا بالإضافة إلـى ضريبة الحجر الصـحي التي كانت تدفع إلى المصلحة الصحية العثمانية، ومقدارها نصف ريال [٤]، وضرائب أخرى متنوعة يدفعها الحاج أثناء تنقله في الأراضي المقدسة تضاف إلى أجرة الجمل الذي يستـأجره الحاج من الجـمّالة حـيث يضاف إلى المبلغ المتـفق عليه مع

---

(1) A.Q.D.M.S: T1882-1919 car127 Dos1F 12 (B46).

خطاب من لوستالو نائب قنصل فرنسا بجدة إلى فرايمي وزير الشؤون الخارجية في باريس في ٢/ ١/ ١٣٠٤هـ الموافق ٣٠/ ٩/ ١٨٨٦م .

(2) Ibid. (vol 4,211) .

(٣) بيرم، مصدر سابق : ٤ / ١٣٤ .

(4) A.Q.D.M.S: T1882-1919 car128 Dos2 F 106 (B46).

ملحق رسالة وزارة الداخلية الفرنسية إلى وزارة الشؤون الخارجية في ١٠/ ٩/ ١٣١٠هـ الموافق ٢٧/ ٣/ ١٨٩٣م والملحق بعنوان «توجيهات بشأن الحج إلى مكة» .

الجمالة [١] ريالان للشريف أمير مكة، وخمسة قروش عثمانية للوالي العثماني، وريال لوكيل المطوف [٢] ، كما كانت بعض الضرائب تضاف إلى أجرة الشقادف التي يكتريها الحاج، فيؤخذ على كل شقدف يباع حوالي سبعة قروش عثمانية[٣].

وقد قرر أمير مكة عون الرفيق (١٢٩٩-١٣٢٣هـ/ ١٨٨٢- ١٩٠٥م) على كل حاج غير معسر دفع ريال واحد إعانة لسكة حديد الحجاز التي تقرر العمل في إنشائها منذ عام ١٣١٨هـ/ ١٩٠٠م، وأخذ المطوفون يجمعون هذه الإعانة، وكان الشريف لا يسمح بخروج الحجاج من مكة إلا بعد أن يتم دفع الإعانة[٤].

ويروي إبراهيم رفعت حادثة حصلت للمغاربة بهذا الصدد فيقول : «وقد بلغني أن بعضاً من حجاج المغرب شكا لدولة الوالي حبسهم بمكة، فأرسل بهم مع مندوب من قِبله إلى دولة الشريف ليسمح لهم بالخروج، فلما وصلوا إليه نزل عليهم ضرباً بالعصي . . فتشتتوا مذعورين» .

ولا شك ان هذه الضرائب المتنوعة كانت تشكل عبئاً على الحجاج التونسيين وغيرهم، وتزيد من مصاعب أداء فريضة الحج . وبالغ إبراهيم رفعت في وصف الآثار التي خلفتها فداحة تلك الضرائب وما يصاحب استخلاصها من مظالم بقوله [٥]: «ولو علمت دولتا فرنسا وروسيا بهذه

(١) ويذكر رفعت (مصدر سابق : ١ / ٦٧) أن «أجرة الجمال التي يتم الاتفاق عليها إنما هي تختص بالحجاج الذين لا يتبعون المحمل. أما الحجاج الذين يتبعون له فالأجرة تقدر من قبل أمير مكة».

(٢) المصدر نفسه : ١ / ٧١ .

(٣) المصدر نفسه : الجزء نفسه :٧٢

(٤) المصدر نفسه : الجزء نفسه : الصفحة نفسها .

(٥) رفعت مصدر سابق : ١ / ٦٦ .

المظالم التي يتكبـدها الحجـاج لما منعوا رعـاياهم المسلمين من الحج؛ إذ لو حضروا ورأوا هذه المظالم بأعينهم لرغبوا عن الحج، ولم يحدثوا به أنفسهم تارة أخرى، بل لبثّوا في نفوس إخوانهم كراهيته، وإذ ذاك يمتنعون من تلقاء أنفسـهم عن الحج دون أن يتكلف حكامهم مـشقة المنع ونتـائجه، " بل إن محمد الجودي قال: «إنه لا يطلب الإنسان شربة ماء إلا بثمن».

(ج) صعوبة التنقل في الأراضي الحجازية :

يواجه الحاج التونسي كما يواجه غيره حينما يصل إلى الأراضي الحجازية سواء عن طريق البـر، أم عن طريق البحر مشكلات مـتعددة منها صـعوبة التنقل في تلك الأراضي، وكـانت المياه [١] هي المسألة الرئيـسة التي تواجه جمـيع الحجـاج أثناء تنقلهم، ذلك أن طول مـسافة الطريق نـحو الأراضي المقدسة، والمدة التي تستغـرقها المسيرة جعلتا للماء أهمـية كبيرة على الرغم من حرص المسؤولين في الحـجاز على الاهتمام بهذه المسـألة، وذلك بحفر الآبار وتوفير المياه المعدة للشرب خاصة في الأماكن المكتظة بالحجاج، إلا أن المشكلة ظلت قائمة وخاصة في فصل الصيف حين تشتد الحرارة [٢].

ولم يكن التنقل آمنـًا بواسـطة الدواب وخاصة الجـمال التي كـان بعض الحجاج التونسيين يفـضلونها لكونها مريحة في السفر أكـثر من الحمير على الرغم من أن الحمـير أسـرع ومن ثم فهي أكـثر أمنـاً فكان الحجـاج ومنهم

---

(١) عانى الحجاج من صعـوبة كبيرة في المياه خاصة في ينبع وفي جدة، وكـان عليهم أن يدفعوا ريالاً مجيدياً لقربة ماء صغيرة .

P.R.O. Fo371/8354 -104927.P119.

خطاب من السفير البريـطاني في إستانبول أوكونور "Oconor" إلى وزير الخارجيـة البريطانية لانسدون "Lansdowne" في ٢٩/ ٤/ ١٩٢٢هـ الموافق ١٢/ ٧/ ١٩٠٤م .

(٢) الدقن، مرجع سابق : ٥٧

التونسيون يتعرضون للنهب من قطاع الطرق، وكانت أكثر الطرق المعرضة لذلك هي الطريق بين جدة ومكة[١]، ولتفادي مخاطر الطرق حرص بعض التونسيين على أخذ أسلحتهم معهم، كما أن السفن كانت تخصص أماكن لحمل الأسلحة الخاصة بالحجاج [٢].

يضاف إلى هذه المخاطر وإلى طول الطريق ووعورة المسالك وقلة المياه غلظة الجمالين الذين قد يشكلون مصدر قلق ورعب للحجاج. وهذا ما أشار إليه إبراهيم رفعت بقوله [٣] : «هؤلاء العربان يحافظون على الحجاج وعلى أمتعتهم متى غمروهم بالخيرات، أما من بخل عليهم بماله فيرونه العذاب ألوانًا».

وعملت الدولة العثمانية على التخفيف من مخاطر الطرق التي يتعرض لها الحجاج عمومًا فعنيت بتجهيز القلاع على طول طرق الحج وزودتها بالجنود، والأسلحة، وحفرت الآبار بجوارها ليتزود منها الجنود والحجاج[٤]، كما سعت إلى تقديم الهدايا والأعطيات للبدو وخاصة عن طريق أمير الركب الشامي [٥].

وكذلك فإن الحكومة المصرية بدورها كانت تخصص رواتب سنوية للبدو على طريق قافلة الحج المصري اتقاءً لهجماتهم التي قد تتعرض لها تلك القافلة [٦] ، ونظرًا لأن قافلتي الحج الشامي والمصري كانتا تخرجان

---

(١) صحيفة الحاضرة، ع ٢٨٣، س ٦، في عام ١٣٠٠هـ/ ١٨٨٣م.

(2) A.Q.D.M.S: T1882-1919 car128 Dos2 F 106(B46)

ملحق رسالة وزارة الداخلية الفرنسية إلى وزارة الشؤون الخارجية في ١٠/ ٩/ ١٣١٠هـ الموافق ٢٧/ ٣/ ١٨٩٣م.

(٣) رفعت، مصدر سابق ١ / ٦٨ .

(٤) الحلواني، مرجع سابق : ٢٣٩ .

(٥) الدقن، مرجع سابق : ٥٩ .

(٦) الحلواني، مرجع سابق : ٢٣٩ .

تحت حراسة مشددة فإن الحجاج التونسيين كانوا يفضلون غالبًا السير في ركبهما سواء في الذهاب أم العودة. هذا مع أن الحراسة المشددة والأعطيات لم ترد عن قوافل الحج هجمات البدو [١].

وإزاء تردي الحالة الأمنية في الحجاز لجأت الدولة العثمانية إلى تعيين ولاة أشداء في الحجاز من أمثال عثمان باشا نوري الذي تولى ولاية الحجاز للمرة الثانية[٢] عام ١٣١٠هـ/ ١٨٩٢م، فاهتم بمسائل الأمن فيه، والتخفيف من الصعوبات التي تواجه الحجاج على وجه الخصوص . ونشرت صحيفة الحاضرة مقالاً عنوانه[٣] «الإصلاحات الجديدة في ولاية الحجاز»، أوردت فيه تطمينًا للتونسيين عن وضع الأمن في الحجاز فذكرت : «منذ تولي دولة الوالي المشار إليه (عثمان باشا نوري) المرة الأخيرة، ونال بمقتضى الفرمان الشاهاني الأخير السلطة المطلقة، فلم يعارضه في أعماله معارض . . وبهذا صار في استطاعة الفرد الواحد أن يسير بجمله أو حماره في الطريق بين جدة ومكة مطمئن الخاطر ساكن الجأش بعد أن كان الركب الجامع يقطعها متوجساً خيفة».

ولم تمنع التطميناتُ الصحفية نفسها أن تشير في العام التالي إلى حادثة مخلة بالأمن لتنبه التونسيين إلى مخاطر الطرق في الحجاز، فذكرت [٤]: «وصل قطاع الطريق إلى درب جدة عام ١٣١١هـ / ١٨٩٤م فنهبوا ستة عشر جملاً غالبها لحجاج تأخروا بمكة . . وأطلقوا الرصاص على المسافرين» .

---

(١) المرجع نفسه : ٢٢٧ .

(٢) كانت المرة الأولى في المدة ١٢٩٩-١٣٠٣هـ/ ١٨٨٢-١٨٨٦م .

(٣) ٢٢٩، س ٧، في ١٩/ ٥/ ١٣١٠هـ الموافق ٨/ ١٢/ ١٨٩٢م .

(٤) ع ٢٨٣، س ٦، في ٢٩/ ٦/ ١٣١١هـ الموافق ٦/ ١/ ١٨٩٤م .

وتنبهت السلطات الفرنسية بعد فرض الحماية على تونس إلى مسائل الأمن في الحجاز، وبعث قنصل فرنسا في جدة خطاباً [١] إلى وزير الشؤون الخارجية في ديفال (Develle) بتاريخ ١١/ ١٠/ ١٣٠٩هـ الموافق ٨/ ٥/ ١٨٩٢م تحدث فيه عن قيام قطاع الطرق في الحجاز باحتجاز قافلة حجاج مكونة من خمس مئة حاج بنغالي كانت متجهة نحو مكة، وقد تمت العملية في مكان يبعد عن جدة مسيرة ثلاث ساعات . وعلق القنصل الفرنسي على هذه الحادثة بقوله [٢] : «هذه هي المرة الأولى التي يحتجز فيها البدو الحجاج، حيث إنهم في السابق كانوا يغيرون على القوافل، ويسلبون الحجاج ما عندهم، ثم يدعونها تواصل طريقها، لكن هذه المرة تطورت أعمالهم إلى الاحتجاز». وأشار القنصل [٣] إلى أن القافلة كانت محملة ببضائع قيمتها عشرون ألف دولار وصرات نقود مختومة أرسلها التجار إلى مكة، ويقال: إن البدو قد استولوا على ثمانية جمال محملة بذخيرة البارود .

وحرصت السلطات الفرنسية في تونس على تحذير التونسيين من مخاطر الطريق، وَرَدَ ذلك في خطاب[٤] المقيم العام الفرنسي في تونس شارل روفيي (Sharl Rouvie) (١٣١٠ - ١٣١٢هـ / ١٨٩٢ - ١٨٩٤ إلى وزير الشؤون الخارجية في باريس ديفال (Develle) ذكر فيها: «سينصح الحجاج فرديًا بألا يسافروا إلا في مجموعات كبيرة، وأن يتخذوا احتياطاتهم كي لا يتعرضوا إلى هجمات ممكنة يشنها عليهم البدو الأعراب» .

---

(1) A.Q.D.M.S: T1882-1919 car128 Dos3 F 2, (B46).

خطاب من قنصل فرنسا بجدة إلى وزير الخارجية الفرنسية .

(2) Ibid.

(3) Ibid.

(4) A.Q.D.M.S: T1882-1919 car128 Dos2 F 116, (B46).

ولفت نظر القنصل الفرنسي في جدة استمرار تردي الأوضاع الأمنية بعد تراخي قبضة الولاية عليه فتحدث القنصل الفرنسي في جدة في رسالة إلى السفير الفرنسي في إستانبول عام ١٣٢٨هـ / ١٩١٠م عن ذلك بقوله [1]: «إن اختلال الأمن في طرقات الحجاز في تزايد مستمر، وتعد كل الوسائل مشروعة لسلب الحجاج أموالهم أو حتى أمتعتهم أو ماشيتهم عندما يموتون أثناء السفر».

(د) تدخل سلطات الحماية الفرنسية في تونس بمسألة حج التونسيين :

كان من جملة الأمور التي تدخلت السلطات الفرنسية فيها بعد فرض الحماية على تونس مسألة الحج، فأخذت تضع معوقات أمام التونسيين الراغبين في أداء هذه الفريضة الإسلامية نظرًا لما لها من دور في تقارب المسلمين وتكاتفهم، وهو أمر تخشاه السلطات الفرنسية في تونس، خاصة وهي تدرك مدى عمق الشعور الديني في نفوس المسلمين وما قد يثيره هذا من مشكلات في سائر مستعمراتها في أفريقيا . وقد أشار المقيم العام الفرنسي في تونس بول كامبون Cambon Roul في خطابه [2] إلى وزير الخارجية الفرنسي في عام ١٣٠٣هـ/ ١٨٨٦م إلى مسألة السفر إلى مكة، وما يمكن اتخاذه من خطوات بشأن تنظيم مسألة حج التونسيين إلى مكة في ظل نظام الحماية الفرنسية على تونس، وذكّر هذا الخطاب بالقرار الذي أصدرته السلطات الفرنسية عام ١٣٠١هـ/ ١٨٨٤م الذي يحدد الشروط الأساسية لراغبي الحج من التونسيين .

وبعد أن كان راغب الحج يكتفي قبل فرض الحماية بتقديم طلب الإذن

---

(1) A.N.T,S.c.Car32,Dos 2/3.

خطاب من القنصل الفرنسي بجدة إلى سفير الجمهورية الفرنسية في إستانبول في ١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م.

(2) A.Q.D.M.S: T1882-1919 car127 Dos3 F 116, (B46).

بالحج إلى الوزير الأكبر أصبح عليه أن يتقيد بالشروط الجديدة الآتية : أن يكون تحرير الجوازات باللغتين العربية والفرنسية، وأن يوافق الكاتب العام للحكومة الفرنسية في تونس على تأشيرة الحج، وألا تمنح جوازات السفر إلى مكة إلا لمن يثبت قدرته ماديًا على السفر ذهابًا وإيابًا وذلك لمنع ذهاب المعوزين التونسيين إلى الحج حتى لا تضطر الحكومة التونسية إلى إعادتهم على نفقتها بعد مدة قد تطول أو تقصر . وقامت السلطات الفرنسية في تونس بتعميم هذه الإجراءات بواسطة منشور الوزير الأول المؤرخ في ١٠/ ٧/ ١٣٠٠هـ الموافق ١٦/ ٥/ ١٨٨٣م والصادر في صحيفة الرائد التونسي[1] بتاريخ ١٨/ ٧/ ١٣٠٠هـ الموافق ٢٤/ ٥/ ١٨٨٣م .

وقد وجدت السلطات الفرنسية في تونس أن إثبات القدرة على الحج ذهابًا وإيابًا ليس ضمانًا كافيًا يعفيها من التزاماتها المالية نحو بعض الحجاج التونسيين، ولهذا أصدرت قرارات أخرى في عام ١٣١١هـ / ١٨٩٤م [2] من أهمها إلزام كل حاج مسلم يرغب في الحج تأكيد ما يثبت ملكيته لمبلغ ألف فرنك، وأن يقدم كفيلاً يتولى إذا اقتضى الأمر تسديد السلفة التي قد تقدم للحاج، وأوجبت السلطات الفرنسية أن يتم هذا الأمر أمام رئيس البلدية في المنطقة التي يقيم فيها راغب الحج، ويسجل ذلك في رخصة السفر التي تسلم إلى الحاج المتوجه إلى ميناء الركوب .

وكانت رخصة السفر تستبدل في ميناء الركوب بجوازات سفر يسلمها الوالي، أو نائبه، وتسجل عليها بالأحرف العربية الأسماء والأعمار ومقر السكنى مع الاحتفاظ بالبيانات العادية الواردة باللغة الفرنسية، ولا تسلم

---

(1) Ibid.

(2) A.Q.D.M.S: T1882-1919 car128 Dos2 F 105, (B46).

ملحق رسالة وزارة الداخلية الفرنسية إلى وزارة الخارجية في ١٠/ ٩/ ١٣١٠هـ الموافق ٢٧/ ٣/ ١٨٩٣م، والملحق بعنوان «توجيهات بشأن الحج إلى مكة».

جوازات السفر للراغب في الحج إلا بعد أن يستصدر راغب الحج تذكرة ذهاب وإياب من شركة ملاحة فرنسية [١] .

وهكذا فإن السلطات الفرنسية في تونس قد نظمت الحج حسب مرئياتها، وبطريقة قللت من فرص الحج لأولئك الذين لا تمكنهم أوضاعهم من تطبيق هذه الشروط.

(هـ) الأمراض التي كان يتعرض لها الحجاج التونسيون :

من الطبيعي أن يتعرض الحجاج ومن بينهم التونسيون في فترة الحج لأمراض متعددة، ومنها أمراض البرد التي كانت تكثر بين الحجاج عامة لو توافق الحج في فصل الشتاء، ولو توافق الحج في فصل الصيف كان الحجاج يتعرضون لضربة الشمس[٢] . يضاف إلى ذلك ظهور الأمراض المعدية بينهم، وازدياد انتشارها مع كثرة أعداد الحجاج، وكان من هذه الأمراض «حمى التيفوئيد»، كما أن التهاب الأمعاء الغليظة كان من الأمراض الشائعة بين الحجاج [٣].

وعلق محمد بن عثمان السنوسي في رحلته إلى الحجاز عام ١٢٩٩هـ/ ١٨٨٢م على ما يصيب الحجاج بقوله [٤]: «أغلب الحجاج يتعود في مدة سفره للحج على أكل المجففات من الخبز وغيره فتحصل لأبدانهم رياضة مع ضعف تفضي إليه المجففات وحالة السفر، فإذا كانوا في يوم العيد بمنى ذبحوا ضحاياهم، وتناولوا لحومها بشره زائد . وربما تساهلوا في شأن طبخها فتؤثر فيهم آثارًا غير ملائمة للصحة».

---

(1) Ibid.

(٢) الدقن، مرجع سابق : ٥٧ .
(٣) السنوسي، الرحلة : ٢ / ١٧٩ .
(٤) المصدر نفسه، الجزء نفسه: ١٧٠

إلا أن أبرز الأمراض انتشارًا في موسم الحج وأكثرها خطورة كان مرض الكوليرا وهذا المرض هو الذي دفع السلطات الفرنسية إلى حظر الحج في سنوات متعددة، فمثلاً: منع حج التونسيين عام ١٣٠٧هـ/ ١٨٩٠م بعد أن وصلت المقيم العام الفرنسي بتونس «ماسيكو Massicoult» برقية [١] من وزير الشؤون الخارجية الفرنسية في ١٥/ ٩/ ١٣٠٦هـ الموافق ١٥/ ٥/ ١٨٨٩م، يخبره فيها بالبرقية التي تلقاها من قنصل فرنسا بجدة والتي ذكر فيها القنصل أن في الحجاز مجاعة توشك أن تقع، وأن هناك مخاطر وباء الكوليرا، ويبدي وزير الشؤون الخارجية «ماسيكو» رأيه في هذا الخبر بقوله[٢]: «وهو ما قد يجبرنا هذه السنة على تعليق التراخيص التي تسلم للحجاج، وتخول لهم السفر إلى الجزيرة العربية» .

ورد المقيم العام على برقية وزير الخارجية الفرنسي بقوله [٣] : «بدأ يرد علينا عدد كبير من مطالب العبور إلى مكة، ويتوافد المسافرون إلى حلق الوادي وتونس، وقد وقع لهذا الغرض استئجار سفينة من مرسيليا (جنوب فرنسا) وقد وصلت ولن يتأخر وصول سفن أخرى، وأكون ممتنًا لمعاليكم أن تتفضلوا بإعلامي إن كان من المناسب بسبب التخوفات التي عبرتم عنها في برقيتكم بتاريخ ١٥مايو ١٨٨٩م (١٥/ ٩/ ١٣٠٦هـ) إلغاء تسليم جوازات السفر، وإيقاف الحجاج القادمين من الجزائر، وإعلام شركة النقل بذلك». وهكذا أصدرت السلطات الفرنسية في ذلك العام قرارًا بحظر سفر

---

(1) A.Q.D.N.S: T1882-1919 car128 Dos2 F 105, (B46).

خطاب من وزير الشؤون الخارجية المقيم العام بتونس في ١٥/ ٩/ ١٤٠٦هـ الموافق ١٥/ ٥/ ١٩٨٩م.

(2) Ibid.

(3) A.Q.D.N.S: T1882-1919 car127 Dos1 F 72, (B46).

خطاب من المقيم العام إلى وزير الشؤون الخارجية في باريس في ٣/ ١٠/ ١٣٠٦هـ الموافق ٢/ ٦/ ١٨٨٩.

التونسيين إلى الحجاز بسبب هذا المرض [١] .

ونتج عن هذا الحظر استياء شديد لدى المسلمين في تونس وفي غيرها من البلاد الإسلامية، وذلك تعاطفًا مع إخوانهم التونسيين . وأشار إلى ذلك وزير الشؤون الخارجية الفرنسي في خطاب [٢] وجهه إلى المقيم العام بتونس " ماسيكو Massicault في ٢/ ١٠/ ١٣٠٧هـ الموافق ٢١/ ٥/ ١٨٩٠م ذكر فيه «لقد لمست ما تركه الحظ من أثر سيئ لدى أتباعنا من العرب». وهذا ما أكده قنصل فرنسا بجدة عن «الانطباع السيئ الذي تركه في العالم الإسلامي حظر الحج إلى مكة على الجزائريين، والتونسيين، والذي اتخذ خلال السنة الماضية (١٣٠٦هـ/ ١٨٨٩م)» [٣].

وتكرر الأمر نفسه في العام التالي ١٣٠٧هـ/ ١٨٩٠م حين تواترت الشائعات عن وجود مرض الكوليرا بالموصل [٤]، واقترحت اللجنة الاستشارية للصحة في باريس حظر الحج إلى مكة في ذلك العام[٥]، واتفق المقيم العام الفرنسي في تونس في رأيه مع وزير الشؤون الخارجية الفرنسي بخصوص الأثر السيئ الذي قد يتركه فرض الحظر إلى مكة في تونس وفي كل البلاد الإسلامية [٦] : «وإني لا أستطيع إلا أن أشاطر وجهة نظر

---

(١) صحيفة الزهرة، ع ٨٩، س ٢، في ٢٢/٩/١٣٠٨هـ الموافق ١٣/ ٤/ ١٨٩١م .

(2) A.Q.D.M.S: T1882-1919 car127 Dos1 F 93, (B46).

خطاب من وزير الشؤون الخارجية الى المقيم العام بتونس في ٢/ ١٠/ ١٣٠٧هـ الموافق٢١/ ٥/ ١٨٩٠م .

(3) A.Q.D.N.S: T1882-1919 car127 Dos1 F 121, (B46).

تقرير أعده وزير الداخلية الفرنسي كونستانس CONSTANS في ١١/ ١١/ ١٣٠٧هـ الموافق ٢٨/ ٦/ ١٨٩٠م وأشار إلى رأي قنصل فرنسا المذكور أعلاه.

(4) Ibid.

(5) Ibid.

(6) A.Q.D.N.S : T1882-1919 car126 Dos1 F 99, (B46).

خطاب من المقيم العام ماسيكو Massicault إلى وزير الشؤون الخارجية الفرنسية في ٢٥/ ١٠/ ١٣٠٧هـ الموافق ١٣/ ٦/ ١٨٩٠م .

معاليكم بخصوص الأثر السيئ الذي يتركه في تونس وفي كل البلاد الإسلامية تكرار حظر الحج سنة ١٨٩٠م (١٣٠٧هـ) مثلما جرى في السنة الماضية». وأضاف المقيم في خطابه إلى وزير الشؤون الخارجية: «ومن جهة أخرى وكما لحظتم ذلك معالي الوزير.. فإنه من الأكيد أن المسلمين المصممين على إتمام هذا الأمر الديني ينجحون في مغادرة تونس على الرغم من الحظر الذي قد يفرض عليهم، وأن خروج الحجاج وعودتهم سرًّا وبطريقة ملتوية يسبب من ناحية الصحة العامة أكبر الأضرار مقارنة مع تلك التي تنجز من تسليم جوازات سفر للأهالي الذين يكونون معروفين، ويمكن إخضاعهم للمراقبة بعد عودتهم».

وهكذا فإن المقيم العام كان يخالف ما اقترحته اللجنة بخصوص حظر الحج إلى مكة في ذلك العام ١٣٠٧هـ/ ١٨٩٠م.

وقد أعدت الإدارة السياسية في باريس مذكرة درست فيها موضوع الحج إلى مكة عام ١٣٠٧هـ / ١٨٩٠م، وتوصلت إلى أن الترخيص للحجاج التونسيين بالتوجه إلى مكة لا يسبب أي ضرر من ناحية الصحة العامة إذا اتخذت الاحتياطات الصحية المطلوبة، إلا أن الإدارة رأت أن الاحتياطات المتخذة في الجزائر تقدم ضمانًا أكثر من تلك التي كانت تقدم في تونس، ولذا فإن على الحكومة الفرنسية أن ترخص للجزائريين فقط بالحج، لأن التنظيم الصحي في الجزائر كان أكثر تطورًا منه في تونس[1]. وطبقًا لذلك تقرر حظر الحج إلى مكة من تونس عام ١٣٠٧هـ/ ١٨٩٠م.

وبحلول عام ١٣٠٨هـ/ ١٨٩١م أبرق المقيم العام الفرنسي بتونس ماسيكو إلى وزير الشؤون الخارجية الفرنسية ريبو«Ribot» في

---

(1) A.Q.D.N.S: T1882-1919 car127 Dos1 F 122, (B46)
تقرير أعده وزير الداخلية الفرنسي في ١١/ ١١/ ١٣٠٧هـ الموافق ٢٨/ ٦/ ١٨٩٠م.

١٣/٨/١٣٠٨هـ الموافق ٢٣/٣/١٨٩١م شارحًا رأيه في مسألة الحج عام ١٣٠٨هـ/ ١٨٩١م بأن(١) «حظر الحج في عامي ١٨٨٩م و١٨٩٠م/ ١٣٠٦هـ، ١٣٠٧هـ، قد أثر سلبًا في أتباعنا من العرب الذين لا يفهمون الاستثناء الذي هم عرضة له في حين أن بقية القوى الأوربية تترك لرعاياها المسلمين كل الحرية للقيام بسفرهم المبرور. وقد لوحت الصحف المشرقية المعادية لفرنسا بتلميحات مغرضة حول هذا الموضوع، وهو ما أثار انطباعًا سيئًا في الجزائر وتونس، ولكل هذه الأسباب أعتقد أنه يجب علينا أن لا نحظر الحج إلى مكة هذه السنة إلا إذا كان هناك ضرورة قصوى بسبب الحالة الصحية بالمشرق» .

وعملت السلطات الفرنسية على التثبت من الوضع الصحي في الحجاز عام ١٣٠٨هـ/ ١٨٩١م، وقررت أنه لا داعي لمنع سفر التونسيين إلى الحجاز في ذلك العام بشرط اتخاذ إجراءات وقائية وهي عدم السماح لأحد بالتوجه إلى الحجاز إلا على متن سفينة شركة فرنسية، وإلزام البواخر الفرنسية المتجهة للحجاز المخصصة لنقل الحجاج بضرورة وجود طبيب في كل واحدة منها، ووجوب توافر وسائل الوقاية في تلك البواخر، كأن تحتوي على مستلزمات النظافة مع وجوب خضوع الحجاج إلى كشف صحي عند عودتهم (٢) .

إلا أن هذه الإجراءات الاحترازية التي لجأت إليها السلطات الفرنسية لم تكن مجدية تمامًا ذلك أن وباء الكوليرا لا يمكن الكشف عنه مبكرًا، وقد تعرض التونسيون لهذا المرض في عام ١٣١٠هـ/ ١٨٩٣م، وهو العام الذي

---

(1) A.Q.D.N.S: T1882-1919 car127 Dos1 F 216, (B46)

خطاب من المقيم العام في تونس إلى وزير الشؤون الخارجية في باريس ١٣/٨/١٣٠٨هـ الموافق ٢٣/٣/١٨٩١م.

(٢) صحيفة الزهرة، ع ٨٩، س ٢، ٢٢/٩/١٣٠٨هـ الموافق ١٣/٤/١٨٩١م .

سمحت فيه السلطات الفرنسية بالحج، ولم تكن تلك السلطات قد تلقت ما يشير إلى ظهور هذا الوباء في مكة، وبلغت أعداد الحجاج التونسيين المسجلين في ذلك العام نسبة تفوق العام السابق(١). ولم يُعلن رسمياً عن وباء الكوليرا بمكة في ذلك العام إلا قبل عيد الأضحى بأسبوعين تقريباً، أي في ٢٤/ ١١/ ١٣١٠هـ الموافق ٨/ ٦/ ١٨٩٣م، وهي مدة لا تكفي للسلطات الحكومية في تونس في اتخاذ أية إجراءات لمنع الحج إذ كان الحجاج قد غادروا تونس في وقت مبكر .

وكان في اعتقاد قنصل فرنسا في جدة غيو «Guiot» أن وباء الكوليرا قد دخل مكة عن طريق البر، ويعلل ذلك بأمرين:

أولهما : أن القادمين عبر قوافل الحجاج اليمنيين يمثلون نسبة ثلاثة إلى واحد مقارنة مع القادمين عن طريق البحر.

وثانيهما: أنه لم تسجل قبل يوم ١٥/ ١٢/ ١٣١٠هـ الموافق ٢٩/ ٦/ ١٨٩٣م(٢) أية حالة وباء عن الكوليرا بجدة، وفي رأيه أن الكوليرا

(١) بلغ عدد الحجاج المغاربة - بمن فيهم التونسيون - القادمين بحراً عام ١٣٠٩هـ/ ١٨٩٢م حوالي ثلاثة آلاف وثمان مئة وخمسة وثلاثين حاجاً بينما وصلت أعدادهم عام ١٣١٠هـ/ ١٨٩٣م إلى حوالي خمسة عشر ألفاً وسبع مئة وواحد وأربعين حاجاً . وقد عزا القنصل الفرنسي بجدة أسباب زيادة أعداد الحجاج المغاربة في ذلك العام إلى أمور عدة منها توافق صعود عرفات يوم جمعة، وتحسن طريقة نقل الحجاج من تونس، وتزايد الاهتمام براحة الحجاج، وقرار شيخ الطريقة السنوسية (ربما كان يقصد محمد المهدي زعيم السنوسيين في برقة) بالحج في ذلك العام .

A.Q.D.N.S: T1882-1919 car441 Dos1 F 13, (B281).

إحصاءات قدمتها الإدارة الصحية في الحجاز إلى القنصل الفرنسي بجدة (بدون تاريخ) .

(2) A.Q.D.N.S: T1882-1919 car441 Dos2 F 24, (B281

تقرير من أربعة أجزاء قدمه القنصل الفرنسي بجدة «غيو Giot» إلى وزارة الشؤون الخارجية الفرنسية في ١٣/ ١٠/ ١٣١٠هـ الموافق ٢٩/ ٤/ ١٨٩٣م بعنوان «الطوائف الدينية - الحج إلى مكة -».

لم تصل عن طريق البحر إذ لو كان الأمر كذلك لتم الكشف عن وجود الوباء بجدة، وهي المدينة التي يتوافد الحجاج عليها منذ شهر شوال من كل الأنحاء بعد أن تكون الأسفار البحرية الطويلة قد أعيتهم، يضاف إلى ذلك أن الوباء قد ظهر قبل خمسة عشر يوماً من العيد في وقت لم تكن فيه الأضاحي قد ذبحت بعد كما يحدث في أيام العيد .

وقد أوضح غيو «Giuot» أن المرض قد ازداد شدة مع أيام العيد في المدة ما بين ٩ و١٤/ ١٢/ ١٣١٠هـ الموافق ٢٣ و ٢٨/ ٦/ ١٨٩٣م، وقدرت عدد الوفيات بين عرفات ومنى ما يناهز خمسة وثلاثين ألفاً من أصل ما يقارب أربع مئة ألف حاج [١]. وفي رأي غيو «Giuot» أن ارتفاع درجة الحرارة التي شهدتها مكة في ذلك العام هو أحد أسباب انتشار المرض، وكانت درجة الحرارة بلغت في جدة في ذلك العام ستة وأربعين درجة[٢]. ولا شك أن درجة الحرارة في مكة تفوق ذلك لشدة الزحام لأن الداخل أكثر حرارة من الساحل [٣] .

وقد عملت السلطات الرسمية في الحجاز على مواجهة انتشار وباء الكوليرا للسنوات التالية فأقامت أماكن مخصصة على ساحل البحر الأحمر

(١) قدر القنصل الفرنسي بجدة في تقريره المشار إليه سابقاً أعداد الوفيات بين القادمين بحراً من الحجاج التونسيين والجزائريين بسبب الكوليرا بـ " ثلاثة آلاف وخمس مئة وخمسة وعشرين حاجاً "وقد توصل إلى هذا الرقم من خلال المقارنة بين أعداد الحجاج عند الوصول إلى جدة وأعدادهم حين خروجهم من ينبع . ومما يجدر ذكره أن ذلك الرقم لم يكن يعني أن جميع هؤلاء قد توفوا، وأن وفاتهم كانت بسبب وباء الكوليرا إذ قد يكون منهم من تخلف عن العودة لأسباب متعددة كالرغبة في العودة مع ركب الحج المصري أو الشامي، أو الرغبة في البقاء في الحجاز للمجاورة أو ما إلى ذلك، وقد يكون منهم من توفي لأسباب مختلفة عدا مرض الكوليرا كأن تكون الوفاة بسبب شدة الزحام أو ضربة الشمس أو غيره .

(2) Ibid F 49.

(3) Ibid, F 127, 128.

من أجل الكشف على الحجاج من الناحية الصحية، وأنشأت ما عُرف بـ «الحجر الصحي»، وقد أسهمت الحكومة المصرية في إيجاد هذا النظام [١]، وكان أول محجر تم إنشاؤه في الحجاز محجر الطور [٢] الذي أُكملت الاستعدادات فيه عام ١٣٠٩هـ / ١٨٩٢م كما تم إنشاء محاجر أخرى مثل محجر قمران [٣] .

ومحجر الطور على سبيل المثال هو عبارة عن مخيمات متباعدة بشكل ملائم وتتوافر فيها المياه بكميات كافية . وكان يواجه الحجاج عمومًا ومنهم التونسيون اكتظاظ المحاجر في بعض الأعوام التي تشهد زيادة غير متوقعة في أعداد الحجاج، وهذا ما كان يلزم الحجاج بالبقاء على متن السفن لمدة تتراوح بين يومين إلى عشرة أيام حتى يُسمح لهم بالنزول للكشف عليهم، ثم صعود المختصين لتطهير السفينة. وهكذا كان الحجاج يعانون من الانتظار في المحجر الصحي، وكان يزيد الأمر سوءًا احتمال أن يكون من بين الحجاج من يحمل وباء الكوليرا [٤]

---

(١) البتوني، مصدر سابق: ٣٠٧

(٢) ويسمى أيضًا عيون موسى، وهو مكان يقع على شاطئ خليج السويس، وينحدر باتجاه البحر انحدارًا يسيرًا، وتتوافر فيه المياة بكميات كافية، ويهب عليه نسيم البحر مما يُسهم في تطهيره.

A.Q.D.N.S: T1882-1919 car441 Dos2 (Vol3 F 127-128, (B281)

تقرير في أربعة أجزاء قدمه القنصل الفرنسي بجدة «غيو Giuot» إلى وزارة الشؤون الخارجية الفرنسية في ١٣/ ١/ ١٣١٠هـ الموافق ٢٩/ ٤/ ١٨٩٣م . بعنوان «الطوائف الدينية - الحج إلى مكة-» .

(٣) أُنشئ هذا المحجر في جزيرة قمران الواقعة قرب الساحل الجنوبي للبحر الأحمر . وذلك بهدف التفتيش الصحي على السفن والحجاج القادمين إلى جدة من جهة الجنوب .
كردي، مرجع سابق : ٢ / ٢٣٢ .

(4) A.Q.D.N.S: T1882-1919 car441 Dos2 (Vol2 F 131-128, (B281)

تقرير في أربعة أجزاء قدمه القنصل الفرنسي بجدة «غيو Giuot» إلى وزارة الشؤون الخارجية الفرنسية في ١٣/ ١/ ١٣١٠هـ الموافق ٢٩/ ٤/ ١٨٩٣م . بعنوان «الطوائف الدينية الحج إلى مكة» .

وعلى الرغم من تشدد السلطات الفرنسية في منع الحج إلى مكة في بعض الأعوام خشية وصول مرض الكوليرا إلى تونس عن طريق الحجاج، إلا أنه اكتُشف سفر عدد من الحجاج خفية لقضاء فريضة الحج، واتجه بعضهم إلى الإسكندرية بحجة مزاولة التجارة مع أنهم كانوا يقصدون التوجه إلى الحج [١]، كما اتضح للسلطات الفرنسية أن بعض التونسيين يغادرون تونس في موسم الحج من المراسي الصغيرة المنتشرة على ساحل البحر المتوسط وبعدها يركبون مراكب أخرى إلى طرابلس الغرب، أو بنغازي، ومن هناك يذهبون إلى الحج [٢].

وهذا ما أشار إليه خطاب المقيم العام الفرنسي بتونس ماسيكو«Massicault» إلى وزير الشؤون الخارجية الفرنسية في ٢٥/ ١٠/ ١٣٠٧هـ الموافق ١٣/ ٦/ ١٨٩٠م .

ولجأت السلطات الفرنسية في تونس من أجل الحد من هذه التجاوزات إلى اتخاذ إجراءات رادعة فأصدرت أوامرها إلى عمالها (قادتها أو نوابها في المدن التونسية) بوجوب إلقاء القبض على من يثبت سفره بهذه الطريقة وذلك بمجرد رجوعه إلى بلاده، ومن ثم يحال على المجلس العدلي في مدينته لمحاكمته [٣] وذلك وفقًا للأمر الصادر في ٩/ ١٠/ ١٣١٤هـ الموافق١٣/ ٣/ ١٨٩٧م، والمتعلق بمنع الأهالي التونسيين من السفر لخارج المملكة دون جواز سفر، واتخاذ الإجراءات اللازمة في حقهم وحق من

---

(١) أ، و، ت، س . هـ، ك ٧٥، م ١/ ١٥، ق: بدون خطاب الوزارة الكبرى إى إدارة المراقبة المدنية بمدينة سوسة في ٥/ ١٠/ ١٣١٦هـ الموافق ١٥/ ٢/ ١٨٩٩م.

(2) A.Q.D.N.S: T1882-1919 car127 Dos1 F 132, (B46)

خطاب من وزير الداخلية الفرنسية إلى وزير الشؤون الخارجية في ١٨/ ١٢/ ١٣٠٧هـ الموافق ٤/ ٨/ ١٨٩٠م.

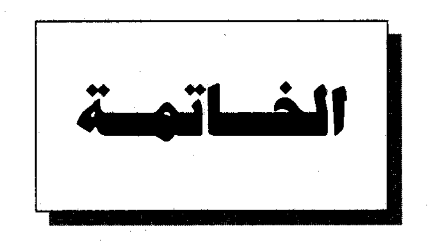
(٣) أ، و، ت، س . هـ، ك ٧٥، م ١/ ١٤، ق: بدون ، خطاب من الوزارة الكبرى إلى عامل مدينة ورغمه في ٢٥/ ١١/ ١٣٢١هـ الموافق ٢/ ٤٢/ ١٩٠٤م.

يسهل لهم ذلك من الموظفين الإداريين [١].

ويتضح مما سبق أن الحجاج التونسيين لم ينفردوا وحدهم في مواجهة المصاعب خلال رحلتهم إلى الحجاز لتأدية مناسك الحج، إلا أنه لا بد من الإشارة إلى أن كثيراً من الصعوبات التي كانت تعترض طريق الحجاج بوجه عام قد تقلصت تدريجياً بمرور الوقت بعد أن تطورت طرق المواصلات، وزاد الاهتمام بقضايا الأمن، وتحسين النواحي الصحية .

(١) أ، و، ت، س . هـ، ك ٧٥، م ١/ ١٣، ق: بدون، خطاب من الوزارة الكبرى إلى عمال البلاد التونسية (عدا بنزرت وسوسة وصفاقس وقابس) في ١٩٢١/١١/٢١هـ الموافق ١٩٠٤/١/٩م.




الخاتمة



الخاتمـــة

أتممت - بعون من الـله وتوفيقـه - هذه الدراسة التي تضـمنت صلات تونس بالحـجاز في الفـتـرة ١٢٥٦-١٣٢٦هـ التي توافق ١٨٤٠-١٩٠٨م، ومن خلال الفصول التي قَدَّمَتْها هذه الدراسة أمكن الوصول إلى نتائج عدة يمكن إجمالها فيما يأتي :

(أ) كان للأوضاع الـسياسية في تـونس والحجاز تأثيرها في صلات كل منهما بالأخـرى، فقد حدت تبـعيتهمـا لسلطة الدولة العثمانيـة من إمكانية إيجاد صـلات سياسـية بين البلدين، واقتـصرت تلك الصـلات على تبادل التهـاني والتبـريكات في المناسبـات الرسمـية بين بايات تونس وأمـراء مكة المكرمة، كـما أن الأوضاع السـياسيـة التي كانت تمر بهـا تونس على وجه التحديد في النصف الثـاني من القرن الثالث عشر الهجـري / التاسع عشر الميلادي، وهي أوضـاع كانت تحكمها ظـروف اقتصادية مـتردية، اضطرت تونس إلى الإذعان للضـغوط الأجنبية التي انتـهت بفرض الحماية الفـرنسية عليهـا عام ١٢٩٨هـ/ ١٨٨١م . وكان لهذه الأوضـاع السياسيـة تأثيرها في النواحي الحـضارية في تونس، ومن ثم كـان لها انعكاسـاتها على صـلاتها بالحجاز في جميع النواحي : الثقافية، والاقتصادية، والاجتماعية .

وقد مر الحجاز في الفترة نفسها بظروف سياسية متقلبة نتجت عن عوامل متشـابكة، منها : أطماع مـحمد علي باشا والي مـصر ١٢٢٠-١٢٦٥هـ/ ١٨٠٥-١٨٤٩م التوسـعية في الحـجاز، ثم حرص الدولـة العثمـانية على استعـادة سيطرتها على الحجاز، وأخيـرًا رغبة بريطانيا في إعادة تبـعية تلك المنطقة لسلطة الدولة العثـمانية الضعيفة، ليس حـرصاً على مصلحة الدولة العثمانية، بل لإحـساسها بأهمية موقع الحجاز الإسـتراتيجي بالنسبة لطريق بريطانيـا الموصل إلى الهند؛ ولأهميـته الاقـتصادية أيضـًا بالنسبة لـلسفن

البريطانية التي كانت تجد في جدة الملجأ والوقود، إضافة إلى ما تجده بريطانيا في الحجاز من رواج لتجارتها .

وبعودة الحجاز سلمياً إلى سلطة الدولة العثمانية عام ١٢٥٦هـ/ ١٨٤٠م أخذت تشدد قبضتها على المنطقة مستعينة من جهة بسلطة الولاة العثمانيين الذين تم نقل مركزهم إلى مكة، ومن جهة أخرى بإثارة التنافس بين الأشراف فيما بينهم والتنافس بينهم وبين الولاة، وهذه الأجواء أوجدت في الحجاز بيئة سياسية غير مستقرة انعكست على البلاد في مختلف النواحي الحضارية : الثقافية، والاقتصادية، والاجتماعية، وكان لذلك تأثير في صلات تونس بالحجاز لا سيما في تلك النواحي.

(ب) **حظيت الصلات الثقافية بين تونس والحجاز** بوجود ملموس أكثر من الصلات السياسية، وشجع على ذلك تَقاربٌ إلى حد ما في الأجواء الثقافية بين البلدين، ساعد عليه انتشار دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب السلفية في تونس على الرغم من مساعي المسؤولين في الحدِّ منها تقرّباً إلى الدولة العثمانية، وكان يقابل ذلك انتشار على نحو محدود للمذهب المالكي والطرق الصوفية في الحجاز، وكان لوجود المذهب الحنفي في كلا البلدين لكونه المذهب الرسمي للدولة العثمانية أثره في تعزيز التبادل الثقافي بين تونس والحجاز .

وقد تمثل هذا التبادل في وجوه عدة، منها : مناقشة الكثير من المسائل العلمية، وتبادل الإجازات العلمية، وتناقل الأخبار والآراء وغيرها، وبرز ذلك التبادل الثقافي بصورة أوضح من خلال ما أورده بعض العلماء التونسيين من انطباعات سجلوها في مؤلفاتهم عن رحلتهم إلى الحج . وكان للحج دوره الأكبر في دعم الصلات القائمة بين البلدين، فمن أجل تأدية فريضة الحج قدم الكثير من علماء تونس كغيرهم من علماء العالم

الإسلامي لزيارة الأماكن المقدسة والالتقاء بعلمائها، وتبادل الآراء العلمية والإجازات . وكان لهذا كله دور في إثراء الحياة العلمية في تونس والحجاز، فقد كان العلماء التونسيون يعودون إلى بلادهم بعد أداء فريضة الحج وهم يحملون حصيلة علمية ثرية يستفيد منها طلبة العلم في تونس، هذا في حين كان طلبة العلم في الحجاز يتلقون المحاضرات والإجازات العلمية من عدد من علماء تونس في موسم الحج .

(ج) **عاشت تونس والحجاز** على الرغم من اختلاف الظروف أوضاعاً اقتصادية متشابهة إلى حد ما في نواح عدة . فقد تركزت الأعمال الحرفية بأيدي السكان المحليين الذين واجهوا منافسة البضائع المستوردة، ولم تكن التجارة الخارجية في كلا البلدين بأيدي أهاليها . ومع ذلك فقد لحق بأوضاع البلدين الاقتصادية بعض الاختلاف حين خضعت تونس للاحتلال الفرنسي وأخذت السلطات الاستعمارية توقع ممارساتها التعسفية على التجار المحليين، فعانى أولئك من عدم القدرة على تصريف منتجاتهم في ظل المنافسة الأجنبية . ومع أنه بتعذر الوصول إلى ما يثبت حدوث تبادل تجاري بين تونس والحجاز في تلك الفترة إلا أن بعض الدلائل أشارت إلى وجود روابط تجارية تجلت بشكل واضح في موسم الحج، ويبدو أن ضعف الصلات التجارية بين تونس والحجاز يعود إلى ما كانت تعانيه تونس حتى قبل فترة الحماية الفرنسية من الهيمنة الاقتصادية الأوربية، وزادت الأوضاع سوءاً بعد فرض الحماية على تونس عام ١٢٩٨هـ/ ١٨٨١م، فقد سيطرت السلطة الفرنسية على الاقتصاد التونسي ووجهته بما يتلاءم مع مصالحها وعلاقاتها بالدول الأوربية . ولكنّ أمراً مهماً ظل يربط تونس بالحجاز من الناحية الاقتصادية وهو سعي المسؤولين التونسيين من أجل الحفاظ على الأوقاف التونسية، وإرسال جزء من إيراداتها إلى الحجاز على شكل صرة، وأسهم هذا في دعم الحجاز من الناحية الاقتصادية، كما ساعد السلطة

الحجـازية على مد العـون للمحـتاجين، والأخـذ بيدهم لتخطـي ظروفهم الاقتصادية السيئة .

(د) **أما عن صلات تونس بالحجاز من الناحية الاجتماعية** فيمكن القول: إن الأوضاع الاجتماعية في كلا البلدين كانـت متشابهة إلى حد كبير بحكم انتمائهما للدين الإسلامي، وللحضـارة الإسلامية، واللغة العربية. وأسهم ذلك في دعم الروابط الاجتماعية بين تونس والحجاز، وتجلى ذلك في نواحٍ عدة، فقد وجد بعض أهالي الحجاز في تونس مقرًا لهم يعيشون في بيئة لا تخـتلف كثـيراً عن بيـئتـهم، وينعمـون بين التونسـيين بالاحتـرام والمكانة الاجتمـاعية الجيـدة التي كان يضفيـها أولئك عليهم بحكم انتمـائهم لمنطقة الحرمين الشريفين.

وكما كان لأهالي الحجاز وجود في تونس، فـقد كان التونسيون يجدون في الحجـاز الأمان والطمـأنينة، وتطلع الكثـير منهم إلى المجـاورة في مكة المكرمة والمدينة المنورة تدفعهم إلى ذلك رغبـتهم في الحصول على مزيد من الأجر والثواب بجـوار الحرمين الشريفين . وبذلت الدولة العثمانيـة جهدها وعملت مع أمراء مكة أحيانـاً لتوفـير الراحة للوافدين إلى الحجاز من أجل الإقامة أو لأداء فـريضة الحج، وتجلى ذلك في سعيـها لبناء المزيد من الآبار والحصـون وتهدئة القـبائل الثـائرة التي كانت تقطع الطريـق وتسبب الأذى للحـجاج . مع ذلك كـانت تواجـه أولئك صعـوبات جـمة أخـذت تقل تدريجيًّا مع بداية القرن الرابع عشر الهجري / العشرين الميلادي.

ولا شك أن هذه النواحي التي ربطت بين بلدين عربيين إسلاميين ينتميان إلى إقليمين جغرافيين مختلفين في العالم العربي الإسلامي إنما تدل على أن التقارب الذي تعود جذوره إلى انتمـاء حضاري ديني واحد قادر على تجاوز المسافات الجغرافية، والفوارق السياسية .

الملحقات

أولاً : الخرائط .

ثانيًا : الجداول والإحصائيات .

ثالثًا : الصور والوثائق .



أولاً - الخرائط :

١) تونس والحجاز تحت الحكم العثماني.

٢) أهم المدن التونسية .

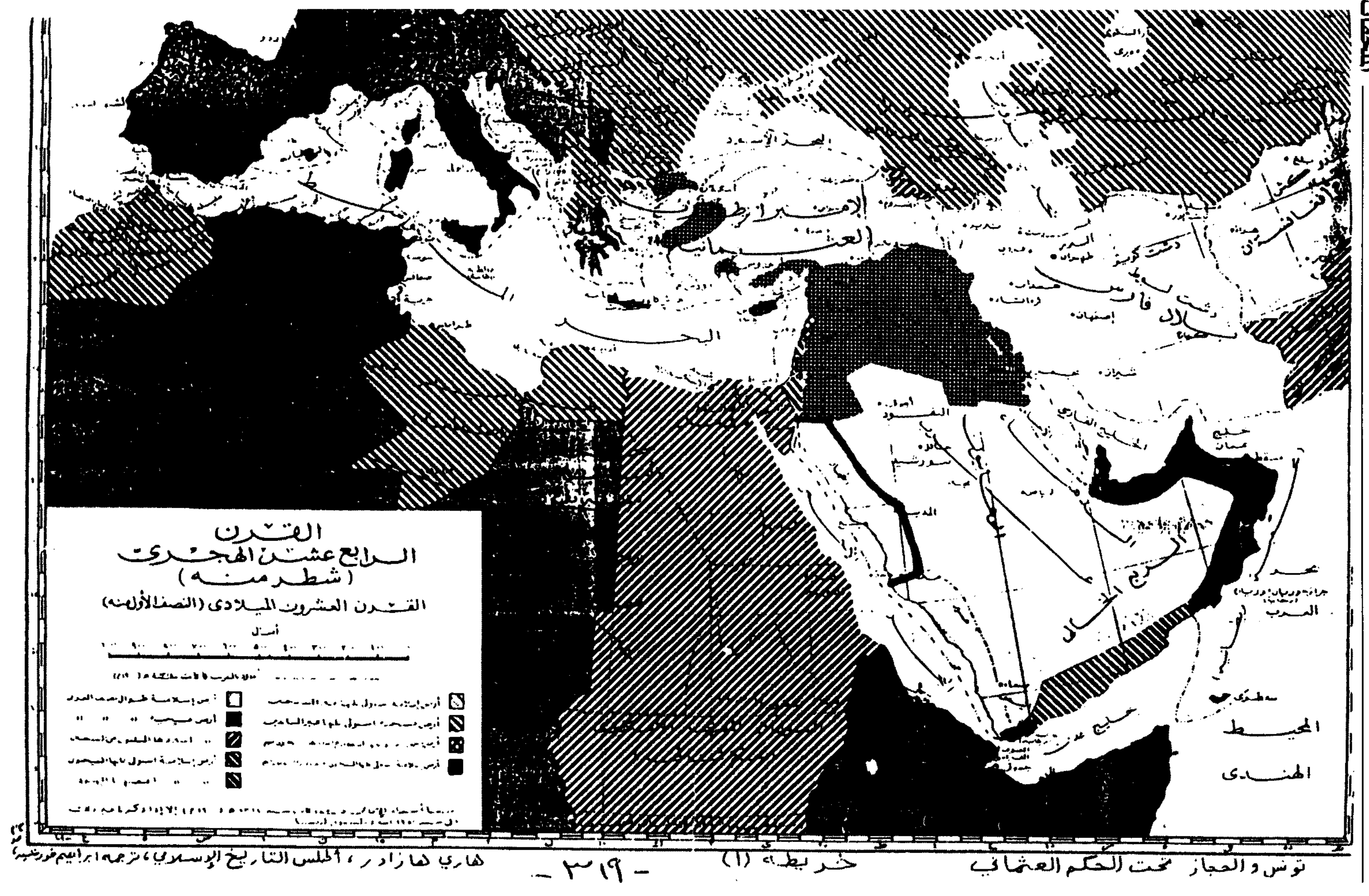
٣) مكة المكرمة في مطلع القرن الرابع عشر الهجري / العشرين الميلادي.

٤) المدينة المنورة في مطلع القرن الرابع عشر الهجري / العشرين الميلادي.

٥) طرق الحج في الحجاز في مطلع القرن الرابع عشر الهجري / العشرين الميلادي.

٦) درب الحجاج التونسيين عبر مصر والشام .

٧) مواقع معظم الهناشير (الأراضي الزراعية) الموقوفة على الحرمين الشريفين .

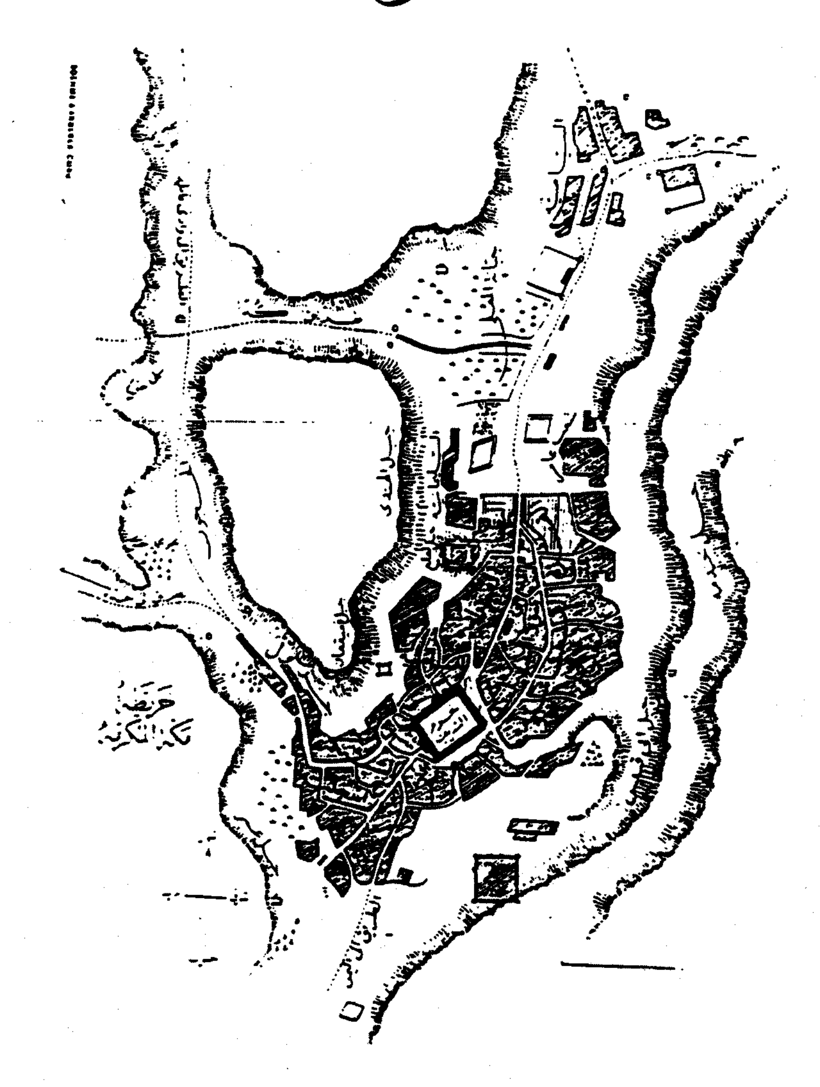


تونس والحجاز تحت الحكم العثماني خريطة (١) - ٣١٩ - هاري هازارد، أطلس التاريخ الإسلامي، ترجمة إبراهيم خورشيد

خريطة (٢) أهم المدن التونسية



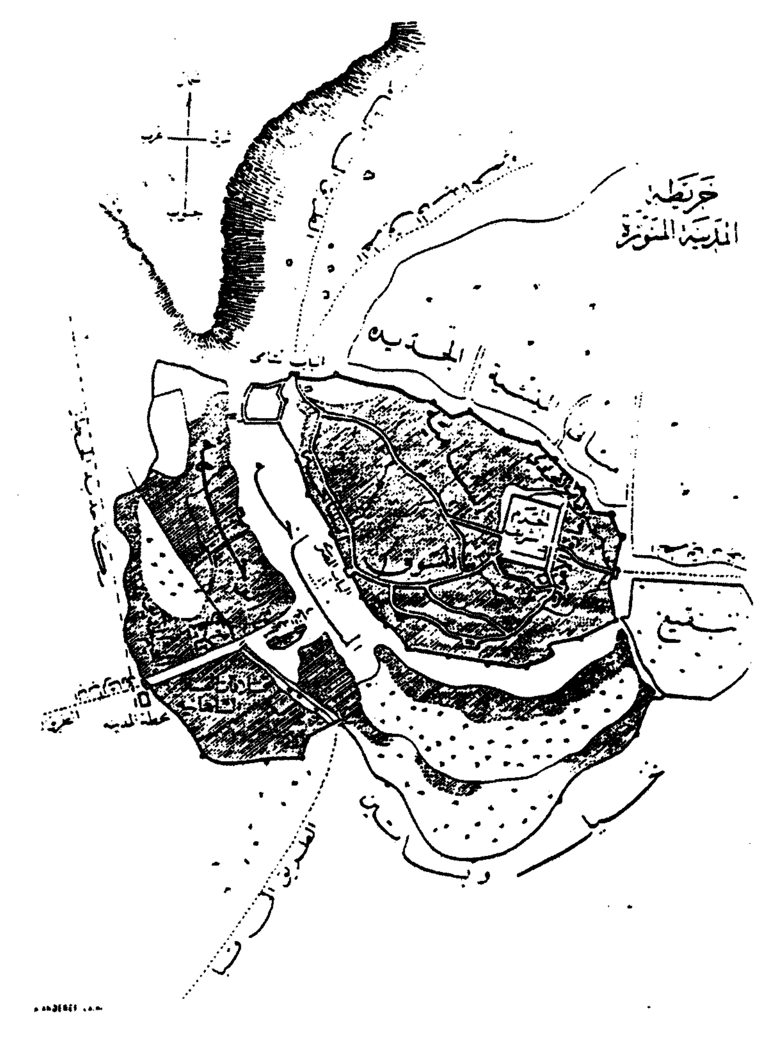
مكة المكرمة في بداية القرن الرابع عشر الهجري، العشرين ميلادي.



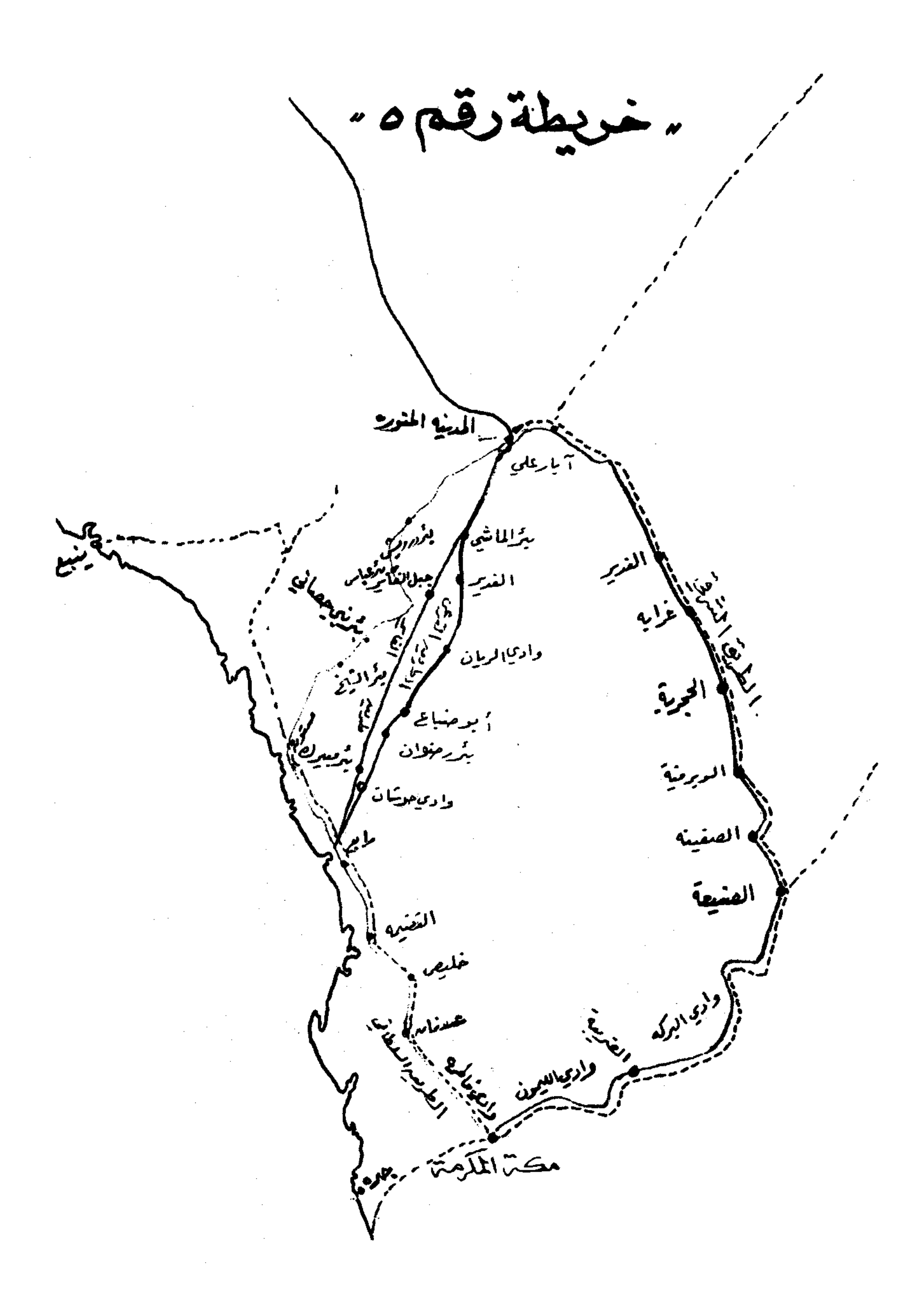
البتنوني، المصدر السابق ص ٣٩

خريطة *٤*

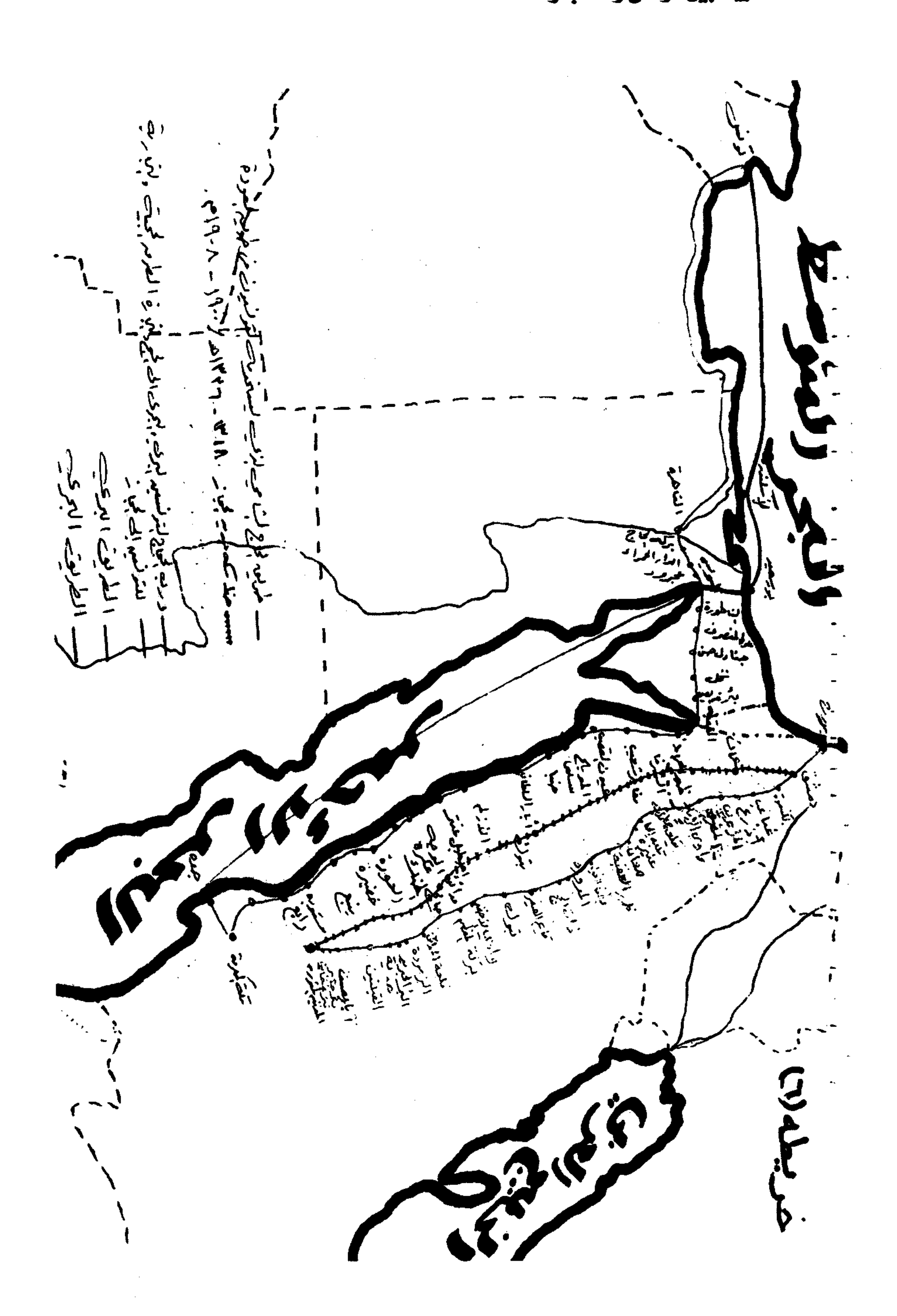
المدينة المنورة في بداية القرن الرابع عشر الهجري/العشرين ميلادي



البتنوني، المصدر السابق، ٢٥٣

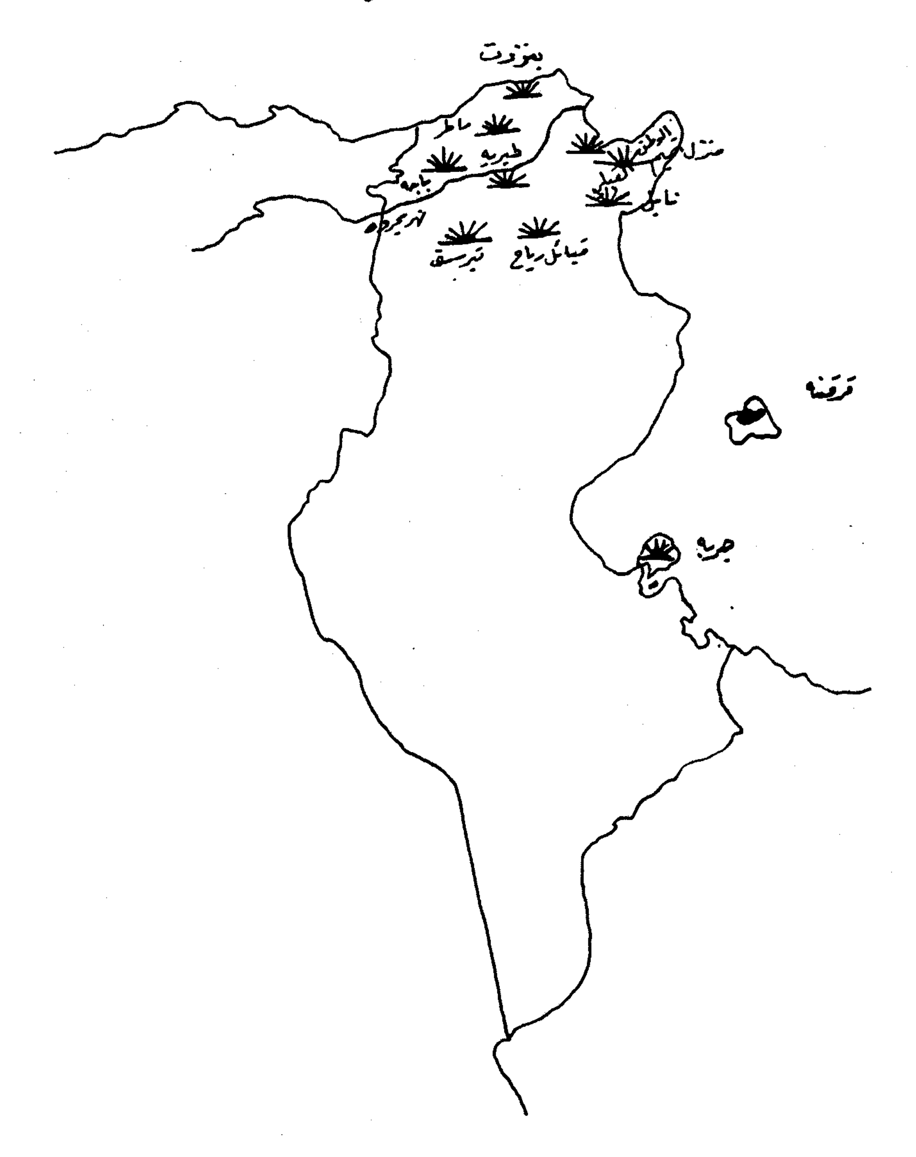


طرق الحج داخل ولاية الحجاز في القرن الثالث عشر الهجري
التاسع عشر الميلادي


البحر المتوسط
خريطة (٦)

(خريطة ٧)

مواقع معظم الأراضي الزراعية («الهناشير») الموقفة على الحرمين الشريفين بتونس(١)



(١) أ، و، ت، دفتر رقم ٢٣٢٤.

ثانياً - الجداول والإحصائيات :

١) جداول السلاطين العثمانيين في الفترة (١٢٥٦-١٣٢٦هـ/ ١٨٤٠-١٩٠٨م).

٢) أسماء ولاة تونس، وأسماء المقيمين العاميين (الفرنسيين)، وأسماء من تولوا منصب الوزارة الكبرى في تونس، وتاريخ توليهم في الفترة (١٢٥٦-١٣٢٦هـ/ ١٨٤٠-١٩٠٨م).

٣) أسماء ولاة الحجاز ، وأمراء مكة المكرمة، وتاريخ توليهم في الفترة (١٢٥٦-١٣٢٦هـ/ ١٨٤٠-١٩٠٨م) .

٤) واردات أوقاف الحرمين الشريفين ونفقاتها في بعض مناطق تونس لعامي ١٣٢١هـ/ ١٩٠٣م و ١٣٢٥هـ/ ١٩٠٧م .

٥) مرتبات الموظفين في إدارة جمعية أوقاف الحرمين الشريفين لعامي ١٢٧٧هـ/ ١٨٦١م و ١٢٩١/ ١٨٧٤م .

٦) أعداد المكاويين المستحقين للجراية لشهري جمادى الأولى وذي القعدة في الفترة (١٢٩٢-١٢٩٩هـ/ ١٨٧٥-١٨٨٢م) .

٧) توزيع صرة عام ١٢٦١هـ/ ١٨٤٥م على سكان المدينة المنورة .

٨) توزيع صرة عام ١٢٧٨هـ/ ١٨٦٢م على سكان مكة المكرمة .

٩) مقارنة بين أعداد الحجاج الواصلين إلى جدة عن طريق البحر حسب جنسياتهم في سنتي ١٣٠٩ و ١٣١٠هـ/ ١٨٩٢ و ١٨٩٣م .

١٠) إحصائيات الإدارة الصحية حول أعداد وفيات الكوليرا بينبع عام ١٣١١هـ/ ١٨٩٣م .

الجدول (١)

أسماء السلاطين العثمانيين

في الفترة (١٢٥٦-١٣٢٦هـ/ ١٨٤١-١٩٠٨م) [1]

السلطان عبدالمجيد (١٢٥٥-١٢٧٨هـ/١٨٣٩-١٨٦١م)
السلطان عبدالعزيز (١٢٧٨-١٢٩٣هـ/١٨٦١-١٨٧٦م)
السلطان مراد " الخامس " (١٢٩٣-١٢٩٣هـ/١٨٧٦-١٨٧٦م)
السلطان عبدالحميد " الثاني " (١٢٩٣-١٣٢٧هـ/١٨٧٦-١٩٠٩م)

(١) السنوسي ، الرحلة : ٢ / ٥٥ ، هامش: ٣,٣,٤

الجدول (٢)

أسماء البايات والمقيمين العامين الفرنسيين، ومن تولوا منصب الوزارة الكبرى في تونس ، وتاريخ توليهم في الفترة (١٢٥٦-١٣٢٦هـ/ ١٨٤٠-١٩٠٨م) (١)

أسماء البايات التونسيين وتاريخ توليهم	أسماء المقيمين العامين الفرنسيين في تونس وفترات انتدابهم	أسماء من تولوا الوزارة الكبرى في تونس وتاريخ توليهم
المشير أحمد باشا باي (٢١٧١ - ٢١٥٣هـ/١٨٣٧-١٨٥٥م)	Roustan روستان (١٢٩٨-١٢٩٩هـ/ ١٨٨١-١٨٨٢م	مصطفى خزنة دار (١٢٦١-١٢٩٠هـ/ ١٨٤٥-١٨٧٣م)
المشير محمد باشا باي (١٢٧١-١٢٧٦هـ / ١٨٥٥-١٨٥٩م)	Poul Cambon بول كامبون (١٢٩٩-١٣٠٤هـ/ ١٨٨٢-١٨٨٦م)	خير الدين باشا التونسي (١٢٩٠-١٢٩٥هـ/ ١٨٧٣- ١٨٧٨م)
المشير محمد الصادق باشا باي (١٢٧٦-١٢٩٩هـ/١٨٥٩-١٨٨٢م	Gostieen Massicault جوستين ماسيكو (١٣٠٤-١٣١٠هـ/١٨٨٦-١٨٩٢م)	مصطفى بن إسماعيل (١٢٩٥-١٢٩٨هـ / ١٨٧٨- ١٨٨١م)
علي بن حسين باشا باي (١٢٩٩-١٣٢٠هـ/ ١٨٨٢-١٩٠٢م)	Sharl Rouvie شارل روفيي (١٣١٠-١٣١٢هـ/ ١٨٩٢-١٨٩٤م)	محمد خزنة دار (١٢٩٨-١٣٠٠هـ/ ١٨٨١-١٩٠٣م)
محمد بن علي باشا باي (١٣٢٠-١٣٢٤هـ/ ١٩٠٢-١٩٠٦م)	Ronei Mealei روني ميلي (١٣١٢-١٣١٨هـ/ ١٨٩٤-١٩٠٠م)	محمد العزيز بوعتور (١٣٠٠-١٣٢٥هـ/ ١٨٨٣-١٩٠٧م)
الناصر بن محمد باشا باي (١٣٢٤-١٣٤٠هـ/ ١٩٠٦-١٩٢٢م)	Stephen Pichon ستيفن بيشون (١٣١٨-١٣٢٥هـ/ ١٩٠١-١٩٠٧م)	محمد الجولي (١٣٢٥-١٣٢٦هـ/ ١٩٠٧-١٩٠٨م)
	Jebraieel Alapetite جبرائيل البتيت (١٣٢٥-١٣٣٦هـ/ ١٩٠٧-١٩١٨م)	يوسف جعيط (١٣٢٦-١٣٣٣هـ/ ١٩٠٨-١٩١٥م)

(١) السنوسي ، الرحلة : ١ / المقدمة ١٢-٢٥ وأيضاً:
سرهنك ، مصدرسابق: ٤٣٢-٤٤٥ .

الجدول (٣)

أسماء ولاة الحجاز وأمراء مكة المكرمة وتاريخ توليهم
في الفترة (١٢٥٦-١٣٢٦هـ/ ١٨٤٠-١٩٠٨م) (١)

أسماء ولاة الحجاز وتاريخ ولايتهم	أسماء أمراء مكة وتاريخ إمارتهم
عثمان باشا (١٢٥٧-١٢٦١هـ/ ١٨٤١-١٨٤٥م)	محمد بن عون (١٢٥٦-١٢٦٧هـ/ ١٨٤٠-١٨٥١م)
كامل باشا (١٢٦١-١٢٦١هـ/ ١٨٤٥-١٨٤٥م)	= = =
شريف باشا (١٢٦١-١٢٦٤هـ/ ١٨٤٥-١٨٤٨م)	= = =
حسين باشا (١٢٦٤-١٢٦٤هـ/ ١٨٤٨-١٨٤٨م)	= = =
عبدالعزيز باشا الملقب آقة باشا (١٢٦٤-١٢٦٨هـ/ ١٨٤٨-١٨٥٢م)	عبدالمطلب بن غالب (١٢٦٧-١٢٧٢هـ/ ١٨٥١-١٨٥٦م)
أحمد عزت باشا (١٢٦٨-١٢٦٩هـ/ ١٨٥٢-١٨٥٣م)	= = =
كامل باشا (١٢٦٩-١٢٧٢هـ/ ١٨٥٣-١٨٥٦م)	= = =
محمود باشا (١٢٧٣-١٢٧٣هـ/ ١٨٥٦-١٨٥٧م)	محمد بن عون (للمرة الثانية) (١٢٧٢-١٢٧٤هـ/ ١٨٥٦-١٨٥٨م)
نامق باشا (١٢٧٣-١٢٧٤هـ/ ١٨٥٧-١٨٥٨م)	عبدالله بن محمد بن عون (١٢٧٤-١٢٩٤هـ/ ١٨٥٨-١٨٧٧م)

(١) ولايتي سالنامة سي ١٣٠٥هـ : ٩٧-٩٩ وأيضاً:
دحلان ، خلاصة : ٣٥٢-٣٨٠ وأيضاً:
Al Amr, Op.CL, p254,also:
كردي، مرجع سابق: ٢ / ١٥١ .

تابع - الجدول ٣

أسماء ولاة الحجاز وتاريخ ولايتهم	أسماء أمراء مكة وتاريخ إمارتهم
علي باشا (١٢٧٤-١٢٧٨هـ/ ١٨٥٨-١٨٦١م)	عبدالله بن محمد بن عون (١٢٧٤-١٢٩٤هـ/ ١٨٥٨-١٨٧٧م)
عزت حقي باشا (١٢٧٨-١٢٨١هـ/ ١٨٦١-١٨٦٤م)	= = =
وجيه باشا (١٢٨١-١٢٨٣هـ/ ١٨٦٤-١٨٦٦م)	= = =
عزت أفندي بالنيابة (١٢٨٣-١٢٨٤هـ/ ١٨٦٦-١٨٦٧م)	= = =
معمر باشا (١٢٨٤-١٢٨٧هـ/ ١٨٦٧-١٨٧٠م)	= = =
خورشيد باشا (١٢٨٧-١٢٨٨هـ/ ١٨٧٠-١٨٧١م)	= = =
قاسم باشا (١٢٨٨-١٢٨٩هـ/ ١٨٧١-١٨٧٢م)	= = =
محمد رشيد باشا (١٢٨٩-١٢٩١هـ/ ١٨٧٢-١٨٧٤م)	= = =
محمد رشدي باشا (١٢٩١-١٢٩١هـ/ ١٨٧٤-١٨٧٤)	= = =
تقي الدين باشا (١٢٩١-١٢٩٤هـ/ ١٨٧٤-١٨٧٧)	= = =
حالت باشا (١٢٩٤-١٢٩٦هـ/ ١٨٧٧-١٨٧٩م)	حسين بن محمد بن عون (١٢٩٤-١٢٩٧هـ/ ١٨٧٧-١٨٨٠م)
ناشد باشا (١٢٩٦-١٢٩٧هـ/ ١٨٧٩-١٨٨٠م)	= = =

تابع - الجدول ٣

أسماء ولاة الحجاز وتاريخ ولايتهم	أسماء أمراء مكة وتاريخ إمارتهم
صفوت باشا (١٢٩٧-١٢٩٨هـ/ ١٨٨٠-١٨٨١م	عبدالمطلب بن غالب (للمرة الثانية) (١٢٩٧-١٢٩٩هـ/ ١٨٨٠-١٨٨٢م)
أحمد عزت باشا (١٢٩٨-١٢٩٩هـ/ ١٨٨١-١٨٨٢م)	= = =
عثمان بن نوري باشا (١٢٩٩-١٣٠٣هـ/ ١٨٨٢-١٨٨٦م)	عون الرفيق بن محمد بن عون (١٢٩٩-١٣٢٣هـ/ ١٨٨٢-١٩٠٥م)
جميل باشا (١٣٠٣-١٣٠٤هـ/ ١٨٨٦-١٨٨٧م)	= = =
صفوت باشا (١٣٠٤-١٣٠٥هـ/ ١٨٨٧-١٨٨٨م)	= = =
عثمان نوري باشا (للمرة الثانية) (١٣١٠-١٣١١هـ/ ١٨٩٢-١٣٩٣م)	= = =
حسن حلمي باشا (١٣١١-١٣١٢هـ/ ١٨٩٣-١٨٩٤م)	= = =
أحمد راتب باشا (١٣١٢هـ-١٣٢٦هـ/ ١٨٩٤-١٩٠٨م)	علي بن عبدالله بن محمد بن عون (١٣٢٣-١٣٢٦هـ/ ١٩٠٥-١٩٠٨م)

الجدول ٤

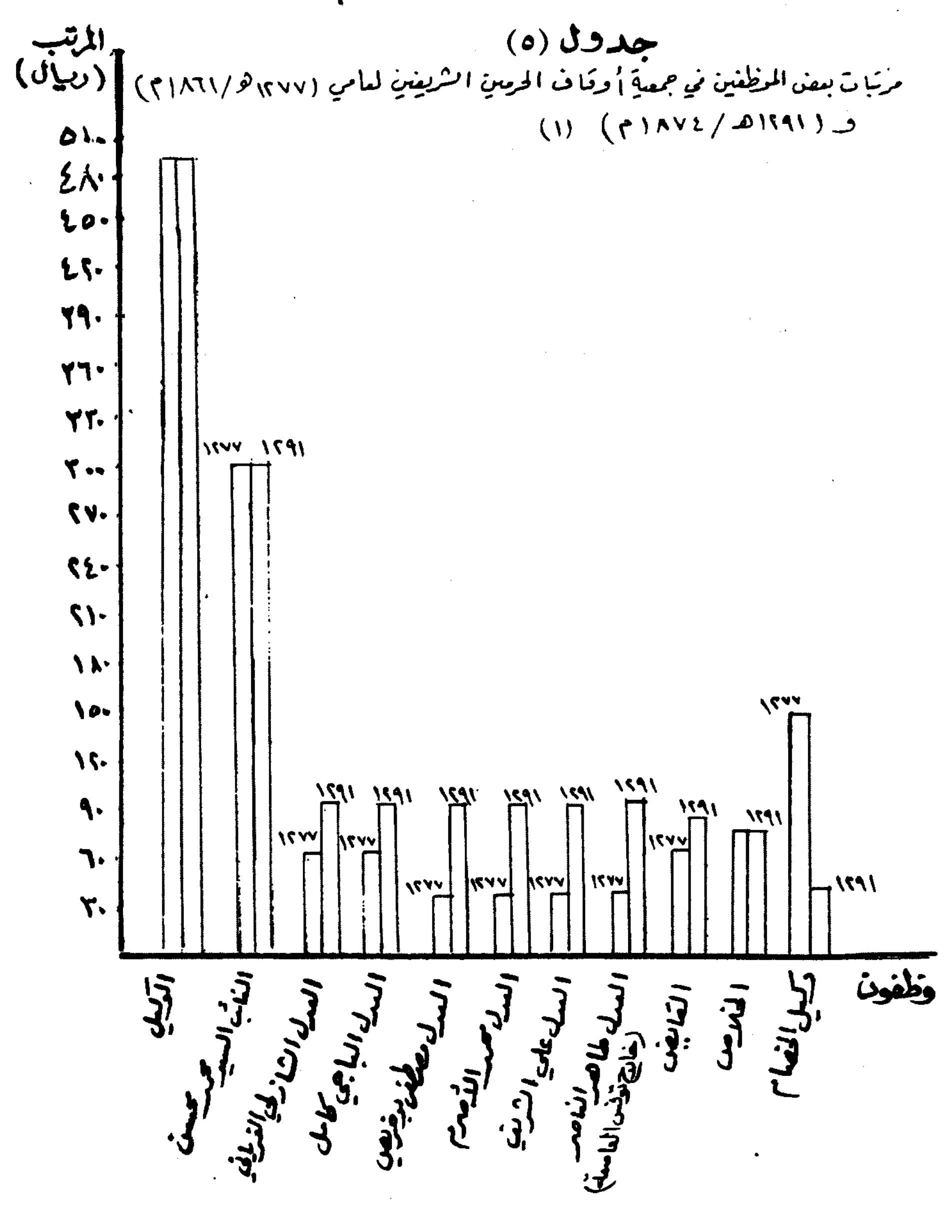
واردات أوقاف الحرمين الشريفين ونفقاتها في بعض مناطق تونس لعامي ١٣٢١هـ ١٩٠٣م - ١٣٢٥هـ / ١٩٠٧م بالفرنك الفرنسي المعمول به في تونس (١) عام ١٣٢١هـ / ١٩٠٣م

المدينة	الدخل	الخرج	النسبة المئوية
تبرسق	٨٩٠	٢٢٢	٢٤,٩٤٪
قفصة	٢٣١٦	٨٢٥,١٥	٣٥,٦٣٪
صفاقس	٥١٨	٣٧٤,٥	٧٢,٣٢٪
قرقنة	١٣٠٩,٣٠	٢٤٦,٢٥	١٨,٨٤٪
جربة	٤٨٠	٢٢٥	٤٦,٨٧٪
المنستير	٢٥٢١	٢٢٧٦,٩٦	٩٠,٣٠٪
المهدية	٤٤٢	١٣٥,٠٣	٣٠,٥٤٪
تستور	٥٥	٤٣,٩	٧٩,٨١٪

عام ١٣٢١هـ / ١٩٠٣م

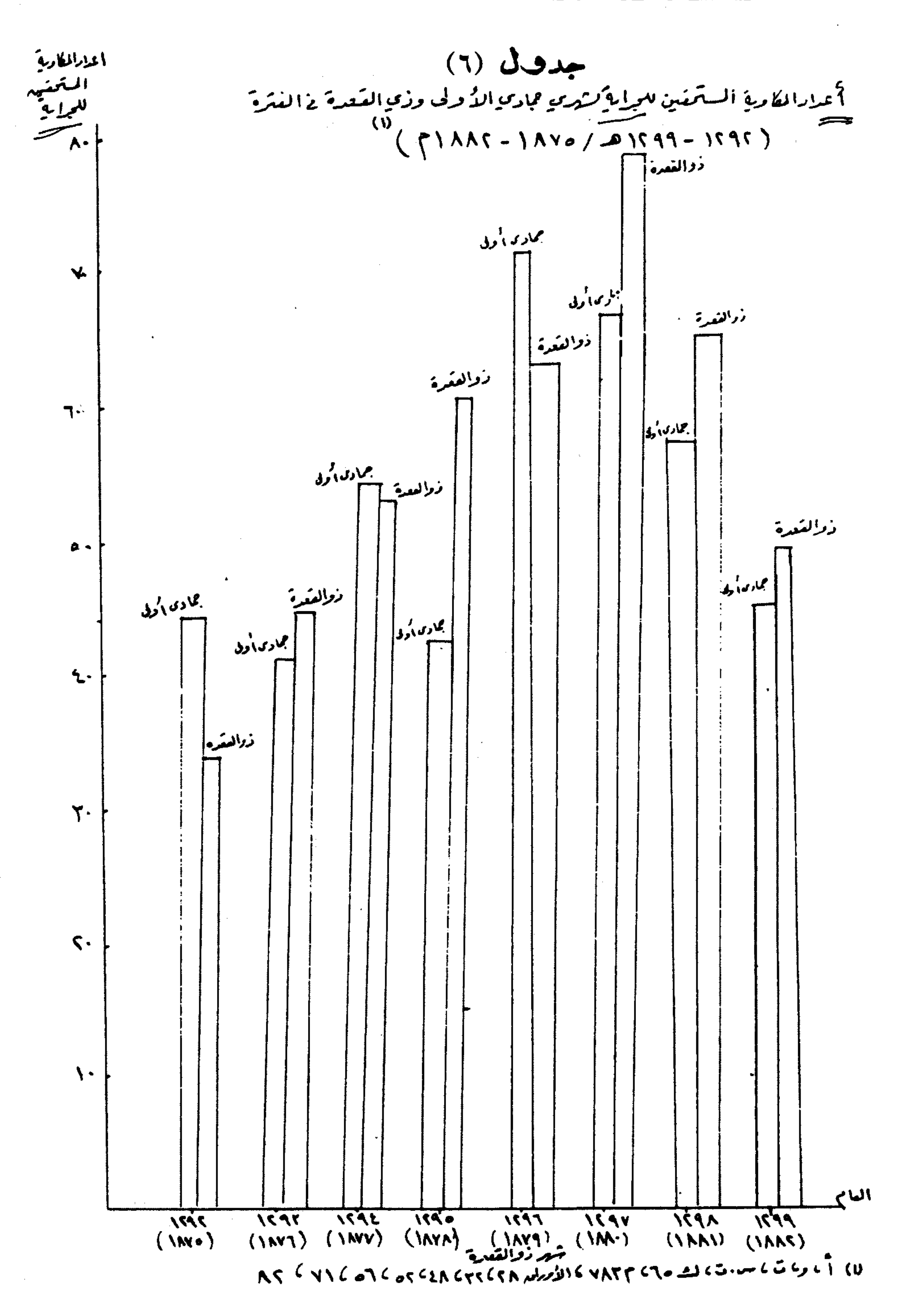
المدينة	الدخل	الخرج	النسبة المئوية
قرقنة	١٥٠٧	٣٨٦,٣٣	٢٥,٦٣٪
صفاقس	٢٧٠	١٥٦,٣٥	٥٧,٩٠٪
جربة	٤١١,١٠	٢٨٨,٦٥	٧٠,٢١٪

(١) خ، أ، د، نسق بميزانية عام ١٩٠٣، ١٩٠٧م .

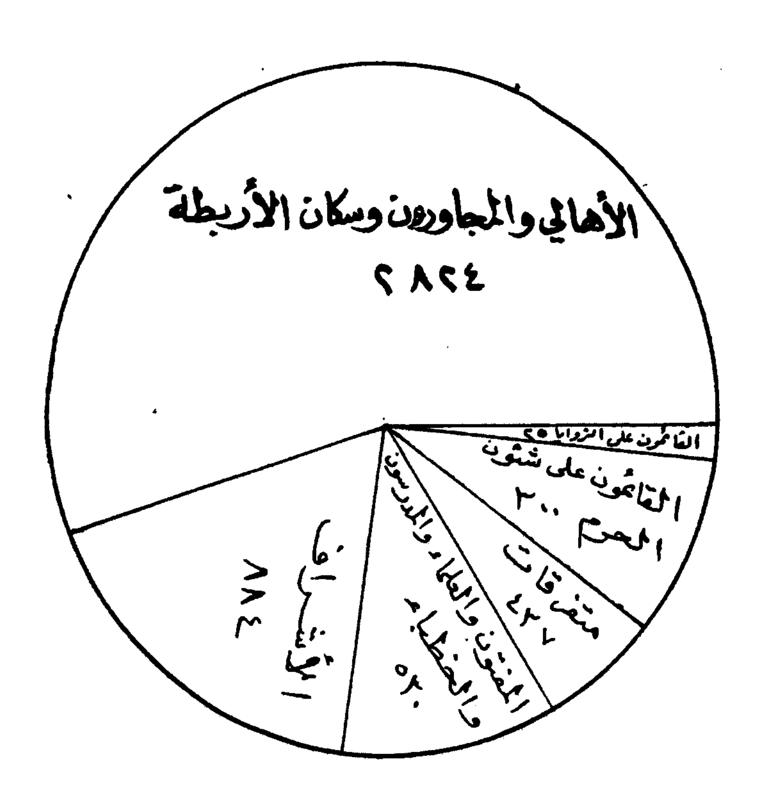


* يلاحظ التفاوت في المبلغ الذي يدفع لوكيل الخصام بصورة غير متوقعة، ولكن مرتب الوكيل يُرفع حسب المشاكل التي يعالجها ولذا يبدو أن مشاكل الأوقاف قبل تأسيس جمعية الأوقاف كانت أكبر.

(١) أ، و.ت، س.ت، ث ٦٥، م ٧٨١، ق ٢١


جدول (٦)
أعداد المطاوعة المستحقين للجراية شهري جمادى الأولى وذي القعدة في الفترة
(١٢٩٢ - ١٢٩٩هـ / ١٨٧٥ - ١٨٨٢م) (١)
أعداد المطاوعة المستحقين للجراية
٨٠
٧٠
٦٠
٥٠
٤٠
٣٠
٢٠
١٠
جمادى أولى
ذو القعدة
العام
١٢٩٢ (١٨٧٥)
١٢٩٣ (١٨٧٦)
١٢٩٤ (١٨٧٧)
١٢٩٥ (١٨٧٨)
١٢٩٦ (١٨٧٩)
١٢٩٧ (١٨٨٠)
١٢٩٨ (١٨٨١)
١٢٩٩ (١٨٨٢)
(١) أ.و.ت، س.ت، ك ٦٠، م ٧٨٣، الأعداد ٢٨، ٣٢، ٤٨، ٥٢، ٥٦، ٧١، ٨٢

جدول (٧)
توزيع صرة عام ١٢٦١هـ / ١٨٤٥م على سكان المدينة المنورة



أ، و، ت، دفتر رقم ٢٣٢٤،

جدول (٨)

توزيع صرة عام (١٢٧٨ هـ ١٨٦٢م) على سكان مكة المكرمة



أ، و، ات، دفتر ٢٣٢٤، ق: ١ - ١٢

جـدول (٩)

13.

Tableau comparatif par nationalités des pèlerins arrivés par mer en 1892 et 1893.

	1892.	1893.
Javanais	11.631	13.856
~~Indiens~~	~~15.093~~	~~14.801~~
Arabes	1.257	2.162
Persans	2.149	2.644
~~Hedjazis et Yéménites~~	~~4.637~~	~~7.236~~
~~Soudanais~~	~~248~~	~~877~~
Ottomans	5.743	13.307
Égyptiens	7.858	13.873
Mograbins	3.835	15.741
Boukharis	2.306	6.136
Bosniaques	137	140
Divers (arrivés par bâtiments de commerce)	850	2.452
arrivés par Yambo	2.911	(mémoire) (1)
	58.655	92.625

(1) Les arrivages par Yambo sont reportés dans le tableau général; ils y figurent pour un chiffre total de 9.787. (voir le détail page 201.)

ترجمة الجدول (٩)

مقارنة بين أعداد الحجاج الواصلين عن طريق البحر حسب جنسياتهم في سنتي ١٣٠٩-١٣١٠هـ/ ١٨٩٢- ١٨٩٣م

الجاويون	١٨٩٢م	١٨٩٣م
الهنود	١١٦١٣	١٣٨٥٦
العرب	١٥٠٩٣	١٤٨٠١
الفرس	٢١٤٩	٢٦٤٤
الحجازيون واليمنيون	٤٦٣٧	٧٢٣٦
السودانيون	٢٤٨	٢٧٧
العثمانيون	٥٧٤٣	١٣٣٠٧
المصريون	٧٨٥٨	١٣٨٧٣
المغاربة	٣٨٣٥	١٥٧٤١
البخاريون	٢٣٠٦	٦١٣٦
البوسنيون	١٣٧	١٤٠
جنسيات مختلفة	٨٥٠	٢٤٥٢
الواصلون عن طريق ينبع	٢٩١١	للتذكير(١)

(١) الواصلون عن طريق ينبع يتوزعون على الجدول العام ، ويبلغ عـددهم ما مجموعه ٩٧٨٧ (انظر تفاصيل ذلك : ٢٠١ (هذا ماورد في الوثيقة نفسها) .

A.Q.D, S.N:T 1882-1919, Car 441 Dos1 ,F45 - 44(B281) .

جـدول (١٠)

Tableau III. – Mortalité cholérique à Yambo (1893.)

Juillet 2	4	Décès (1)
" 3	13	"
" 4	12	"
" 5	27	"
" 6	21	"
" 7	12	"
" 8	17	"
" 9	18	"
" 10	2	" (2)

(1) Date d'arrivée du premier navire venant de Djeddah.

(2) Il n'y a plus d'arrivages par mer depuis deux jours, et les caravanes parties pour Médine ne seront pas de retour avant le 16 Juillet.

Si, en terminant cet exposé, je cherche à établir approximativement la mortalité cholérique de

49. 27 (5)

mes ressortissants algériens et tunisiens, je ne puis le faire que par la comparaison des chiffres à l'arrivée à Djeddah et au départ de Yambo.

Vapeurs	Pèlerins débarqués à Djeddah.	Embarqués à Yambo
Amérique	750	980
Auvergne	1.010	500
Languedoc	1.100	1.000
Victoria	1.305	960
Gregoria	1.550	1.250
Foria	750	70
Lutetia	140	» (Syriens et marocains)
Gallia	880	» (Marocains)
Vercingétorix	1.600	800
Totaux	9.085	5.560

ترجمة الجدول (١٠)

الوفيات بسبب الكوليرا بينبع في العام ١٣١١هـ/١٨٩٣م

٢	يوليو / تموز	٤ حالات وفاة
٣	=	١٨حالة وفاة
٤	=	٤٢حالة وفاة
٥	=	٢٧حالة وفاة
٦	=	٢١حالة وفاة
٧	=	١٢حالة وفاة
٨	=	١٧حالة وفاة
٩	=	١٨حالة وفاة
١٠	=	حالتا وفاة

(١) تاريخ وصول أول باخره من جدة

(٢) منذ يومين توقف القدوم عن طريق البحر. أمـا القوافل التي خرجت من المدينة فلن تصل قبل ١٦ يوليو/ تموز .

لو أردت أن أضع عن انتهـاء هذا العرض قائمة تقـريبية لوفـيات رعايانا الجزائريين والتـونسيين بسبب الكوليرا فلن أتمكن من القيام بذلك إلا بالمقارنة بين إعدادهم عند الوصول إلى جدة وعند الخروج من ينبع:

السفن	الحجاج النازلون بجدة	الحجاج الصاعدون بينبع
أمريكا	٧٥٠	٩٨٠
أوفرني	١٠١٠	٥٠٠
اللانفدوك	١١٠٠	١٠٠٠
فكتانيا	١٣,٥	٩٦٠
الجرجوفية	١٥٥٠	١٢٥٠
فوريا	٧٥٠	٧٠
اللوتينية	١٤٠	٧٠ (سوريون ومن المغرب الأقصى)
غاليا	٨٨٠	٧٠ من المغرب الأقصى
فرسنجتوريا	١٦٠٠	٨٠٠
الجملة	٩٠٨٥	٥٥٦٠

A.Q.D, S.N:T 1882-1919, Car 441 Dos1 ,F45 - 44(B281)

ثالثًا - الصور و الوثائق :

١) المحملان المصري والشامي عام ١٣٢١هـ/ ١٩٠٣م .

٢) نص إجازة مفتي الحنابلة محمد بن عبدالله بن حميد للشيخ مصطفى بن خليل التونسي عام ١٢٩٤هـ/ ١٨٧٧م .

٣) الصفحة الأولى من رحلة الشيخ محمد بن صالح الجودي إلى الحجاز (بدون عنوان).

٤) العدد الأول من صحيفة الرائد التونسي .

٥) العدد الأول من صحيفة سالنامه ولايتي سي .

٦) أخبار الحجاج في صحيفة الحاضرة ، ع ٢١٩، س ٦ ، ١٣١٠هـ/ ١٨٩٣م .

٧) أخبار الحجاز في صحيفة الزهرة ، ع ٨٨ ، س ٢ ، ١٣٠٨هـ/ ١٨٩١م .

٨) اطلاع الحجاز على المنتجات التونسية .

٩) أسماء أعضاء جمعية الأوقاف حين تأسيسها .

١٠) بيان بالأملاك الموقوفة على الحرمين عام ١٣٠٣هـ/ ١٨٨٦م .

١١) إشراف الباي على حسابات وكيل أوقاف الحرمين الشريفين في تونس .

١٢) إعلام بصدور قرار إرسال مبلغ الصرة إلى الحجاز .

١٣) إذن بدفع مبلغ الصرة وحاملها عام ١٣١١هـ/ ١٨٩٤م .

١٤) اقتـراح المقيم العام في تونس بشـأن إيصال مبـلغ الصرة عن طريق قنصل فرنسا بجدة .

١٥) إقرار باستلام الصرة عن طريق قنصل فرنسا في جدة .

١٦) خطاب تهنئـة من أمير مكة إلى والي تونس بـقدوم العام الهـجري الجديد (١٣٠١هـ/ ١٨٨٤م) .

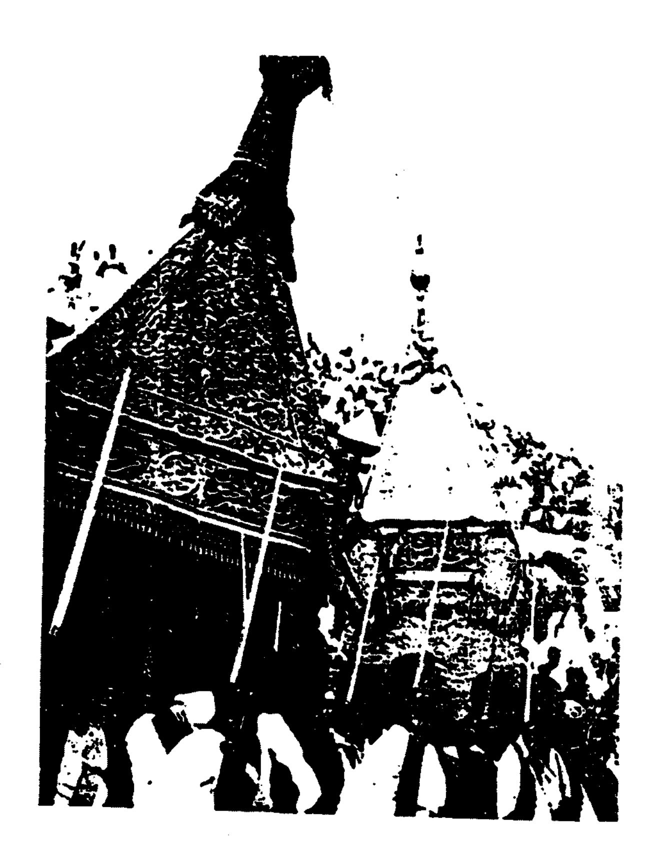
١٧) هدايا من مجاورين تونسيين إلى شخصيات تونسية .

١٨) منظر كيس مفتاح الكعبة المعظمة وجزء من كسوتها .

١٩) منظر لمحجر الطور في مطلع القرن الرابع عشر الهجري / العشرين الميلادي .

وثيقة (١)

المحملان المصري والشامي عام (١٣٢٤ هـ / ١٩٠٣ م)



رفعت، المصدر السابق، الملحق (بدون رقم)

وثيقة (٢)

نص إجازة مفتي الحنابلة محمد بن عبد الله بن حميد للشيخ مصطفى بن خليل التونسي عام ١٢٩٤هـ/١٨٧٧م

[illegible] إجازة الإمام الفاضل والهمام الكامل الذي [illegible] الحنابلة [illegible]
الأدب [illegible] شيخنا العلامة [illegible] عبد الله بن حميد النجدي
الحنبلي [illegible] للعلامة مصطفى بن خليل التونسي
[illegible] عام ١٢٩٤ قال [illegible]
[illegible] ١٣٠٣ [illegible]

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله [illegible] والصلاة والسلام
على سيدنا محمد مجيز الوافدين وعلى آله بدور الإرشاد وأصحابه
نجوم الإرشاد وعلى التابعين لهم بخير إلى يوم التناد
أما بعد فإن الإجازة من مطالب السلف الصالحين والرواية
بها والعمل بالمروي بها مشهور بين المحدثين وإن من أنواعها التسعة
إجازة معين لمعين وقد قصدني الأئمة الأماثل فلذلك
سماحة العالم الناشر والمحقق المدقق الكامل مفتاح
المعاني والبيان ومنهاج الأصول عند الأعيان أخي وحبيبي
ومولاي الشيخ مصطفى بن خليل التونسي دام الله توفيقه
[illegible] على أعدل منهاج وأقوم [illegible] فاستجاز
[illegible] الإجازة [illegible] الدر النظيم
[illegible] للمدارس والدروس

[illegible] ابن عبد الهادي [illegible]
[illegible]
[illegible] ٧٤٨ [illegible]
[illegible]
[illegible]

المصدر: مكتبة الحرم المكي، مكة المكرمة، مخطوط برقم ١١٤٤

ولما جاء المذكور بيت الله الحرام وبها وجد ذلك الامام ... حصل لي معه اجتماع
واختلاط ولي به صحبة وارتباط فرأيت من ذكائه ما يبهر
ذكاء ومن تحقيقه ما يلوح له ابن خطيب زملكا فالتمست
من فوائده وسألني بجميل عوائده وبمقتضى مودته
القلبية وصفاء السريرة والطوية طلب مني الاجازة
في فقه امامنا الأنبل ابي عبد الله احمد بن محمد بن حنبل
لكونه لم يجد من يجيزه فيه فاعتذرت بالقصور عن اهل
هذا المقام فما يليه فلم يقبل مني اعتذارا وقال عدم الاجازة
الحنبلية عندي يوجب اجابتي اضطرارا فتجاسرت
على هذا المقام الجليل والمرقى الصعب الذي يرد الطرف
وهو كليل فاقول قد اجزت مولانا المذكور بجميع ما يجوز لي
روايته من تفسير وحديث وفقه واصوليين ونحو وصرف
ومعان وبيان تحقيقا اجازتي وروايتي عن علي الاصلاد وجهابذة
كرام هم سراج الاسلام والادلاء الى دار السلام
جمال ذي الأرض كالنواحي الخيام وهم ... جمال الكتب ... لجهابذ
اعظمهم قدرا واشهرهم في العلوم ذكرا واكثرهم تفننا وعلما
تلميذا الطالبين وتحقيقا مولانا السيد الشريف النبي محمد بن علي

السنوسي الحسني فقد روى لي الحديث المسلسل بالاولية واجازني
بكتبه الاربعة المسلسلات المروية وناولني جملة في كتب السنة النبوية
وكتب لي بخطه اجازة مرضية بجميع مروياته حسبما اشتمل عليه ثبته
العظيم المسمى بالبدور السافرة في اثبات سادتنا المغاربة والمشارقة
ولقيت محدثين دار الهجرة ايضا بالاجازة العامة عن عمدة المحدثين
وخاتمة الحفاظ الراسخين الشيخ عابد السندي نزيل المدينة
المنورة والمتوفى بها سنة ١٢٥٧ فقد اجازني الكثير مما اجاد
ما تضمنه ثبته الجامع المسمى بحصر الشارد في اسانيد محمد عابد
وهو في مجلدين ورويت ايضا الحديث المسلسل بالأولية عن علامة
المعقول وعمدة الأصول السيد محمود الآلوسي مفتي بغداد
ومؤلف التفسير الكبير المسمى بروح المعاني في تفسير القرآن
العظيم والسبع المثاني وهو عن استاذه العلامة فارس
الألفاظ والمعاني الملا علي افندي الموصلي عن مشايخه
المشهورين في فهارسهم ورويته ايضا عن بقية السلف
الصالح وقدوة كل فاضل فالح ذي المنهاج الاعدل
سيدي السيد عبد الرحمن الأهدل فقد اجازني شفاهة ولغيره
بعد ان قرأت عليه اوائل الكتب الحديثية بمنزله الحسينية

وثيقة (٣)

الصفحة الأولى من رحلة الشيخ محمد بن صالح الجودي

"رحلة لم يوضع لها عنوان"

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله
وصحبه وبعد فيقول العبد الفقير لرحمة ربه الراجي
غفران ذنوبه محمد الجودي المغربي إني لما تعلق عزمي بحج
بيت الله الحرام وزيارة قبر نبيه عليه الصلاة والسلام وذلك
في سادس عشر شوال عام ١٣٣١ [illegible] وتلقاني
وإليه فأمضاه ذلك الوزارة التونسية في السنوح لحسن ذلك
بمكتوب مؤرخ بالتاريخ المذكور جاءني جناب الوزير الأكبر الشيخ
يوسف جعيط بمكتوب نصه الحمد لله وصلى الله على سيدنا ومولانا
محمد وعلى آله وصحبه وسلم الفاضل الزكي الأشرف الشيخ السيد
محمد الجودي المغربي الفقيه وأن دام حفظه السلام عليكم ورحمة الله
وبعد فقد بلغنا مكتوبكم المؤرخ في ١٦ شوال و١٢ سبتمبر الإفرنجي
في التعريف بعزمكم على السفر لحج بيت الله الحرام عام تاريخه وعليه فأعلم
بعزمكم أنه لا مانع من ذلك ونسأل الله تسهيله لكم الأمن ولن يتعطل
أعمالكم ودمتم بحفظ الله والسلام من الفقير إلى ربه تعالى [illegible]
جعيط الوزير الأكبر وفقه الله تعالى وكتب في ٢٨ شوال و٣
سبتمبر ١٣٣١ [illegible] يوسف جعيط ولما
وصل المكتوب تأهبت للسفر وشرعت في بيع ما يلزم بيعه
من الحيوان وغيره وبقيت مترددا فيما يقوم بيعه وزرت مقامات
الأولياء وفي مقدمتهم مقام الصحابي الجليل سيدنا أبي زمعة
عبيد الله بن أدم البلوي الذي لما استشهد في عام ٣٤ من الهجرة
أوصى أن توضع ثلاث شعرات من شعر النبي صلى الله عليه وسلم كانت
عنده في قلنسوة حمراء تحت لحافه وانتقاه ليعينه ووضع ذلك
وحكى لنا أنه من الكتب أحد مقابل النبي وأن الآن وفي حين الزيارة
وجدته مطمعا موضوعا حيث ذكر بعضهم وما رأيته عمره
قوله تعلى

المصدر : نسخة مخطوط بمكتبة فضيلة الشيخ حمد الجاسر

وثيقة (٤)

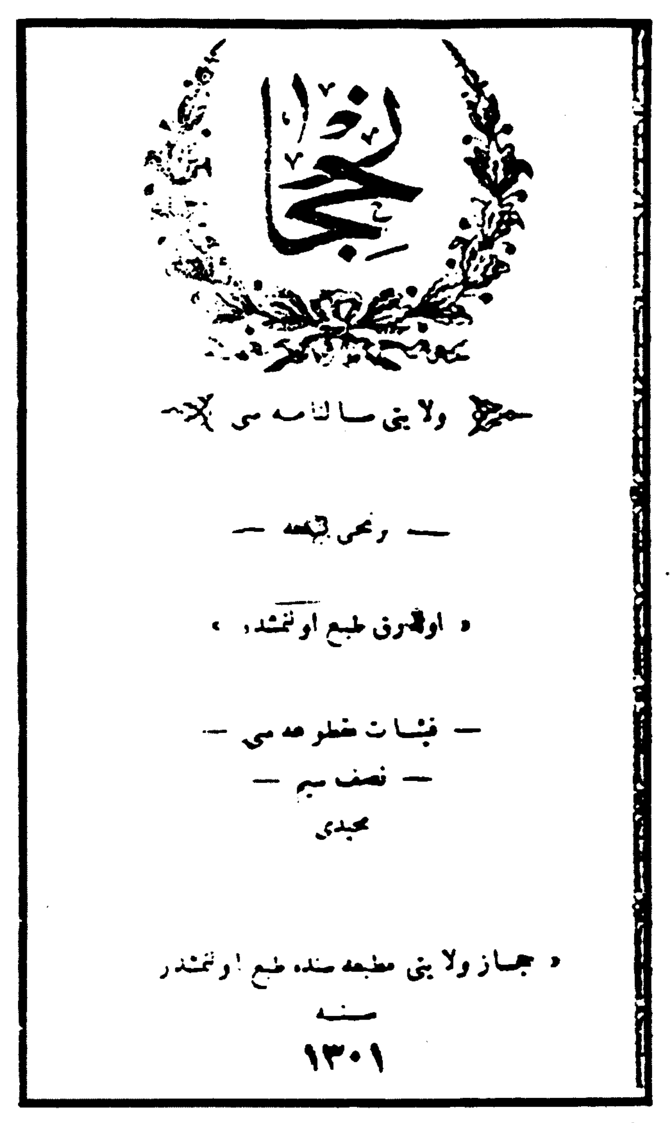


العدد الأول من "الرائد التونسي" وهي أول جريدة تصدر بتونس (1860م)

جلوب، المرجع السابق، ص ٦٠.

وثيقة (٥)

العدد الأول من سالنامة ولايتي سي ١٣٠١هـ/١٨٨٤م



حجاز

حجاز ولايتى سالنامه سى

— برنجى دفعه —

« اوقدروق طبع اولنمشدر »

— قيمت مقطوعه سى —

— نصف سيم —

مجيدى

« حجاز ولايتى مطبعه سنده طبع اولنمشدر »

سنه

١٣٠١

المصدر : مكتبة الملك فهد الوطنية بالرياض

وثيقة (٦١) صحيفة الحاضرة بتاريخ ١٩٤ ع ٢٢٩ س ٦ في ١١/٤/١٣١٠م

* صحيفة ٣ *   * الحاضرة *

التي سلكها لتسديد المصالح التي يطلبها هذا القطر وتتميم مشروعاته المهمة من انجاز اشغال الدباسي ومد السكك الحديدية وهلم جرا

والمشاع ان وصول جناب الوزير الحاضرة يكون في ٢٦ من الشهر

اخبار الحجاز

لدينا رسالة لمكاتبنا الفاضل بمكة المكرمة بها افادات مهمة بخصوص الديار الحجازية وما هي عليه الآن من الظروف الحالية اشتملت على حسن التاثير الذي نشا عن ولاية صاحب الدولة عثمان نوري باشا وعلى عموم الخلل الذي تمكن من ادارة القطر نفيد بذلك حضرة القراء خدمة للاسلام والمسلمين واستجلابا لانظار ارباب الحل والعقد الذين لهم النظر على بقاع سيد الكائنات صلى الله عليه وسلم

والي الحجاز

قال حضرة المكاتب ما انتشر خبر ولاية صاحب الدولة عثمان نوري باشا في الحاضرة والبادية حتى تهللت وجوه السكان بشرا لما يعلمون له من الميل الى الاستقلال بالتصرف والحكم بارض الحجاز وخصوصا بتاييد ذلك الظن وتقريره على اصول متينة بالفرمان السلطاني العالي الذي صار الاحتفال بتلاوته بالحرم النبوي الشريف بحضور جميع الامراء الاشراف يتقدمهم امير مكة صاحب السيادة الشريف عون الرفيق والكبراء والعلماء وامراء العسكرية وبحضور اليلور السلطاني الذي اتى بالفرمان المومأ اليه قبل ورود حضرة الوالي ونزل بيت حضرة الشريف امير مكة وكان في هذا التدبير صلاح وسداد مهيد ... الوالي

ولصاحب الدولة عثمان باشا مزايا عديدة على هذه الديار سابقا ولاحقا فمن مآثره اللاحقة اهتمامه بمجهود صولته بمنع السخرة على الجمالين والحمارين والحمالين سواء كانت السخرة الحكومية او للشريف فقد كانت العادة وقت الحج ان ياخذ الوالي ودائرة الحكومة العسكرية اكثر من الف جمل والشريف وحده ياخذ مثل ذلك مع دائرته يحملون اثقال الدائرتين في كل سنة من جدة الى مكة ومن مكة الى الطائف وكان حضرة عثمان باشا في مدة ولايته الاولى يامر بالسخرة ولا ينكرها وقد اهتم في هذه المدة بابطالها بالكلية فحجرها على نفسه وعلى غيره وبذلك امتلات قلوب الاهالي من الحواضر والبوادي سرورا دل على ما فيه حسن التدبير وتمام الاصابة

اما ما ذكرته بعض جرائد الشرق واسمه صاحب جريدة بيروت في مقالته من ان الباب العالي ارسل باورا من طرفه ليبلغ الى حضرة شريف مكة فرمانا سلطانيا في الزيادة في مرتبه وانه وقعت قراءة ذلك الفرمان بالحرم النبوي في موكب حافل فهو خبر لا صحة له ولا يعلمه احد من اهالي مكة غاية الامر ان الزيادة في الرتب وقع الاخبار عنها بالتلغراف ثم وردت مفصلة في مكتوب صحبة البوسطة فالفرمان والياور لا يرسلان الا في مامورية مهمة

تحريرا في ٢٢ صفر سنة ١٣١٠

عزيز دمرجي

(الحاضرة) نحمد الله على اجابة الرغيب وايفاء المطلوب من مصادقتنا المحرر واعرابه عما ... [illegible]

وثيقة (٧)



(العدد ٨٨) تونس يوم الخميس ٢٢ رمضان المعظم سنة ١٣٠٨ الموافق ٣٠ ابريل الافرنجي سنة ١٨٩١ (السنة الثانية)

قيمة الاشتراك
في الحاضرة وبلدان المملكة
فرنكات
عن سنة واحدة ٨
عن ستة اشهر ٤
خارج القطر التونسي
عن سنة واحدة ٩
[illegible]
قيمة الاشتراك تدفع مقدما
ادارة الجريدة ومطبعتها
شارع سيدي بومنديل (المعروف
سوق ... المدينة) عدد ١٥ - ١٧ - ١٩

الزهرة
EZ-ZOHRA

اجرة الاعلانات
بالمليمات
السطر في الصحيفة الاولى ٦٠
وفي الثانية ٤٠
وفي الثالثة ٣٠
وفي الرابعة ٢٠
جميع الرسائل ينبغي ان تكون خالصة الاجرة ومعنونة باسم مدير الجريدة وتعريبها ... الرحمن الصنادلي ولا ترد لمرسلها نشرت او لم تنشر

Direction et Administr.
Souk Almoukjet 15, 17 et 19 — TUNIS.

(جريدة سياسية ادبية تجارية تصدر يومي الاثنين والخميس من كل اسبوع)

الحجاج

لا يخفى ان الدولة كانت حجرت في العامين الفارطين السفر الى الحجاز بسبب الامراض الوبائية اذ ... في تلك الاعوام وبسبب الاهمال وعدم التحري في اجراء ... [illegible]

[illegible]

الاجنبية من حيث عدم توفر شروط هذه التراتيب فيها ولانها لا تنالها عقوبة المخالفة وحيث ثبت الان لدى مجلس الصحة بتونس بعد اجراء البحث والتدقيق حسن حالة البلاد الحجازية وخلوها من الامراض فقد وافق على اباحة الحج في هذا العام لكل فرد من افراد التونسيين والجزائريين بشرط ان يبرهن على كونه قادرا على تحمل نفقات ذلك وان يسافر على بابور فرنسوي وهلا نبانا فيما تهافتت الجرائد الفرنسوية على نقله من صحيفة الاهرام فيما يتعلق بهيوم ... مصر اذ لو كان ذلك كذلك لبادرتنا به التلغرافات وما تاخرت عنه ولعله ... لما نشرتها ... احدى الجرائد الفرنسية على نية ... تتعلق بالحجاج ... بهذا ... الجزائريون ... التونسيون ... السفر الى مكة (المكرمة) في العامين الاخيرين ... لهم ذلك في هذه السنة فان مجلس الصحة ... ان اجرى ... في هذه المسالة الدقيقة عرض على الدولة ... من ... التوقي من القواعد الصحية ... زمان ... في امر سفر الحجاج الى مكة وقوله ان في السفر الى

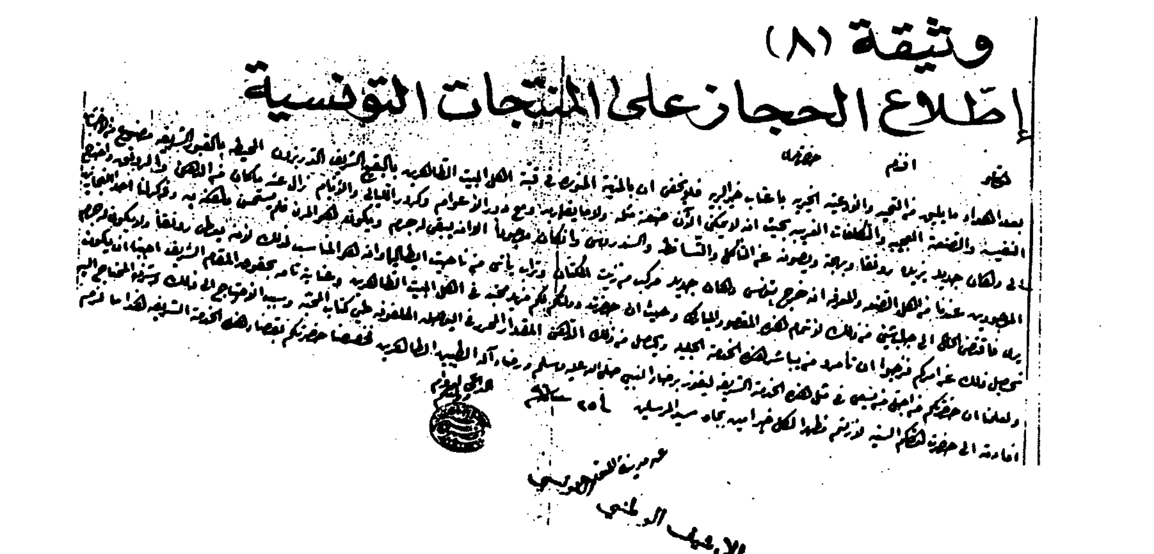
مكة خطرا على اوربا لا يزال شانه يتعاظم على الدوام والاستمرار تقرر لديه ان لا داعي لمنع اهالي الجزائر وتونس من السفر الى الحجاز في هذا العام نظرا لحسن الحالة الصحية بتلك الديار والمراسي الواقعة على سواحل البحر الاحمر كما قرر المجلس ايضا عدم اعطاء تذكرة المرور الا لمن تسمح له حالته المالية باقتحام اهوال هذا السفر الطويل

ثم تفاوض المجلس في تاكيد حفظ تونس والجزائر من داء الكوليرة الذي ربما جلبه الحجاج عند رجوعهم اليهما فصدق على استعمال التدابير التي اشار بها المسيو بروست المتفقد العام بالادارة الصحية واجرائها على بابورات الحجاج التي تسافر من البحر المتوسط الافريقية والتي ترد اليه وهي انه لا يؤذن لاحد بالتوجه الى الحجاز الا اذا سافر على بابور شركة فرنسوية وهذه الشركة يجب عليها جعل حمام دخاني يكون مهيئا في كل وقت مع طبيب تعينه الدولة لينظر في متعلقات النظافة والصحة اثناء السفر ويشهد عند رجوع البابور بقيام الشركة بجميع الشروط ——

المدير محمد ... القومي بانوسم

وثيقة (٨)

إطلاع الحجاز على المنتجات التونسية



أ، و، ت، س. ت، ك ٦٥، م ٧٩٥، ق: بدون، في (٢٥/ ٨/ ١٢٩٦هـ
١١/ ١٠/ ١٨٧٩م)

وثيقة (٩)

جمعية الاوقاف

الرئيس الشيخ سيدي محمد بيرم

الكاهية امير الالاي السيد احمد بن عياش

(الاعضاء) الاول الشيخ سيدي احمد الورتتاني

الثاني السيد محمود بن الامين

المشايخ الكتبة

الاول السيد محمد النيفر * السيد محمد السنوسي * السيد محمود الجيلاني

امين المال السيد الحاج محمد الشاذلي السنوسي

وكلاء الاوقاف

الحرمين الشريفين * السيد محمد عريف

الابراج والقشل * امير اللواء السيد مصطفى صفر

الجامع الاعظم * السيد عثمان كشك

جوامع الحنفية * السيد الحاج الشاذلي التميمي

جوامع المالكية * السيد الباجي قميحة

المساجد * السيد الحاج علي بن الشريف علي باش حانبه

المدارس * السيد حميدة الهتاتي

المدارس الباشية والتربة * السيد الحاج محمد البرانسي

الزوايا والمكاتب * السيد مصطفى بن جعفر

الاحزاب * السيد الطاهر لخضر

السبابل السيد محمد العصفوري الديوان السيد محمود باشا

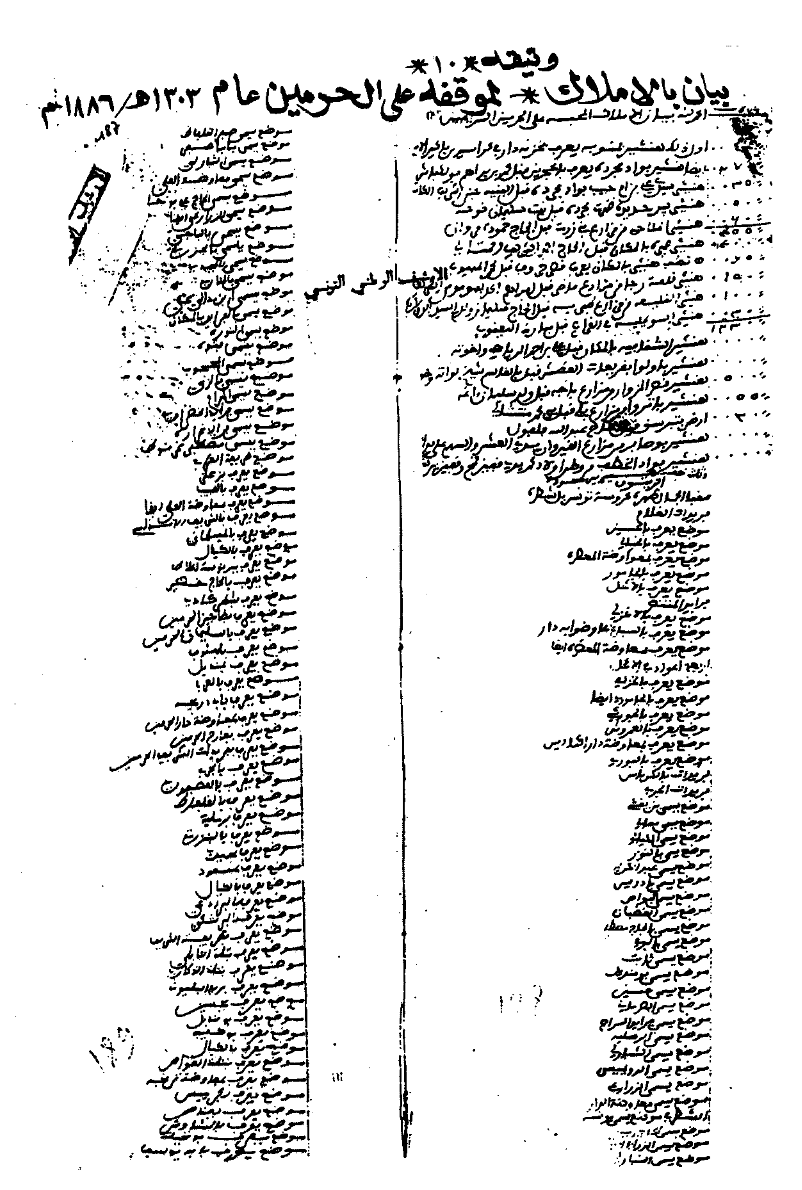
المارستان السيد الحاج محمد البزع التكية السيد محمد المملوك

السور السيد الباجي الكامل جبل المنار السيد محمد قادري

وكيل ما حول الحاضرة السيد عبد الرحمن الستاري

الارشيف ...

صميده، المرجع السابق، ص ٢٧



وثيقة *١٠*

بيان بالأملاك * الموقفة على الحرمين عام ١٣٠٣هـ/١٨٨٦م

أ، و، ت، س٤، ج١، ك٣٠، م١/١، ف ١٨٧-١٨٩، عام (١٣٠٣هـ/١٨٨٦م)

المملكة التونسية

موضع يعرف بالجيزة

موضع يعرف برشوشة القلات

موضع يعرف بفشنكة

موضع يعرف بالكويرية

موضع يعرف بالخطاب

موضع يعرف بالحمادية

موضع يعرف بعرابي حسين

موضع يعرف بهنشير مفيدس

موضع يعرف ببئر الحيوار

موضع يعرف بالافرادية

موضع يعرف بسانية عبد ربه

موضع يعرف بطريق التونسي

موضع يعرف بالمزغني

موضع يعرف بالعمارية

موضع يعرف بطريق بوزعيدة

موضع يعرف بطريق بن حلال

موضع يعرف بسانية التونسي

موضع يعرف بالنصف في شركة آغا دربا

موضع يعرف بمعاوضة دار الباشا

موضع يعرف بعين الحميد

موضع يعرف بابن رية

موضع يعرف ببونخيلة وحسين شاوش

موضع يعرف بعين الخير النضا

موضع يعرف بن عزيز

موضع يعرف بعاتية الطاهر

موضع يعرف بيحيى بسيس

موضع يعرف بسانية خزندار

وثيقة (١١)

إشراف الباي على حساب وكيل أوقاف الحرمين الشريفين في تونس

الحمد لله وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله [illegible]

الارشيف الوطني التونسي

جناب الصدر الجليل الأمجد أمير الأمراء الوزير الأكبر سيدي محمد العزيز بو عتور أدام الله تعالى عزه
أما بعد إهداء أتم السلام وتحصيل [illegible] الإكرام [illegible] فإنه صحبة هذا خمسة
جهات في حساب وكيل الحرمين الشريفين [illegible] أولها غرة ١٣٠٤ وآخرها سلخ ١٣٠٨
ثمانية وثلاثمائة بتوابعها وقد حققته الجمعية واستلمت من الوكيل جميع أصول
الحساب وحفظتها بخزينة الجمعية بعد [illegible] مع ما يرد كذلك
الجمعية بالمرغوب من الجناب السامي عرض الحساب على الحضرة العلية لإمضائه
بالختم المبارك والله تعالى يديم بقاءكم ويحفظكم والسلام من [illegible] أمير الأمراء
محمد [illegible] رئيس جمعية الأوقاف في ٢٦ شعبان الأكرم [illegible] ١٣١١

محمد [illegible]

أ ، و ، ت ، س : ج ، ك ٣٢ ، م ٣/١

وثيقة (١٢)

إعلام بصدور قرار إرسال مبلغ الصرة إلى الحجاز

الدولة التونسية

الوزارة الكبرى

الحمد لله وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الأرشيف الرسمي التونسي

الأعز الأنجب أمير اللواء السيد محمد صفر وكيل أوقاف الحرمين الشريفين بعد
إهداء صفة السلام عليكم وبعد فقد كنا كاتبناكم في شهر التاريخ بما
صدر به الإذن العلي من تحضير دراهم الصرة الموجهة في عام التاريخ على
العادة ونعلمكم الآن بصدور الإذن بأن ترفعوا الألفين وخمسماية لويز لتجعل
لأهالي مكة المكرمة بصندوق واحد والأخرى لأهالي المدينة المنورة بصندوق
أيضا وهي جملة الصرة للعاطل الزكي الشغف الكاتب الشيخ السيد محمد
ابن أبي بكر المتوجه بها للحرمين الشريفين على التاريخ المذكور يكون
عملكم على مقتضى ما صدر به الإذن ومتى جمعتموها تسلموها للمذكور
فعلى أمير اللواء محمد العزيز بوعتور الوزير الأكبر وفقه الله تعالى
في ٢٣ شوال المبارك من سنة ١٣٠٨ ثمان وثلاثمائة وألف

محمد العزيز بوعتور

مؤرخة في رجب من سنة ١٣٠٩

أ.و.ت، س، ج، ك ٢٣٢، م ١ / ٢.

في ٢٣/١٠/١٣٠٨هـ / ٣١/٥/١٨٩١م

وثيقة * ١٣ *

المملكة التونسية

ادارة اوقاف الحرمين

اذن بالدفع

عدد ١٥

ميزانيـة ١٣١١

الفصـل

بمقتضى ما عين من المبالغ بميزانية ١٢ لادارة الحرمين فانا نأذن السيد [illegible]

بدفع المصاريف الآتية للاسباب المبينة اسفله

Tunis. Imp. Officielle

اسم المدفوع له	بيان المصاريف	المبلغ المدفوع	وجه الدفع
[illegible]	[illegible]	٥٠٠٠٠	[illegible] ١٨٩٤ [illegible]

بلغت جملة ما بهذه التذكرة الى [illegible]

وكتب في [illegible] ١٣١١

المكلف بالنظر في ادارة الاوقاف

امضاء الوكيل

[illegible]

تيملت بما رقم اعلاه [illegible] عبد الرحمن [illegible]

وكتب في

امضاء الجمعية

[illegible]

تابع وثيقة * ١٣ *

المملكة التونسية — اذن بالدفع — عدد ١٩٢

ادارة اوقاف الحرمين — ميزانية ١٣١١

الفصل ٢

بمقتضى ما عين من المبالغ بميزانية ١٣١١ لادارة الحرمين فانا ناذن السيد [illegible]

بدفع المصاريف الاتية للاسباب المبينة اسفله

Tunis, Imp. Officielle

اسم المدفوع له	بيان المصاريف	المبلغ المدفوع	وجه الدفع
[illegible]	[illegible]	٠٧٥٠٠	بمقتضى مكتوب وزير مؤرخ في ١٧ [illegible] ١٨٩٤ [illegible]

بلغت جملة ما بهذه التذكرة الى [illegible]

وكتب في [illegible]

المكلف بالنظر في ادارة الاوقاف

[illegible]

امضاء الوكيل

[illegible]

توصلت بما رقم اعلاه

وكتب في

امضاء الجمعية

[illegible]

[illegible] ١٨٩٥

[illegible] شعبان ١٣١٢

وثيقة (١٤)

50

Résidence Générale de la République Française à Tunis

Tunis, le 4 Décembre 1903.

DIRECTION POLITIQUE

DIRECTION des AFFAIRES POLITIQUES
SERVICES DE LA TUNISIE

N° 137

Le Résident Général de la République Française à Tunis à Monsieur Delcassé, Ministre des Affaires Etrangères, à PARIS

Au sujet de l'envoi fait à La Mecque

Parmi les fondations que gère l'Administration des Habous se trouvent des biens dont les constituants ont affecté les revenus aux deux villes saintes (Haramin) de la Mecque et de Médine.

Suivant un usage ancien, le produit de ces biens sert tout d'abord à distribuer des secours aux indigents de Tunis, originaires de la Mecque et de Médine, et à quelques familles de chérifs.

Sur le surplus, on prélève, à chaque pèlerinage, une somme de 50.000 francs qu'un notable désigné par le Bey va remettre en mains propres au cherif de la Mecque, pour être répartie en aumônes. C'est ce qu'on appelle la Sorra.

On sait que des contributions de même nature, mais de chiffre beaucoup plus élevé, sont adressées à la Mecque par tous les souverains musulmans. A Constantinople, au Caire, cet envoi se fait en grande cérémonie et la caravane officielle porte aux autorités religieuses des villes saintes, avec le tribu en argent.

تابع وثيقة (١٤)

de nombreux présents en nature.

L'envoi de la Kâba occasionne au budget de la Djemaia des frais assez importants. D'autre part, le choix du notable chargé de cette mission de confiance suscite, à chaque pèlerinage, des compétitions qui peuvent embarrasser le Gouvernement.

Aussi me suis-je demandé si la remise de la Kâba ne pourrait être effectuée par l'intermédiaire de notre Consulat à Djeddah. Non seulement nous éviterions ainsi des ennuis administratifs, mais la mesure aurait l'avantage de bien affirmer aux yeux du Chérif de la Mecque notre situation en Tunisie et de donner, en même temps à notre Agent l'occasion de se mettre en rapports directs avec les autorités des villes saintes. Si cette manière de procéder ne vous paraissait pas présenter d'inconvénients au point de vue de notre politique à l'égard de la Porte, je vous serais reconnaissant de me le faire connaître, afin que je puisse en suggérer l'idée à Son Altesse et de m'indiquer, en même temps, comment devrait s'effectuer l'envoi de la somme à Djeddah et à combien s'élèveraient les frais de la remise. Il y aurait intérêt à ce que ces frais fussent aussi réduits que possible : cela nous permettrait, en proposant la modification, de la motiver par une raison d'économie.

ترجمة وثيقة (١٤)[1]

اقتــراح المقيم العام في تونس بشــأن إيصال مبــلغ الصرة عن طريق قنصل فرنسا بجدة

الإقامة العامة	تونس في ٤ ديسمبر / كانون الأول
للجمهورية الفرنسية	١٩٠٣م (١٣٢١هـ)
بتونس	من المقيم العام للجمهورية الفرنسية
إدارة الشؤون السياسية	بتونس إلى السيد دلكاسي
مصالح البلاد التونسية	وزير الشؤون الخارجية .
عدد ٥٣٧	باريس

حول إرسال الصرة إلى مكة

من بين المنشـآت التي تتصــرف فيــها جــمعــية الأوقــاف توجد أمــلاك تخصص مداخيلها (للحرمين الشريفين) لمكة والمدينة .

وفي كل موسم حج يقتطع من الفائض مــبلغ ٥٠ ألف فرنك يتولى أحد الأعيان بتسمية من الباي تسليمه مباشرة إلى شريف مكة لكي يُوزع صدقات ، وذلك ما يسمى بالصرة .

ومن المعروف أن مساهمات عينية أكثــر أهمية يبعثها الحكام المسلمون إلى مكة . وفي الأستانة والقاهرة تتم هذه الإرساليات في جــو احتفالي كبير ، وتحــمل القافلة الرســميــة مع الإتاوة النقــدية عدد من الهــدايا العينيــة إلى

---

(1) A.Q.D, S.N:T 1882-1919, Car 441 Dos1 ,F45 - 44(B281)

السلطات الدينية بالمدينتين المقدستين .

ويُكَلِّف إرسالُ الصرة ميزانية الجمعيــة مصروفات مهمة جدًا . ومن جهة أخرى فإن اختيار أحد الأعيان وتكليــفه بهذه المهمة يثير في موسم كل حج منافسات قد تسبب للحكومة بعض القلق.

ولذلك فإنني أتساءل ما إذا كان من الممكن أن يتم تسليم الصرة بواسطة قنصليتنا بجدة ؟ وهكذا فإننا لا نتفادى فقط ما تسببه للإدارة من ضيق وإنما أيضًا قــد يكون لهذا الإجــراء ميــزة اخــرى اذ نثبت في نظر شــريف مكة وضعيتنا بالبــلاد التونسية . وفي نفس الوقت تسنح المناسبة لـوكيلنا ليتصل مباشــرة بسلطات المدينتين المقدستين . فإذا ما لم تبــد لكم في هذا التصرف بعض السلبيات من وجهة نظر سيــاسية إزاء الباب العالي ، أكون ممتنًا لكم بأن تعلموني بذلك حتى أتمكن من طرح الفكرة على سمو الباي، وأن تبينوا لي في نفس الوقت كــيــفــية القــيــام بإرســال المبلغ إلى جــدة ، وكم تبلغ تكاليفه. وقد يكون من الصالح التخفيض بقدر الإمكان في تلك النفقات ، واقتراح التعديل هذا يمكن تسويغه بعلة اقتصادية .

وثيقة (١٥)

قرار باستلام الصرة عن طريق
نصل فرنسا في جدة .

19

[illegible]

الأشرف الـ... [illegible]

[illegible] ... جمهورية فرانسا بالشام

١٧ شعبان



و، ت، س: ج، ك ٣٢، م ٢/ ٤، ق: ١٩،

*١٧/ ٨/ ١٣٢٣هـ/ ١٦/ ١٠/ ١٩٠٥م *

وثيقة * ١٧ * وهي خطاب تهنئة بقدوم السنة الهجرية الجديدة * من أمير مكة الشريف عون الرفيق الى والي تونس الباي علي باشا *

[illegible] شريف سلام ابهج لنشر [illegible] محمد

الى الحسن ما نظمه اللسان من حقائق يواقيت الشفاه والتقطه البنان من ثمار افنان فنون الالفاظ المنتقاه واستجمع خصال

من مكارم الحزم والبيت العتيق وتحية صادرة من مهبط الوحي والتنزيل محفوفة بمزيد التعظيم والتبجيل الى جانبكم الحاوي لمحاسن الصفات صاحب المجد

الكمالات جناب الوزير الاعظم والمشير المحترم مؤسس قواعد الاقبال برايه الصائب ومشيد اركان الصولة والاجلال بمكارم المناقب وهامة اعلام

والاكرام صاحب اذيال السعد والاحترام حضرة صاحب الدولة المفخم والي تونس المعظم اعزه الله تعالى وابقاه وحرسه ووقاه ولا زالت صحة الحال

فخامة دولتكم مبتسمة الثغور وارقام رقيمة منتظمة السطور وبعد فالمنهي الى رحاب فخامة دولتكم انا لم نزل مكثرين السؤال لاجل الوقوف على ومطالع المزار

حتى وصلت الينا مكاتيب وزيركم الاكبر فاورصلت بوصولها المسار واسفرت بسطورها عن حدائق الازهار وحيث قد قبل اذا بعدت الدار وشط اعادكم

فليس الا التواصل بالاوراق على ايدي السفار لزم علينا تحرير رقيمة المحبة الودادية متضمنة التهنئة بقدوم هذه السنة المباركة الهجرية

امير مكة المكرمة

اسعد انال الى امثالها سالمين وبعون عنايته ملحوظين والاداء ما ذكر حرر هذا لودمتم في عز ابدي واقبال سرمدي والسلام [illegible]

٨ ربيع الاول عام [illegible]

الارشيف الوطني التونسي

[illegible]

أ، و، ت، س، ج، م ١/١، ق، بدون

في * ٨/٣/١٣٠١هـ/ ٦/١/١٨٨٤م *

وثيقة (١٧)

هدايا من مجاورين تونسيين إلى شخصيات تونسية

خطاب من محمد عقبة الى المشير محمد الصادق باشا باي

يقبل الأرض حمى الله ساحتها من غير الزمان وكنفها بالأمان حتى صروف الحدثان ارض الجلالة التي جعلها الله
كعبة لنيل المطالب وملاذا يأوي اليها العفاة من كل جانب لا زالت محلا لبلوغ الآمال وموردا للكل باهل ومال
بين يدي سيدنا ومولانا الوزير الأعظم والمشير الأفخم والدستور المكرم ناشر لواء العدل على رؤس الأمم صاحب
السيف والقلم ومنصف المظلوم على من ظلم فخر الوزراء الأفاضل جامع اسباب الحكم والفضائل مقلد جيد الوجود
بوشاح المناقب ومحيي ما اندرس من الجود بنظم درر المواهب في سلك الرغائب اطلع الله شموس سعادته مشرقة الأنوار
والبس الدنيا من حلل سيادته ملابس الافتخار وحلى الممالك من حميد تدبيره بما احسن من عقود الكواكب على هالة الأقمار
وجلى الدنيا بمحاسنه وكللها بما وهبها من سناه وسنائه ولا برحت رايات عزائمه منصورة واسنة رماحه ممدودة
الى هام اعدائه المقصورة امين وينهى [illegible] بعد ادعية بتأييد عزائمه وسفك دماء المداخل البينة صوارمه ان
ما تفضل به سيدي على الفقير فقد وصل وبالقبول قد اتصل وهي مائة ريال ارسلها على يد سيدي الشيخ عبد الرحمن
النابلسي فوالله يا سيدي وقعت عندي موقع الماء من ذي الغلة والشفا من ذي العلة وقد سددنا بها بعض الديون
جزاكم الله عنا افضل الجزا بجاه السيد المأمون ووالله يا سيدي ما للفقير شيء يدخل عليه لا من الخزينة ولا من غيرها
سوى ما تفضلتم به علينا وما تفضل به علينا سيدي رستم واني قد بعت جميع ما عندي من متاع وغيره وجميع ما
عند زوجتي وتداركنا التوجه الى ساحتكم العلية فما حصل لنا الآن نحن النبي صلى الله عليه وسلم واني مشتاق الى الحج مما
امكنني الخروج اليه وكلما اعزم على السفر صدمتني العوائق واني منذ سنة ونصف والفقير لا يخرج من البيت الى
المسجد فضلا عن السفر والفقير خادم لكم وملتزم بدعوتكم بالأدعية الخيرية في البكرة والعشية بنية ان الله سبحانه وتعالى
يديم نعمه عليكم ويعلي قدركم دنيا واخرى ومنا ابلاغ السلام الى الست والى السيد [illegible] وسيدي عبد الله وسيادي
ضيا الدين وجميع من يحويه شريف مجلسكم العاطر والفقير معترف بالإحسان شاكر الامتنان بل مقر بعجزه عن شكره
وعده وحصره والله تعالى يديم لكم هذه المكارم العميمة والأيادي الجسيمة ودمتم والعناية لكم لائذة وللآفة الأسواء
عنكم [illegible]

[illegible]

أ ، ٥ ، [illegible] ، ٤٢ ، ٥ ، ٦ ، ٧٨٩٣ ، ت ، يدوفا [illegible] ١١٦٧ م

وثيقة (١٨):
منظر كيس مفتاح الكعبة المعظمة وجزء من كسوتها.

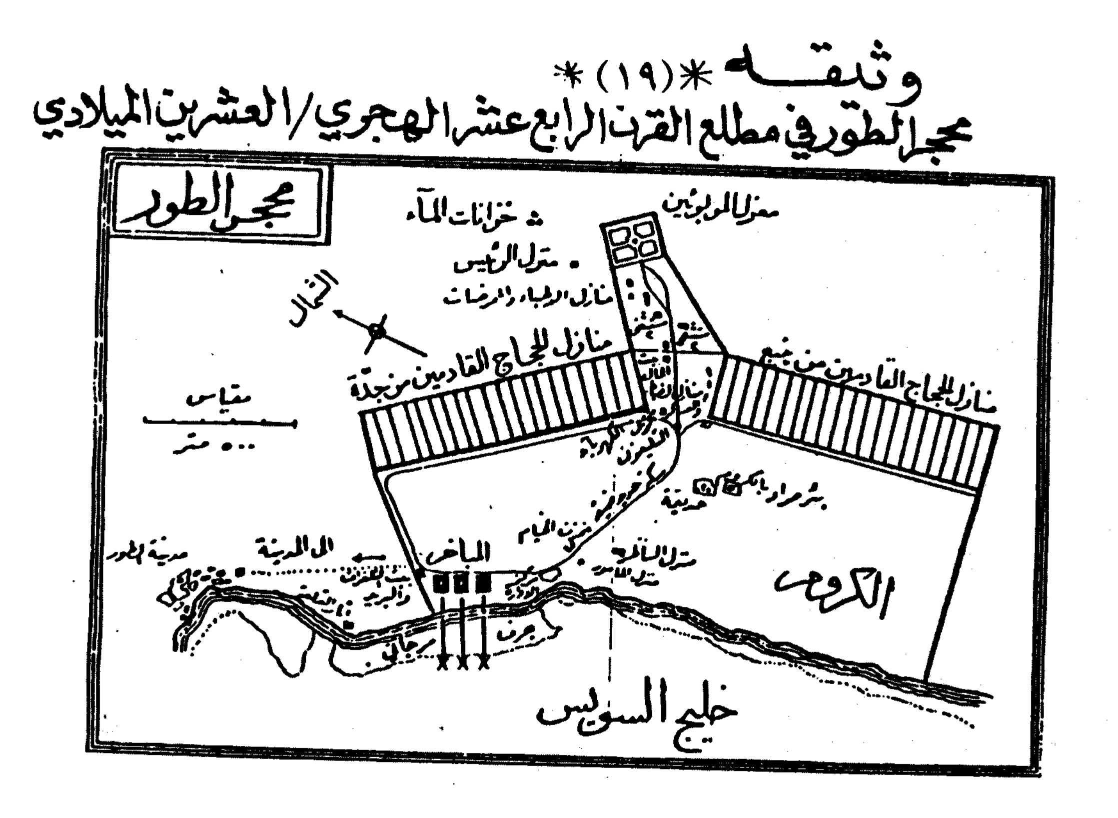




رفعت: المرجع السابق ج ١ ص ٥١٦

وثيقة *(١٩)*

محجر الطور في مطلع القرن الرابع عشر الهجري / العشرين الميلادي



رفعت، المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٣٦

المصادر والمراجع

أولاً : الوثائق .

ثانياً : المخطوطات .

ثالثاً : الرسائل العلمية .

رابعاً : المصادر والمراجع المطبوعة .

خامساً : الأبحاث العلمية والمقالات.



المصادر والمراجع :

أولاً - الوثائق :

١) غير المنشورة .

أ) دار الأرشيف الوطني التونسي (في تونس) (باللغات العربية والتركية والفرنسية). (les archvies hatinales tunisiennes)

ويحوي مجموعة من الوثائق مصنفة في سلاسل عدة، تم الاطلاع على أربع منها وفي كل سلسلة عدد من الصناديق (كرتون" ك") وفي داخل كل صندوق مجموعة ملفات (م) وهي على النحو الآتي :

١- السلسلة أ (A)

ك ٢٦/ م١، ك٢٦٥/ م٥، ك ٢٧٦ مكرر (bis) / م ١،ك ٢٧٦ مكرر (bis)/ م ٥

ك ٢٧٩، مكرر (bis) / م ١ .

٢- السلسلة التاريخية :

ك ٦٥/ م ٧٢٧، ك ٦٥/ م ٧٦٩،ك،٦٥/ م ٨٧١،ك ٦٥/ م ٨٧،ك

٦٥/ م٧٨٠،ك ٦٥/ م٧٨١،ك ٦٥/ م ٧٨٢،ك ٦٥/ م٧٨٣،ك٦٥/ م ٧٨٥

ك٦٥/ م٧٨٦،ك٦٥/ م ٧٨٧،ك٦٥/ م ٧٨٨،ك٦٥/ م٧٨٩،ك٦٥/ م ٧٩٠

ك ٦٥/ م٧٩١

٣- السلسلة ج (C) :

ك٢٩/ م١/ ٣

،ك٣٠/ م١/ ١،ك٣٠/ م١/ ٢،ك٣٠/ م١/ ٣،ك٣٠/ م١/ ٥،ك٣٠/ م١/ ١٢

ك٣٠/ م٢/ ١،ك٣٠/ م٢/ ٢،ك٣١/ م١/ ١،ك٣١/ م١/ ٥،ك٣١/ م١/ ١٢،ك٣

٢/ م١/ ١

ك٣٢/ م١/ ٢، ك٣٢/ م١/ ٣، ك٣٢/ م١/ ٤، ك٣٢/ م١/ ٥، ك٣٢/ م١/ ٦، ك٣٢/ م١/ ٧

ك٣٢/ م١/ ٨، ك٣٢/ م٢/ ٤، ك٣٢/ م٢/ ٦، ك٣٢/ م٢/ ٧

٤ - السلسلة هـ (H) :

ك٧٥، م ١/ ٦، ك٧٥، م ١/ ١٣، ك٧٥، م ١/ ١٤، ك٧٥، م ١/ ١٥، ك٧٥، م ١/ ١٦

٥ - الدفاتر الجنائية :

وتوجد في مستودع خاص متصل بدار الأرشيف الوطني . وهي عبارة عن دفاتر تتعلق بالنواحي الإدارية في البلاد التونسية .

دفتر رقم ٢٣٢٢ دفتر رقم ٢٣٢٣ دفتر رقم ٢٣٢٤

ب) أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية (في باريس) (نسخة مصورة على بكرات ما يكروفيلم في المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية في تونس) (باللغة الفرنسية) . (Les Archives du Puaid orsay)

New Serie : T 1882 - 1919
Car 126, Dos 1(B46) Car 127, Dos1,(B41), Car 128, Dos 1,(B46)
Car 129 Dos1, (B41), Car 441, 1,(B 281)

ج) خزينة أملاك الدولة والشؤون العقارية (في تونس)

وهي موجودة بدائرة أملاك الدولة والشؤون العقارية في تونس . وتحتوي على وثائق باللغة العربية بعضها تحت اسم كرتون رقم (١)، وبعضها الآخر مصنف حسب السنوات، وقد تم الاطلاع على الأعوام (١٩٠٣م ، ١٩٠٧م).

د) وثائق دارة الملك عبدالعزيز (في الرياض) :

١/ ٢ - ١٤٤ وتحوي ثلاث وثائق وهي موجودة في دارة الملك عبدالعزيز بالرياض، والوثائق التي تم استخدامها مترجمة من قبل الدارة عن اللغة التركية.

هـ) خزينة الوثائق البريطانية : (في لندن) باللغة الإنجليزية :

(The Public Record Office)

F0371/8354-104927.. F 0881/9618- C 10567

٢) الوثائق المنشورة :

جلاب، الهادي، وعبدالمجيد كريم . وثائق معرض الحركة الإصلاحية بالبلاد التونسية بين (١٨١٥-١٩٢٠م)، (منشورات المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية، تونس، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م).

ثانياً - المخطوطات :

١) باللغة العربية :

البسام : عبدالله بن محمد (١٣٤٦هـ/ ١٩٢٨م) .

تحفة المشتاق في أخبار نجد الحجاز والعراق، (مخطوط نقله عن الأصل نور الدين شربية، تاريخ النسخ ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م).

الجوي : محمد بن صالح (ت ١٣٦٢هـ/ ١٩٤٣م) .

رحلة (بدون عنوان)، (نسخة مخطوطة بمكتبة فضيلة الشيخ حمد الجاسر، الرياض)، تاريخ النسخ : القرن الرابع عشر الهجري / العشرين الميلادي) .

ابن حميد : محمد بن عبدالله (ت ١٢٩٥هـ/ ١٨٧٨م) .

إجـازة لمصطفى بن خليل التـونسي في عـام ١٢٩٤هـ/ ١٨٧٧م، (مكتبـة الحرم، مكة المكرمة، مخطوط برقم ١١٤٤، "ميكروفيلم"، تاريخ النسخ ١٢٩٤هـ/ ١٨٧٧م) .

الدهلوي : عبدالستار بن عبدالوهاب (ت ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م) .

فيض الملك المتعالي بأنباء أوائل القرن الثالث عشر والتوالي، (مكتبة الحرم المكي، مكة المكرمة، مخطوط برقم "١١٠١"، ميكروفيلم، تاريخ النسخ ١٣١٩هـ/ ١٩٠١م). نثـر المآثر فيـما أدركت من الأكـابر، (مكتبـة الحرم المكي، مكة المكرمـة، مـخطوط برقم " ٢٧٠٠" "مـيكروفـيلم" تاريخ النسخ القرن الرابع عشر الهجري/ العشرين الميلادي) .

نزهة الأنظار فـيما مـضى من الحوادث والعبـر من هبوط آدم أبي البـشر، (مكتـبـة الحـرم المكي، مكة المـكرمـة، مـخطـوط برقم (٣٢٥٨)، "ميكروفيلم" . تاريخ النسخ القرن الرابع عشر الهجري .

الصباغ : محمد بن أحمد (١٣٢١هـ/ ١٩٠٢م) .

تحصيل المرام في أخـبار البيت الحرام، (مكتبـة الحرم المكي، مكة المكرمة، مـخطوط بـرقم ١١ دهلـوي " مـيكروفـيلـم "، تاريخ النـسخ ١٣٢٠هـ/ ١٩٠٢م) .

ابن غازي : عبدالله (١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م) .

إفادة الأنام بأخبار بلد الله الحرام، (مخطوطات مكتبة الحرم المكي الشريف . مكة المكرمة، مخطوط رقم ٢٧٤٣، (مـيكروفيلم)، تاريخ النسخ القرن الرابع عشر الهجري / العشرين الميلادي .

٢) باللغة التركية :

شاكر : (الدكتور القائمقام) .

حجازك أحوال عمومية وصحيــة وإصلاحات أساسية وحاضرة سيله برابر بعض مــشاهدات ومــلاحظات بندكانــئ حاوي برلائحــة وطبي، (مكتبــة جــامــعــة إســتــانبــول، مــخطــوط برقم ٤٦٠٩، تاريخ الـنسخ ١٣٠٨هـ/ ١٨٩١م) .

ابن نعمان : (الدوامي) محمد كامل .

جزيرة العرب دائرة مـعلومات، (مكتبة جـامعة إستانبـول، مخطوط برقم ٤٤٣٢، تاريخ النسخ ١٣١٢هـ/ ١٨٩٥م) .

ثالثاً - الرسائل العلمية غير المنشورة

١) باللغة العربية :

الحبشي : أمينة .

أوقاف الحرمين الشـريفين والصرة في فترة الحـماية (١٨٨١-١٩٥٥م) من وثائق السلسلة C (والسلسلة A) بالأرشيف الوطني التونسي رسالة غير منشــورة بالأرشـيف التــونســي برقم ١٢٩٤، (جــامــعــة الآداب والعلوم الإنسانية، تونس، ١٩٩٣م).

صميدة : عروسية .

وثائق جمعية الأوقاف بالأرشـيف الوطني التونسي، رسالة للحصول على الأستــاذية (الليــسانس) في علوم المكتـبات والتـوثيق والأرشيف، (كلــية الآداب والعلوم الإنسانية، تونس ١٤١١هـ/ ١٩٩١م)، موجودة بالأرشيف الوطني التونسي.

العبسي : ملامح من المجتمع التونسي مــن خلال جريدة النديم لحسين الجزيرة، رسالة غــير منشورة (شهــادة الكفاءة في البحث)، (الجـامعة التونســية، تونس ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م) .

العجـيلي : الوهابية والبـلاد التونسيــة زمن حمودة باشــا، رسالة غيــر منشورة

(شـهادة الكفـاءة في البحث)، برقـم ٢٩٣٥ ، (الجامـعة التـونسيـة، تونس، ١٩٨٣م) .

المشاري : منى .

المجاورون في مكة والمدينة في العـصر المملوكي (٦٤٨-٩٩٢هـ/ ١٢٥٠-١٥١٧م)، رسالة مـاجستير غـير منشورة، (مكتـبة جامعة الملـك سعود، الرياض ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م) .

رابعاً - المصادر والمراجع المطبوعة:

١) باللغة العربية :

ابن إدريس : عبدالله عبدالعزيز

مجتمع المدينة في عهد الرسول ﷺ . (مطابع جامعة الملك سعود، الرياض، ١٤٠٢هـ/ ١٨٨٢م)

أرسلان : شكيب .

الارتسامـات اللطاف في خـاطر الحاج إلى أقدس مطـاف، تعليق محـمد رشيد رضا، (د. م . ن . د . ت، ن) .

الأزرقي : محمد بن عبدالله (نحو ٢٥٠هـ/ ٨٦٤م) .

أخبـار مكة وما جـاء فيـها من الآثار . تحقـيق رشدي الصـالح ملحس، (مطابع دار الثقافة، مكة المكرمة، ط ٣، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م).

الإمام : رشاد .

سيـاسة حـمودة باشا في تونس (١٧٨٢-١٨١٤ م)، منشـورات الجامـعة التونسية، تونس، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م) .

أمين : أحمد .

زعماء الإصلاح في العـصر الحديث، (مكتبة النهضـة المصرية، القاهرة،

١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م) .

الأنصاري : عبدالرحمن (ت ١١٩٥هـ/ ١٧٧٩م) .

تحفة المحبين والأصحاب في معرفة ما للمدنيين من الأنساب، تحقيق محمد العروسي المطوي، (المطبعة العتيقة، تونس، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م) .

أنيس : محمد

الدولة العثمانية والشرق العربي (١٥١٤هـ/ ١٩١٤م) . (مكتبة الإنجلو المصرية، القاهرة، ١٤٠٠هـ/ ١٩٩٠م) .

إبن اياس : أبو البركات محمد (ت ٩٣٠هـ/ ١٢٥٤م) .

بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى وبال كالة، (مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م) .

باقاسي : عائشة عبدالله .

بلاد الحجاز في العصر الأيوبي (٥٦٧-٦٤٨هـ/ ١١٧١-١٢٥٠م)، (دار مكة للطباعة والنشر، مكة المكرمة، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م) .

البتنوني : محمد لبيب (١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م) .

الرحلة الحجازية، (مطبعة الجمالية، مصر، ط ٢، ١٣٢٩هـ/ ١٩١١م) .

البخاري : أبو عبدالله محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦هـ/ ٨٦٩م) .

صحيح البخاري، (عالم الكتب، بيروت، د. ت . ن) .

بدري : مصطفى .

الرؤية السياسية من خلال رسالتي محمد بيرم الخامس ومصطفى فاضل باشا، (الدار التونسية للنشر، تونس، ١٣١٣هـ/ ١٨٩٣م).

البلادي : عاتق .

معجم معالم الحجاز، (دار مكة للنشر، مكة المكرمة، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م).

نشر الرياحين في تاريخ البلد الأمين، (دار مكة للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م) .

ابن بلغيث : الشيباني

الجيش التونسي في عهد محمد الصادق باي (١٨٥٩-١٨٨٢م)، (مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، زغوان، تونس ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م)

بيرم : محمد (ت ١٣٠٧هـ/ ١٨٩٠م) .

صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، (المطبعة الإعلامية، القاهرة ١٣٠٢هـ/ ١٨٨٥م) .

التر : عزيز سامح .

الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، ترجمه عن التركية محمود على عامر، (دار النهضة العربية، بيروت، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م) .

تشابجي : عبدالرحمن .

المسألة التونسية والسياسية العثمانية ١٨٨١هـ/ ١٩١٣م، نقله عن الفرنسية وعلّق عليه عبدالجليل التميمي، (دار الكتب الشرقية، تونس، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٣م).

ثامر : الحبيب .

هذه تونس، مراجعة وتحقيق حمادي الساحلي، (دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م) .

جارشلي : أوزن، وإسماعيل حقي .

أمراء مكة المكرمة في العهد العثماني، ترجمه عن التركية خليل علي

مراد، (منشورات دراسات مركز الخليج، البصرة، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م) .

جمعة : محمد كمال .

انتشار دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، (دارة الملك عبدالعزيز، الرياض، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م) .

الجمل : شوقي عطا الله .

المغرب العربي الكبير في العصر الحديث (ليبيا - تونس - الجزائر - المغرب) (مكتبة الإنجلو المصرية، القاهرة، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م) .

الجميل : سيار .

تكوين العرب الحديث، (دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م).

الحنجاني : الحبيب .

دراسات في الفكر العربي الحديث، (دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م) .

جوليان : شارل أندري .

تاريخ أفريقيا الشمالية، تعريب محمد مزالي، والبشير بن سلامة، (الدار التونسية للنشر، تونس، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م) .

حافظ : عثمان .

صور وذكريات عن المدينة المنورة، (نادي المدينة الأدبي)، (المدينة المنورة، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م) .

الحداد : الطاهر .

العمال التونسيون وظهور الحركة النقابية، (مطبعة العرب، تونس، ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م) .

حسن : حسن إبراهيم .

تاريخ الإسلام: السياسي، والديني، والثقافي، والاجتماعي، (مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط ٧، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م) .

ابن حزم : أبو محمد علي بن أحمد (ت ٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م) .

جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبدالسلام هارون، (دار المعارف، القاهرة، ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م) .

الحصري : ساطع (١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م) .

البلاد العربية والدولة العثمانية، (معهد الدراسات العربية، القاهرة، ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٧م) .

حولية الثقافة العربية، (مطبعة نخبة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، س١، ١٣٦٩هـ/ ١٩٤٩م) .

الحقيل : حمد إبراهيم .

كنز الأنساب ومجمع الآداب، (مطابع الجاسر، الرياض، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م) .

الحلواني : سعد بدير .

العلاقات بين مصر والحجاز ونجد في القرن التاسع عشر الميلادي، (د. م، ن، مصر، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م) .

حمزة : فؤاد (ت ١٣٧١هـ/ ١٩٥١م) .

قلب جزيرة العرب، (مكتبة النصر الحديثة، الرياض، ط ٢، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م).

ابن خلدون : عبدالرحمن (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م) .

تاريخ ابن خلدون المسمى بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب

والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، (مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت، (بدون رقم الطبعة)، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م) .

ابن الخوجة : محمد (١٣٦١هـ/ ١٩٤٢م) .

صفحات من تاريخ تونس، تقديم وتحقيق حمادي الساحلي، والجيلاني بن يحيى، (دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م) .

دحلان : أحمد زيني (ت ١٣٠٤هـ/ ١٨٨٦م) .

تاريخ أشراف الحجاز - خلاصة الكلام في أمراء البلد الحرام، تحقيق وتحليل محمد أمين توفيق، (دار الساقي ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م).

خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام، (دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٠٤هـ/ ١٨٨٧م) .

دروزة : محمد عزة .

حول الحركة العربية الحديثة، (المطبعة العصرية، صيدا، ١٣٧٠هـ/ ١٩٥٠م)

الدقن : السيد محمد .

سكة حديد الحجاز الحميدية، دراسة وثائقية، (مطبعة الجبلاوي، القاهرة، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م) .

الرازي : محمد بن أبي بكر (ت ٦٦٠هـ/ ١٢٥٦م) .

مختار الصحاح، (دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م) .

الرشيدي : أحمد .

حسن الصفا والابتهاج بذكر من ولي إمارة الحاج، تحقيق ليلى عبداللطيف أحمد، (مكتبة الخانجي، مصر، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م).

رضوان : نبيل عبدالحي .

الدولة العثمانية وغربي الجزيرة العربية بعد افتتاح قناة السويس (١٢٨٦-١٣٢٦هـ/ ١٨٦٩-١٩٠٨م)، (مطبعة تهامة، جدة، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م).

الركباني : عمر .

خلاصة التاريخ التونسي في مدة ٢٧ قرناً، (مطبعة التليلي، تونس، ١٣٣٧هـ/ ١٩١٩م) .

رفعت : إبراهيم (ت ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٤م) .

مرآة الحرمين (أو الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية)، (دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٦٤هـ/ ١٩٤٥م) .

رفيع : محمد عمر .

مكة في القرن الرابع عشر الهجري، (منشورات نادي مكة المكرمة، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م) .

رياض : زاهر .

شمال أفريقيا في العصر الحديث، ليبيا - تونس - الجزائر - المغرب، (مكتبة الإنجلو المصرية، القاهرة، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م).

زامبارو : إدوارد فون (ت ١٣٦٩هـ/ ١٩٤٩م) .

معجم أنساب الأسر الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ترجمة زكي حسن، وحسن محمود، (دار الرائد العربي، بيروت، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م)، تم الاعتماد عليه فيما يخص مقابلة التواريخ الهجرية بالميلادية وبالعكس .

الزبيدي : محمد مرتضى (١٢٠٥هـ/ ١٧٩٠م) .

تاج العروس من جواهر القاموس تحقيق إبراهيم الترزي، (مطبعة حكومة الكويت، الكويت، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م) .

الزركلي : خير الدين .

الأعلام، (دار العلم للملايين، بيروت ، ط ١٢ ، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م).

الزمرلي : الصادق .

أعلام تونسيون، تقديم وتعريب حمادي الساحلي، (دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م) .

زيدان : محمد حسين .

ذكريات العهود الثلاثة، (مطابع الفرزدق، الرياض، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م).

الزيلعي : أحمد .

مكة وعلاقاتها الخارجية (٣٠١-٤٨٧هـ)، (عمادة شؤون المكتبات بجامعة الرياض (الملك سعود)، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م) .

السباعي : أحمد .

تاريخ مكة، (نادي مكة الثقافي، مكة المكرمة، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م) .

سرهنك : إسماعيل (١٣٤٣هـ/ ١٩٢٥م) .

حقائق الأخبار عن دول البحار، (المطبعة الأميرية ببولاق، مصر، ١٣١٢هـ/ ١٨٩٥م). **سرور** : محمد جمال الدين .

تاريخ الدولة الفاطمية، (دار الفكر، بيروت، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م) .

ابن سلم : أحمد سعيد .

المدينة المنورة في القرن الرابع عشر الهجري، (دار المنار، القاهرة، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م).

السنوسي : محمد بن عثمان (ت ١٣١٨هـ/ ١٩٠٠م) .

الرحلة الحجازية، تحقيق علي الشنوفي، (الشركة التونسية للتوزيع، تونس، (جـ ٢، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، جـ ٣، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م) .

مسامرات الظريف بحسن التعريف، تحقيق وتعليق الشيخ محمد الشاذلي النيفر، (دار الغرب الإسلامي، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م) .

الشامخ : محمد عبدالرحمن .

التعليم في مكة والمدينة آخر العهد العثماني، (د.م. ن، الرياض، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م).

نشأة الصحافة في المملكة العربية السعودية، (دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م) .

الشريف : البشير بن عثمان .

أضواء على تاريخ تونس الحديث (١٨٨١-١٩٢٤م)، (دار بوسلامة للطباعة والنشر، تونس، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م) .

الشريف : عبدالرحمن صادق .

جغرافية المملكة العربية السعودية، (دار المريخ للنشر، الرياض، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م).

الشوابكة : أحمد فهد .

حركة الجامعة الإسلامية، (مكتبة المنار، الأردن، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م) .

الشوكاني : محمد بن علي (ت ١٢٥٥هـ/ ١٨٣٩م) .

نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار، شرح منتقى الأخبار، (دار الجيل، لبنان، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م) .

صباغ : ليلى .

تاريخ العرب الحديث والمعاصر، (دار الكتاب، دمشق، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م) .

صبري : أيوب .

مرآة جزيرة العرب، ترجمة وتعليق أحمد فؤاد متولي والصفصافي أحمد المرسي، (دار الرياض للنشر، الرياض ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م).

الصواف : فائق .

العلاقات بين الدولة العثمانية وإقليم الحجاز في الفترة (١٢٩٣-١٣٣٤هـ/ ١٨٧٦-١٩١٦م)، (مطابع سجل العرب، القاهرة، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م).

الصيرفي : علي بن داود (ت ٩٠٠ هـ/ ١٤٩٢م) .

نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق حسن حبشي، (دار الكتب، القاهرة، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م) .

ابن أبي الضياف : أحمد (ت ١٢٩١هـ/ ١٨٧٤م) .

إتحاف أهل الزمان بأخبار تونس وعهد الأمان، (الدار التونسية للنشر، تونس، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م) .

ابن عاشور : الفاضل (ت ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م) .

تراجم الأعلام، (الدار التونسية للنشر، تونس ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م).

عبدالسلام : أحمد .

المؤرخون التونسيون في القرون ١٧م، ١٨م، ١٩م، ترجمه عن الفرنسية أحمد عبدالسلام، وعبدالرزاق الخليوي، (بيت الحكمة، تونس، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م).

عبدالجبار : عمر .

دروس من قديم التعليم وحاضره بالمسجد الحرام، (دار ممفيس، القاهرة، ١٣٧٩هـ/ ١٩٥٩م) .

عبدالله : عبدالرحمن صالح .

تاريخ التعليم في مكة المكرمة، (دار الشروق، جدة، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م).

عبدالله : الطاهر .

تاريخ الحركة النقابية في تونس، (دار الطليعة، بيروت، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م) .

عبدالوهاب : حسن حسني (١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م) .

خلاصة تاريخ تونس، (الدار التونسية للنشر، تونس، ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٥م).

العثيمين : عبدالله صالح .

تاريخ المملكة العربية السعودية، (د. م . ن، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م).

الشيخ محمد بن عبدالوهاب - حياته وفكره - (دار العلوم، الرياض، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م) .

العجيلي : التليلي .

الطرق الصوفية والاستعمار الفرنسي بالبلاد التونسية، (١٨٨١ - ١٩٣٩م)، (منشورات كلية الآداب، منوبة (تونس)، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م).

العقاد : صلاح .

المغرب العربي في التاريخ الحديث والمعاصر (الجزائر، تونس، المغرب الأقصى)، (مكتبة الإنجلو المصرية، القاهرة، ط ٦، (١٤١٣هـ / ١٩٩٣م).

العصامي : عبدالملك بن حسين (ت ١١١١هـ / ١٦٩٩م) .

سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، (المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م) .

العظم : خالد .

مذكرات، (الدار المتحدة للنشر، بيروت، ط ٢، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م) .

العظمة : عزيز .

مرآة الشام، تحقيق نجدة فتحي صفوت، (رياض الريس للكتب والنشر، لندن، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م) .

عمر : عمر عبدالعزيز .

تاريخ المشرق العربي ١٥١٦-١٩٢٢م، (دار النهضة العربية، بيروت، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م) .

عيسوي : شارل .

التاريخ الاقتصادي للشرق الأوسط وشمال أفريقيا، ترجمة سعد رحمي، (دار الحداثة، لبنان، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م) .

غوانمة : هنادي يوسف .

المملكة الهاشمية الحجازية ١٩١٠-١٩٢٥م، (دار الفكر للنشر والتوزيع، عَمّان، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م) .

الفاداني : محمد ياسين .

تشنيف الأسماع بشيوخ الإجازة والسماع أو إمتاع أولي النظر ببعض أعيان القرن الرابع عشر، (دار الشباب للطباعة، القاهرة، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م).

الفاسي : تقي الدين محمد (ت ٨٣٢هـ/ ١٤٢٨م) .

العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق محمود الطناحي، (مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م) .

أبو الفداء : عماد الدين إسماعيل (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٢٨م) .

المختصر في أخبار البشر، (المطبعة الحسينية المصرية، القاهرة، ١٣٢٥هـ/ ١٩٠٧م) .

فريد : محمد (١٣٣٨هـ/ ١٩٢٠م) .

تاريخ الدولة العلية العثمانية، (دار الجيل، بيروت، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م) .

فشر : هربرت (١٣٦٠هـ/ ١٩٤١م) .

تاريخ أوربا في العصر الحديث، ترجمه عن الإنجليزية أحمد نجيب هاشم ووديع الضبع، (دار المعارف، مصر، ط ٢، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م) .

الفوزان : إبراهيم .

إقليم الحجاز وعوامل نهضته الحديثة، (مطابع الفرزدق، الرياض، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م) .

الفيروز أبادي : مجد الدين محمد بن يعقوب (ت ٨١٧هـ/ ١٤١٤م) .

القاموس المحيط (المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م) .

قابادو : محمود (ت ١٢٨٨هـ/ ١٨٧١م) .

ديوان قابادو، جمع محمد بن عثمان السنوسي، (الدار التونسية للنشر، تونس، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م) .

القاسمي فتحي :

الشيخ محمد بيرم الخامس . حياته وفكره الإصلاحي، (بيت الحكمة، تونس، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م) .

قاسمية : خيرية، وعلي إبراهيم عبده .

يهود البلاد العربية، (مركز الأبحاث الفلسطيني، بيروت،

١٣٩١هـ/ ١٩٧١م) .

القصاب : أحمد .

تاريخ تونس المعاصر (١٨٨١هـ/ ١٩٥٦م)، نقله من الفرنسية إلى العربية حمادي الساحلي، (الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م) .

الكتاني : عبدالحي بن عبدالكبير (١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م) .

فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، تعليق إحسان عباس، (دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م) .

كتبي : أنس يعقوب .

أعلام من أرض النبوة، (دار البلاد للطباعة والنشر، جدة، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م)

كردي : محمد طاهر .

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، (مكتبة النهضة الحديثة، مكة المكرمة، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م) .

كريكين : ج . س. فان .

خير الدين والبلاد التونسية (١٨٥٠-١٨٨١م)، ترجمه عن الفرنسية البشير بن سلامة، (دار سحنون للنشر، تونس، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م) .

ابن ماجه : أبو عبدالله محمد بن يزيد (ت ٢٧٥هـ/ ٨٨٨م) .

سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، (دار احياء التراث العربي، بيروت، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م) .

محفوظ : محمد .

تراجم المؤلفين التونسيين، (دار الغرب الإسلامي، بيروت،

١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م) .

ابن مخلوف : محمد بن محمد (١٣٦٤هـ/ ١٩٤٥م) .

شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، (المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م) .

مزالي : محمد الصالح .

تطور تونس الاقتصادي (١٨٨١هـ/ ١٩٢٠م)، عرَّبه عن الفرنسية الهادي التيمومي، (بيت الحكمة، قرطاج (تونس)، ١٤٠٠هـ/ ١٩٩٠م) .

مسلم : أبو الحسين مسلم بن الحجاج (ت ٢٦١هـ/ ٨٧٤م) .

صحيح مسلم بشرح النووي، (دار الفكر، لبنان، ط٣، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م)

مغربي : محمد علي .

أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة وبعض القرون الماضية، (مطبعة المدني، القاهرة، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م) .

ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة، (مطبعة تهامة، جدة، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م) .

مقادمي : فيصل عبدالله .

التعليم الأهلي للبنين في مكة المكرمة، (مطبوعات نادي مكة الثقافي، مكة المكرمة، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م) .

مقديشي : محمود (ت ١٢٢٨هـ/ ١٨١٣م) .

نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تحقيق علي الزواري، ومحمد محفوظ (دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م) .

ابن منظور : جمال الدين محمد (ت ٧١١هـ/ ١٣١١م) .

لسان العرب، (دار صادر، بيروت، ط ٣، ١٤١٤هـ/ ٩٩٤م) .

مورتيل : ريتشارد .

الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة في العصر المملوكي، (عمادة شؤون المكتبات بجامعة الملك سعود، الرياض، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م) .

النيفر : محمد بن محمد الطيب (١٣٣٠هـ/ ١٩١٢م) .

عنوان الأريب عما نشأ بالمملكة التونسية من عالم أديب، (المطبعة التونسية، تونس، ١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م) .

هازادر : هاري .

أطلس التاريخ الإسلامي، ترجمة وتحقيق إبراهيم زكي خورشيد، (مطبعة مصر، القاهرة، د. ت . ن) .

هورخرونيه : ك . سنوك (١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م) .

صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري، نقله إلى العربية وعلق عليه محمد بن محمود السرياني ومعراج نواب مرزا، مراجعة محمد إبراهيم أحمد علي، (مطبوعات نادي مكة الأدبي، مكة المكرمة، ١٤٠٠هـ/ ١٩٩٠م).

الولاتي : محمد بن يحيى (١٣٣٠هـ/ ١٩١٢م) .

الرحلة الحجازية، تعليق محمد الحجي، (دار الغرب الإسلامي، تونس ١٤٠٠هـ/ ١٩٩٠م) .

فتح الودود على مراقي السعود، مراجعة حفيده محمد عبدالله محمد الولاتي (دار عالم الكتب للطباعة والنشر، الرياض، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م).

وهبة : حافظ .

جزيرة العرب في القرن العشرين، (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط ٥، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م) .

ياقوت : شهاب الدين ياقوت الحموي . (٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م) .

معجم البلدان، (دار صادر، بيروت، د. ت. ن) .

يحيى : جلال .

المغرب الكبير (العصور الحديثة وهجوم الاستعمار)، دار النهضة العربية، بيروت، (١٤٠١هـ/ ١٩٨١م) .

٢) باللغات الأجنبية:

Al Amr, Saleh Mohammed, The Higaz Under Ottoman Rule 1969-1914, (Riyadh University Publications, 1978)

AL-Shaafi, Mohammad, S, The Foreign Trad Of Judda During The Ottoman Period 1840 -1941 (D.P, 1985)

Al Shebel, Abdulaziz, The Kingdom of the Hejaz (19161925) (Unpulished doctorat thesie universty of Calfornia, Los Angeges.

Ben Ashore , Mohammed ELAziz, Les ulama A Tunis A ux xvil Sieles, Thes s De Doctorat De(3 em Cycle (H istoire) (universty Paris Sorboon Letters Et Civilistions (Paris)

Brown Carl and Cyril Black , Moderniztion In Middle East The Ottman Empireand its Afro- Asian Successor. The Darwn (Press, Princeton, U.S.A.1992)

Brown, Carl, The Tunisia Of Ahmad Bey 1847/1855,(New Jersey Prince Ton, 1970)

Holt, P.M , The Cambridge History of Islam (Cambrige University Press, 1970)

Hourani, Albert, Ahistory of The Arab Peples, (Haravrd Univeristy Cambrige U.S.A 1991.

Hungary, Green Arnold, H., the Tunisian Ulama 1873-1915(1978)

Sammut, Carmel, Limperalisme Capitaliste Franciais Et Le Nationalisme Tunisian (1881-1914) Publisud, 1983.

Tlili, Bechir, Les Raports Culturels Et Ideologiques Entre Lorient Et Loccident, En Tunisie, Au Xix Siecle(1830-1880) Pubilications, De TUNISE , 1974)

Zanetti, Andres Tuger The Tunis Et Istenbul (1860-1913), Province Et Metropole, (Paris) L Harmattan,

خامساً - الأبحاث العلمية والمقالات :

بو علي : بشير .

السياسة الاستعمارية وآثارها في الميادين الاقتصادية والاجتماعية والثقافة، محاضرات الحركة الوطنية التونسية، (معهد التوثيق القومي، تونس، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م) .

التميمي : عبدالمالك .

الاستيطان الأجنبي في الوطن العربي، (عالم المعرفة، الكويت، ع ١٧، محرم / صفر ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م) .

الجاسر : حمد .

رحلة التميمي التونسي إلى الحج، (مجلة العرب، دار اليمامة للبحث والترجمة، الرياض، ع ١، ٢، س ١٦، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م) .

رحلة التميمي التونسي للحج - ٢ -، (مجلة العرب، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، مج ٥، ٦، س ١٦، ذو القعدة، ذو الحجة ١٤٠١هـ، سبتمبر، أكتوبر ١٩٨١م) .

رحلة التميمي التونسي إلى الحج - ٨ -، (مجلة العرب، دار اليمامة للنشر، الرياض، ١١، ١٢، س ١٨، جمادى الأولى - جمادى الآخرة ١٤٠٣هـ/ فبراير - مارس ١٩٨٣م) .

الرحلة الحجازية، (مجلة العرب، دار اليمامة للنشر، الرياض، ع ١٠، ١١، س ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م) .

صفحات من تاريخ مكة في نهاية القرن الثالث عشر للمستشرق الهولندي د. سنوك هورخرونيه، (المجلة العربية، الرياض، ع ٢٢٦، س ٢٠، ذو القعدة ١٤١٦هـ، إبريل ١٩٩٦م) .

ابن دهيش : عبداللطيف .

الحياة الاجتماعية في مكة المكرمة منذ مطلع القرن العشرين حتى قيام الحرب العالمية الأولى ١٩٠٠-١٩١٤م، بحث في كتاب الحياة الاجتماعية في الولايات العربية أثناء العهد العثماني، جمع وتقديم عبدالجليل التميمي، (منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات، زغوان (تونس) ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م) .

دياب : أحمد إبراهيم

العلاقة بين جدة وسواكن (التي كانت تابعة لولاية جدة) في فترة الحكم العثماني. بحث في كتاب دراسات تاريخ الجزيرة العربية - الجزء الثاني - (كلية الآداب، جامعة الرياض (الملك سعود) ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م) .

شطا : صالح

تجديد لمجالس العلماء والأدباء في مطلع هذا القرن، (مجلة المنهل، مكة المكرمة، ع ٦، ص ٨، جمادى الآخرة ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٧م).

الشنواني : محمد

فقهاء المذاهب المجتهدون عبر الزمان، (صحيفة العالم الإسلامي الأسبوعية، مكة المكرمة، ٢٥ صفر ٢٠ ربيع الأول ١٤١٨هـ/ ٣٠ يونيه - ٦ يوليه ١٩٩٧م) .

شوقي : محمد .

الأراضي الوقف في المدينة المنورة، (مجلة الدارة، الرياض، ع ٢، س ١٠، محرم ١٤٠٥هـ/ سبتمبر ١٩٨٤م) .

صابان : سهيل .

سالنامة ولاية الحجاز (١٣٠١-١٣٠٩هـ)، (مجلة مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، مج ١، ع ١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م).

عبدالرحيم : عبدالرحيم عبدالرحمن .

العلاقات الاقتصادية والاجتماعية بين الولايات العربية إبان العصر العثماني (١٥١٧-١٧٩٨م) من خلال وثائق المحاكم الشرعية المصرية، (المجلة التاريخية المغربية، زغوان . (تونس)، ع ٢٩-٣٠، س ١٠، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م) .

العثيمين : عبدالله بن صالح .

الرسائل الشخصية للشيخ محمد بن عبدالوهاب، (أسبوع الشيخ محمد بن عبدالوهاب، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م).

العمرو : محمد صالح .

تقارير القناصل البريطانيين في جدة كمصدر لتاريخ غرب الجزيرة العربية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، بحث في كتاب دراسات تاريخ الجزيرة العربية - مصادر تاريخ الجزيرة العربية - الجزء الثاني، (كلية الآداب، جامعة الرياض (الملك سعود)، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م).

النزاع التركي - المصري على شمال الحجاز وسيناء وتدخل الحكومة البريطانية (١٨٨٤هـ/ ١٩٠٦م)، مجلة الدارة، الرياض، ع ١، س ٥، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م) .

فروة : محمود .

النظام النقدي في تونس في القرنين الثامن والتاسع عشر، مدخل لدراسة أحد مؤشرات الإيالة التونسية (١٧٤٠-١٨٩١م)، (المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، زغوان (تونس)، ع ١، ٢ يناير (١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م).

قاسم : أحمد .

أحباس العثمانيين الأوائل بتونس وجمعية الأوقاف والإنزال، (المجلة

التاريخية المغربية، زغوان (تونس)، ع ٣٧ - ٣٨، س ٥ ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م) .

مدينة تونس في العهد العثماني من خلال الوثائق، (المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، زغوان (تونس)، ع ٩، ١٠، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م) .

الوقف في تونس في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، بحث في كتاب: المعهد الفرنسي للدراسات العربية، الوقف في العالم الإسلامي، - أداة سلطة اجتماعية وسياسية - (منشورات المعهد، دمشق ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م).

مرسي : أحمد .

شريف مكة بين قوتين، (مجلة الدارة، الرياض، ع ١٤، س ٢، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م) .

المرسي : الصفصافي أحمد .

الدولة العثمانية والولايات العربية، (مجلة الدارة، الرياض، ع ٤، س ٢، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م) .

المهندس : أحمد عبدالقادر .

سكة حديد الحجاز - رحلة في الزمان والمكان، (مجلة الدارة، الرياض، ع ٢، س ١٣، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م) .

سادساً - الدوريات :

- **الحاضرة، تونس،** (١٣٠٠ هـ / ١٨٨٣م)، (١٣٠٧ هـ / ١٨٩٠م)، (١٣١٠ هـ / ١٨٩٢م)، (١٣١١هـ / ١٨٩٤م)، (١٣١٢هـ / ١٨٩٥م).

- الترقي، تونس، (أسبوعية)، (١٣٣٨هـ / ١٩٠٥م).
- الزهرة، تونس، (١٣٠٨ هـ / ١٨٩١م)، (١٣١٠هـ / ١٨٩٢م).
- الصواب، تونس، (١٣٣٨هـ / ١٩٢٠م).
- العالم الإسلامي، مكة المكرمة، (١٤١٨هـ / ١٩٩٧م).
- القبلة، مكة المكرمة، (١٣٧٧هـ / ١٩١٩م)، (١٣٤٢هـ / ١٩٢٣م).



المحتــويـــات

الموضوع **الصفحة**

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة



إصدارات دارة الملك عبدالعزيز

١- **فهارس كتاب عنوان المجد في تاريخ نجد** ، السيد أحمد مرسي عباس ، ١٣٩٥هـ .

٢- **لمع الشهاب في سيرة الشيخ محمد بن عبدالوهاب** ، تحقيق الشيخ عبدالرحمن بن عبداللطيف آل الشيخ ، ١٣٩٥هـ .

٣- **سلسلة قادة الجزيرة** - قال الجد لأحفاده، عبدالوهاب فتال. (د. ت) .

٤- **سعود الكبير - الإمام سعود بن عبدالعزيز**، عبدالوهاب فتال. (د. ت).

٥- **عثمان بن عبدالرحمن المضايفي - عهد سعود الكبير** ، عبدالوهاب فتال. (د. ت) .

٦- **الإمام القائد عبدالعزيز بن محمد بن سعود** ، عبدالوهاب فتال. (د. ت).

٧- **هذا هو كتاب سيرة الإمام الشيخ محمد بن عبدالوهاب** ، أمين سعيد ، ١٣٩٥هـ .

٨- **المرأة : كيف عاملها الإسلام** ، الشيخ حسن بن عبدالله آل الشيخ. (د. ت) .

٩- **الإصلاح الاجتماعي في عهد الملك عبدالعزيز** ، د. عبدالفتاح أبو علية، ١٣٩٦هـ .

١٠- **العرب بين الإرهاص والمعجزة** ، محمد حسين زيدان ، ١٣٩٧هـ .

١١- **بنو هلال بين الأسطورة والحقيقة** ، محمد حسين زيدان ، ١٣٩٧هـ .

١٢- **رحلات الأوروبيين إلى نجد وشبه الجزيرة العربية** ، محمد حسين زيدان ، ١٣٩٧هـ .

١٣- **الملك الشهيد فيصل بن عبدالعزيز ودعوة التضامن الإسلامي** ، مناع القطان، ١٣٩٦هـ .

١٤- **انتشار دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب خارج الجزيرة العربية** ، محمد كمال جمعة، ١٣٩٧هـ.

١٥- **أضواء حول الإستراتيجية العسكرية للملك عبدالعزيز وحروبه** ، محمد إبراهيم رحمو ، ط٢، ١٣٩٨هـ .

١٦- **تاريخ الدولة السعودية** ، أمين سعيد ، ١٤٠١هـ .

١٧- **مكة في عصر ما قبل الإسلام** ، السيد أحمد أبو الفضل عوض الله ، ١٣٩١هـ .

١٨- **الأطلس التاريخي للدولة السعودية** ، إبراهيم جمعة ، ١٣٩٩هـ .

١٩- **أمجاد الرياض في حياة المغفور له جلالة الملك عبدالعزيز** ، شعر محمد العيد الخطراوي، ١٣٩٤هـ (أسهمت الدارة في طباعته) .

٢٠- **محمد بن عثيمين شاعر الملك عبدالعزيز** ، السيد أحمد أبو الفضل عوض الله ، ١٣٩٩هـ

٢١- **مثير الوجد في أنساب ملوك نجد** ، تأليف راشد بن علي الحنبلي ، تحقيق : عبدالواحد

محمد راغب ، ١٣٩٩هـ .

٢٢- **دليل الدوريات بالمكتبة** ، دارة الملك عبدالعزيز ، ١٤٠١هـ .

٢٣- **دليل الوثائق العربية بدارة الملك عبدالعزيز** ، دارة الملك عبدالعزيز ، ١٤٠١هـ .

٢٤- **دليل الوثائق التركية الخاصة بالجزيرة العربية** ، دارة الملك عبدالعزيز ، ١٤٠١هـ .

٢٥- **قائمة ببليوجرافية مختارة من مكتبة دارة الملك عبدالعزيز عن الجزيرة العربية**، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٠١هـ .

٢٦- **دليل دارة الملك عبدالعزيز** ، دارة الملك عبدالعزيز ، ١٤٠٩هـ .

٢٧- **أعمال الحلقة الخامسة للمراكز والهيئات العلميّة المهتمة بدراسات الخليج والجزيرة العربية** ، دارة الملك عبدالعزيز ، ١٤٠١هـ .

٢٨- **دراسات في الجغرافية الاقتصادية "المملكة العربية السعودية والبحرين"**، د. أحمد رمضان شقلية، ١٤٠٢هـ .

٢٩- **الكتاب السنوي الأول للأمانة العامة للمراكز والهيئات العلمية المهتمة بدراسات الخليج العربي والجزيرة العربية**، دارة الملك عبدالعزيز ، ١٤٠١هـ.

٣٠- **الأمثال العامية في نجد " ٥ أجزاء "** ، محمد بن ناصر العبودي " أسهمت الدارة في طباعته " ، ١٣٩٩هـ .

٣١- **حالة الأمن في عهد الملك عبدالعزيز**، رابح لطفي جمعة، ١٤٠٢هـ.

٣٢- **الملك فيصل والقضية الفلسطينية** ، د. السيد عليوة ، ١٤٠٢هـ .

٣٣- **علاقة ساحل عمان ببريطانيا " دراسة وثائقية "** ، د. عبدالعزيز عبدالغني إبراهيم ، ١٤٠٢هـ .

٣٤- **سياسة الأمن لحكومة الهند في الخليج العربي** ،د.عبدالعزيز عبدالغني إبراهيم، ١٤٠٢هـ .

٣٥- **عنوان المجد في تاريخ نجد (جزءان)**، تأليف عثمان بن بشر، تحقيق : عبدالرحمن بن عبداللطيف آل الشيخ ، ١٤٠٢هـ .

٣٦- **المرافئ الطبيعيّة على الساحل السعودي الغربي "دراسة مقارنة تطبيقية"**، د. محمد أحمد الرويثي ، ١٤٠٣هـ .

٣٧- **السكان وتنمية الموانئ السعودية على البحر الأحمر** ، د. محمد أحمد الرويثي ، ١٤٠٢هـ .

٣٨- **كيف كان ظهور شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب**، لمؤلف مجهول، تحقيق: أ.د. عبدالله العثيمين، ١٤٠٣هـ .

٣٩- **النفوذ البرتغالي في الخليج العربي في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي**، نوال حمزة الصيرفي (سلسلة الرسائل الجامعية - ١)، ١٤٠٣هـ .

٤٠- **بلاد الحجاز منذ عهد الأشراف حتى سقوط الخلافة العباسية في بغداد**، د.سليمان عبدالغني مالكي (سلسلة الرسائل الجامعية - ٢)، ١٤٠٣هـ .

٤١- **العلاقات بين نجد والكويت ١٣١٩- ١٣٤١هـ** ، خالد حمود السعدون (سلسلة الرسائل الجامعية - ٣) ، ١٤٠٣هـ .

٤٢- **السمات الحضارية في شعر الأعشى : دراسة لغوية وحضارية** ، زينب عبدالعزيز العمري (سلسلة الرسائل الجامعية - ٤) ، ١٤٠٣هـ .

٤٣- **الملك عبدالعزيز في مرآة الشعر**، عبدالقدوس الأنصاري، ١٤٠٣هـ .

٤٤- **انتشار دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب خارج الجزيرة العربية**، محمد كمال جمعة، ط٢، ١٤٠١هـ .

٤٥- **الصهيونية والقضية الفلسطينية في الكونجرس الأمريكي**، د. عاصم الدسوقي ، ١٤٠٣هـ.

٤٦- **مكة في عصر ما قبل الإسلام** ، السيد أحمد أبو الفضل عوض الله ، ط٢، ١٤٠١هـ

٤٧- **أضواء حول الإستراتيجية العسكرية للملك عبدالعزيز وحروبه** ، محمد إبراهيم رحمو، ط٣ ، ١٤٠٢هـ .

٤٨- **نفح العود في سيرة دولة الشريف حمود** ، تأليف : عبدالرحمن بن أحمد البهكلي ،تحقيق: محمد بن أحمد العقيلي ، ١٤٠٢هـ .

٤٩- **فهرس مكتبة الملك عبدالعزيز آل سعود الخاصة** ، دارة الملك عبدالعزيز، ط٢ ، ١٤١٢هـ.

٥٠- **دارة الملك عبدالعزيز** : الكتيب الإعلامي الأول للدارة ، ١٣٩٨هـ .

٥١- **مرافق الحج والخدمات المدنية للحجاج في الأراضي المقدسة** ، د. سليمان عبدالغني مالكي (سلسلة الرسائل الجامعية - ٥) ، ١٤٠٨هـ .

٥٢- **النثر الأدبي في المملكة العربية السعودية ١٩٠٠- ١٩٤٥م** ، د. محمد عبدالرحمن الشامخ (أسهمت الدارة في طباعته)، ١٣٩٥هـ .

٥٣- **مدينة الرياض : دراسة في جغرافية المدن** ، د. عبدالرحمن صادق الشريف ، ١٣٩٩هـ (أسهمت الدارة في طباعته) .

٥٤- **المنهج المثالي لكتابة تاريخنا** ، محمد حسين زيدان ، ١٣٩٨هـ .

٥٥- **الدولة السعودية الثانية من ١٢٥٦- ١٣٠٩هـ** ، د. عبدالفتاح أبو علية ، ١٣٩٤هـ (أسهمت الدارة في طباعته) .

٥٦- **لوحة نسب آل سعود** ، تصميم الدكتور إبراهيم جمعة . (د.ت) .

٥٧- **جداول تحويل السنين الهجرية إلى ما يقابلها من التواريخ الميلادية** ، رتبها د. إبراهيم جمعة (د. ت) .

٥٨- **الكشاف التحليلي لمجلة الدارة ١٣٩٥- ١٤١٥هـ** ، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤١٦هـ .

٥٩- **الرحلة اليابانية إلى الجزيرة العربية ١٣٥٨هـ / ١٩٣٩م** ، تأليف إيجيرو ناكانو ، ترجمة سارة تاكا هاشي ، ط١ ، ١٤١٦هـ .

٦٠- **الرحلات الملكية** : **رحلات جلالة الملك عبدالعزيز إلى مكة المكرمة وجدة والمدينة المنورة والرياض ، المنشورة في جريدة أم القرى ١٣٤٣- ١٣٤٦هـ** ، يوسف ياسين، ١٤١٦هـ

٦١- **الحياة العلمية في نجد منذ قيام دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب وحتى نهاية الدولة السعودية الأولى** ، د. مي بنت عبدالعزيز العيسى (سلسلة الرسائل الجامعية - ٦)، ١٤١٧هـ .

٦٢- **مكتبة الملك عبدالعزيز آل سعود الخاصة** ، د. فهد بن عبدالله السماري، ١٤١٧هـ .

٦٣- **يوميات رحلة في الحجاز** ، تأليف : غلام رسول مهر ، ترجمة : د. سمير عبدالحميد إبراهيم ، ١٤١٧هـ .

٦٤- **معجم التراث (السلاح)** ، سعد بن عبدالله الجنيدل ، ١٤١٧هـ .

٦٥- **جدة خلال الفترة ١٢٨٦- ١٣٢٦هـ : دراسة تاريخية وحضارية في المصادر المعاصرة** ، صابرة مؤمن إسماعيل (سلسلة الرسائل الجامعية-٧)، ١٤١٨هـ .

٦٦- **بحوث ندوة الوثائق التاريخية في المملكة العربية السعودية خلال الفترة ١٣- ١٥ رجب١٤١٧هـ**، دارة الملك عبدالعزيز ، ١٤١٧هـ .

٦٧- **حوليات سوق حباشة الباحث في أدب الجزيرة العربية وتاريخها** ، أ.د.عبدالله بن محمد أبو داهش ، ١٤١٨هـ .

٦٨- **مشروع مسح المصادر التاريخية الوطنية المرحلة الأولى ١٤١٦ - ١٤١٧هـ** دارة الملك عبدالعزيز ، ١٤١٩هـ .
٦٩- **الملك عبدالعزيز في عيون شعراء صحيفة أم القرى (جزءان)** ، إسماعيل حسين أبو زعنونة ، ١٤١٩هـ .
٧٠- **رحلة الربيع** ، فؤاد شاكر ، ١٤١٩هـ .
٧١- **فجر الرياض** ، عبدالواحد محمد راغب ، ١٤١٩هـ .
٧٢- **معجم مدينة الرياض** ، خالد بن أحمد السليمان ، ١٤١٩هـ .
٧٣- **الرحلة اليابانية إلى الجزيرة العربية** ، تأليف إيجيرو ناكانو ، ترجمة : سارة تاكاهاشي، ط٢ ، ١٤١٩هـ .
٧٤- **رحلة داخل الجزيرة العربية** ، يوليوس أويتنج ، ١٤١٩هـ .
٧٥- **الملك عبدالعزيز في مجلة الفتح (قائمة ببليوجرافية)** ، د. فهد بن عبدالله السماري ، ود. محمد بن عبدالرحمن الربيع ، ١٤١٩هـ .
٧٦- **الملك ابن سعود والجزيرة العربية الناهضة** ، د. فان درمولين ، ١٤١٩هـ.
٧٧- **الرحلات الملكية : رحلات جلالة الملك عبدالعزيز - رحمه الله - إلى مكة المكرمة وجدة والمدينة المنورة والرياض ، المنشورة في جريدة أم القرى ١٣٤٣ - ١٣٤٦هـ** ،يوسف ياسين. ط٢ ١٤١٩هـ .
٧٨- **خصائص التراث العمراني في المملكة العربية السعودية (منطقة نجد)**، د.محمد بن عبدالله النويصر ، ١٤١٩هـ .
٧٩- **مختارات من الخطب الملكية (جزءان)** ، دارة الملك عبدالعزيز ، ١٤١٩هـ .
٨٠- **نساء شهيرات من نجد** ، د. دلال بنت مخلد الحربي ، ١٤١٩هـ .
٨١- **مثير الوجد في أنساب ملوك نجد** ، تأليف راشد بن علي الحنبلي، تحقيق: عبدالواحد محمد راغب . ط٢ ، ١٤١٩هـ .
٨٢- **إمتاع السامر بتكملة متعة الناظر** ، تأليف شعيب بن عبدالحميد الدوسري، تحقيق عبدالرحمن بن سليمان الرويشد، ومحمد بن عبدالله الحميد ، ١٤١٩هـ .
٨٣- **صفحات من تاريخ مكة المكرمة (جزءان)** ، تأليف ك. سنوك هورخرونيه نقله إلى العربية د. علي عودة الشيوخ ، ١٤١٩هـ .
٨٤- **لماذا أحببت ابن سعود،** محمد أمين التميمي ، ١٤١٩هـ .

٨٥- **ديوان الملاحم العربية** ، محمد شوقي الأيوبي ، تعليق د. محمد بن عبدالرحمن الربيع، ١٤١٩هـ .

٨٦- **أصدقاء وذكريات . انطباعات وذكريات أمريكية عن الحياة والعمل في المملكة العربية السعودية ١٩٣٨م - ١٩٩٨م ، تحرير** د. فهد بن عبدالله السماري ، جيل أ. روبيرج، ط١ ، ١٤١٩هـ .

٨٧- **الطريق إلى الرياض : دراسة تاريخية وجغرافية لأحداث وتحركات الملك عبدالعزيز لاسترداد الرياض ١٣١٩هـ / ١٩٠١- ١٩٠٢م** ، دارة الملك عبدالعزيز ، ١٤١٩هـ .

٨٨- **الرواد : الملك عبدالعزيز ورجاله الأوفياء الذين دخلوا الرياض في الخامس من شهر شوال سنة ١٣١٩هـ** ، دارة الملك عبدالعزيز ، ١٤١٩هـ .

٨٩- **الزيارة الملكية : زيارة الملك عبدالعزيز التفقدية لشركة أرامكو ، شركة أرامكو - لجنة المؤرخين ، ترجمه وعلق عليه** د. فهد بن عبدالله السماري ، ١٤١٩هـ .

٩٠- **يوميات الرياض** : من مذكرات أحمد بن علي الكاظمي ، أحمد بن علي الكاظمي ، ١٤١٩هـ .

٩١- **الملك عبدالعزيز في الصحافة العربية** ، د. ناصر بن محمد الجهيمي ، ١٤١٩هـ .

٩٢- **رحلة استكشافية في وسط الجزيرة العربية** ، فيليب ليبنز ، ترجمة محمد محمد الحناش، ١٤١٩هـ .

٩٣- **جوانب من سياسة الملك عبدالعزيز تجاه القضايا العربية:** دراسة تحليلية من خلال أوراق نبيه العظمة ، د. خيرية قاسمية ، ١٤١٩هـ .

٩٤- **معجم الأمكنة الوارد ذكرها في صحيح البخاري** ، سعد بن جنيدل ، ١٤١٩هـ .

٩٥- **الأطلس التاريخي للمملكة العربية السعودية** ، دارة الملك عبدالعزيز ، ط١ ، ١٤١٩هـ.

٩٦- **المملكة العربية السعودية في مئة عام : معلومات موجزة** ، دارة الملك عبدالعزيز ، ١٤١٩هـ.

٩٧- **عبدالعزيز (الكتاب المصور)** ، دارة الملك عبدالعزيز ، ١٤١٩هـ .

٩٨- **أصدقاء وذكريات ، انطباعات وذكريات أمريكية عن الحياة والعمل في المملكة العربية السعودية ١٩٣٨م - ١٩٩٨م ، تحرير** د. فهد بن عبدالله السماري ، جيل أ. روبيرج، ط٢ ، ١٤٢٠هـ .

٩٩- **الكشاف التحليلي لصحيفة أم القرى** : القسم الأول ١٣٤٣هـ - ١٣٧٣هـ / ١٩٢٤م -

١٩٥٣م ، دارة الملك عبدالعزيز ، ١٤٢٠هـ .

١٠٠- **الجزيرة العربية في الخرائط الأوروبية القديمة**، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢١هـ .

١٠١- **بحوث ندوة الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية (٢٩ بحثاً) ط١** ، دارة الملك عبدالعزيز ، ١٤٢١هـ .

١٠٢- **الأطلس التاريخي للمملكة العربية السعودية**، دارة الملك عبدالعزيز، ط٢ ، ١٤٢١هـ.

١٠٣- **سلسلة وثائق المملكة العربية السعودية التاريخية - القضية الفلسطينية - ١٣٤٨- ١٣٧٣هـ**، دارة الملك عبدالعزيز ، ١٤٢٢هـ .

١٠٤- **الملك عبدالعزيز في الإنتاج الفكري العربي المنشور في عام ١٤١٩هـ**، عبدالرحمن أحمد فراج ، ١٤٢١هـ .

١٠٥- **مؤتمر فلسطين العربي البريطاني - المنعقد في مدينة لندن في ١٨من ذي الحجة ١٣٥٧هـ الموافق ٧ فبراير ١٩٣٩م** ، دارة الملك عبدالعزيز ، ١٤٢٢هـ .

١٠٦- **رحلة إلى بلاد العرب** ، تأليف أحمد مبروك ، تعليق د. فهد بن عبدالله السماري ، ١٤٢١هـ.

١٠٧- **محاولات التدخل الروسي في الخليج العربي** ، د. نادية بنت وليد الدوسري (سلسلة الرسائل الجامعية - ٨) . ١٤٢٢هـ .

١٠٨- **مدينة الرياض عبر أطوار التاريخ**، الشيخ حمد الجاسر ، ١٤٢٢هـ.

١٠٩- **الجيش السعودي في فلسطين** ، صالح جمال الحريري ، ١٤٢٢هـ .

١١٠- **تاريخ البلاد السعودية في دليل الخليج** ، ج.ج. لوريمر ، جمع وتعليق الدكتور محمد ابن سليمان الخضيري ، ١٤٢٢هـ .

١١١- **اللجان الشعبية لمساعدة مجاهدي فلسطين في المملكة العربية السعودية** ، عبدالرحيم محمود جاموس ، ١٤٢٢هـ .

١١٢- **الدولة العيونية في البحرين ٤٦٩- ٦٣٦هـ / ١٠٧٦- ١٢٣٨م**، د.عبدالرحمن بن مديرس المديرس (سلسلة الرسائل الجامعية - ٩)، ١٤٢٢هـ .

١١٣- **المملكة العربية السعودية في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز آل سعود / دليل موجز بأبرز الإنجازات والمواقف** ، ط١، د. فهد بن عبدالله السماري ، د. ناصر بن محمد الجهيمي، ١٤٢٢هـ.

١١٤- **" Najd Before The Salafi Reform Movement,** نجد قبل الدعوة الإصلاحية السلفية " د. عويضة بن متيريك الجهني ، ١٤٢٢هـ (باللغة الإنجليزية) .

١١٥- **" Al-Yamama in the Early Islamic Era.** اليمامة في صدر الإسلام " د.عبدالله ابن إبراهيم العسكر، ١٤٢٢هـ (باللغة الإنجليزية).

١١٦- **التحليق إلى البيت العتيق** ، د. عبدالهادي التازي . (سلسلة كتاب الدارة -١)، ١٤٢٢هـ.

١١٧- **الوثائق التاريخية لوزارة المعارف في عهد وزيرها الأول خادم الحرمين الشريفين الملك فهد ابن عبدالعزيز آل سعود ١٣٧٣- ١٣٨٠هـ** ، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٣هـ .

١١٨- **الإقناع لطالب الانتفاع (أربعة أجزاء)**، أبو النجا الحجاوي المقدسي، ١٤٢٣هـ .

١١٩- **جامع العلوم والحكم (جزءان)** ، ابن رجب ، ١٤٢٣هـ .

١٢٠- **خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز آل سعود** : خطب وكلمات، دارة الملك عبدالعزيز ، ١٤٢٣هـ .

١٢١- **معجم ما ألف عن الحج** ، د. عبدالعزيز بن راشد السنيدي ، ١٤٢٣هـ.

١٢٢- **برنامج المحافظة على المواد التاريخية**، دارة الملك عبدالعزيز ، مكتبة الكونغرس ، ١٤٢٣هـ .

١٢٣- **مبادئ العناية بمواد المكتبة والتعامل معها** ، جمع وتحرير إدوارد. ب. أدكوك، ترجمة د. عبدالعزيز بن محمد المسفر، د. فؤاد حمد فرسوني ، ١٤٢٣هـ .

١٢٤- **العلاقات السعودية المصرية في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز آل سعود** : بحوث ودراسات ألقيت في الندوة التي عقدتها دارة الملك عبدالعزيز بالتعاون مع مؤسسة الأهرام ، القاهرة (١/ ١٢/ ١٤٢٢هـ) ، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٣هـ .

١٢٥- **علم القراءات : نشأته ، أطواره ، أثره في العلوم الشرعية** ، د. نبيل بن محمد آل إسماعيل ، ط٢ ، ١٤٢٣هـ .

١٢٦- **المملكة العربية السعودية في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز آل سعود/ دليل موجز بأبرز الإنجازات والمواقف** ، د. فهد بن عبدالله السماري ، د. ناصر بن محمد الجهيمي ط٢ ، ١٤٢٣هـ .

١٢٧- **مستخلصات بحوث مجلة الدارة** ، دارة الملك عبدالعزيز (جزءان) ، ١٤٢٣هـ .

١٢٨- **الزيارات الخارجية لخادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز آل سعود**، نايف بن علي السنيد الشراري ، ١٤٢٣هـ .
١٢٩- **موقف المملكة العربية السعودية من القضية الفلسطينية (١٩٢٦- ١٩٤٨م)**، د.حسان حلاق (سلسلة كتاب الدارة - ٢) ١٤٢٣هـ.
١٣٠- **مواقف خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز آل سعود تجاه قضية فلسطين** ، د. عبدالفتاح حسن أبو علية ، ١٤٢٣هـ .
١٣١- **العلاقات السعودية اللبنانية في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز آل سعود**، دارة الملك عبدالعزيز، الجامعة اللبنانية، ١٤٢٣هـ .
١٣٢- **كلمات قضت - معجم بألفاظ اختفت من لغتنا الدارجة أو كادت** ، محمد بن ناصر العبودي (جزءان) ، ١٤٢٤هـ .
١٣٣- **الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية : بحوث ندوة الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية المنعقدة في الرياض في المدة من ٢٤-٢٧ رجب ١٤٢١هـ** ، دارة الملك عبدالعزيز ، ط٢ ، ١٤٢٤هـ.
١٣٤- **موسوعة أسماء الأماكن في المملكة العربية السعودية**، إعداد : دارة الملك عبدالعزيز وهيئة المساحة الجيولوجية السعودية ، ١٤٢٤هـ .
١٣٥- **التاريخ الشفوي ، حديث عن الماضي** ، تأليف : د. روبرت بيركس، ترجمة د. عبدالله بن إبراهيم العسكر ، ١٤٢٤هـ .
١٣٦- **الأساليب التربوية المستمدة من دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب**، د.عبدالرحمن بن علي العريني، (سلسلة كتاب الدارة - ٣) ١٤٢٤هـ .
١٣٧- **طباعة الكتب ووقفها عند الملك عبدالعزيز** ، عبدالرحمن بن عبدالله الشقير، ١٤٢٤هـ.
١٣٨- **مشروع خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز آل سعود لترميم وتجليد مكتبة الملك عبدالعزيز آل سعود الخاصة** ، دارة الملك عبدالعزيز ، ١٤٢٤هـ .
١٣٩- **المملكة العربية السعودية وحقوق الإنسان في السلم والحرب : إشارات موجزة** ، د.فهد ابن عبدالله السماري ، ١٤٢٤هـ .
١٤٠- **الأطلس المصور لمكة المكرمة والمشاعر المقدسة** ، د. معراج بن نواب مرزا ، د. عبدالله بن صالح شاووش ، ١٤٢٤هـ .

١٤١- **مختصر الأطلس التاريخي للمملكة العربية السعودية** ، دارة الملك عبدالعزيز ، ١٤٢٤هـ.

١٤٢- **المملكة العربية السعودية في مئة عام (معلومات موجزة)** ، إصدار خاص للمكفوفين بخط برايل ، طبع الكتاب بالتعاون مع وزارة المعارف ، ١٤١٩هـ .

١٤٣- **تغير الأنماط السكنية في مدينة الدرعية** ، د. بدر بن عادل الفقير ، ١٤٢٦هـ .

١٤٤- **رحلة الحاج من بلد الزبير بن العوام إلى البلد الحرام** ، تأليف: سعد بن أحمد الربيعة أعده للنشر: سعود بن عبدالعزيزالربيعة، (سلسلة كتاب الدارة) ١٤٢٤هـ.

١٤٥- **الصلات الحضارية بين تونس والحجاز : دراسة في النواحي الثقافية والاقتصادية والاجتماعية (١٢٥٦- ١٣٢٦هـ)**، د. نورة بنت معجب الحامد (سلسلة الرسائل الجامعية - ١٠)، ١٤٢٦هـ .





ص.ب ٢٩٤٥ - الرياض ١١٤٦١ - المملكة العربية السعودية - هاتف ٤٠١١٩٩٩ فاكس ٤٠١٣٥٩٧
P.O.Box 2945 - Riyadh 11461 - K.S.A - Tel.: 4011999 Fax 4013597
البريد الإلكتروني E-mail: info@darah.org.sa - موقع الإنترنت www.darah.org.sa